
Bibliotheca Alexandrina
0192531



كيف نصنع

المستقبل

روجيـــه غـــارودي

كيف نصنع المستقبل

دار عطية

* كيف نصنع المستقبل
* روجيه غارودي
* الطبعة الأولى ١٩٩٨

* الناشر: دار عطية للنشر
لبنان - ضبية - حي البلانة
هاتف: ٠٣٦٢٠٣٩٩ - ص.ب: ١١٣ - ٥٧ - ٥٢
سورية - دمشق. هاتف: ٢٣٢٠٠٢٠ - ص.ب: ٢١٤٩

ROGER GARAUDY

L'AVENIR

MODE D'EMPLOI

EDITISNO VENT DU LARGE

1998

الهدف من هذا الكتاب:

إيقافُ مسيرة الفوضى

أصبح القرنُ العشرون وراءنا، بخرائبه وصحاريه.

وإذا مااستمرَّ القرنُ الواحد والعشرون في مسيرة الفوضى هذه فلن يستمرَّ مئةَ عام.

ـ ماالعمل؟

يحاول هذا الكتابُ أن يَحْمل بدايةً لجواب عن هذا السؤال: كيف يُبنى القرنُ الواحدُ والعشرون لكي لا يَقْتل أحفادنا؟.

لسنا نُسيءُ تقديرَ عِظَم المهمّة. فنحن نعيش قلقَ مرحلة تاريخية بأكملها، مرحلة اعتقد الغربُ فيها أنه يُنشيءُ الثقافةَ الوحيدة والحضارة الوحيدة، فيَفْرض على العالم سيطرته، بصفته "الشعب المختار".

ينبغي إذن أن نَعْثر على اللحظة التي حدث فيها خطأُ التحوّل، والكوارث المتتالية التي نجمت عنه: ثلاثة انشقاقات في الغرب قادتْ إلى عالم منشطر.

ألفا سنة ينبغي إعادة التفكير فيهما والفٌ ثالثٌ ينبغي بناؤه لخَلْق وحدته.

مشروعٌ جنونيٌّ! أجلْ، بيد أنه من الضروري التصدّي لهذا المشروع في اللحظة التي قادتْنا فيها "حكمةُ الحكماء" إلى شفَا الهاوية.

ينبغي أن نَعي بجافاةَ مانحن فيه للعقل، وأن نعي مايمكن أن نفعله للعثور على معنىً لحياتنا، معنىً لعالمنا.

لكن، ستقولون، ليست مهنتي أن أكون فيلسوفاً!.

ولا مهنتي أن أكون حارساً ليلياً. لكني شاهدتُ النار تشتعل في المنازل المجاورة، وشاهدتُ العاصفةَ تدفع تلك النارَ إلينا.

حينئذ، لم أشأ، وقد عشتُ كلّية القرن الملعون، أن أموت دون أن أُطلق صرخةَ التنبيه. انهضوا! افتحوا عيونكم. يجب أن تكون صافيةً لترى الأفق. ولابدّ أيضاً من الإمساك بالدفّة، وإدارة الظَهْر لليل، وعدم انتظار الظّهر للإيمان بظهور الشمس.

أولاً - مِنْ أين يأتي خطرُ الموت في القرن الواحد والعشرين؟

المشكلة المركزية لأواخر هذا القرن هي مشكلة وحدة العالم. إنه عالم مترابط، وعالم منشطر. وذلك تناقضٌ مميت.

إنه مترابط، إذ عندما يكون من الممكن عسكرياً إصابةُ أيّ هدف انطلاقاً من أية قاعدة؛ وعندما يجرّ انهيارُ الأسواق المالية في لندن وطوكيو أو نيويورك إلى أزمة بطالة في جميع أنحاء العالم؛ وعندما تكون جميعُ أشكال الثقافة أو اللاثقافة حاضرةً في جميع القارات عن طريق التلفزيون والأقمار الصناعية، فما من مشكلة يمكن أن تُحَلَّ على نحوٍ منعزلٍ ومستقلٍّ لا على مستوى الأمة، وحتى لا على مستوى القارة.

وهو منشطرٌ، فمن وجهة النظر الاقتصادية (بحسب تقرير برنامج الإنماء للأمم المتحدة عام ١٩٩٢) ٨٠٪ من موارد الكرة الأرضية يُشرف عليها ويستهلكها ٢٠٪. **إن نموَّ العالم الغربي يكلّف العالم، بسبب سوء التغذية أو الجوع، مايُعادل مَوْتى هيروشيما كلّ يومين.**

ثلاث مشكلاتٍ كبرى تبدو اليوم مستعصيةً على الحل: مشكلة الجوع، ومشكلة البطالة، ومشكلة الهجرة. أليست هذه المشكلات الثلاث مشكلةً واحدة؟ ومادام ثلاثة مليارات كائنٍ بشريّ من خمسة مليارات مُفلسةً فهل يجوز الكلام عن سوق عالمية؟ أو عن سوقٍ بين الغربيين تناسب حاجاتهم وثقافتهم وتصدِّر إلى العالَم الثالث مايفيض عنهم؟ وهل يجب التسليم بحتمية فَقْد التوازن هذا، والقبول بهذا الواقع الذي يولِّد صنوفَ الاستعباد والعنف والقوميات والأصوليات، دون أن نضع أسس الفوضى الحالية موضعَ المساءلة.

* * *

إن مرحلةً تاريخية آخذةٌ في الموت: المرحلة التي سيطر فيها، منذ خمسة قرون، الغربُ (والغربُ، في أصل اللغة، يعني البلادَ التي تغرب فيها الشمسُ).

وثمة مرحلةٌ آخذةٌ في الولادة، من حيث تشرق الشمس، من الشرق.

إن الدورة التي بدأت في النهضة، كانت تصل بمنطق تطورها، إلى نهايتها، من جرّاء سيطرة واحد وحده، كما يقع لجميع النّهايين: من الامبراطورية الرومانية إلى امبراطورية نابليون أو هتلر، ومن امبراطورية "شارل كنت" أو الامبراطورية البريطانية، فجميع هؤلاء اعتقدوا أن أساطيلهم لا تُقهَر وأن هيمنتهم أبدية.

واليوم، يمكن للمهتمين بالجغرافية السياسية في الأجهزة الخاصة الأميركية، هم وأسيادهم وحدهم، أن يحاولوا طَمْس الواقع العميق لنهاية الألف هذه: نحن شهودُ انحطاط آخر امبراطورية واحتضارها.

كيف يتميز، موضوعياً، هذا الانحطاط؟ إن الحدثَ الأكثر دلالة في هذا الشطر الثاني من القرن العشرين ليس تفجر الاتحاد السوفييتي، الذي لم يَصُنْ الاشتراكية والماركسية، وإنما هو إفلاس الرأسمالية بعد سيطرتها خمس مئة عام على عالم تقوده اليوم نحو الانتحار الكوني، إذا لم توقف الجريَ إلى الموت.

لماذا؟

لأن رأس المال الذي جمعته أولاً خمسةُ قرون من اللصوصية الاستعمارية، والذي قُصِر بعد ذلك على التوظيف في البلاد الشديدة التصنيع من أوروبا الطاعنة في السن، قد أصبح رأسَ مالٍ مضارباً أي طفيلياً خالصاً، حتى وإن خلقَ في أوروبا، بالإعلان وبالتسويق، الحاجاتِ الأشد اصطناعاً وإيذاءً، وكان، في أصوله خلاّقاً حين وُظّف في مشروعات إنتاجية أو مشروعات خدمات حقيقية.

لم يعد المالُ يُستخدَم لخلق السلع وإنما لخلق المال.

لقد أظهر "موريس آليه"، (الحائز على جائزة نوبل في الاقتصاد) معتمداً على معطيات البنك الدولي للإنماء، أن التدفق المالي المتناسب مع المضاربات في الأسواق المالية على العملات الصعبة والمواد الأولية أو المنتوجات المشتقة (التأمين على أخطار المضاربات)، هو اليوم أعلى أربعين مرة من التوظيفات والمعاملات التجارية المتناسبة مع الاقتصاد الواقعي، أي مع إنتاج السلع

والخدمات. وبلغة بسيطة: إن الربح الذي يتم بالمضاربة يفوق أربعين مرة الربح الذي يتم بالعمل (شريطة امتلاك الضمانات المصرفية أو الوسائل المالية).

لا يمكن أن يكون هناك معيارٌ موضوعي للانحطاط أفضل من هذا: إن العمل الخلاق لم يعد يُستخدم لتطوير الإنسان، جميع الناس، وإنما يُستخدَم لانتفاخ الفقاعة المالية لأقلية طفيفة لا غايةَ لها إلا تنمية هذه الفقاعة. ولم تعد تُطرَح مشكلاتُ معنى العمل والإبداع والحياة.

بل إن معنى الكلمات ذاته قد حُرِّف. فما تزال تُطلَقُ كلمة "تقدّم" على ذلك الانحراف الأعمى الذي يقود إلى تدمير الطبيعة والإنسان.

وتُطلَق "الديموقراطية" على أرهب قطيعة عرفها التاريخ بين الذين يملكون والذين لا يملكون.

وتُطلق "الحريةُ" على نظام يسمح، بحجة "حرية التبادل" و"حرية السوق"، للأكثرين قوة أن يفرضوا أعتى الدكتاتوريات الخالية من الإنسانية: الدكتاتورية التي تُتيح لهم افتراس الأكثرين ضعفاً.

وتُطلق "العولمةُ" لا على الحركة التي تُفضي إلى وحدة سمفونية للعالم، بمشاركة جميع الثقافات، بل هي على العكس، تُفضي إلى انقسام متزايد بين الشمال والجنوب ناجم عن وحدة امبراطورية، مسوِّية، مدمِّرة لتنوّع الحضارات وإسهاماتها، وذلك لفرض ثقافة الطامعين في السيطرة على كوكب الأرض[1]

ويُطلق "الإنماءُ" على نموٍّ اقتصادي، لا غاية له، يُنتج على نحو متسارع أيَّ شيء: نافع وغير نافع، ومؤذ بل مُميت، كالأسلحة أو المخدرات، لا على إنماء الإمكانات البشرية، المبدعة، إمكانات الإنسان، كل إنسان.

في مثل هذا "اللا معنى" تندرج على نحو متبادل بطالةُ البعض الذين لم يعد في مقدورهم أن يُنتجوا لأن ثلثي العالم لم يعد في مقدوره أن يَستهلك، حتى من

[1] انظر كتابي: أمريكا طليعة الانحطاط. مطبوعات Vent du Large:
ترجم إلى اللغة العربية. صدر عن دار عطية للنشر. لبنان عام ١٩٩٨.

أجل بقائهم على قيد الحياة. أما هجرة الأكثرين حرماناً فهي العبورُ من عالم الجوع إلى عالم البطالة والاستبعاد.

لقد ارتُكب خطأ التوجيه منذ خمسة قرون عندما وُلدت، مع الجوع إلى الذهب ومع نشوة التقنية من أجل التقنية، من أجل السيطرة على الطبيعة والناس، عندما وُلدت حياةٌ بلا هدف، هي عبادة حقيقية للوسائل، عبادةٌ بلغت اليوم مُنتهاها: وحدانية السوق التي خلقتْ استقطاباً متزايداً للثروة المضاربة، إن لم تكن ثروة "المافيا"، ثروة الأقلية، ولبؤس الجماهير.

* * *

مايزال في الوقت متسعٌ للحياة، لكن مقابل انقلاب كبير. إن سادة فوضانا الموقّتة لا يحدثوننا إلا عن "تكيّفنا"، (أي عن خضوعنا) مع هذه الانحرافات لعالم بلا إنسان، وناسٍ بلا مشاريع، بلا غائية إنسانية، في حين أن نهضة الإنسانية أو مجرد استمرارها حيةً لا يتطلب التكيّف مع قدر الموت ذاك، وإنما يتطلب قطيعةً جذرية معه. ولن نُفلت من الواقعية القاتلة والقَدَرية إلا بنضال الأمل.

وبدلاً من اعتبار المنطق الاقتصادي الحالي، منطق "ماستريخت" والنقد الموحّد واقتصاد السوق، وكأنه القدر، يغدو المطلوبُ هو القطيعة مع هذا المنطق، أي الانتقال من منطق المضاربة إلى منطق الإنتاج والإبداع الإنسانيين على مستوى العالم الكلي، لا على مستوى أوروبا التي كانت استعمارية بالأمس فأصبحت اليوم تابعةً، لكنها مرابيةٌ أبداً باستغلالها لديون عالم جعلته متخلفاً لمصلحة تطورها ذاته وهو تطورٌ فقدَ إنسانيته.

* * *

١) الكوكب الأرضي مريض: العالم المنشطر

إن نَمَط النمو الغربي يكلف العالم الثالث مايُعادل موتى هيروشيما كل يومين. لنكرِّرْ ذلك لأنه ينبغي أن يكون منطلقَ كل فكرٍ سياسي.

* السبب الأكبر لهذه الإدارة المفجعة للأرض هو اقتصاد سوق بلا حدود لا يهدف إلى تلبية الحاجات وإنما إلى الاستزادة القصوى من الربح، فلا يستجيب لغير الحاجات التي يمكن دفع ثمنها. هدفُه الأول دعم الأسعار بالتقليل من زراعة الحبوب، والدفع لمربّي الماشية من أجل أن ينتجوا كميةً أقل من الحليب، بتوسيع الأراضي البائرة.

* بعمل النظام ذاته يتفاقم التفاوت، حتى في البلدان الغنية. في ١٩٩١، كان ٥٪ من الأمريكيين يحتفظون بـ ٩٠٪ من الثروة القومية. وكان ثلاثة وخمسون مليوناً يعيشون فيها تحت عتبة الفقر (مايعادل ٥٠٠٠ فرنك في الشهر لأسرة من خمسة أشخاص). في الولايات المتحدة لا يسدّ طفلٌ من ثمانية جوعه.

في فرنسا ٦٪ من السكان يملكون ٥٠٪ من الثروة القومية؛ و٩٤٪ يقتسمون النصف الآخر[1].

* إن أقليةً من ٢٠٪ تملك:

- ٨٢,٧٪ من الناتج القومي الإجمالي. (أما الـ ٢٠٪ الأشد فقراً فيملكون ١,٤٪ من هذا المردود).
- ٨١,٢٪ من التجارة العالمية.
- ٩٤,٦٪ من جميع القروض التجارية.
- ٨٠,٦٪ من الادخارات.
- ٨٠,٥٪ من التوظيفات.
- ٩٤٪ من الأبحاث المتعلقة بالنمو.

(المصدر: برنامج الإنماء للأمم المتحدة (PNUD) تقرير ١٩٩١).

[1] المعطيات: الإحصائية الفرنسية.

* يعيش مليارٌ ونصف من الأشخاص في حالة فقر مطلق (أي أنهم لا يستطيعون أن يحصلوا على عدد من الحريرات يكفي لغذائهم) بأقل من دولار واحد في اليوم (الرقم من برنامج الإنماء للأمم المتحدة PNUD في ١٩٩٧).

* يموت ١٣,٥ مليون طفل تقلّ أعمارهم عن خمسة أعوام بسبب سوء التغذية أو الجوع، ١٣ مليوناً منهم في العالم الثالث. (المصدر: اليونيسيف UNICEF. تقدّم الأمم ١٩٩٣ و١٩٩٥).

* معدّل الحياة:

- ٧٦ عاماً في أمريكا الشمالية.
- ٥٣ عاماً في افريقيا.

* طبيبٌ لكل ٦٧٤ شخصاً في سويسرا

* طبيب لـ ٥٧٣٠٠ شخصاً في بوركينا فاسو.

(المصدر: DUNP. تقرير عن النموّ البشري ١٩٩٢).

الانشطار لا ينفي يتفاقم بين الشمال والجنوب

الفارق بين البلدان الفقيرة والبلدان الغنية انتقل في ثلاثين سنة من: ١ إلى ٣٠، إلى ١ إلى ١٥٠.

(المصدر DUNP ١٩٩٢).

تلك هي نتيجة ما اصطلح على تسميته: عقود النمو الثلاثة (١٩٥٠ ـــ ١٩٨٠).

* وهذا السقوط مستمرٌّ:

كان سوء التغذية يشمل ٣٣٪ من سكان العالم الثالث في ١٩٨٠، و٣٧٪ في ١٩٨٨.

(المصدر: اليونيسيف. الوضع العالمي للطفل ١٩٩٠).

المبادلات غير المتساوية

في عام ١٩٥٤ كان يكفي البرازيلي ١٤ كيساً من القهوة ليشتري من الولايات المتحدة سيارة "جيب" JEEP. وفي عام ١٩٦٢ صار يلزمه ٣٩ كيساً.

وفي عام ١٩٦٤، كان الجامايكي يشتري جراراً أمريكياً بـ (٦٨٠) طناً من السكر، وفي عام ١٩٦٨ صار يلزمه ٣٥٠٠ طن. وما تزال البلدان الفقيرة تمدّ البلدان الغنية. وقد أشار الـ PNUD (برنامج الأمم المتحدة للإنماء) إلى أن "الأرقام الإجمالية لأسعار مجموعة من ٣٣ صنفاً أساسياً (ماعدا الطاقة) قد هبطت' عملياً إلى النصف من ١٠٥ إلى ٥٧ بين عامي ١٩٨٩ و١٩٩١. وبين ١٩٨٩ و١٩٩١ هبطت أسعارُ تصدير المنتوجات الأساسية القهوة والشاي بقيمتها الحقيقية في أدنى مستوى لها منذ ١٩٥٠.

* وبين ١٩٧٠ و١٩٨٧ نَقَص الناتج القومي الإجمالي (PNB) ٩ دولارات وسطياً في البلدان النامية. وزاد ٢,٧١ في البلدان المصنّعة الغربية.

(المصدر: البنك العالمي، تقرير عن النمو العالمي ١٩٨٩. الدفتر الرابع، صفحة ١٨٨ ـ ١٨٩).

ـ البدءُ بالمستقبل هو أولاً قَلْبُ انحرافات الموت هذه بأن تُفتَح لثروات الأرض وإبداعات البشر لا آفاقُ المضاربة العقيمة وإنما آفاق التوظيف المنتج لخَلْق البنى التحتية الضرورية لنمو الإنسان، كل إنسان، على عكس التبعيات الاستعمارية وما بعد الاستعمارية التي تركز الثروة في قطب والبؤس في قطب آخر، بنسب متفاوتة على نحو شَرِس. إن "وول ستريت" نيويورك و"سيتي" لندن تستخدمان سائر العالم كمموّن رخيص لبناء بضع جزيرات من الجنان الاصطناعية، على آلاف الكيلومترات. ذلك هو بديل الحياة.

ينبغي إحلال العمل الخلاق في خدمة الجميع محلَّ المضاربة: إن هذا المشروع البروموثيوسي الذي يصوغ الأرضَ من جديد، ويحوّل ثلثي العالم، يمكنه وحده أن يُنهي بطالةَ البعض وجوع الآخرين.

ينبغي الانتهاء من قطيعة العالم بين الشمال بأقلياته المزدهرة وبين الجنوب الذي نَهبتْ ثرواته الكواسرُ المنحطة للمصارف التي تحولت إلى كازينوهات تقامر على سعر العملات الصعبة والمواد الأولية، أو المنتوجات المشتقة.

ينبغي الاستمرار في تاريخ تأنّس الإنسان بالكفّ عن صُنع أنظمة اقتصادية تزيد من التفاوتات لأن غنى البعض لا يمكن أن يُولَد إلا من إفقار الآخرين، فينشأ

هكذا عالم مشوّهٌ مكوَّن من بضع مئات من "المختارين" ومليارات من المستبعدين، وبين هذين كتلةُ الجماهير التي لا شكل لها والتي أُلزِمتْ عملاً حالياً من المعنى لتحصل، بالزيادة الكميّة للاستهلاك، على سعادة الاستمتاع بالمتاجر الكبيرة كبديلٍ لحياة غدت بلا هدف.

هل سنسمّي العالم الذي سيُولَد اشتراكية، أو نظاماً باسم آخر؟ ليست المشكلة هنا: المهم أولاً أن نقضي على الفردية النهّابة التي تُلجِىءُ إلى الاستبعاد وإلى الجوع وإلى البطالة واليأس، وإلى حياة لا أفق لها، الجمهورَ المتزايد من الكائنات البشرية التي لا تَني تتناقض إنسانيتها، والتي لا تني تتلاعب بها وسائلُ الإعلام ويُفضي بها سادةُ الفوضى إلى العدم.

هدفُنا الأولُ هو الانتقال من هذه الفردية إلى جماعة حقيقية، أي عالمية، يُحسّ فيها كلٌّ واحد أنه مسؤولٌ عن مستقبل جميع الآخرين.

النظام الحالي يَعمل باتجاه وحيد: حماية السوق الأمريكية، وفتح أسواق العالم كافةً لها.

إن تبعية أوروبا، هذه التبعية السياسية والمادية والأخلاقية أدخلتْ العالم في مرحلة جديدة من الاستعمار. لقد خلا الجوُّ لاستعمارٍ من نمط جديد بعد أن خرجت من الساحة قوةُ الشرق وأوروبا: استعمارٍ غير استعمار الامبرياليات الاوروبية المنافسة التي غدت خاضعةً، لكنه استعمارٌ مركّز وشمولي، على المستوى العالمي، بهيمنة أمريكية.

ماكان "بوش" يدعوه "النظام العالمي الجديد" هو توسيع العلاقات الاستعمارية وتعزيزها بين بلد أصلي غدا وحيداً وبين بقية العالم. والعلاقاتُ الاستعمارية تعني: التبعية الاقتصادية والعسكرية والسياسية التي تسمح للمسيطرين إما أن يجعلوا من مستعمرتهم ذيلاً لاقتصاد بلدهم، وإما أن يفرضوا قواعد التبادل والتّعرفات الجمركية الوحيدة الطرف التي تلائم مصلحة المسيطِر.

ذلك هو الهدف الذي طالما أعلنه القادةُ الأمريكيون، ولاسيما خلال السنوات الأخيرة (منذ انهيار الاتحاد السوفييتي): تأمين هيمنة الولايات المتحدة.

ماهي الوسائل المستخدمة؟

الآلية سهلة: تمنح البلدانُ الفقيرة توظيفات وقروضاً بل وهبات ـ لتساعدها، من حيث المبدأ، على التصنيع ـ وهي في الواقع تتيح لشركات الشمال المتعددة الجنسيات أن تزيد من أرباحها إذ توطد نفسها في بلدان اليدُ العاملة رخيصةٌ فيها، والبنى التحتية فيها تدفع الحكومات التابعة نفقاتها. وفي الوقت نفسه تخفّض أسعارُ المواد الأولية الآتية من هذه البلدان، فتغدو المبادلات بذلك غير متكافئة على نحو متزايد.

إن تسديد فوائد الدين يمثل أضعاف رأس المال المسلم. فكل دولار دُفع ردَّ للواهب دولارين أو ثلاثة، وتسديد الفوائد يعادل في الأغلب كلية الصادرات، مما يجعل كلَّ نمو غير ممكن. لسنا إذن بإزاء دول نامية، كما تُدعى بشكلٍ منافق، وإنما نحن بإزاء بلدان حُكِم عليها بالشقاء المتزايد من جراء التبعية المتزايدة.

والمعونة المزعومة لبلدان العالم الثالث هي أحد أنجع عوامل تراجعها.

إن التمييز إزاء العالم الثالث فيما يتصل بجميع أشكال المعونة له دلالته: فالمعونة التي تتلقاها إسرائيل، حصن الغرب المتقدم، هي بحيث أن إسرائيل التي لا يتعدى عدد سكانها واحداً من ألف من سكان العالم تتلقى عشر المعونة الكلية، أي أكثر مئة مرة بالشخص من بلدان العالم الثالث. وتصنيع بلدان العالم الثالث ونقل التكنولوجيا وسيلةٌ للسيطرة وزيادة أرباح البلدان الغنية.

آمَنُ طريقة هي إقامة دكتاتورية عسكرية. سلطة الولايات المتحدة الامبراطورية تمارَس أولاً عبر الشركات المتعددة الجنسيات. عندما اتضح تهديدُ السلطة الاشتراكية في تشيلي، اقترحتْ مذكرة من دائرة الاتصالات السلكية واللاسلكية الدولية تطبيق الضغوط الاقتصادية للوصول إلى انهيار النظام.

هذه الطريقة لا تنفي التدخل العسكري المباشر للجيش الأمريكي، كما كان الحال في غواتيمالا عام ١٩٥٤، لإنقاذ مصالح شركة الثمار المتحدة؛ وفي كوبا حيث نظّم "كينيدي"، في عام ١٩٦١، الإنزال في "خليج الخنازير"، مع الأنصار المهاجرين للدكتاتور السابق "باتيستا"؛ وفي الغويان الانجليزية، في عام ١٩٦٤، وفي جمهورية الدومينيكان عام ١٩٦٥؛ وفي غراناده وباناما، من زمن اقرب.

والأنجعُ من ذلك تسهيلُ بلوغ السلطة، في كل بلد، لدكتاتورية عسكرية: وذلك باسم المذهب الأمريكي، "الأمن القومي" ضد الشيوعية في زمن القوة السوفييتية، وبذلك يمكن أن توهَم الشعوب بأن الولايات المتحدة تدافع عن الديموقراطية والاستقلال الوطني. وهكذا تمكّن الجنرالاتُ في البرازيل من الحكم بدءاً من كاستيلو برانكو في عام ١٩٦٤ حتى "جيزيل". في عهدهم، وبعملٍ مرتبٍ لتصنيعٍ فرعوني حققته الشركات الأمريكية المتعددة الجنسيات، وبالتسلّح الذي يسمح بقمع الشعب وإرهابه، لم يكف الدَّين عن التعاظم: مثلاً، من ١٩٧٢ إلى ١٩٨٢ انتقل من ١٢ ملياراً إلى ٦٠ ملياراً من الدولارات في خمسة أعوام: "لا شيء أقدر من الدكتاتورية العسكرية على إنهاك البلد"[١].

من الدَّين الأرجنتيني البالغ ٥٤ مليار دولار، خُصِّصت عشرة مليارات للتسلح، في عهد الجنرالات. وكان تسديد الدين وشراء الأسلحة، قبل ولاية "آلان غارسيا" يمثل ٥٠٪ من الموازنة في "البيرو". وكان الرقم القياسي للدين في تشيلي في عهد الجنرال "بينوشيه" إذ بلغ ١٥٠٠ دولار دَيْن لكل فرد.

لكنّ رقماً قياسياً آخر كان لدى بينوشيه: هو الليبرالية. فقد حقق ـ كمؤمن صالح مؤتمن على الديموقراطية الأمريكية العظيمة ـ أكمل حرية لاقتصاد السوق (بما فيها سوق العملات) بنظام من الخصخصة الكلية، خالقاً بذلك الشروط المثلى لحرية الشركات المتعددة الجنسيات الأمريكية المسيطرة كي تدير اقتصاد البلاد، وذلك بالقمع الجنوني لشعبه.

وبواسطة هذه الدكتاتوريات العسكرية أصبحت التبعية الاقتصادية لأمريكا اللاتينية إزاء الولايات المتحدة أمراً لا رجوع عنه، ومع هذه التبعية الاقتصادية التبعيةُ السياسية بسبب قوة الضغط الاقتصادي على السلطات برفض القروض أو التوظيفات.

ومنذئذ استطاعت الولايات المتحدة أن تتابع غاياتها: حرية السوق، بوسائل أخرى غير الدكتاتورية العسكرية.

---

[١] سوزان جورج: "حتى العنق" مطبوعات Decouverte ص١٩.

وكان ممكناً قبولُ القادة المنتَخبين لتستبدل الفساد بالقمع: وهكذا قُبِل في السلطة قادةٌ منتَخبون مثل "كولور" في البرازيل أو "منعم" في الأرجنتين. لقد حلّوا محل الجنرالات ولم يكن يُطلَب منهم سوى تسديد ديونهم ونسيان جرائمهم.

إن سيادة صندوق النقد الدولي (I.M.F) يمكن أن تستمر إلى الأبد دون مخاطر في بلدان مقيدة بالدَّيْن، واقتصادها في أيدي الشركات الأجنبية.

إن هذا الصندوق (I.M.F) يستطيع إذن، أن يَفرض، دون عقاب، لا على العالم الثالث فقط، بل من المحتمل أن يفرض على العالم بأسره نمط "نموّ" أشد تطابقاً مع مصالح الدولة العالمية: نمو الزراعات الأحادية والإنتاج الأحادي، وتأخر الزراعات التي توفر القوت وصناعات موادها المحلية، والتبعية، والاستغلال المتزايد لليد العاملة، وتفاقم الدَّيْن من جراء الاستيراد المتزايد.

والدفاع عن "القانون الدولي" وعن "الديموقراطية" هو أيضاً من الأسماء الأخرى التي تغشّي تدخّلَ هذا الاستعمار الجديد. إن مذابح الخليج لأسطعُ مثلٍ على ذلك. فالدفاع عن الكويت هو دفاع عن "الحق" و"الديموقراطية".

الحق هو حق الأقوى: لم يكن الكويت قط دولة مستقلة حتى عام ١٩٦١. ففي هذا العام انتزعته الحكومة البريطانية من العراق تحت التهديد بالتدخل العسكري. وكان الرئيس العراقي آنذاك، اللواء قاسم، قد قرر أن يَسْحب من الغربيين الذين يتصرفون بشركة العراق البترولية IRAK Petroleum الامتيازات التي منحتهم ٩٤٪ من الأرض العراقية. وكان الانكليز بذلك يستأثرون بنصف إنتاج العراق البترولي وكل ممر للعراق إلى البحر لتصريف الباقي. ومن المؤكد أن انكلترا أدخلتْ محميَّها الأمم المتحدة لتجعل آخر اغتصاباتها الاستعمارية واقعاً لا رجعة عنه.

إن "الدفاع عن الحق" في ١٩٩٠، كانت استعادة للعملية الاستعمارية الانجليزية في عام ١٩٦١، على مستوىً أعظم بكثير، والعزم على إبقاء الوضع القائم.

هذا بعد أن صُبَّ على العراق، في أثناء الحرب، من المتفجرات مايعادل ٤ أضعاف ماألقي على هيروشيما، فقتلتْ، بحسب أدنى رقم اعتمده الصليبُ الأحمر الدولي، ٢١٠٠٠٠ شخص.

هذه هي حصيلةُ "الدفاع عن الحق الدولي" الذي يعمل باتجاه وحيد: فهو يُطبِّق مثلاً، بشراسة على ضم الكويت، وينسى ضمَّ القدس. لاشك أن القدس مدينةٌ مقدسة، لكن "الكويت سيتي" أقدس بألف مرة لأن آبار البترول تحيط بها!.

الطريقة المطبّقة في العراق، هي التدمير الهائل، ليكون أمثولةً تردع العالم الثالث بأسره، ولاسيما ايران وليبيا، وهما الدريئتان المحتملتان أكثر من غيرهما لأنهما آخر بلدين في العالم يملكان موارد بترولية ماتزال تُفلت من الإشراف الأمريكي.

وثمة طريقةٌ أقل كلفةً تُطبَّق عندما يُكتفى بتأجيج القوميات أو المواجهات العرقية أو الدينية المزعومة.

فمع انهيار الاتحاد السوفييتي اليوم، يتم تفكيكُ البلاد بطريقة تفوق مايرجوه خصومُها، وتكملها الحروب الداخلية بين الدول المحيطة بها، مثلاً بين الأرمن والأذربيجانيين، من أجل إضعاف كل دولة قريبة من منابع البترول في القوقاز، وأيضاً من أجل إعاقة المشروع الصيني "لجسر أوروبي - آسيوي"[1].

ويكفي هنا تَرْك الأمورُ تجري، وتمرير الأسلحة أو تركها تمرّ عند الاقتضاء عندما يبدو التخاذل على أحد الخصمين لكي يستمر التدمير الذاتي.

إن منظّري البنتاغون، مثل "صموئيل هنتغتون" هم دُعاةُ النداء إلى الموتى وهم يبشرون بصدام الحضارات، التناقض الأسطوري بين الحضارة اليهودية المسيحية، وبين التواطؤ الإسلامي الكونفوشيوسي.

هذه الأيديولوجيات لنهاية العالم تختفي اليوم، حتى في البلدان التي كانت موطنَها القتّاك، كما يختفي ضبابُ الأعماق عندما تضيء أشعةُ الشمس القممَ التي منها يُدعى الإنسانُ، جميعُ الناس إلى إتمام قدرهم الذي هو وحدة العالم الإلهية.

---

[1] انظر ملحق هذا الكتاب: لقد بدأ المستقبل.

لقد حاولنا أن نُبرز الخيطَ الهادي الذي يُتيح الربطَ بين المشكلات الدولية الرئيسية، بالعودة إلى سببها العميق والوحيد، وذلك بالرغم من تنوع المظاهر: الهيمنة العالمية للولايات المتحدة، ووحدة السوق التي تريد فرضها بصورة شاملة.

لقد تعبتُ من مراجعة هذه الإحصائيات وهذه التحليلات التي تُظهر التصرّف الحقيقيّ لعرقنا الغربي ونفاقه وهو يُعبّر، بعكس الواقع، ضمن أغلال "الفكر الوحيد" و"المنضبط سياسياً"، فحاولتُ أن أتباعَدَ، وأن أفِرَّ لحظةً إلى الآفاق الغريبة، وأردت أن أعلم كيف تتصرّف العروقُ الأخرى.

استغرقتُ إذن في كتاب مشهور عن علم السلالة يشرح بمهارة قواعدَ الزواج الخارجي وزواج اللّحمة في القبائل البعيدة، في المحيط الهادي وفي مناطق حوض الأمازون. لم أجدْ فيه شيئاً يمكن أن يساعدني على حل أو حتى على طَرْح مشكلات زمننا مُظهراً لي، كما فعل مثلاً "توماس مور" أو "مونتينيي" إبّان الغزو الاوروبي لأمريكا، بعد ١٤٩٢، ماكان يمكن أن يكونه "اللقاءُ الآخر"[1] كما يقول مونتيني، أو موحياً بنماذج أخرى للتطور الاجتماعي كما فعل "توماس مور"[2] باعتباره ذا معرفة تقنية بالاقتصاد والسياسة. ولم يَطُلْ بي الأمرُ حتى أغفيتُ على كتابي وحلمتُ حلماً: حلمتُ أنني أحضر مؤتمراً لعلم السلالات في العام ٢٠٥٠ (كان هذا الرقم مكتوباً على لافتة صغيرة فوق المنصة).

كان هنديٌّ أمريكي يلقي الخطبةَ الافتتاحية. قال منذ كلماته الأولى: ".. ليس الفضل في ذلك لمزاياي الشخصية. لكني أنتمي إلى الجماعة الأولى التي كوّنتْ إحدى أعظم حضارات التاريخ، أي إحدى أندر الحضارات، حتى الآن، إذ حرّضتْ الإنسان على تكبير وجوده وتحسينه: حضارة "تاهوانتان سويو". وقد سمّاها مُدمِّروها بلغتهم: "امبراطورية انكا"، لفَرْط ماتعودوا التعارضَ بين السيد والعبد، السلطة الامبراطورية والخضوع. وكان النموذجُ عندهم، الامبراطورية الرومانية وقطعانها من العبيد حيث كانت روما تحوي ٢٠٠٠٠٠ مواطن تحتجز،

[1] انظر الملحق: "طريقٌ آخر كان ممكناً".
[2] انظر الملحق ذاته "طريق آخر كان ممكناً".

تحت العقب الحديدية لجحافلها، عشرين مليوناً من الرعايا، وتعتبر سائر الإنسانية، برابرةً، وهي حبيسة حصون التخوم.

إن ماسمّاه هؤلاء المغامرون الذين دفعتهم حمّى الذهب أمريكا كانت الأرض الأولى التي أخرّوها إلى ماقبل التاريخ.

كتب مَنْ يُدعى "كريستوف كولومبس"، وهو أول مُفسد للنفوس، إلى ملوك اسبانيا، في رسالة إلى ملك اسبانيا: "الذهبُ أثمن من جميع الخيرات... مَنْ يملكه يحصل على كل مايحتاج إليه في هذا العالم وكذلك على الوسائل لإنقاذ الأرواح من المطْهر وإرسالها ذات يوم إلى الجنة".

لقد حمل إلينا بكل بساطة الجحيم.

وهو يكرّر في يوميات السفينة أكثر من مرة: "كنتُ يقظاً وجهدتُ في أن أعرف إن كان هناك ذهب". عندما يرى العقود الذهبية على السكان الأصليين. لأن الذهب، حتى الغزو، لم يكن نقداً كما كان في أوروبا.

شأنه شأن الأرض التي لم تكن ملكاً. وعندما لم يكن يسرقها المحتلون من الذين يعملون فيها، وكانت هذه هي الحال على العموم، ولاسيما عندما كانوا يشكّون أن فيها منجماً للذهب ــ كانوا يقترحون شراءها وحينئذ كانت، كما صرح أحد الزعماء الهنود في أمريكا الشمالية: "كانت أرضنا أفضل من أي نقد... ولا يمكننا بيعُها لأنها ليست ملكاً لنا... وما دامت الشمس تسطع وما دام الماءُ يجري، فإن هذه الأرض ستظل هنا لتَهَب الناسَ والحيوانات الحياة. لا يمكننا بيع هذه الحياة، ولذلك لا يمكننا بيع هذه الأرض".

المقصودُ بالأرض كلُّ أرض: أرض جماعة القاعدة، الـ"ايلو"، التي لا تقبل التجزّؤ ولا التصرف، أرض الشمس! الموقوفة على بناء المعابد وعلى خدمة العبادة، وأرض "الإنكا" التي يُخصَّص ريعُها للأشغال الكبيرة مثل شبكة الطرق وهي أجمل مما كانت عليه الطرقاتُ الرومانية المرصوفة، كما اعترف بذلك الفاتحون المحتلون.

كتبَ أحدُ كبار شهود هذا الاحتلال، الأسقف "بارتولومي دي لاس كازاس" (١٤٨٤ - ١٥٦٦)، وهو شاهد عيان صرّح: "منذ سنوات ١٥٠٠ إنني أرى وأجوب مناطق الهنود وأعرف ماذا أكتب".

كان أولاً نَهْبُ الذهب والفضة: تكشف سجلاتُ غرفة تجارة اشبيليه أن ١٨٥ ألف طن من الذهب و١٦ مليون كيلو غرام من الفضة قد نهبتها أوروبا من عام ١٥٠٣ حتى ١٦٦٠، أوروبا نفسها التي تجرأت على الكلام عن ديون الـ"بيرو" لمصرف مفترسٍ للحياة، دُعي في عصر ماقبل التاريخ، منذ قرن: صندوق النقد الدولي.

إن الذهب والفضة المسروقَيْن من أرضنا أعطيا دفعاً عظيماً لما كانوا يدعونه: "اقتصاد السوق" (أي النظام الذي يُشترى ويباع فيه كلُّ شيء بدءاً من الأسلحة التي تقتل الأجسام حتى الضمير لقتل النفوس) الذي دعاه المغامرون من تجار اوروبا باسم مضحك هو **"النهضة"**.

هذه السرقة، على مستوى القارة، دعاه المغامرون، بعد "كولومبس"، **اكتشاف أمريكا** وكأن الأمر اكتشاف الشعوب التي كانت تزرع هذه الأرض منذ عشرة آلاف عام.

ودعاه الجنود المرتزقة: الفتح.

ودعاه كهنتهم الذين يأمرهم "بابا": التبشير بالإنجيل. ودعاه المستعمرون الحضارة، أي إدخال اقتصاد السوق.

أياً كان الاسم، فقد بدأت الأمورُ بمذبحة. وقد قدّر المؤرخون عدد السكان الهنود إبان الغزو بنحو ٥٧ مليوناً مات أكثرهم بأمراضٍ جاءت من اوروبا: الجدري، والزهري والتيفوس، وأيضاً بمجازر الحرب، وأكثرُ من ذلك بالأعمال الشاقة ولاسيما في المناجم والمزارع التي احتكرها المحتلُّ الاستعماري.

بدأت الأمور بأسر "إنكا"، عن طريق الخيانة، وتعذيبه وموته، لاغتصاب الذهب منه، ثم استرقاق الشعب كله لاستخراج الذهب. بعض الكهنة البطوليين مثل الأب مونتيسينوس، والدومينيكاني "بيدرو القرطبي"، والأسقف بارتولومي دي

لاس كازاس ندّدوا عبثاً بهذه الوحشية التي أوهمتْ الهنودَ أن الأوروبيين ليس لهم إلاّ سوى الذهب. وقد أفلح المستعمرون في طرد هؤلاء الكهنة.

وبسبب غزارة النقد الذهبي والفضّي نجح سادةُ الاقتصاد الغربي المتتابعون: البندقية قبل اسبانيا، ثم انكلترا وفرنسا، وأخيراً الولايات المتحدة، في فَرْض دينٍ على العالم، دين لم يجرؤ على التصريح باسمه وإن كان يحكم في الواقع جميعَ العلاقات الانسانية والاجتماعية والدولية أو الفردية: عنَيْتُ وحدانية السوق، أي عبادة المال.

ثمة وثيقة من ذلك العهد تحتوي على بذور هذا التطور: "اعلان يوكاي" (يوكاي بلدة صغيرة قرب "كوزكو"، في مركز طائفة الـ"إنكا")، ومؤلف هذا الاعلان الذي هو منافحةٌ لاهوتية عن النزعة الاستعمارية، نائب الملك "غارسيا دي توليدو" الذي يريد أن يُدرج الاستغلال الدموي لكنوز البيرو في خطة العناية الالهية: "وهكذا أُعطيتْ هذه الجبال من الذهب والفضة، هذه الأراضي الخصبة، أرض النعيم، لكي يكون هناك ناس، يجذبهم هذا العطر فيعزمون على الذهاب، حباً بالله، ليبشروا بالانجيل وليعمّدوهم".

ويضيف:

"ضروري جداً، **من الوجهة الأخلاقية**، أن توجد المناجم التي إن لم توجد فلن يكون في هذه الممالك ملك ولا إله".

خلال أربعة قرون عادت بلداننا الهندية الرازحة تحت النير الاستعماري للبلدان الأوروبية، وتحت نير الولايات المتحدة خلال الـ/٦٠/ السنة الأخيرة، إلى أدغال ماقبل التاريخ الحيوانية. وعلى مشارف العام ٢٠٠٠، وبعد أن عانت بلادنا تدمير ثقافاتنا، وقتل ٩٠٪ من شعوبنا (أكبر إبادة جماعية في التاريخ لشعب من الشعوب) أصبح بلدي الذي كان غناه أسطورياً (جاء وقتٌ كانت عبارة: "هذه هي (البيرو)" مرادفة للرخاء) مادُعي، نحو أواخر زمن ماقبل التاريخ (نحو ١٩٨٠ ـ ٢٠٠٠) بلداً متخلفاً. وبذلك يميَّز عن البلدان المتطورة (سبعة منها) التي خلف نموُّها تخلفنا، لا بالنهب الأولي لثرواتنا ولكن بتدمير بنى اقتصادنا الذي شوِّه فغدا ذيلاً لتلك البلدان المتطورة. بعض المتاجرين المحليين الذين أثْروا بتعاونهم مع مستعمري أوروبا

ثـم مع الولايات الـمتحدة نجحوا، بمساندة أسيادهم، أن يصبحوا عبيداً من الدرجـة الاولى، وأصبحت جماهير شعبنا، وهي تحاول تقليد أسيادها، شعباً من القرود.

بين يديّ هنا، لأختتم حديثي، مستندٌ قديم هو إحدى أواخر شهادات ماقبل التاريخ، وتُدعى "حالة العالـم" في ١٩٩٥، وهي تلخص ببساطة مأتـم "البيرو" الإنساني. ودونك ماآل إليه "تاهوانتان سويد" بعد خمسة قرون من الدمج بالحضارة الغربية: ٧٦٪ من السكان هم ضحية ماكان يُدعى آنذاك البطالة، أي الحرمـان من العمل ومن كـل حياة اجتـماعية. وكـان ثلثا الشعب يعيش تحت عتبة الفقر. وأُهمِلتْ الزراعة فـأُكره الفلاحـون، لكـي يستـمروا على قيـد الحيـاة، أن يزرعـوا "الكوكـا"، أي الـمادة الأولية للكوكـايين، (الـمخدر الـذي كـانت الولايـات الـمتحدة أكبر وأغنى زُبُنه) لأن زراعة القهوة والكاكاو كان مردودهما أقل بثلاث مرات ولا يتيح لهم الحياة.

الهكتار الـمزروع بالكوكا يمكن أن يعطي مالكـه ١٢٠٠ دولار على الأقل كل عام، وأحياناً أكثر من ذلك بكثير. وعلى سبيل الـمقارنة، كـان معدل الأجـر السنوي لعـامل الـمنجم ٨٢٧ دولاراً؛ ومعدل أجـر العـامل ٦٤٩ دولاراً؛ وربـح الفلاح غير الـمنتج للكوكا ١٥٠ دولاراً.

وهكذا أتاح هذا الإنتاج تدفق دولارات الـمخدرات، واستطاع الـمستفيدون من هذه التجارة الذين تدعمهم سرايا الـموت (والذين تـموّلهم وتنشئهم في مدرسة أمريكا الولايات الـمتحدة) أن يستولوا على السلطة بالإرهاب.

وهكذا أصبحت "البيرو" تلـميذاً من أطوع تلاميذ صندوق النقد الدولي الذي كان يقرضها الـمال الضروري لبقاء جهاز الدولة حيـاً شـريطة أن يراعي الشـروط السياسية لتسديد الدين (٦٠ مليوناً من الدولارات شـهرياً في عـام ١٩٩٤): وَقْـف ارتفاع الأجور والحماية الاجتـماعية، حرية الأسعار، خصخصـة الـمشاريع، حتـى الـمشاريع التي تقوم بوظائف اجتـماعية (بدءاً من النقل والـمشافي إلى التربية). باب واحد من الـميزانية لـم يخضع لهذه الشروط هو ميزانية القمـع على أيـدي الشـرطة والجيش.

وهكذا استطاعت الولايات المتحدة أن تُبقي في السلطة دميةً من دُماها كما هي الحال في أمريكا الوسطى والجنوبية، حاكمةً بالفساد وبالإرهاب شعباً مشرفاً على الموت. هذه هي الآلية التي بها اقتيدت' إحدى أُمع حضارات العالم إلى ماقبل التاريخ الحيواني للإنسان، من جرّاء خمسة قرون من الاستعمار الأوروبي ونصف قرن من سيطرة الولايات المتحدة. ولم يعدْ هذا الشعب إلى المشاركة في تأنّس الإنسان وإلى الخروج من عالم ماقبل التاريخ الذي أُغرِق فيه ثانية إلا بدءاً من النصف الأول من القرن الواحد والعشرين، بعد الانهيار الاقتصادي للولايات المتحدة التي فقدت مليارين من زُبُنها بمقاطعة صادراتها، وهي المقاطعة التي نظمها مايدعوه تاريخنا "باندونغ الجديدة"، واستئناف الإنسانية سيرَها نحو عالم إنساني وإلهي على نحوٍ لا يتجزأ[1].

* * *

بعد هذا التقرير الافتتاحي عن الدين السائد بين قبائل الغرب فيما بين ١٩٨٠ ـ ٢٠٠٠: وحدانية السوق، جاء تقريرٌ ثانٍ عن تقنيات الجشع في عالم ماقبل التاريخ على مشارف العام (٢٠٠٠).

قدّم التقرير شابٌ صيني لابد أن أجداده كانوا بوذيين إذا ماحكمنا على ذلك بالتراجع التاريخي الذي كان يحلل به ماكان يُدعى في القرن الفائت (وهو القرن العشرون) "النموّ". ذكّر أولاً أن تطور الإنسان، في ثقافته التقليدية، كان يقوم على السيطرة على رغبته. وأحياناً على إطفاء هذه الرغبة ذاتها. وشرح كيف أن تطور الإنسان قد تحول: إذ أصبح المطلوب تحريضَ الرغبة أو حتى خلق الرغبة. وذكّر أن سفسطائيي أثينا الكلاسيكيين كانوا يقولون إن الخير هو أن نملك أقوى الرغبات الممكنة وأن نجد الوسائل لإشباعها. وأضاف أن نظام النمو في أزمنة ماقبل التاريخ، بين ١٩٨٠ و٢٠٠٠ مايزال يستند إلى مفهوم السفسطائيين هذا. لقد درس طويلاً تقنيةَ الجشع هذه التي دعاها تقنية الإعلان والتسويق، أي التقنية

[1] هذه نبوءة غارودي. والكاتب يتكلم عن المستقبل وكأنه صار ماضياً. المترجم

الصالحة لخلق حاجات اصطناعية مغايرة تفسح المجال واسعاً لعمل الشركات المتعددة الجنسيات على كوكب الأرض بأسره.

هذه التقنية نالت سلطة العقيدة الدينية واحترامها. وهي لازمة من لوازم وحدانية السوق التي ذكرها الخطيب السابق، ودين إله حقي يسيطر بين جميع هذه القبائل المتحاربة في الغرب، وهو يُدعى "النمو". كان إلهاً قاسياً، إلهاً يتطلب التضحيات البشرية. (وقد حفظتُ تعريفه للنمو. قال: "هو نظامٌ الجوهريٌّ فيه أن يُنتَج فيه على نحو متزايد ومتسارع أيُّ شيء سواء أكان مفيداً أم غير مفيد، ضاراً بل ومميتاً". وضَرَب عدداً من الأمثلة، فقال: "وسط هذا التجمد الإنساني، أي حوالي ١٩٨٠ إلى ٢٠٠٠، كان يُنفَق نحو ٤٥٠ مليار دولار على التسلح كلَّ عام، مما أدى إلى هذه النتيجة، اللافتة للنظر تقنياً، وهي أن هناك ثلاثة أطنان من المتفجرات تقريباً توضَع فوق رأس كل ساكن من سكان الأرض". وأضاف أن هذا النظام كان يَقتل حتى دون حرب "إذ ان ٤٥ مليوناً من الناس ماتوا من الجوع في هذا العالم وسط هذا التجلد البشري..." كما قال. واستنتج النتيجة التالية من نظام الغرب القَبَلي وهي أن هناك علامةً واضحةً على التراجع العقلي.

كان يهتم بالمظهر الشعائري لدين النمو هذا، وعلى الخصوص، بدراسة حول تربية الطبقة الكهنوتية لدين النمو، أي التكنوقراطيين. لقد كان موضوعياً جداً، لأنه قال: "عندما يُخَبِّ الغنيُّ يُدعى خبيراً، وعندما لا يُخَبِّ يُدعى تكنوقراطياً". كما أعطى بالمقابل هذا التعريف الآخر: "إني أدعو الإنسان الذي دُرِّب بحيث لا يطرح أبداً مسألة الغايات، ويطرح دائماً مسألة الوسائل إنساناً تكنوقراطياً؛ إنه لا يطرح مسألة "لماذا" ويطرح دائماً مسألة "كيف".

ومن الواضح، بالنسبة إليه، أن نجاحات عظيمة قد أُحرِزَتْ في هذا المضمار. ومنذئذ طُرِحَتْ مشكلةُ التربية على النحو التالي: "كيفَ تُدرَّب هذه الطبقة الكهنوتية؟ والواقع أن نظام التربية العليا كان قائماً بشكل جلي على ذلك. ولابد أن يكون ذلك الرجل، فيما أعتقد، عالماً من علماء الأحياء أصلاً، لأنه كان يوضح أن التربية العليا في هذه الميادين لم تكن تُطوِّر سوى الدماغ "الزواحفي".

عند هذه النقطة من خطابه طلب مستمع افريقي أن يمثّل لحديثه بأمثلة انطلاقاً من تجربة ثقافته السوداء الخاصة.

ذكر أن حدّادي "ديولاس دي باس كازامنسه" قد ابتكروا، قبل غزو برابرة الشمال (البرابرة الشقر) لافريقيا، نظاماً يقضي بوضع قاعدة معدنية للمجرفة الخشبية القديمة، وأنهم طلبوا، قبل أن يطبقوا هذا الابتكار أن يُدعى "مجلس القدامى" لمعرفة نوع الاختلال الذي سيجره هذا الابتكار الجديد في علاقاتهم مع الطبيعة ومع المجتمع. ألن يَمْنح ذلك الابتكارُ الحدادين هيمنةً في الجماعة؟ فيُعدّل بذلك العلاقات بين الناس؟ وأضاف أنه كان يمكن أن تُطرَح مثل هذه الأسئلة في الغرب عندما اخترعت الطاقة النووية. ومن المؤسف أن ذلك لم يُفْعل.

تابع الصينيُّ عَرْضَه بعد أن شكر السينيغالي على هذا التمثيل المحسوس لحديثه.

بعد هذه العقيدة الأولى وهي الإنتاج المتزايد والمتسارع لأي شيء، كانت العقيدة الثانية كما قال، هي التقدم. وقد عرّفه بهذا التعريف الذي أنقله إليكم: "التقدم هو الفعالية المتعاظمة في فن تدمير الطبيعة والناس". وضَرَب هذا المثال: "عندما استولى تيمورلنك على أصفهان قَتَل سبعين ألفاً من سكانها. وبما أنه قرر أن يبني أهرامات من الجماجم فقد قضى عدة أيام ليحقق هذا المشروع. بيد أن هذا المشروع قد تحقق في هيروشيما، في مدى سبع ثوان.

وقال: العالم يملك اليوم مايعادل أكثر من مليون قنبلة هيروشيما. أي مايكفي لتدمير ٧٥ مليار إنسان، خمسة عشر ضعفاً لما هو موجود. ولا يقف التقدمُ!.

* * *

التقرير التالي قدّمه رجلٌ من أصلٍ عربي إسلامي كما يبدو في الظاهر، لأنه بيّن بوضوح الفرقَ بين الحضارة الفرديةِ التي يكون فيها الإنسان، من حيث هو فرد وأمة، مركز جميع الأشياء ومقياسها، وبين الجماعة الإنسانية الحقيقية التي يعي فيها كلُّ مشارك أنه مسؤول عن مصير جميع الآخرين.

كانت مداخلته بعنوان: "العقبات في وجه حوار الثقافات في عصر ماقبل التاريخ (أي حوالي العام ٢٠٠٠).

عرّف أولاً النظرة الغربية للعالم بهذه المسلمة الأساسية وهي: "لا يوجد سوى مسار واحد للتطور الإنساني، هو مسار الغرب، وينبغي أن يُحدَّد موقعُ جميع الشعوب بالنسبة إليه. فهي متطورة أن شابهت الغرب، وهي متخلفة إن كان الشبهُ به أقل".

وهنا أيضاً، طلب مستمعٌ أوروبي، على مايبدو، واعٍ لأخطاء الماضي الغربي، أن يوضح الدور الذي لعبه أحدُ الأوروبيين في هذا المنظور الوهمي. فشرح: "أشهر المستشرقين، (سلفستر دي ساسي)، هو الذي عرّف (غوته) بحضارات الشرق، وهو الذي حرر بيانات بونابرت لدى غزوه مصر وبيانات الجنرال (دي بورمون) لدى غزوه الجزائر).

كان له مكتبه في الـ"كي دورسيه"، إضافة إلى كرسيه في "الكوليج دي فرانس".

وكان "ماكس مولر"، أحد أهم علماء الاستشراق التقليدي، يُلقي في "كمبردج" دروساً لتكوين الإداريين الانجليز في الهند.. وكتبتْ السيدة "روث بينيديكت" كتابها عن اليابان: "السيف والأقحوان" بناءً على طلب الجنرال "ماك ارثر" في وزارة الحرب لكي تُدمَج اليابان دمجاً أفضل في السياسة الأمريكية. وقد مَنَحني ذلك فكرةً بشعةً عن الاستشراق حتى اشتهيتُ أن أصبح مُستغرباً، أي أن آخذ في النظر إلى الغرب بالمجهر كما ينظر علماء الحشرات إلى الحشرات وكما ينظر المستشرقون إلى البلاد التي ليست غربية.

واستأنف عالم السلالات العربي عَرْضَه: "في الواقع، لم يكن هناك بلاد متطورة وبلاد متخلفة وإنما كان هناك بلاد مسيطرة وبلاد مسيطَر عليها، بلاد مريضة بنموها، وبلاد مخدوعة لأنها أُوهِمَتْ أن التطور هو تقليد المرضى". واستنتج من ذلك هذه النتيجة العملية: "النفاقُ فيما كان يُدعى في عصر ماقبل التاريخ "معونة العالم الثالث". والواقع أن هذه المعونة المزعومة قد فاقمت من اختلال التوازن ومن التفاوت. وكان الدواء المرتجى، بعد نهاية الهيمنة الغربية، هو

الانتهاء من نموذج النمو الغربي". وقال: "لو كان المقصود معونة العالم الثالث لوجَبَ أولاً تغيير نموذج النمو الغربي لأن هذا النموذج ليس قابلاً لأن يكون شاملاً: إن نموٌ جزء من البشرية غير ممكن إلا بتخلف جميع الآخرين إما بالاحتلال، وبالنهب، وبالمبادلات غير المتكافئة، كما كان الحال في عهد الاستعمار، وإما بالتبادل الحر أي الحرية الممنوحة لمنْ هم أقوى كي يفترسوا مَنْ هم أضعف". وضرب أمثلة عن الصَدْع المتنامي في عالم عهد ماقبل التاريخ". فهو يعتقد أن التاريخ الإنساني حقاً بدأ بتطور تضامني حقق، لا الوحدة الامبراطورية للعالم التي تُدعى "عَوْلمة"، وإنما حقق وحدةً سمفونية للعالم يحمل فيها كل شعب إسهام ثقافته الخاصة وتاريخه، وعمله، مستبدلاً باقتصاد السوق اقتصاد التبادل.

بيد أن اختلال التوازن يتفاقم في أواخر القرن العشرين: فمن ١٩٨٠ إلى ١٩٩٠ انخفض مستوى الحياة في أمريكا اللاتينية ١٥٪، ومستوى الحياة في افريقيا ٢٠٪.

الحل الوحيد الذي فُكّر فيه، بناء على تقرير قدمه "كيسنجر" إلى رئيس الولايات المتحدة" (ذكر الخطيب المرجع الذي رجع إليه وهو تقرير كيسنجر إلى الرئيس كارتر حول الخطر الذي تمثله نسبة المواليد في العالم الثالث إزاء الأمن القومي في الولايات المتحدة: MSSN ٢٠٠)، وكان ذلك يعني أن يُقال لشعوب القارات الثلاث: قلّلوا مواليدكم لكي نتمكن من الاستمرار، على هوانا، في السياسة الناجمة عن هذه السياسة الديموغرافية، وهي إشاعة العُقْم الجماعي في العالم الثالث، تلك هي درجة البربرية التي بلغها النظام السائد في زمن ماقبل التاريخ أي قبل منتصف القرن الواحد والعشرين.

انتهت الجلسةُ الأخيرة بعرض فيلمين من الأرشيف. وكانا يُلخّصان نهاية القرن العشرين، وكأنما تلخّصان في مَثَلٍ من الأمثال.

كان هذان الفيلمان أكثر الأفلام كلفةً في تاريخ السينما. (فبالمال الذي وُظّف لهما وبالمال الذي أُنفق على المركبة المرسلة على القمر، كان ممكناً أن نفعل آنذاك مالم نفعله إلا بعد نصف قرن: إخصاب الصحراء من جديد).

كان الفيلم الأول، "جوراسيك بارك"، يستذكر أدغال الديناصورات: أقوى الحيوانات تفترس أضعفها. ويُدعى الفيلم الثاني: "تيتانيك" شعاران للقرن العشرين: العودة إلى ماقبل التاريخ والغرق.

انطلاقاً من هذا الحلم حاصَرَني قلقان:

- كيف أمكننا أن نصل إلى هنا؟

- كيف نصحح خطأ التوجه؟

وبالمختصر: ماالعمل؟ وكيف الخروج من ذلك كله؟.

إن هدف هذا الكتاب هو الإجابة عن هذه الأسئلة.

٢ ـ الغَرْبُ عَرَضٌ

شَطْرَ العالم في ثلاثة انشقاقات

جرى انشطار العالم على مراحل أساسية ثلاث، تتسم كل مرحلة بانشقاق الغرب[١].

حدث الانشقاق الأول في القرن السادس والقرن الخامس قبل الميلاد.

قام هذا الانشقاق على الاعتقاد بالاستثنائية اليونانية والاستثنائية اليهودية.

عاشت الثقافة اليونانية حتى الحروب الميدية في تأثير متبادل مع حضارات الشرق الكبرى. والفلاسفة الذين يُدعَوْن الفلاسفة السابقين على سقراط لم يكن لهم من اليونانية سوى اللغة وكانوا يعيشون في آسيا الوسطى في اقليم يحكمه مرزبان فارسي.

ولدى احتكاكهم بالرؤى الشمولية الكبرى في آسيا ولاسيما في الهند وفارس، لم يكونوا يفصلون العقل عن التفكير في الطبيعة والناس والآلهة على نحوٍ لا يتجزأ.

مع سقراط وتابعيه فقط، ولاسيما أفلاطون وسقراط، إنما حدث الانشقاق. فاتخذت الفلسفة لها موضوعاً وحيداً هو الإنسان مفصولاً عن الطبيعة (التي كانت معالجتها متروكة للعبيد) ومفصولاً عن الله، اللذيْن تُركا لميثولوجيا الشعراء المأساويين الذين طردهم أفلاطون من جمهوريته، وتُرِكا للشعب الذي انصرف إلى وثنية الآلهة التي تمثل شهوتيْ القوة والنفع.

لقد نسوا ماافترضوه من آسيا (كما نسوا فيما بعد ماافترضوه من افريقيا ومن سائر العالم بواسطة الاسكندرية)، فعدّوا كلَّ مَنْ لا ينتمي إلى العالم اليوناني ولا يتكلم لغته بربرياً، خالقين بذلك، بهذا الاصطناع، "العزلة الرائعة"، اسطورة المعجزة اليونانية.

[١] انظر في الملحق الدراسة المفصّلة لهذه الانشقاقات الثلاثة: الغرب عرضٌ: انشقاقاته الثلاثة.

القطيعة ذاتها حدثت في الحقبة نفسها في الشرق الأدنى الذي سكنته منذ قرون موجات متتالية من البدو المهاجرين من الصحراء العربية التي لفظتهم ليستقروا في أراضي الهلال الخصيب.

تجحت قبائل الفلاحين الذين لا أرضَ لهم، وهي القبائل التي كانت تُدعى "عابيرو" (ولعلها أصل كلمة عبري) والتي تشتتتْ كما أظهرت حفريات ماري فيما بين النهرين وكذلك ألواح العمارنة في مصر، في تكوين اتحاد ثم دولة حقيقية تسلل جندها إلى أرض كنعان حتى أسست، على مايبدو، امبراطورية (التوراة وحدها تشير إليها ولا يوجد سواها مصدر مكتوب أو أثري). أول تقاطع ممكن مع النصوص الخارجية (الآشورية) يرجع تاريخه إلى القرن التاسع الذي عمدَ فيه كتّابُ سليمان، وارث امبراطورية داود المؤقتة والخرافية إلى كتابة التقاليد الشفهية لبضعة قرون مسجلين الماضي الخرافي للقبائل ولمؤسسيها، فأعطوا تلك التقاليد قِواماً تاريخياً ومذهبياً.

والفكرة الرئيسية التي تنبعث من هذه التجميعات هي أن أحد الأسلاف، ابراهيم، مع الإشارة إلى أنه آرامي (أي سوري) قد تلقى من الله ذاته "أرضاً موعودة" (الأرض التي احتلها داود أبو سليمان).

ومنذ ذلك الحين، كان كل من لا ينتمي إلى القبائل الاثنتي عشرة لا ينتمي إلى "الشعب المختار" من جهة هِبَة الأرض ووحي الشريعة. فيغدو بذلك كالبربري لدى اليونان، محروماً من الحضارة الحقيقية الوحيدة: الحضارة اليهودية.

وبعد ستة قرون جاء يسوع. وقد حفرتْ رسالته الشاملة أكبر ثغرة في تاريخ البشر والآلهة كما كان يتصورها الناس حتى تلك اللحظة، وكأنها ملوكٌ قادرون على كل شيء. كما أنه شقّ الطريق لحياة خلاقة عندما حطم المحرمات القديمة والخصوصية العرقية في الشريعة، قاطعاً الصلة مع التصور القبلي والوثني لإله منحاز يختار شعباً خاصاً، مذكّراً بأن ذلك الإله هو أبو البشر جميعاً. وكان هناك رجلٌ يعرف الثقافتين اليهودية واليونانية، هو بولس الطرسوسي، فركّب بينهما معتدّاً بالهبة اللدنية ليسوع. ووضع مذهباً دون أن يرجع إلى أقواله وافعاله، جاعلاً من ابن الناصرة المسكين: "مسّيا" اليهود (في اليونانية خريستوس)؛ خليفة داود الذي عُهِد

إليه إعادة مملكة داود إلى الأرض إعادة مظفرة تنسي المذلة والفقر ورفض كل سلطة لدى ظهوره الأول.

من هذا التركيب وُلدتْ ديانة جديدة: المسيحية التي أحلتْ، بعد ثلاثة قرون من المجادلات، لاهوتَ السيطرة محل الرسالة المحرِّرة للآسيوي يسوع (كما كان يقول الأب دانييلو). وبفضل الامبراطور قسطنطين الذي وجد فيها أداة لوحدة امبراطوريته، غدت هذه التوفيقية الدين الرسمي للدولة.

هذه الجماعة التي تحولت إلى كنيسة وارثة لبنى الامبراطورية وسيطرتها وبيروقراطيتها، طرحت نفسها، بعد أن اضطهدت اليهود، والمهرطقين (وهم الذين أرادوا أن يعيشوا كتلاميذ للمسيح) خلَفاً للشعب المختار، وبهذه الصفة تحوّلت واجبٌ إخضاع سائر العالم.

من أوروبا المسيحية هذه التي كان على رأسها، بحسب مصطلح الامبراطورية القديم "حَبْرٌ روماني" سيولَد، بدءاً من القرن الخامس، انشقاقٌ ثان عبّر عن نفسه بطريقة جديدة: فبدلاً من أن تنفصل أوروبا عن آسيا وافريقيا (كانت ماتزال تجهل وجود أمريكا) أوكلتْ إلى نفسها مهمةً هي: لا أن تنفصل عنهما وإنما أن تخضعهما معتبرةً نفسها أبداً الشعب المختار الجديد، المالك للدين الحق الوحيد وللحضارة الحقة الوحيدة. وكان لها، بتلك الصفة، القدرةُ بل والواجب أن تتجاهل أو تحارب ثقافتهما وأن تفرض عليهما ثقافتها مستندة إلى السلطة السياسية والعسكرية التي تمنحها، بالمقابل، الذرائع لمباركتها.

هذا الانشقاق الثاني الذي غدا نَفْياً وتدميراً، لسائر العالم، لإيمانه ولثقافاته الوطنية، قد دام خمسة عشر قرناً، هي قرون استعمار الأمم المسيحية حتى عندما قسم "الإصلاح الديني" أوروبا قسمين: الشمال البروتستانتي والجنوب الكاثوليكي.

الانشقاق الثالث حدثَ في منتصف القرن العشرين. فبعد أن أُنهكتْ ودُمِّرت أوروبا بأسرها، من الأطلسي إلى الاورال، عقب حربين بين الأوروبيين (وقد سُمِّيتا حربين عالميتين لأن المستعمرين استخدموا فيهما "رعاياهما" من القارات الثلاث "لحماً للمدفع") انقلب محورُ العالم: أصبحت الولايات المتحدة التي اغتنت باحتضار جميع الشعوب والتي لم تهبّ لنصرة حلفائها إلا في آخر لحظة (في

١٩١٧ بعد معركة "فردان"، وفي ١٩٤٤ بعد معركة ستالينغراد)، على رأس نصف الثروة العالـمية.

هذه الثروة أتاحت لها أولاً أن تجعل من الدولار قاعدة للنقـد العالـمي، شأنه شأن الذهب، ثـم أن تقدم الـمعونة (شريطة الخضوع السياسي) لأوروبا أولاً، بخطة مارشال، لتجعلها قادرة على الوفاء بالدين من جديد، بعد دمار حربها، ثـم للعالـم بأسره بواسطة صندوق النقد الدولي الذي يهدف إلى السيطرة ذاتها.

إن تفجّر الاتحاد السوفييتي الذي لـم يَصُنْ الاشتراكية حين قلّد، في اقتصاده الـمخطّط بيروقراطياً، نموذجَ النمو الغربي (الذي لـم يكن يمكن أن يتطور إلا في السوق الحرة التي تؤمّن هيمنة مَنْ هم أغنى واقوى)، الذي أتاح للولايات الـمتحدة أن تتخذ لنفسها هدفاً هـو السيطرة على العالـم بعد أن أعادت الرأسمالية لـدى خصمها السوفييتي السابق.

وهكذا حدث الانشقاق الثالث في الغرب في منتصف القرن العشرين وأُطلِق على هذه الوحدة الامبراطورية اسم "العولـمة".

إن إرادة الغرب في تسوية وتبعية اقتصاد جميع الشعوب وسياساتها وثقافاتهـا، قـد استبعد احتـمال وحـدة سمفونيـة كـان يمكـن أن تخلق وحـدة العالـم الغنيـة بالإخصاب الـمتبادل بين جميع الثقافات مع مراعاة تنوعها.

وبهذا الـمعنى ربح هتلر الحرب: ذلك أن الأهداف الكبرى التي وضعها لنفسه قد تحققتْ، وإن كان ذلك دونـه، لأن الاوروبيـين تـابعوا الـمسار التـاريخي نفسـه لانشقاقات الغرب الثلاثة.

١ ـ استطاع أن يستأنف الطريقـة الأكثر بربريـة، موضـوع شَطْر العالـم شطرين، من خلال امتياز "الشعب الـمختار" الذي جعله وقفاً على "العرق الآري" الوارث للتفـوق اليونـاني، والاصطفـاء اليهـودي، والـمسيحية الـتي كـانت تطرح نفسها مِلاطاً للوحدة الأوروبية ومرشدة للعالـم.

الصورة الهتلرية ليست مختلفة جوهرياً عن هذه الـمزاعم السابقة. إنها تتـممُها مع هذه الأصالة: وهي أنها طبقتْ على ناس من العرق الأبيض أنماط التعذيب الـتي

كان الاستعمار الغربي يخص بها الشعوب الملونة، مثلاً إبادة الهنود الحمر، تجارة الرقيق الأسود، هيروشيما، الفييتنام أو العراق.

٢ ـ تابعت سياسته خطوطَ القوة في الانشقاق الثاني منذ النهضة: سواء أكان المقصود الشمولية الاقتصادية التي تعمل دون تدخل الشعب بواسطة الفعل التنظيمي لقوة خارجة عنه هي سيطرة المصارف أو سيطرة الشركات المتعددة الجنسيات (الصورة الأمريكية والغربية)، أم كان المقصود بيروقراطية الحزب الوحيد الذي يفخر هو أيضاً بأنه منبثق عن الشعب وأنه وجدانه (الصورة السوفييتية).

هذا التشابه وتلك الخصومة يفسران كيف أنه منذ ١٩٣٣ إلى ١٩٣٩، رأى أنصارُ الصورة الاولى (الغربية) الذين رفضوا بخاصة البديل الاشتراكي (وإن كان الاتحاد السوفيتي قد حاد عنها فعلاً) في هتلر معقلاً ضد البلشفية وساعدوه على تعزيز سلطته.

بعد هزيمة هتلر العسكرية التي كان الاتحاد السوفييتي صانعها الأول، كتب تشرشل: "قتلنا الخنزير الرديء"، وفتح منذ خطبته في "فولتون" (١٩٤٦) جبهة الحرب الباردة ليبلغ، مع الولايات المتحدة الهدف المفضل لدى هتلر، إسقاط الاتحاد السوفيتي.

٣ ـ الهدف النهائي لهتلر: السيطرة العالمية (لعشرة آلاف عام، كما كان يقول) بالتدمير الوحشي للعروق الدنيا قد تحققت بالطرائق البربرية التي شغّلها وإن كان لم يبتكرها: فعلم تحسين النسل والداروينية الاجتماعية بالتعقيم الجماعي في العالم الثالث ولاسيما لحذف الأقل أهلية والذي يفتك اليوم على مستوى أكبر إلى مالا نهاية منه في الحقبة التي طبّقه فيها النازيون.

إن تصور هتلر للعالم انتصر بعده لأن هذا التصور كان ضمن منطق انشقاقات الغرب الثلاثة السابقة وامتدادها الجهنمي.

بل إننا لا نستطيع القول إن المشروع الهتلري قد حققه أعداؤه: التكافل الحالي الاسرائيلي الأمريكي، لأن هتلر الذي حمل بضراوة على اليهود الألمان الذين كانوا ينوون البقاء ألماناً في ألمانيا، مع احترام دينهم وطائفتهم ـ بحقّ ـ كان

تعاونه مع الصهيونيين (٥٪ من السكان اليهود المنظمين في ١٩٣٣) قد دام طوال الحرب من ١٩٣٣ إلى ١٩٤٤، لأن الصهيونيين كانوا يحثون على الهجرة إلى فلسطين (وهو مايتلاقى مع مشيئة هتلر وهي إفراغ ألمانيا ثم أوروبا من يهودها لطردهم نحو "غيتو" عالمي في فلسطين أو في أية جزيرة افريقية).

ومن هنا اتفاقات "هافارا" منذ ١٩٣٣ التي تسمح لليهود الأغنياء بالهجرة على أن يدفعوا كفالةً في مصرف هامبورغ تُسدَّد في تل أبيب شريطة أن يكافح القادة الصهيونيون في العالم المقاطعة المنظمة ضد ألمانيا النازية.

ومن هنا الإذن المعطى لبيتار (الميليشيا الصهيونية) أن تمارس نشاطها في ألمانيا النازية حتى ١٩٣٨.

ومن هنا اقتراح اسحق شامير، في ١٩٤١، للتحالف العسكري بين مجموعته المسلحة "زفي ليومي" وبين الجيش الهتلري، وهو مادعا الانجليز إلى توقيفه بتهمة الإرهاب والتعاون مع العدو.

ومن هنا الاقتراح الحقير الذي قدمه "ايخمان"، في ١٩٤٤، للممثلين الصهيونيين في الوكالة اليهودية، لمبادلة ١٠٠٠٠ شاحنة بمليون يهودي، وذلك بشرطين:

أ ـ هذه الشاحنات لن تُستخدم إلا على الجبهة الشرقية.

ب ـ يقوم الصهيونيون بالوساطة لتحقيق صلح منفرد مع الولايات المتحدة وانجلترا لكي يتسنى لهتلر أن يبذل آخر جهد لسحق الاتحاد السوفييتي[1].

---

[1] جميع المراجع موجودة في كتابي: الأساطير المؤسسة للسياسة الاسرائيلية.

٣) هتلر ربح الحرب

مهما يكن مصير هتلر الشخصي، وانتحاره في ملجئه الحصين عند بوابة "براندبورغ"، فإن منطق انشقاقات الغرب الثلاثة التي جسّد هتلر انتصارها فترة من الزمن، مايزال يتابع انتصاره بعد موته لأن هتلر لم يكن سوى التعبير الموقّت والبربري عنها.

إن مقتل يوليوس قيصر لم يعدّل مسار "روما" التاريخي التي لم تلبث بعده أن سارت نحو الامبراطورية التي وضع أسسها.

وهزيمة نابليون في "واترلو"، ونفيه، لم يمنعا فرنسا أن تعيش، طوال قرنين، بحسب البنى العامة التي أعطاها إدارته، ولا أن تمنع أوروبا من أن ترى في كل مكان التعبير عن المبادىء التي أعلنتها الثورة الفرنسية والتي أمّن نصرها، بالحرب "روبسبيير على ظهر جواده" (كما كان يقول عن نفسه).

ظلت النازية شهاباً غريباً في سماء أوروبا، هبوطاً استثنائياً وغير معقول للشيطان، إذا كنا لا نرى فيها سوى التعبير البربري لمنطق النظام الذي كان الغرب يتجه إليه بعد الانشقاقات الثلاثة التي حطمت في آن واحد، وحدة العالم وأعطت عنه صورة كاريكاتورية لسيطرة الفرد الواحد.

استأنف هتلر، من جهته، المفهوم الرئيسي "للعرق المختار"، في صيغته العبرية، ثم المسيحية، وكذلك في صيغته اليونانية الرومانية وهي: أن ثمة شعباً وُعِد بمملكة العالم على "الغرباء" أو الكفار أو البربر، من الذين هم أدنى بالدم والدين أو الحضارة (استأنف ذلك بشكل جديد، بالشكل "الميسياني" نفسه الموجود في قوميات القرن التاسع عشر وفي تنظيرات "كونت" و"غوبينو" حول العروق الآرية.

فباسم تلك "الميسيانية" الضالّة بشّر هتلر بسيادة النازية ألف عام، بالسيطرة على العالم وإحيائه بنقاء الشعب المختار: الآريين.

واستأنف هتلر من جهته المسلمة الأساسية في الانشقاق الثاني: يتيح العلم حل جميع المشكلات بما فيها المشكلات التي طالما نُسبتْ إلى الله، مثلاً تطوّر الإنسان بالداروينية الاجتماعية التي تُسرِّع الاصطفاء الطبيعي بالاصطفاء الاصطناعي الذي هو من عمل الإنسان، علم تحسين النسل. وفي هذا الميدان من البربرية لم يكن هتلر مجدداً بتاتاً.

ففي القرن العشرين، ولاسيما بعد أزمة ١٩٢٩ العالمية، عادت إلى الظهور جميع أشكال المالتوسية الجديدة والداروينية الاجتماعية القائمتين على الحرب، حرب الجميع ضد الجميع، لدى "هوبز"، وعلى قانون السكان لدى "مالتوس" وعلى الاصطفاء الطبيعي لدى داروين وبقاء الأجدر بالبقاء لدى سبنسر.

إن علم تحسين النسل، أي التطبيق الواعي لاصطفاء داروين الطبيعي على الكائن البشري بإلغاء الأقل أهليةً للبقاء، ليس مذهباً نزل من السماء على هتلر. بل إن الديموقراطيات الليبرالية، منذ مالتوس، التي أشادت بالدفاع عن حقوق الإنسان، هي الرائدة لذلك وهي المطبقة له. وقبل كل شيء انجلترا والولايات المتحدة.

فمنذ ١٩٠٢، أصدر "بيرسون" و"غالتون" صحيفة "بيوميتريكا" التي أثار مذهب تحسين النسل فيها حماسة "برناردشو"، الذي كتب في "الإنسان والإنسان الأسمى". "إن الشجاعة تنقصنا فنُعيق الاصطفاء الطبيعي تحت غطاء حب الإنسان؛ نحن حاملون نُهمل الاصطفاء الاصطناعي تحت غطاء الرقة والأخلاق". ودعا هـ.ج. ويلز إلى "تعقيم المخفقين"..

وفي الولايات المتحدة إنما جرى التصويت على أول تشريع من تشريعات تحسين النسل: في ١٩٠٧ صوتت "انديانا" على قانون تعقيم المجانين، وضعاف العقول والمصابين بالصرع. وفي ١٩٥٠، صوتت ثلاثون مقاطعة أمريكية تبنت قوانين مشابهة، وأُجريَ ٥٠١٩٣ تعقيماً.

وجرى مثل ذلك، في البلاد السكانيدافية. ففي ١٩٩٧ يُفطَن، بشكل مراء، أن هذا النظام الوحشي طُبِّق في السويد، في حين أن وزير التربية والعبادات كتبَ سنة ١٩٢٧: "نحن محظوظون لأن عِرقنا لم يُهجَّن إلا قليلاً جداً، فهو عرقٌ يحمل أعلى الصفات".

نددت صحيفة "ليموند" في ٢٧ آب ١٩٩٧ بالسياسة السويدية لتحسين النسل التي أدت إلى تعقيم إجباري لـ"٦٠٠٠٠ شخص" وذكّرت "أن الطبقة السياسية في تلك الحقبة كانت تؤمن بفضائل التعقيم" الذي كان شائعاً في الكثير من بلدان أوروبا، واستهجنت بحق الخجلَ من مراسم هتلر بهذا الصدد. لكن ينسى الناس التذكير بأن رواد هذه الممارسة الفظيعة ومنظّريها كانوا من السياسيين الأمريكيين ولاسيما "كيسنجر".

في عام ١٩٣٤، كتب الاقتصادي "غونار مردال" في "أزمة الديموغرافيا":

"المشكلة مطروحة بالنسبة إلى جميع الأفراد الذين ليسوا مكتملين كلياً، والذين يواجهون في الشروط الحديثة صعوبات تمنعهم من البقاء بالاستناد إلى أنفسهم - إن عُشْر السكان بل وخمسهم مهدَّدٌ بالزوال في هذه المعركة التنافسية القاسية. وعندما نعالج هذا الموضوع الأوسع، ينبغي ألا ننسى أن التطور التكنولوجي والتنظيم الاجتماعي المقابل يميلان أبداً إلى رفع مستويات الذكاء والطبع المطلوبة". والحل: "هو حذف الأفراد القليلي الأهلية للبقاء وهو مايسمح التعقيم بإتمامه".

كان الأفضل الحصول عليه بطريقة اختيارية. لكن إن بدا ذلك مستحيلاً "فلابد من النظر في تشديد قوانين التعقيم، أي حق المؤسسات الاجتماعية في تعقيم الأشخاص المسؤولين بالرغم منهم".

وبعد الحرب، في الخمسينات والستينات اعتُبر "غونار ميردال" خبيراً عالمياً في الاقتصاد والديموغرافيا، وعُيِّن مستشاراً في المصرف الدولي، وحاز في عام ١٩٧٤ على جائزة نوبل.

وبعد اضطرابات ١٩٦٨، عادت إلى الراهنية المالتوسيةُ الجديدةُ والداروينيةُ الاجتماعية: كان الفقراء فَضْلَةً زائدة عن اللزوم، ولاسيما في العالم الثالث. وكان الحل الأبسط حذفهم.

وهكذا فإن الجنرال "درابر" مثلاً، أحد مديري شركة "ديلون"، وابنه مدير "مصرف الصادر والوارد" لرونالد ريغان، كان يشبّه، في ربيع ١٩٧١، الشعوب النامية بالمحمية الشهيرة، حديقة الحيوان في افريقيا الجنوبية: "اصبحت الفيلةُ فيها

كثيرة العدد كثرةً مفرطة، فهي تدمّر الأشجار وتحرم بقية الحيوانات قوتَها. فقرر حُرّاسها أن يُنقصوا بعض الأنواع للمحافظة على توازن البيئة".

لكن مَنْ الذي سيكون حارس "الحديقة" بالنسبة إلى النوع الإنساني.

في ٢٦ تشرين الثاني ١٩٧٥، قدم "كيسنجر" وزير خارجية الولايات المتحدة إذ ذاك و"برانت سكوكروفت" إلى رئيس الولايات المتحدة مذكرة حول قرار مجلس الأمن رقم ٣١٤ المتعلق بما يترتّب على تزايد السكان العالمي ومن أجل الأمن القومي للولايات المتحدة فيما وراء البحار[1].

هذا هو مصدر "الوثيقة ٢٠٠٠" أو "تقرير المستقبل" المقدم للرئيس.

تجاوزت "الوثيقة ٢٠٠٠" بيانَ نادي روما الشهير حول حدود النمو عام ١٩٧٢ الذي دعا إلى الحد من نمو السكان ونمو الإنتاج، فاقترح بخاصة "فَرْز سكان الجنوب، لأن كبح النمو التكنولوجي سيكون فيها السبب الرئيسي لتضخم السكان.

يمكن لهذا الفرز أن يتم بالضغوط الاقتصادية: النسب العالية لفوائد المصرف الاتحادي الاحتياطي الولايات المتحدة، ولاسيما الشروط السياسية لصندوق النقد الدولي (F.M.I).

إن الوثيقة NSSM 200 ترتئي تدابير قوية لإجبار سكان البلدان النامية على قبول الحد من المواليد، ولاسيما بحرمانهم من الغذاء.

"هناك سوابق محققة؛ فإذا مابرهن بلدٌ على حسن نيته بخصوص الحد من المواليد، فسوف يُحسَب حساب هذا الموقف عندما يحين الوقت لتقدير الحاجات في قلب البنك الدولي والوكالات الاستشارية الأخرى. وبما أن النمو الديموغرافي هو الذي يحدد الحاجات الغذائية، فيجب أن يُحسَب حسابٌ، عندما يُصار إلى توزيع الموارد المحدودة، لنوع التدابير التي يتخذها هذا البلدُ أو ذاك لا لإنتاج الأغذية فحسب، بل ولتحديد المواليد. وفي مثل هذا المجال الحساس،

[1] أزيلتْ السريةُ عن "المذكرة ٢٠٠ حول الأمن القومي أي إنه صار من الممكن الرجوع إليها في الأرشيف الوطني في واشنطن".

من الأمور الأولية أن نتحاشى إعطاء انطباع بأن الطرائق المطبقة طرائق قمعية إنْ بأسلوبها وإنْ بمحتواها".

إن الوثيقة NSSM 2000 تقدّر: "أن البرامج الاجبارية ربما أصبحت ضرورية، وينبغي أن نفكر منذ الآن في هذه الخيارات... هل يُعتبر الغذاء أداةً للقوة القومية؟ وهل يجب أن نختار اختياراً الذين يمكن أن نساعدهم بصورة معقولة، وإذا كان الأمر كذلك فهل يكون الإشراف على المواليد أحد المعايير للحصول على معونتنا؟ وهل سكان الولايات المتحدة مستعدون لقبول تقنين غذائهم لكي نستطيع معونة شعوب لا تريد أو لا تستطيع مراقبة نموّها الديموغرافي.

وفي الصفحة ١٣٨، تشير الوثيقة إلى "التجارب التي كانت مثاراً للجدل، والتي نجحت حيث قَبِل العديدُ من الهنود بالتعقيم بعد منحهم ميزات مالية ومكافآت أخرى".

هذا القتل الوقائي للشعب (العبارة من عند "اليونيسيف") قد عُمِل به بصورة منهجية في العالم الثالث: ان مدير المعهد البوليتكنيكي في "ريودوجانيرو"، بويستو فيدال، قال في كتابه: "السيادة والكرامة القومية" (ص ٢٠٢): "إن ٤٤٪ من النساء البرازيليات عُقِّمن وهن في سن الخصب، وذلك بشكل رسمي، بحسب إحصاءات الـ "I.B.G.E.".

أشارت اليونيسيف في تقرير لها حول السكان، في كانون الأول ١٩٩٢، إلى أن "تعقيم النساء شائع بشكل خاص في أمريكا اللاتينية وفي آسيا؛ ٣٩٪ في جمهورية الدومينيكان، ٣٧٪ في كوريا الجنوبية.

وينجم عن جميع المعطيات الرقمية أن من الكذب أن يُقال لفقراء الجنوب: أنتم فقراء لأن لديكم كثرة مفرطة من الأطفال، وأن تبرّأ ابتزازات الشمال، بدلاً من أن يُقال: أنتم فقراء لأن الاستعمار نهب خيراتكم ودمر بنى اقتصادكم، وأن المؤسسات الناتجة عن "بريتون وودز": صندوق النقد الدولي، البنك الدولي ثم الـ"غات"، الخ... ماتزال مستمرة في ذلك الفعل مبقية على المبادلات غير المتكافئة في تقسيم العمل الدولي وفارضة على الجنوب نماذج للتطور وبنى سياسية تستجيب لمصالح الشمال وحدها.

بعد ذلك يمكن التصدي لـمشكلات الـمواليد، بـين الشـمال والجنـوب، تبعـاً لـموارد العالـم ولتوزيعها.

وهكذا تتطلب وحدانية السوق من التضحيات أكثر من أي دينٍ مـن الأديـان الـماضية.

وفي الـمانيا، لـم يُخلَق علـم تحسين النسل مع وصول هتلر إلى السلطة. ذلـك أن "الفريد بلويتز" هو الذي ابتكر مصطلح "الصحة الاجتـماعية". وأصـدر في عـام ١٩٠٤، "أرشيفات حـول بيولوجيـا العـرق والـمجتـمع" وأسـس في عـام ١٩٠٧ "جمعية الصحة الاجتـماعية".

وفي عام ١٩٢٥ تألفت "العصبة الألـمانية لتحديد الوراثة الشـعبي" الـتي كـان رئيسها منذ ١٩٣٠ "ارتراوسترمان"، والتي اقترنت ببنك غولد سميث روتشيلد. (في ١٩٣٣، نشر عالـم الوراثة ريتشارد غولد سميث الـذي أُجبر على النفـي، بصفتـه يهودياً، كتاباً مختصراً في علـم الأحيـاء، طـالب فيـه بتعقيـم الـمتخلفين والـمرضى عقلياً).

وفي زمن جمهورية فايمـار، ولـدى انعقـاد الـمجلس البروسـي للصحـة، في ٢ تـموز ١٩٣٢، دافع أربعة أطباء اشتراكيين (منهم اوسترمان) عـن قضيـة التعقيـم. وحول الطاولة الـمستديرة نفسـها حضـر الجلسـة ممثلـو "جمعيـة الأطبـاء النـازيين" (الدكتور كونتي) كما حضرها في الوقت نفسه ممثلو تنظيم الصحة اليهـودي. وقـد صادق على الـمشروع الذي قدمه الـمجلس وزيـر الداخليـة "ولهلـم فـون غـايل". وكانت القوانين النازية الـتي صُوِّت عليهـا فيمـا بعـد هـي النهايـة الـمنطقية لهـذه الحركة.

وذلك يعـني أن النظـام النـازي، في هـذا الـميدان الإنسـاني، وكذلـك في أي ميدان آخر، كان ضمن منطق حقارة النظـام الرأسمـالي، كمـا كـان، بعـد سـنوات، دعـمُ الولايـات الـمتحدة "لبينوشيه" ولجنرالات البرازيل والأرجنتـين الجلاديـن ولسرايا الـموت التابعة لهم.

كانت العرقية الهتلرية القطيعة الشكل الأعلى لخمسة قرون من الاستعمار. طُبِّقت فيها أساليب "الغستابو" على الشعوب الملوَّنة كما طبقها "الغستابو" على السلاف واليهود والمعارضين والمقاومين.

هذا المنطق التاريخي لابد منه لكي يغدو التاريخ مفهوماً بدلاً من أن يُرى هتلر بكل بساطة وكأنه "مختار الشيطان" كما أن غيره هم "مختارو الله" بأسرار لا ينفذ إليها التفكير النقدي.

أما الانشقاق الثالث الذي يتعلق بالسيادة على العالم فإنها تندرج في هذا المشروع الهتلري للسيطرة على العالم التي لم يستطع هتلر تحقيقها بسبب تأخره في امتلاك السلاح الذري. وما كان ليتحرج من استخدامه ضد الاتحاد السوفيتي أو انكلترا أكثر من تحرّج ترومان من تقتيل الأهالي المدنيين في هيروشيما وناغازاكي، ومن تحرج تشرشل من تقتيل سكان "دريسدن" المدنيين بالقنابل الفوسفورية (١٣٥٠٠٠ قتيل في ليلة واحدة). ولم تكن في الحالتين أية ضرورة عسكرية: كان امبراطور اليابان قد شرع في عملية الاستسلام، وكانت القوات الألمانية قد جلت عن دريسدن بعد أن تجاوزها الجيش السوفييتي.

إن أهداف السيطرة على العالم التي كانت أهداف هتلر تحققت بطريقة لم يتوقعها هو، لكنه هو الذي خلق لها الشروط العظمى: الاتحاد السوفييتي الذي أنهكه المجهود الحربي في حرب تحمّل أثقل أعبائها، وأوروبا المهدمة على أرضها والعاجزة في الوقت نفسه عن المحافظة على سلطانها الاستعماري على سائر العالم.

البرنامج الهتلري للسيطرة على العالم طُبِّق نقطةً نقطة: أولاً انهيار الاتحاد السوفييتي، وجعل أوروبا تابعة، ثم محاولة الاستيلاء على "العروق الدنيا" في بقية العالم.

تحقق هذا البرنامج على أيدي خصومه الموقتين في الغرب الذي سهلوا وصوله إلى السلطة حتى عشية الحرب لأنهم رأوا فيه "مَعْقلاً في وجه الاتحاد السوفييتي" (تسليم فرنسا للفولاذ، والقروض من انكلترا، والإعداد لحرب فرنسية انجليزية، في عام ١٩٣٩، ضد الاتحاد السوفييتي، من فنلندا إلى القوقاز، بقيادة

"ويغان"، والاستيلاء على النمسا، وميونيخ، والاستعانة، غداة الحرب، بأفضل تقنييه (فون براون للصواريخ، فون غيهلين للخدمات السرية في الشرق) ليتمموا بوسائل أخرى (وسائل الليبرالية الشمولية التي يسندها عند الحاجة التدخل العسكري) حلمه في السيطرة العالمية.

هذه الليبرالية الشمولية تموّه توسع الاستعمار الجديد الذي توحد بجَعْل الامبراطوريات الاستعمارية الأوروبية القديمة تابعة (انجلترا، فرنسا...) والذي لا يَني يزيد من تقسيم العالم لا لأنه يزيد من شقاء الجنوب فحسب، بل لأنه يفاقم أيضاً من البطالة والاستبعاد في أوروبا.

إن نظام "مَلَكية الدولار" كمّلته دكتاتورية الذرّة والأسلحة الأخرى. وتقسيم العالم أتمه إسباغ صورة الشيطان على الخصم المحتمل: كان بالأمس البلشفية (التي كان هتلر درعاً حامياً منها زمناً طويلا). وكانت حينئذ القطيعة بين الشرق والغرب والحرب الباردة ضد مملكة الشر. وبعد تفجر الاتحاد السوفييتي الذي ناقض (ماركس وتبنّى نموذج النمو الغربي الذي مات منه)، كان التعارض بين الشمال والجنوب ضد مملكة الشر الجديدة التي هددت، على المستوى العالمي أمْنَ المالكين والمحتلين: أصبح الإسلام مرادفاً للإرهاب بالتماهي الدلالي البسيط بين المقاومة والإرهاب.

المرحلة الأولى كانت جعل أوروبا تابعةً. فأوروبا، في ١٩٩٨، بلدٌ محتلٌّ.

أوروبا تخضع للاحتلال المالي

الأسواقُ تقود الحكومات أكثر فأكثر. فمن جراء السياسة الدائمة للخصخصة واحتلال الضبط المالي، تشارك التجمعات الأجنبية الكبرى ولاسيما الأمريكية بحصص متزايدة الأهمية في اقتصادنا.

ويكفي أن نذكر الأمثلة الفرنسية. إن رأس مال ولنحتون يشكل المساهم الأول في "رون بولنك". ورأس المال الأمريكي لـ"لازار" و"تمبلتون" يدخل في "رون بولنك" و"بيشني" وهو مع "فيدلي" المساهم الأكبر. ولدى "شنيدر" المدير المالي للمجموعة يسلم "كلود بيسان" بأن "رأسمالنا يملكه منذ الآن الموظفون

الأجانب بنسبة ٣٠٪. والأمر كذلك في رأسمال "بارياس" إذ تبلغ النسبة ٣٣٪، وتبلغ ٤٤٪ في اسمنت لافارج، و٣٣٪ في "سان غوبان"، و٢٥٪ في شركة مياه ليون، و٤٠٪ في A.C.F الخ...

كتب ايريك ايزراليفتش في "الموند" في ١٩ تشرين الثاني ١٩٩٦: "ان **مايُدهش هو ذبول القومية الصناعية في فرنسا. وتستطيع الشركات الأجنبية أن تشتري منها جميع الحليّ التي تريدها دون أن تثير ردة فعل فيها".**

وبكلمة واحدة، أصبحت الصناعة الأوروبية تحت الإشراف الأمريكي. إن البلد العضو في منظمة التجارة العالمية لم يعد يستطيع لا أن يحدّ من صادراته الزراعية ولا أن يدعم استثماراته. ولا أن يرفض إقامة الشركات المتعددة الجنسيات التي يجب أن تمنح الشروط نفسها التي تمنَحُها الصناعاتُ الوطنية، (كل ذلك باستثناء الولايات المتحدة التي تستطيع أن تُبيح لنفسها كل شيء، بما في ذلك أن تمنح قوانينها توسعاً دولياً ملزماً، مثل قانون "هيلمز برتون" الذي يمنع الاستثمارات في كوبا، أو قانون "آماتو" في ايران وفي ليبيا).

وكل مخالفة لهذه الأوامر المفروضة تجعل من البلد المخالف "جانحاً" قابلاً للانتقام الاقتصادي، وهو تهديد رهيب كالسلاح. وتعلم البلاد الخاضعة لصندوق النقد الدولي كم كلفهم ذلك من فِتَنٍ ومن موتى. (من الجزائر عام ١٩٨٨ إلى اندونيسيا عام ١٩٩٨).

إن التيار السائد لدى الاقتصاديين الرسميين وكذلك لدى السياسيين هو التيار الذي يدافع عن الليبيرالية دون حدود، التي تُشيد بامّحاء الدولة أمام القدرة الكلية للسوق، لكي لا تُعارض الاحتلال الاقتصادي بأي عائق.

والصورة لدى الأحزاب الاشتراكية والشيوعية تسير في الاتجاه نفسه، مع ورقة العنب للغة حول العدالة وحول التوزيع الأفضل للعائدات والأعباء.

وفي كلتا الصورتين لسنا نرى من مخرج سوى النمو وأوروبا (إنهم يقولون: "أوروبا أخرى")، دون الخروج أبداً من المنظور الغربي. وتمجّد "الفظاعة الاقتصادية": "لفيفيان فورستر"، ويُجعل منها الكتاب الأكثر رواجاً، دون أن

يرسموا أدنى منظور واقعي للخروج منها، وذلك لأن المحتل لا يُشار إليه كما لا يُشار إلى أي عالمٍ ثان أخذ يُولَد ولا إلى نماذج أخرى للتطور.

أوروبا خاضعة للاحتلال السياسي

بعد قبول **معاهدة ماستريخت**، ٧٠٪ من القرارات السياسية الأساسية لم يعد يتخذها البرلمان بل لجان التكنوقراطيين في بروكسل، وهم غير مسؤولين أمام أحد، إلا أمام ١٢ رئيس وزراء يجتمعون بضع ساعات كل ستة أشهر لاعتماد التوجّهات التي تقرر مصير ٣٤٠ مليون شخص.

إن أوروبا ماستريخت أوروبا أمريكية.

وهذه الصيغة نفسها يعلنها النصّ ثلاث مرات.

"إن الهدف من المعاهدة هو تطوير الوحدة الأوروبية الغربية من حيث هي وسيلة لتعزيز الدعامة الاوروبية لحلف الأطلسي" (إعلان حول هذه الوحدة B.4).

ولكي لا يخطىء أحد فَهْمَ تبعية أوروبا الأمريكية هذه، أُشير بوضوح في الإعلان (١) أن الدفاع المشترك المحتمل ينبغي أن يكون "منسجماً مع دفاع الحلف الأطلسي" (الفقرة ١) وأن يجري في "إطار الوحدة الأوروبية الغربية وحلف الأطلسي" وأن "الحلف سيظل الميدان الأساسي للتشاور". (B.4)

ليس المقصود إذن التكافؤ وإنما ألا تكون أوروبا سوى مكوّن من مكونات السياسة الأمريكية الخارجية.

إن أوروبا "ماستريخت" تقع في سياق سياسة سيطرة الولايات المتحدة العالمية.

في ٨ آذار ١٩٩٢ نشرت النيويورك تايمز وثيقة صادرة عن البنتاغون. نقرأ فيها: "إن وزارة الدفاع تؤكد أن مهمة الولايات المتحدة السياسية والعسكرية في المرحلة التي تلت الحرب الباردة ستكون التأكد من أنه لن يُسمح لأية قوة عظمى خصم بالظهور في أوروبا الغربية وفي آسيا، أو على أراضي G.E.I.

وستكون مهمة الولايات المتحدة إقناع الخصوم المحتملين ألا يطمحوا إلى دور أكثر أهمية ولا أن يتبنوا موقفاً أكثر عدوانية، وأن نردّهم عن تحدي تفوقنا أو عن السعي إلى قلب النظام السياسي والاقتصادي القائم".

يشدد هذا التقرير على أهمية "الشعور بأن النظام العالمي في نهاية المطاف تدعمه الولايات المتحدة". ويرسم عالماً توجد فيه سلطة عسكرية مسيطرة، وعلى زعمائها "أن يحافظوا على التدابير التي تهدف إلى تثبيط المنافسين المحتملين الذين يطمحون إلى دور إقليمي أو عالمي أهم".

يجب أن نسعى إلى الحيلولة دون ظهور نظم أمنية أوروبية حصراً يمكنها أن تعطّل منظمة حلف الأطلسي. (هيرالد تريبيون الدولية، ٩ آذار ١٩٩٢)..

في الفصل النهائي لمؤتمر "ماستريخت"، لا يترك الإعلان عن العلاقات بالحلف الأطلسي أي شك بهذا الصدد: "إن الوحدة الأوروبية ستتصرف طبقاً للأحكام الواردة في الحلف الأطلسي".

ونادت المعاهدة بأن تستخدم المؤسسات الأوروبية سياسة مشتركة بالنسبة إلى "جميع ميادين السياسة الخارجية"، وهذا يعني "حرفياً" كما يقول "بول ماري دي لاغورس، مدير مجلة الدفاع القومي، "أنه لن توجد أبداً سياسة قومية". وهذا الحكم وارد على رأس المادة ال، من العنوان ٧ وكذلك في المادة J4.

فمن الواضح جداً أننا بإزاء اوروبا **أمريكية**.

وكذلك الأمر بالنسبة إلى السياسة الاقتصادية والاجتماعية وإلى السياسة حصراً.

وكما أن "بوش" أطلق في ١٩٩١ مبادرة السوق الوحيدة لأمريكا بأسرها من "آلاسكا" إلى "أرض النار"، وكما أبلغ رئيس السينيغال "عبدو ضيوف"، الإرادة الأمريكية لتوحيد اقتصادي سريع لأفريقيا، كذلك دعا الرئيس ريغان، منذ ٨ أيار ١٩٨٥ إلى "توسيع توحيد أوروبا لكي تمتد من ليشبونه إلى داخل الأراضي السوفييتية". وقد اغتبط جورج بوش من القرارات التاريخية المتخذة في ماستريخت. قال: "إن أوروبا التي تزداد اتحاداً توفر للولايات المتحدة شريكاً أعظم

تأثيراً، مستعداً للاضطلاع بأعظم المسؤوليات". ورحب كلينتون في ١٩٩٨ بحماسة بخَلْق النقد الموحد.

"ماستريخت" تعني الانضواء الكلي، والنهائي مبدئياً، إلى اقتصاد السوق بلا حدود.

قال فاليري جيسكار ديستان للقناة التلفزيونية الفرنسية الأولى في ٤ حزيران ١٩٩٣، إنه، مع تطبيق ماستريخت، لن تكون هناك تأميمات ممكنة بموجب المادة ١٠٢ A المصحوبة بالرقابة وبالعقوبات (المادة ١٠٤ C).

حتى ان اقتصادياً بعيداً جداً عن العداء للسوق بلا حدود، سوق الرأسمالية الليبرالية قد كتب: "المشكلة هي أن نعلم إن كان هذا الاختيار قد فرضته معاهدة لا يجوز لأحد أن يرجع، مبدئياً عنها، وإن كان على الشعوب أن ترى نفسها محرومة من أي خيار".

وتشترط المادة (J.3) صراحة هذا المنع للعودة عن القرارات.

رسم "روبير بيليتييه"، المدير العام السابق للخدمات الاقتصادية في C.N.P.F، وعضو اللجنة الاقتصادية والاجتماعية في الـ C.E.E الاسقاطات التالية (الموند في ٢٣ حزيران ١٩٩٢): في اسبانيا، من الآن إلى ١٩٩٧، هجمة البطالة من ١٦٪ إلى ١٩٪، في ايطاليا "انفجار لا مثيل تاريخياً له في البطالة" "حسابات مدوّخة" بالنسبة إلى اليونان والبرتغال. أما الفرنسيون فلسنا نستطيع أن نخبىء عنهم طويلاً أن السياسة التي تحث عليها ماستريخت وتلونها بألوان ليبرالية بالعودة إلى اقتصاد السوق هي، بالفعل، النموذج الأقرب إلى الرجعية في السنوات الستين الأخيرة".

وهكذا فإن أوروبا التي اندمجت في السوق العالمية التي تسيطر عليها الولايات المتحدة تُسْلم زراعتها وصناعتها وتجارتها وسينماها وثقافتها كلها لقواعد التبادل الحر التي يقول عنها اقتصادي بالغ الحذر هو "موريس آلّيه" بوضوح: "أستبعدُ، على الأقل بالنسبة إلى المستقبل الذي يمكن التنبؤ به، كل توجه نحو تبادل عالمي حر، كما هو الاتجاه الحالي".

هناك أمثلة حديثة ومؤلمة تبرّر مخاوفه.

أولاً، فيما يتعلق بالزراعة الأوروبية التي ذُبحتْ لتخدم مصالح المزارعين الأمريكيين. إن اتفاقيات ١٨ آذار ١٩٩٢ التي استلهمت مباشرة الولايات المتحدة ومديرها الأمريكي العام "ارثر دنكل" تتهم السياسة الزراعية المشتركة في أوروبا التي تسمح بمعونة المزارعين الأوروبيين لمواجهة السوق العالمية، وتهدد بالانتقام من نوع الانتقام الذي مارسته الولايات المتحدة لتفرض على أوروبا استيراد اللحوم المعالجة بالهرمونات والممنوعة في "بروكسل".

وسرعان ماانصاعت أوروبا للأوامر الأمريكية: تقضي الاتفاقية الأوروبية المعقودة في ٢١ أيار ١٩٩٢، من أجل إصلاح السياسة الزراعية المشتركة، خفض إنتاج الحبوب بإراحة إجبارية لـ ١٥٪ من الأراضي الصالحة للزراعة، وتخفض إنتاج لحم البقر ١٥٪، والزبدة ٢,٥٪، لمدة ثلاث سنوات.

وبالنسبة إلى اللحم والحليب أُلغيتْ عِلاوة البقرة الحلوب لخفض الإنتاجية، وخُفّضت حصص الحليب ٢٪.

هذا الخفض الكبير في الزراعات الأوروبية (في لحظة يشكو فيها خمسُ البشرية من الجوع) يدع الساحة حرة لمزارعي الحبوب الأمريكيين كي تستجيب للطلبات الملبئة. إن مفتاح هذه السياسة الزراعية الفظيعة: خفض الإنتاج والإنتاجية بإنقاص الأسعار المكفولة والمساحات المزروعة لكي تبقى السوق (التي تدعى باحتشام الطلب الملبيء) صيداً أمريكياً سهلاً. أما الجائعون المفلسون فيحُذفون من الخريطة في حين أن ٨٠٠٠٠٠ طن من لحم البقر و٢٥ مليون طن من الحبوب و٧٠٠٠٠ طن من الزبدة وبودرة الحليب مخزنة، على نفقة الجماعة الأوروبية لكي تتقيد بالنظام الزراعي الأمريكي.

* * *

ليست الصناعة الأوروبية أقل عرضة للخطر. فبحجة المحافظة على قواعد التنافس في أوروبا، كان الانجليزي "ليون بريتان" قد منع شركتين فرنسيتين من شراء مصنع الطائرات "هافيلاند" لكي لا يدع مجموعة أوروبية تبلغ أبعاداً قادرة على مضايقة الشركات الأمريكية. وتمارس الولايات المتحدة لكي لا تتجاوز

السلف الواجبة السداد والممنوحة للصناعة الجوية ٢٥٪ من سعر الطائرة بدلاً من ٣٥٪ التي لا يمكن للأوروبيين أن يهبطوا تحتها. ويهدد الأمريكيون دعاة التبادل الحر بفرض الضرائب على هذه الصناعة، على سبيل الانتقام، مما يُغلق أمامها السوق الأمريكية.

والأمر كذلك في سائر القطاعات بدءاً من المياه المعدنية حيث يعارض "ليون بريتان" شراء "نسله Nestle) لـ"بيرييه Perrier"، ليمنع، كما يقول تمركز السوق في أوروبا. (في حين أن المقصود في الواقع هو عدم فتح السوق المنافسة للشركات الأمريكية)، وصولاً إلى الاليكترونيات: فبعد المجموعة النيرلندية "فيليبس"، والمجموعة الفرنسية الايطالية "تومسون" تخلت المجموعة الألمانية سيمنس عن الآمال الكبيرة وعن الإنتاج الكثيف للـ "I.B.M" الأمريكية. ومن السهل تصور الكوارث بالنسبة إلى الاستخدام والبطالة لهذه الوصاية التكنولوجية الأمريكية.

المثال الأكثر نموذجية هو تجارة الأسلحة. فبعد أقل من سنة لوعود جورج بوش بالكفاح ضد انتشار الأسلحة، بما فيها الأسلحة التقليدية، سمح الاتفاق بين البنتاغون ووزير الدفاع "ديك شيني"، للحكومة الاتحادية بمساعدة المصدّرين الأمريكيين على عرض أسلحتهم وبيعها.

وينتج عن ذلك أن الولايات المتحدة، في عام ١٩٩١، ضاعفت صادرات السلاح التي كانت حرب الخليج دعاية لا سابق لها. فارتفعت المبيعات ٦٤٪ في ١٩٩١؛ ٢٣ مليار دولار مقابل ١٤ مليار دولار في ١٩٩٠.

أوروبا هي أوروبا التابعة في جميع الميادين.

ولنضِفْ أن أوروبا الاثنتي عشرة دولة هي نادي الاستعماريين القدماء. كلهم فيه. الاستعماريون الرواد: اسبانيا والبرتغال؛ الامبراطوريات الكبرى: انجلترا، فرنسا، بلجيكا، هولندا؛ المتأخرون: ألمانيا وايطاليا. وبالرغم من ذلك، ففي اتفاقيات ماستريخت خصّص واحد وعشرون سطراً من ٦٦ صفحة لتعريف العلاقات بالعالم الثالث (العنوان WII المادة ١٣٠ U)، كلمات جميلة حول

تطوره، حول مكافحة الفقر، والأطروحة الرئيسية كـانت: إدراج... البلاد النامية في الاقتصاد العالـمي أي في هذا الذي يقتلها بالذات.

لقد قبلت القوى الاستعمارية الكبرى اليـوم، وراء خصوماتهـا القديمـة، الإقطاعية الأمريكية لتكوّن استعماراً من نمط جديد، موحد وشمولي.

وهكذا بقيت أوروبا هي أوروبا الاستعمارية لكنها خاضعة، كما هو الأمرُ في الخليج، للسادة الأمريكيين.

أوروبا خاضعة للاحتلال الثقافي

بيّنا في كتابنا "الولايـات الـمتحدة طليعـة الانحطـاط" كيـف أن النظـام الاقتصادي القائم على وحدانية السوق يولّد العنف والجريمة والهروب والـمخدرات وجميع أشكال غسل الدماغ (بدءاً من الروك بـ ١٣٠ ديسيبل، وهي تفرّغ الإنسـان من كل شعور نقدي حتى البلادة والحيوانية) وهـي جميعاً مدمرة لكـل ثقافـة. لن نتناول هذا التحليل مفصلاً ولن نعنى بغير الجـانب الـمسيطر والأكـثر تخريبـاً من الاستعمار الثقافي: السينما والتلفزيون.

تريد واشنطن وهوليود، استناداً إلى اندفاعة منظمة التجـارة العالـمية (O.M.C و G.A.T.T) ولاعتبارهما أن الثقافة ميـدان تجـاري، أن تفرضـا مـايلي علـى أسـاس الـمبادىء الـمبينة في الوثيقة الـمدعوة وثيقة استراتيجية الـمسموع والـمرئي:

- تحاشي تعزيز التدابـير القمعيـة (ولاسيما حصـص نشـر الأعمـال الأوروبيـة والقومية) والسهر على عدم امتداد هذه التدابير إلى أجهزة الاتصالات.
- تحسين شـروط الاستثـمار بالنسبة إلى الشـركات الأمريكيـة مـع إضفـاء الليبرالية على التنظيمات الـموجودة.
- ربـط مسـائل الـمرئي والـمسموع بتطـور الأجهـزة الجديـدة للاتصـالات والاتصال التلفزيوني في اتجاه تجاوز التنظيم.
- التأكد من أن القيود الحالية الـمرتبطة بالـمسائل الثقافيـة لا تشـكل سـابقة للنقاشات التي ستفتتح في نطاقات دولية.
- الاكثار من التحالفات والاستثـمارات الأمريكية في أوروبا.

ـ السعي سراً إلى ضم مديري العمل الاوروبيين إلى المواقف الامريكية.

ويكفي على كل حال أن نقرأ كل أسبوع برامج التلفزيون لنقيس أهمية هذا الغزو، وإساءته حين نتبين تدفق العنف في الأفلام الأمريكية، وتدني دَوْر النص ودور الممثلين، من وجهة النظر الشكلية، لمصلحة "التأثيرات الخاصة"، إلى حد أن شبابنا الذين تسمموا، من غير أن يعلموا، بهذه العروض، يدعون الأفلام التي يكثر فيها الشجار وطلقات المسدسات، وأمواج السيارات، والانفجارات والحرائق، يدعونها وحدها "أفلام الحركة".

إن حصة سوق السينما الفرنسية في الولايات المتحدة راكدة حول ٠,٥٪، في حين أن حصة سوق الأفلام الأمريكية، في أوروبا الخمس عشرة دولة، من ١٩٨٥ إلى ١٩٩٤، قد انتقل من ٥٦٪ إلى ٧٦٪ ليبلغ ٩٠٪ أحياناً.

ومن الخمسين قناة تلفزيونية أوروبية (حتى لو استبعدنا الشبكات الموصولة والمشفرة ولم نحسب سوى حساب مايبث بوضوح) كانت الأفلام الأمريكية تمثل ٥٣٪ من البرامج، في عام ١٩٩٣.

وفي الميزان التجاري للمسموع والمرئي ارتفع العجزُ حيال الولايات المتحدة من مليار دولار في ١٩٨٥ إلى ٤ مليارات في ١٩٩٥. مما جر إلى خسارة ٢٥٠٠٠٠ عمل في عشر سنوات.

والاستعمار الثقافي هو من الكِبَر أيضاً فيما يختص بالاستثمارات: فالشركات الجبارة مثل "تايم وارنر تورنر"، و"جيزني ABC"، و"ويستنغهاوس C.B.C" تحتكر في أوروبا الاستوديوهات، وتزيد من شبكة صالاتها المضاعفة الإرسال، وتتدخل تدخل السيد في الشبكات الموصولة، مستكثرةً من الاتفاقيات مع المشاريع المحلية وخاصةً تقسها بحصة الأسد.

وقد دخلت دخول الفاتحين بلدان شرق أوروبا وأخذت تستولي على التلفزيونات الرئيسية الخاصة.

إن الـ ١٤٠ احتكاراً وطنياً للمرئي والمسموع في أوروبا قد التهمه احتكار أقلية من ٥ أو ٦ مجموعات خاضعة للإدارة الأمريكية. وفي هذا الميدان تتسع هوة العجز: من ٢,١ مليار دولار في ١٩٨٨ إلى ٦,٣ في ١٩٩٥.

في المنظمات الدولية، تخص الاحتكارات الأمريكية نفسها بالدور القائد في المفاوضات لكي تسهل اختراقها بالحصول على تسهيلات لاستثماراتها، إلى حد تطمع فيه إلى الاستفادة من المعونة الجماعية في أوروبا ومن صندوق الدعم في فرنسا.

لم ينتهِ استسلام القادة الفرنسيين، منذ اتفاقيات "بلوم - برنس" التي سلمت، غداة الحرب، السينما الفرنسية إلى السينما الأمريكية، حتى الاحتجاجات الخجلة من القادة الحاليين للحصول على "استثناء ثقافي" في الأدغال الاقتصادية للسوق الحرة. وأخيراً قبل ممثلو الحكومة الفرنسية، في كانون الأول من عام ١٩٩٦، في سنغافوره الإحلال بنظم الألياف البصرية والتقنيات الحديثة في المرئي والمسموع.

وهكذا فإن ثقافات أوروبا وثقافات العالم بأسره عندما ينضوي القادةُ إلى "الانجلوساكسون" تسحقُها اللاثقافةُ الأمريكية القائمة على وحدانية السوق.

عندما أعلن السيد بوش: "يجبُ خلقُ منطقة سوق حرة من آلاسكا إلى "أرض النار"، وعندما يضيف وزير خارجيته، "بيكر": يجب خلقُ منطقة سوق حرة من "فانكوفير" إلى "فلاديفستوك"، فإن جدلَ العصر الأعظمَ هو التالي:

أنترك الإنسانيةَ تُصلب على هذا الصليب الذهبي؟

في "بريتون وودز" تأكدت الهيمنة العالمية للدولار، إذ أصبح معياراً عالمياً للنقد، بالطريقة نفسها التي للذهب.

وكانت المؤسسات الناشئة عن "بريتون رودز" أدوات السيطرة الاقتصادية الكوكبية: كان يستطيع صندوق النقد الدولي (F.M.I) والمصرف العالمي، بقروضهما الممنوحة ضمن شروط سياسية (مثل خطة مارشال في أوروبا أن يستغلا على هواهما مستعمرات أوروبا القديمة التي أصبحت بلا وارث بعد زوال الامبراطورية الاستعمارية في افريقيا وفي آسيا، كما كان الأمر قديماً في أمريكا الجنوبية لنزع يد انجلترا ويد اسبانيا.

وفي مرحلة ثانية، مرحلة الغات GATT (الاتفاقية العامة حول التجارة والضرائب)، لعِبَ التبادلُ الحر الذي فُرض على المستوى الشامل الدور الذي لعبه لمصلحة انجلترا وامبراطوريتها طوال قرن ونصف.

(كان على "الغات" أن تغير اسمها في الربع الأخير من القرن العشرين (المنظمة العالمية للتجارة OMC، لكن دون أن تغير وظيفتها).

ومنذئذ أصبح من السهل جَعْل أوروبا الغربية تابعة للولايات المتحدة، لا بالدمج العسكري فحسب إذ جُعِل جندُها جنداً إضافيين في حلف الأطلسي، وإنما بتوسيع هذا التفوق الأمريكي إلى جميع ميادين النشاط (من الاقتصاد إلى الثقافة).

وحُسِّن هذا النظام في أمستردام بحيث كانت ثلاثة أرباع القوانين مفروضة من قبل "منظمة بروكسل الأوروبية".

بقيت المراحل الواجب قطعها لتدمير كل مابقي من سيادة الأمم. وأولاً الحق الملكي بسك النقد الذي كان يشكل منذ قرون المعيار الأساسي للسيادة، وكان مشروع "النقد الموحد"، الـ EURO الذي به سيُختتم القرنُ العشرون ويُفتتح القرنُ الواحد والعشرون.

وبقي إتمامُ مشروع العولمة الكبير، أي التدمير النهائي لاقتصاد الشعوب وثقافاتها لمصلحة عولمة الامبراطورية الأمريكية ووحدانية سوقها.

وبالفعل، فبعد التنظيم الاستبدادي على يد الولايات المتحدة للنظام النقدي العالمي (على يد صندوق النقد الدولي)، وللتجارة الدولية (على يد منظمة التجارة العالمية)، كان التقييد النهائي للعالم يتضمن معاهدة متعددة الأطراف حول حرية الاستثمارات.

هذه الوثيقة الأخيرة لليبرالية المتوحشة هدفها إقامة ملكية السوق المطلقة في العالم بأسره محطمة كل عقبة تعترض الاستثمار: كل شركة متعددة الجنسيات يجب أن تحظى بالميزات نفسها التي يستفيد منها المستثمرون الوطنيون: حرية الاستثمار، وأيضاً حرية تسريح العاملين، ونقل مراكز الإنتاج والبحث إلى أمكنة أخرى، والتعدي على قوانين العمل والبيئة؛ وقبلت الدول "دون شرط عرض القضايا المتنازع عليها على تحكيم غرفة التجارة الدولية".

كل قرار تحكيمي صادر عن هذه المنظمة فوق القومية "**حكم نهائي وإلزامي**" يمنع بالتالي حق الاستئناف. ولقد نصَّ على أن "**المستثمر لكي يتمكن من التصرف ضد الدولة المستضيفة...**: لا ينبغي للضرر وإن كان وشيك الوقوع أن يصيب صاحبه، بالضرورة، قبل أن يخضع الخلاف للتحكيم".

هذا القيد الجديد (والنهائي) الذي يجعل من السوق السيد الشامل، هو تعميم لاتفاقيات الـ (ALENA)، المعقودة بين الولايات المتحدة وبين كندا والمكسيك: نستطيع إذن أن نعرف، النتائج التي يتضمنها تطبيقها، بحجمها الحقيقي.

إن كندا التي ترفض لشركة "ايتيل" أن يدخل سوقها الوقود الذي يتضمن مادة إضافية سامة، طولبت بمبلغ ٢٥١ مليون دولار تعويضاً عن الخسارة المقدرة للأرباح. وفي المكسيك حيث رفضت الحكومة إقامة مكبّ لتفريغ المنتوجات السامة في مكان محميّ، طالبت الشركة الأمريكية ذات العلاقة بـ ٤٠٠ مليون دولار.

يعترف هذا المشروع بفظاظة: "إن هذه الاتفاقية، ككل اتفاقية دولية ذات طابع إلزامي، ستكون نتيجتها الاعتدال في ممارسة السلطة الوطنية على نحو ما.

هذا المشروع، الذي يحكم جميع بلدان العالم، قد نوقش سراً، منذ ثلاث سنوات، ناقشه سراً أعضاء منظمة (OCDE)[1] ، التي جمعت أغنى البلدان واستبعدت مااتّفق على تسميته العالم الثالث، في حين تترتّب عليه نتائج رهيبة فيما يتعلق بالاستخدام والبطالة والصحة والخدمات العامة، والحماية الاجتماعية والبيئة، وبصورة عامة: **الاستقلال الوطني**.

فعلى الصعيد الاجتماعي، يلح المشروع على حسنات التفاوت. وتُعرّف الـ (OCDE) تعمّق التفاوتات وكأنها: "مايدعو إليه المنطق الاقتصادي". وهو لا يتساءل عن ملاءمة هذا المنطق، فيذكر "شوكة الفقر" ويتهم التدخلات العامة بأنها تحبس الأفراد في "منطق التبعية".

ومن اللافت للنظر أن القادة الفرنسيين (في اليمين وفي اليسار) لم يعترضوا على هذا البرنامج الذي لا تترتب عليه فقط الخصخصة الكلية للمشاريع، بل

[1] منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية.

واستبعاد كل تدخل من قبل الدولة لحماية الأضعفين، إلا متذرعين "بالاستثناء الثقافي". والحق أن هذا الميدان حساس للغاية لأن مثل هذه الاتفاقيات تقود إلى خراب السينما الفرنسية وتزيد أيضاً من سيطرة سينما هوليود الدموية التي تغمر شاشاتنا وتلفزيوننا وتؤمن سيطرة أقطاب الإعلام الأمريكيين بالاستثمار المطلق العنان في الصحافة والنشر. وهكذا تغدو العقول والأجساد جميعاً مُسْلمةً لتحايلات المنطق التجاري.

لكن كلية حياتنا ومعناها هي التي يجب أن تتحرر من مجسات الاخطبوط، أي من القدرة الكلية للشركات المتعددة الجنسيات للـ ٢٩ بلداً أعضاء الـ OCDE الذين يشرفون على ثلثي التدفقات العالمية للاستثمارات، أي ٣٤٠ مليار دولار في ١٩٩٦.

كيف يمكن أن يجري هذا التحرر الجديد، التحرر من احتلال بلدنا، بدءاً من الاقتصاد حتى الثقافة؟.

فلا أحزاب اليمين ولا أحزاب اليسار، ولا الكنائس تجيب عن هذه التساؤلات الكبرى لقلقنا.

لا هؤلاء ولا أولئك يقدمون حلولاً على المستوى العالمي.

بعضهم لا يفكر إلا في تناوب امتلاك السلطة، ويتعاقبون على السلطة وهم عاجزون عن حل المشكلات، بحسب إيقاع عفا عليه الزمن، وكل منهم يعاقبه الناخبون لخيبته في ممارسة سياسة تحجبها ألفاظ مختلفة.

ومهما يكن الحزب أو ائتلاف الأحزاب في السلطة، تزداد البطالة ويزداد الاستبعاد على نحو لا رحمة فيه، من ٤٠٠٠٠٠ عاطل عن العمل في عام ١٩٧٨ إلى ٣ ملايين في عام ١٩٩٨، في حين تعاقبت حكومات اليمين واليسار.

الكنائس المؤسساتية لا تفعل ماهو خير من ذلك. لقد أصبحت بنيتها شبيهة بالبنية الملكية، وتجمدت عقائدها، وطمعت جميعاً في السيطرة الشاملة لعالم لا تحمل إليه شيئاً.

الكاثوليكية التي دمرت جميع الآمال المتولدة عن مجمع الفاتيكان الثاني، تمنح نفسها بنىً تزداد تسلطاً وشمولية، ممارسة بشكل منهجي لغة مزدوجة وعملاً

مزدوجاً، مقنّعةً تحلف الإرشادات المأخوذة من الانجيل سياسةً من التواطؤ مع الولايات المتحدة (لتكافح قديماً، الشيوعية في الشرق ولاهوت التحرر في أمريكا الجنوبية) متحاشية الاستجابة (إلا بالكلام) لقلق الشعوب من البطالة والحرب وصنوف الاستبعاد، ومستقرة على رأيها بشكل استحواذي في الموضوعات الجنسية، ومستبدلة عروضَ مُخرجٍ واحد من الإرشادات الروحية التحررية.

وكانت رسالة الإسلام، في زمن نبيه وفي قرون عظمته، أن يمثل ماهو شامل في الثقافات وفي الإيمان، وهو يستطيع اليوم أيضاً أن يقدم هذه الأمثولة، إلا أنه منكفىء علي خصوصية الشرق الأدنى. وهو، كالكهنوت الروماني، لا يمنح أملَ الجميع وجهاً، لكنه ينغلق على عادات الماضي وطقوسه، بدلاً من أن ينفتح على المشكلات الكبرى لشعوبنا وزمننا. وهكذا يصبح موضوعاً للتاريخ في حين كان، على مدى قرون، الذات المبدعة، التي يُخصبها الاتحادُ بجميعِ الروحانيات، بدءاً من حكمة الهند إلى إيمان الصوفيين الاندلسيين القريبين جداً من امتلاء يسوع الإنساني.

كل شيء ينبغي أن يُصنَع إذن، لخطط الاقتصاد والسياسة والتربية والإيمان، التي لا ينفصل بعضها عن بعض، وهي كذلك أكثر من أي وقت مضى، وهي بحاجة، أكثر من أي وقت مضى، إلى أن تعثر على وحدتها الأساسية في رفعة الإنسان.

مامستقبل أوروبا في وجه انحطاط آخر امبراطورية (كما يدعوها بول ماري دي لاغورس)؟

لقد انعزلت أوروبا طويلاً، كالامبراطورية الرومانية قديماً، رافضة انتماءها إلى الجزيرة الكبرى الأوروبية الآسيوية وهي ليست منها سوى شبه جزيرة، في سيطرة مركّزة على البحر الأبيض المتوسط. وانطلاقاً من هنا مارست سلطتها الاستعمارية على العالم، بدءاً من أمريكا الهندية بذهبها، وافريقيا بعبيدها، وآسيا حيث فرضت سيطرتها على الهند مع الانجليز، وعلى الصين بائتلافها الأوروبي من أجل حرب الافيون واغتصاب البلدان التابعة، وعلى الشرق الأدنى والأوسط، بنفطه، بحكم ثنائي انجليزي فرنسي على العالم الإسلامي. كان هناك تقسيم

انجليزي فرنسي لافريقيا الشرقية من أحد الفريقين وافريقيا الغربية من الفريق الآخر، بصرف النظر عن العمليات المترابطة لهولندا في اندونيسيا، ولبلجيكا في الكونغو، ولاسبانيا والبرتغال في انغولا والموزامبيق حتى الرأس الأخضر، ولإيطاليا في ليبيا والحبشة.

إن نكبات الحربين العالميتين بين الاوروبيين أتاحت للولايات المتحدة لا أن تحل فقط محل المستعمرين الأوروبيين القدماء من أمريكا الجنوبية إلى الفيليبين في المحيط الهادىء وأن تصبح سيدة الشرق الأدنى ونفطه، وأن تتسلل بقوة إلى افريقيا، بل، على الخصوص، أن تجعل من المستعمِرين القدماء مستعمَرين لها.

إن إمكان التحرر الوحيد لأوروبا التي غدت تابعة هو إذن أن تصحح على أسس جديدة جذرياً علاقاتها (لا علاقات مستعمِرين بمستعمَرين بل علاقات الشركاء المتساوين والمتكاملين) مع آسيا أولاً (ولاسيما الصين وايران) بل وأيضاً مع افريقيا وأمريكا الجنوبية والوسطى.

وهكذا فقط يمكن لأوروبا سيدة البحر الأبيض المتوسط أولاً، ثم المستعمِرة للقارات الثلاث، ثم أوروبا الأطلسي التابعة، أن تحقق بعث ذاتها في ما هو شامل وعام.

* * *

ربح هتلر الحرب في فرنسا أولاً وبسهولة من جراء هجمة سياسييها نحو العبودية. والانحطاط الحالي للجمهورية الخامسة يشبه شبهاً غريباً تفكك الجمهورية الثالثة.

إن التوازي أخّاذ بين الانتقال من تنازلات "ميونيخ" إلى استسلام "ريتوند"، وبين الطريق المؤدية من تنازلات "ماستريخت" إلى استسلام "أمستردام" واستسلام النقد الموحد، اللذين يشيران إلى التخلي عن كل استقلال في الاقتصاد والسياسة الفرنسيين أمام أوامر المصارف والشركات المتعددة الجنسيات واللذين ينتزعان من فرنسا أوضحَ علامة على السيادة: وهي الحق في سك النقد لكي تظل سيدة تشريعها الاجتماعي وكذلك سيدة سياسة التصدير الخارجية.

والتوازي أخاذ بين التنكر لديغول وللمقاومة الفرنسية في جملة وحيدة ألقاها رئيس الدولة تحت ضغط اللوبي الأمريكي الصهيوني (وبرئاسة الحاخام الأكبر "سيتروك"، الذي أكد "لشامير" في ١٢ تموز ١٩٩٠: "كل يهودي فرنسي ممثل لاسرائيل"). فقد صرح الرئيس الحالي للدولة الفرنسية الذي ينتسب إلى الديغولية: "إن جنون المحتل الإجرامي قد آزره الفرنسيون والدولة الفرنسية".

وهذا هو العكس تماماً لما كان يقوله ديغول عن شعبنا: "حتى في أسوأ اللحظات، لم يتخلّ شعبُنا عن نفسه" (المذكرات ٣ - ١٩٤) ولما كان يقوله عن فيشي: "إنها زبدٌ حقير على سطح جسم سليم" (الجزء الثالث ص ١٤٢): "أعلنتُ عدم شرعية نظام كان تحت رحمة العدو" (١ - ١٦٧)، "هتلر خلق فيشي (١ - ٣٨٩).

لقد رحب اللوبي منظم التظاهرة بحماسة بهذا التنكر الذي كان وسيلة للاعتراف "باتصال الدولة الفرنسية بين ١٩٤٠ و١٩٤٤".

نجد الانقلاب نفسه فيما اتفق على تسميته اليسار الذي أدار قادته ظهورهم لجوريس وللاشتراكية (كما أدار غيرهم ظهورهم لديغول وللمقاومة الفرنسية)، بانضوائهم إلى أوروبا المصرفيين دون اهتمام (إلا بالكلام) بالبطالة وبالتفاوت الناجمة عن هذا الانضواء، وبفقدان كل استقلال متصل بالسياسة الاجتماعية وبالسياسة حصراً.

إن التشابه بين انحطاطيْ الجمهورية لا يقف هنا: ففي حين أن صحفاً فاشية مثل "غرانغوار" لم تكفّ عن سب فرنسا وثقافتها وشعبها وأخلاقها حتى لقد رأت في هتلر عنصراً من عناصر التجديد وكتبت: "هتلر ولا الجبهة الشعبية!". وأن أحدهم رأى الهزيمة مفاجأة إلهية، ويعتبر اليوم "برنار هنري ليفي" نظام فيشي المحصلة الضرورية لتاريخ فرنسا وثقافة فرنسا في كليتها. وبرأيه أن ماضينا كله من فولتير إلى الثورة الفرنسية، ومن التقاليد المسيحية جميعاً إلى "بيغي" دون توفير "برنار لازار"، المحلل اليهودي للاسامية الذي يجرّحه في طريقه، أن ماضينا كله يجعل من فرنسا "وطن القومية الاشتراكية" (الأيديولوجية الفرنسية ص ١٢٥). ويُلح على أن "الثقافة الفرنسية تشهد على قِدَم حقارتنا" (ص ٦١)؟ "وأنا أعرف

وجه فرنسا القذر، فرنسا معرض الوحوش التي تقطنها". (ص ٢٩٣) وكأن فرنسا كانت قبل كل شيء وطن "بيير لافال" و"فيليب هنريو"، والميليشيا.

ونحن نرى اليوم، لدى تفكك القلة السياسية الحاكمة، بدلاً من نداء ديغول إلى المقاومة والانبعاث "لا إلى اليسار ولا إلى اليمين"، كما رأينا بالأمس في اجتماع الجمعية الوطنية في "بوردو"، نرى خليطاً من أصوات جميع الذين يَخفّون إلى العبودية. كان مجد الحزب الشيوعي الفرنسي فيما مضى أنه استطاع القول إنه "ليس حزباً كسائر الأحزاب"؛ وهو ينحاز اليوم، إلى الالتواءات السياسية التقليدية، إلى الحزب الاشتراكي، إلى "أوروبا"، أي إلى خيانة آمال كل من يعمل في فرنسا بدلاً من أن يضارب.

والظاهرة نفسها تحدث في اليمين؛ ففي ظل التناقضات والمطامح التي تقود إلى الانشقاق، قبلت حركة كانت تزعم أنها قومية، فوق مستنقعات الأحزاب، ومن أجل نصر قائم على المساومة في المعركة الانتخابية، وبتأثير محترف للسياسة، منشق عن الـ (R.P.R)، أن ترسو في اليمين لتصبح في الجمعيات المثيرة للغثيان، سيدة اللعبة ـ لعبة المذبحة.

إن رد الفعل الرافض لهذا النظام في الشعب الفرنسي كبير الدلالة: لقد بدأ يدرك خدعة الدموقراطية المفوّضة، والمستَلَبة، ولا تنفك جبهة الرفض للفرق المحترفة السياسة تتعزز كل يوم.

في انتخابات المناطق في عام ١٩٩٨، إذا أضفنا إلى الرقم القياسي ٤٢,٥٪ من الامتناع عن التصويت، الـ ١٥٪ الذين ظنوا أن الجبهة الوطنية تقع خارج الأحزاب، والـ ٥٪ لليسار المتطرف الذي يستنكر انضواء الحزب الشيوعي إلى كاريكاتور الاشتراكية، وإذا كان زعماء المطبخ الانتخابي يستمرون، بعدد متساوٍ تقريباً، في تقاسم المناطق وغنائمها، تتبين أن ثلثي الناخبين يرفضونهم وأن كل منطقة سيقودها نصف الثلث المتبقي، أي المنتخبين نحو ١٥ إلى ٢٠٪ من المصوتين. إنها ديموقراطية غربية، تقترب أكثر فأكثر من نماذج هذا النوع من الديموقراطية: من الولايات المتحدة، واسرائيل، وانجلترا حيث تزدهر اليوم، تحت عنوان اشتراكي، لمةّ السيدة "تاتشر".

وهكذا يتم مرةً أخرى، إذلال شعبنا، أمام السيطرة الأجنبية.

الحقيقة أنها ليست سيطرة هتلر، لكنها سيطرة اللوبي الامريكي الصهيوني الكلي القدرة، وهم أناس لا يقيمون أية عقبة، إن لم يكن في الكلام، أمام سياسة "نتنياهو" حامل مفاتيح الولايات المتحدة: كوهين في وزارة الحرب، السيدة اولبرايت في الخارجية، والقادة الثلاثة للمخابرات المركزية الأمريكية C.I.A، هذا إذا اقتصرنا على الذين يقبضون زمام الأمور في الدولة[1].

إن فاشية حاخامية أخوية، تحت حماية الولايات المتحدة، حملت إلى "صدام حضارات هنتنغتون والبنتاغون، حديدة الرمح" "لمعقل الحضارة الغربية المتقدم ضد بربرية الشرق"، برنامج تيودور هرتزل، مطبَّقاً بعد قرن، على أيدي النازيين الجدد في بروكلين والخليل.

إن الرأس المتتبع لهذه السياسة المزدوجة الرأس، وإن حركها الهدف نفسه: صدام حضارات هنتنغتون أو "المعقل المتقدم للحضارة اليهودية المسيحية ضد البربرية الشرقية"، يظل هو هو: المرتكب للعديد من "الجرائم ضد الإنسانية" في لبنان، آرييل شارون، يظل الوزير الأعلى لسياسة نتنياهو الاستعمارية.

نعم، لقد ربح هتلر الحرب. تحققت أهدافه: وهي تدمير الاتحاد السوفييتي، وجعل أوروبا تابعة، والسيطرة على العالم "بشعب" مختار، كان آرياً بالأمس، وهو اليوم أمريكي اسرائيلي. الاحتلال الجديد، والانشقاق الجديد بين المقاومين والمتعاونين يحلان اليوم كما الأمس، محل التمييزات البالية والاصطناعية بين اليمين واليسار. اللذين يقبل قادتهما في معظمهم عبوديّات أوامر المحتل الأطلسي الجديد وحكامه من نازيي ماستريخت والنقد الموحد.

* * *

[1] القلبر الملحق: الولايات المتحدة، مستعمرة لإسرائيل.

ثانياً - كيف تُبنى الوحدة الإنسانية للحيلولة دون هذا الانتحار الكوكبي.

١) بالتحوّل الاقتصادي.

أ ـ تحوّلٌ ضد "بريتون ـ وودز".

السياسة الوحيدة التي لها اليوم مستقبل هي التي ستحل المشكلات الأساسية المطروحة علينا:

البطالة

الهجرة

الجوع في العالم

مع جميع النتائج الأخلاقية والثقافية الناجمة عنها.

هذه المشكلات الثلاث ترتد إلى مشكلة واحدة. ولا يقدّم إلينا سوى حلول كاذبة.

والحلان الوهميان أكثر من غيرهما هما:

هذه المشكلات سيحلها النمو؛

هذه المكلات ستحلها أوروبا.

هذان الحلان هما الكذبتان القاتلتان أكثر من غيرهما. ما من مشكلة من مشكلاتنا الحيوية يحلها النمو.

ان الدول والأحزاب السياسية في البلدان الغربية لا تتصدى للمشكلة على هذا النحو. على العكس.

هذا النمو تقدمه السياسات ووسائل الاعلام وكأنه الترياق للخروج من الأزمة ومن البطالة، في حين أن النمو الحاصل منذ ١٩٧٥ بزيادة الإنتاجية بفضل تطور العلوم والتقنيات، لم يعد يخلق أماكن للعمل، بل على العكس كان يدمرها إذ يُحلّ أكثر فأكثر عمل الآلات محل عمل الإنسان. كانت بلجيكا تنتج، في عام ١٩٨٠، عشرة ملايين طن من الفولاذ بـ ٤٠٠٠٠ عامل؛ وفي ١٩٩٠ أنتجت ١٢ مليوناً ونصف المليون منه بـ ٢٢٠٠٠ عامل.

إن النمو تحرضه أرباح الإنتاجية الحاصلة بفضل العلم والتقنيات التي تسمح بإحلال الآلات محل جزء كبير من العمل البشري، بل وأكثر من ذلك اليوم بإحلال المعلوماتية، والإنسان الآلي، والحاسوب.

ومن غير المعقول تحريم العلوم والتقنيات. المصيبة تأتي من الاستخدام الذي نستخدمها به.

مثلاً، ازدادت الإنتاجية، منذ ١٩٧٠/ ٨٩٪، بفضل هذه الاكتشافات. وتلك فرصة للإنسانية كي توفر على نفسها أشد الأعباء تكرارية. لكنها مصيبة عليها عندما لا تتناقص، في الفترة نفسها ساعات العمل، وعندما تتضاعف البطالة عشر مرات. وهذا يعني أن زيادة الإنتاجية لم تخدم مجموع الإنسانية وإنما خدمت مالكي وسائل الإنتاج وحدهم.

ولو أن مدة أسبوع العمل رُبطتْ بالانتاجية لكان ذلك خيراً للجميع. ولو أن زيادة أوقات الفراغ لم يستردها سوق أوقات الفراغ الذي يحول الوقت الحر إلى وقت فارغ مُفرغ من الإنسانية بنوع التسليات التي تقترح له والتي لا تيسِّر التفتح الجسدي والثقافي، لكان ذلك خيراً. إن فسحة الحياة هذه، بدلاً من أن تساعد الإنسان على أن يكون إنساناً، أي مُبدعاً، تميل، بموجب نظام السوق، إلى أن تجعل منه عاطلاً عن العمل، وفي أحسن الحالات، مستهلكاً.

هذا لا يعني أننا نعادي النمو ونحن أقل معاداة لتقدم العلوم والتقنيات عندما يتيح هذا التقدم تخفيف عناء الرجال والنساء، وعندما لا يقود إلى استبعادهم أو إلى استلابهم، ونكتفي بمثال واحد هو "طرق الإعلام الذاتية" للتحايل على الرأي العام في مصلحة الهيمنة الأمريكية.

لكن النمو وزيادة الإنتاجية وحتى مع ترتيبات مثل ربط زمن العمل بالإنتاجية، لا يحلان مشكلات البطالة: وحتى لو أرفقناهما كما يريد أرباب العمل والحكومة بضغط الأجور والحماية الاجتماعية لأمكنهما على الأكثر أن يسمحا بقضم بعض أجزاء من السوق من المنافس الأوروبي أو الأمريكي أو الياباني. لكن ذلك يبقى وسيلة سخيفة.

الكذبة الثانية بعد النمو كترياق، هي كذبة أوروبا.

ما من مشكلة من المشكلات الحيوية يمكن أن يُحل في إطار أوروبا. إنهم يَعِدوننا، مع أوروبا، بسوق فيها ٣٠٠ مليون زبون مغفلين القول أن المقصود هو ٣٠٠ مليون منافس على سوق العمل. لأن صنوف الاقتصاد الأوروبية ليست، في الجوهر، متكاملة بل متنافسة. وأكثر من ذلك الاقتصادان الأمريكي والياباني.

هل يعني ذلك أن البديل الوحيد لاوروبا سيكون الانكفاء القومي على فرنسا لحبسها بين أسوار الحماية الجمركية؟ سيكون ذلك، على العكس، هو الاختناق.

الحل الوحيد الممكن هو الانفتاح على العالم في كليته: فما دام العالم، بعد ٥٠٠ سنة من الاستعمار وخمسين سنة من صندوق النقد الدولي، مادام العالم منشطراً باقتصاده المشوه حيث مايزال ثلثا سكان العالم الذين نهبهم الغرب مفلسين، فسوف يظل عالم الجوع وعالم البطالة متجاورين. وحتى لو حاكمنا الأمور بمصطلح السوق وحده كيف نأمل أن نعطي بعضهم عملاً مادام مليارات الناس لا يملكون الحد الأدنى الضروري لشراء غذائهم.

الحل الوحيد الممكن للرد على جوع البعض وبطالة البعض الآخر وعلى هجرة الجائعين في بحثهم الوهمي عن العمل، هو التغيير الجذري لعلاقاتنا مع العالم الثالث، التغيير الذي يُنهي سيطرة الغرب وتبعية الجنوب لأن التبعية هي التي تولّد التخلف.

نحن نعيش في عالم منشطر: بين الشمال والجنوب، وفي الشمال كما في الجنوب، بين الذين يملكون والذين لا يملكون. إن الـ ٢٠٪ الذين هم الأكثرون غنى على كوكبنا يمتلكون ٨٣٪ من الدخل العالمي، والـ ٢٠٪ الذين هم الأكثرون فقراً يمتلكون ١,٤٪[1].

وعندما خلق الاستعمار طوال خمس مئة عام، ونظام "بريتون" منذ نصف قرن، مثل هذه التفاوتات بين الشعوب، يغدو التبادل الحر كافياً ليفاقم من السيطرة والتبعية.

كيف نقلب الانحرافات الحالية

[1] المصدر: برنامج الأمم المتحدة للتنمية P.N.U.D.

أولاً بتدمير الأسطورة التي تدعو حرية السوق ديموقراطية: **السوق الحرة هي قاتلة الديموقراطية** بتكديس الثروة في قطب من المجتمعات والبؤس في قطب آخر.

إن ذلك يستتبع عدداً من القرارات السياسية ترمي جميعها إلى التحرر من عولمة الاقتصاد المزعومة، أي من الإرادة الأمريكية لأن تجعل من أوروبا ومن سائر العالم مستعمرة تفتح المنافذ لاقتصادها الخاص في جميع الميادين: من الأغذية الزراعية إلى عالم الطيران، ومن الإعلام إلى السينما.

ويتضح يوماً بعد يوم أن "ماستريخت" سبب كبير لا لبؤس المزارعين وحدهم، إذ تطلب استراحة الأرض، ولكن لجميع العمال إذ تشجع، بحجة المنافسة الأوروبية، التسوية من الأدنى (باسم المرونة) لشروط العمل، وإذ تصفّي جميع صناعاتنا، من الطيران إلى الإعلامية، وإذ تسحر من ثقافتنا بغزو السينما الأمريكية والتلفزيون الأمريكي، وإذ تجعل من جيشنا جيشاً إضافياً للتدخلات الأمريكية.

أما الاقتصاد فإن المادة ٣٠١ من القانون الأمريكي تتيح حماية انتاجها الخاص، في حين أن الغات GATT (التي دُعيت منظمة التجارة العالمية) تفرض على جميع البلدان التبادل الحر الذي يفسح المجال لجميع الواردات الأمريكية.

إن قوانين "هيلمز برتون" لعام ١٩٩٦ و"آماتو ـ كينيدي"، التي صوّت عليها الكونغرس الأمريكي، تطمع في فرض نفسها على المجتمع الدولي بأسره، فتمنعه من أية متاجرة مع البلدان التي تعيّنها، **وهكذا يشرّع القادة الأمريكيون للعالم بأسره.**

وتقدر المقاومة الجديدة أنه لا ينبغي رفض ماستريخت فحسب، بل وأن ننسحب من صندوق النقد الدولي، ومن المصرف العالمي، ومن جميع المؤسسات التي تستخدم كأداة لإرادة الهيمنة الأمريكية بحجة خلق العملة الموحدة في أوروبا EURO. إن اوروبا والـ EURO (التي تلغي الحق في سك النقد باعتباره الخاصة الأساسية للسيادة) لا يمكنهما أن يؤديا (بالمزاحمة المطلقة العنان

لزيادة التنافس) إلا إلى تسوية من الأدنى للأجور والإعانات الاجتماعية لكي تخفض أسعار التكلفة بين اقتصاد الدول المتنافسة.

انطلاقاً من هنا، لابد من استرداد حرية إقامة علاقات جديدة جذرياً مع العالم الثالث بهدف محدد هو تشجيع شعوب أوروبية أخرى على السير في الطريق نفسها.

١ ـ الإلغاء الكلي للدّيْن الذي لا أساس له ولا مسوّغ.

٢ ـ إلغاء كل عون مالي لحكومات العالم الثالث.

مثلاً: ٤٠ مليار فرنك للتنمية، هذا هو مبلغ موازنة فرنسا للمساعدة العامة، والهدف الرسمي منه هو الدعم الممنوح للأكثرين فقراً على كوكبنا. إن ٩٥٪ من هذا المبلغ المالي ليس من المساعدة في شيء وهو لا يحقق تنمية. في أحسن الحالات هو يُفرغ جيوب دافعي الضرائب (في الشمال وفي الجنوب): وفي أسوأ الحالات إنه يقتل.

أمثلة أخيرة على مااستُخدمت هذه المعونة من أجله: في رواندا، استخدمت لتمويل حكومة القتلة ماأمكن الإبقاء عليها في الحكم، ثم لتمويل العملية "تركواز" لتسهيل مرورهم إلى "زائير"، من أجل الإعداد للأخذ بالثأر.

٣ ـ مَنْح القروض العامة أو الخاصة لا إلى الحكومة وإنما إلى منظمات القاعدة مباشرة. (التعاونيات، النقابات، تجمعات المنتجين ـ وأحياناً لخلقها)، ومن أجل مشروعات محددة وذات نفع عام، مع أفضلية المناطق الزراعية لغاية هي الاكتفاء الغذائي الذاتي (تجهيزات زراعية، حفر الآبار، بناء الطرق، المستشفيات، المدارس).

٤ ـ القبول بأن يكون تسديد القروض، أساساً، بعملة البلد المقترِض (لتشجيع إعادة الاستثمار فيه بدلاً من نقل الأرباح اللصوصي إلى خارج البلاد) أو أن يكون الدفع عيناً.

٥ ـ الشروع في جدولة شريفة للمنتوجات التي تبيعها البلاد الجنوبية مع أسعار المنتوجات التي تبيعها بلاد الشمال.

٦ ـ وإزاء تضخم المشروعات التي تهدف على الخصوص إلى استثمارات الشركات الكبرى، يجب احترام تاريخ كل شعب وثقافته واستخدام التقنيات الوطنية أوسع استخدام وهي في الغالب أكثر ملاءمة وفعالية من نقل التكنولوجيا لأن التقنيات الوطنية أكثر تكيفاً مع الحاجات المحلية. وهكذا يغدو التطور داخليَّ النمو بدلاً من أن يكون "إلصاقاً"، ولا صلة له مع البلد ومع حاجاته الحقيقية، وأن يكون "نموذجاً" غربياً مستورداً بحسب مصالح المشروعات الأجنبية الكبرى.

إن هذا التكيف الصناعي الضروري من أجل تلبية حاجات الجنوب الحقيقية يمكن أن يودي، بعد أمد، إلى تحول في عقلياتنا بتيسيره مايلبي حاجاتنا الحقيقية لا تيسير التسلح والأشياء المسلية.

ب ـ من أجل باندونغ جديدة

لكي يسجل القرن الواحد والعشرون نهاية التاريخ الحيواني للإنسان، حيث أن الغنى للقلة القليلة، في هذا العالم المنشطر، يستتبع التبعية والاستغلال أو الموت للجزء الأعظم من الإنسانية:

١) إن نهضة الوحدة الإنسانية لا يمكن أن تتم بالعنف وبالسلاح، كما كانت القطيعة، وإنما بجميع القوى الإنسانية الخالصة: من الاقتصاد إلى الثقافة إلى الإيمان.

٢) إن ضعف الشعوب المضطَهدة الحالية راجع، بقسمه الأعظم، إلى انقسامهم، بتعارضات وحروب أثارها وحافظ عليها سادة العالم الحاليون. المهمة الاولى إذن هي القضاء على جميع النزاعات التي يستفيد منها المضطهدون، بمفاوضات سلمية.

٤ ـ الرفض الجماعي لتسديد الديون المزعومة، ديون صندوق النقد الدولي. وذلك لأسباب ثلاثة:

أ ـ مَنْ الدائن؟

الغربُ مَدين بدَينٍ هائل إزاء العالم الثالث.

مَنْ الذي سدد لهنود أمريكا اغتصاب قارتهم كلها؟

مَن الذي سيعوّض على الهند القديمة، المصدّرة العالمية للنسيج، عن ملايين أطنان القطن المنتزعة من المزارعين بأسعار ابتزازية، وعن تدمير صناعة النسيج اليدوية لمصلحة مصانع لانكشاير الكبرى.

مَن يردّ لأفريقيا حياة الملايين من أبنائها الأشداء الذين نقَلهم تجار الرقيق الغربيون إلى الأمريكتين خلال قرون؟

ب ـ ماسبب هذه الاستدانة؟

إن البلاد المستعمرة قديماً قد خربت بنى الاقتصاد المحلي، ولاسيما حين ضحت بالزراعات الغذائية لمصلحة الزراعات الأحادية والإنتاج الأحادي التي جعلت منها تابعاً لاقتصاد المستعمر ولمصلحته حصراً. مثل هذا الاقتصاد لا يمكن أن يؤمّن استقلال هذه البلاد ولا الاكتفاء الغذائي الذاتي، ولا اليد العاملة لصناعات لا تتفق مع حاجات البلاد. استمرت التبعية إذن وأصبح الاقتراض محتماً.

جـ ـ هذه الديون سُددت منذ زمن بعيد عن طريق فوائد الإقراض بالربا المدفوعة للدائنين الأجانب.

* لابد إذن من رفض الابتزاز ورفض دفعها لصندوق النقد الدولي.

* ولابد أيضاً من رفض المساعدات السخيفة التي ترمي إلى حجب ذلك الظلم الذي انقضت عليه قرون كثيرة.

* لابد من أن يُكوَّن، مع الغاء الدين وفوائده، صندوق للتضامن يعوض بصورة واسعة عن المعونة المزعومة.

٤) ولابد من معارضة كل مقاطعة يقرضها تعسفاً سادة العالم الموقتون على البلدان التي ترفض سيطرتهم.

* ينبغي ألا يُحسب حسابٌ لهذه المقاطعة، وأن يتاجر بحرية مع الذين تطالهم هذه المقاطعة من إخوتنا.

٥) وبصورة أعم يجب الإكثار من المبادلات بين الجنوب والجنوب، بين البلدان التي تمتلك ٨٠٪ من موارد العالم الطبيعية، والشروع بهذه المبادلات

على اساس المقايضة لكي لا تستخدم عملات الشمال ولاسيما الدولار، مع الحرص تدريجياً على إلغاء تداوله عالمياً، للقضاء على المضاربة. تترتب على ذلك المقاطعة المنهجية للولايات المتحدة وتابعيها، ولاسيما إسرائيل المرتزقة من الغرب ضد ثقافاتنا وضد السلام.

* والقضاء على الهيمنات الاقتصادية وعلى اعتداءاتها الثقافية.

* ومكافحة لا ثقافة "التيرانوسور" و"الترميناتور" اللذين تنتجهما هوليود، وكذلك أدواتها المسلية وجميع التحليات الأخلاقية والمادية لانحطاطها.

٧) يترتب على ذلك، في الصعيد السياسي، الانسحاب الجماعي من جميع المؤسسات التي تدعي العمومية والتي أصبحت أدوات السيطرة لواحد والتي تستخدم غطاء لاعتداءاته العسكرية والاقتصادية والثقافية: هيئة الأمم المتحدة، وصندوق النقد الدولي، والمصرف العالمي، والمنظمة العالمية للتجارة، ومؤسسات فروعها التي تتواطأ مثلها مع السيطرة الامبراطورية على العالم ومع مفهوم يقلّص الإنسان إلى مستهلك ومنتج لا غير تحركه مصلحته الخاصة فقط، ويتخلى عن منح الإنسان معنىً آخر لحياته غير العمل كالرقيق ليكون استهلاكه أكبر، عندما لا يكون عاطلاً عن العمل أو مستعمَراً أو مستعبَداً.

٨) سوف تُحارَب التهديدات أو الاعتداءات الموجهة لأي واحد بجميع الوسائل وبمجموع الجماعة العالمية.

هذه الجماعة العالمية التي تهدف إلى إنشاء عالم ذي وجه إنساني لا تتضمن أي استبعاد ديني أو سياسي لأن هدفها هو خلق وحدة لا امبراطورية وإنما سمفونية للإنسانية يحمل فيها كلٌّ شعب، وكل جماعة الثروات الخاصة بأرضها وثقافتها وإيمانها.

هذه الجماعة مفتوحة إذن للدول الرسمية مثلما هي مفتوحة للأقليات المضطَهدة شريطة أن تُحقّق في كل بلد وحدتَه على أساس هذه المبادىء.

كان الغرض من باندونغ الاولى، في عالم ثنائي القطب رفض الانحياز إلى أحد المعسكرين للحفاظ على الاستقلال. هذا المثل الأعلى يظل باقياً.

لكن الظروف التاريخية تغيرت. ونحن نعيش في عالـم وحيد القطب، وعلينا أن ندافع عن هوياتنا، من الثقافة إلى الاقتصاد، ضد الأصولية الـممهدة للطامعين في السيطرة العالـمية بفعل وحدانية السوق، جاعلةً من السوق، أي من الـمال، الناظم الوحيد للعلاقات الاجتماعية.

نحن نرفض هذه الرؤية للعالـم دون الإنسان، لحياة دون مشروع إنساني ولا معنى، ونحن نجتمع لنبني عالـماً "واحداً"، غنياً بتنوعه ومطمئناً إلى مستقبلة بتلاقي الشعوب والثقافات في إيمان مشترك، يتغذّى بتجربة كل واحد وثقافته، ويحفزه الـمشروعُ الـمشترك في أن يُعطى كلٌّ طفل وكل امرأة وكل رجل مهما تكن أصولهم وتقاليدُهم جميع الوسائل لنشر جميع الإمكانات الإنسانية التي يحملونها في ذواتهم نشراً تاماً.

وأخيراً، إن من الضروري حتماً في عالـم يكون فيه الـمال الذي يُربَح بالـمضاربة (على أسعار الـمواد الأولية وعلى القيم الـمختلقة للعملات الصعبة، وعلى الـمنتجات الـمشتقة... الخ) أعلى بـ ٤٠ مرة من الربح الذي يمكن أن يُجنى ـ على الـمدى الطويل ـ باقتصاد حقيقي، مُنتجٍ للخيرات وللخدمات (مثلاً الاستثمارات الرامية إلى تطوير البنى التحتية، والـمشروعات التي تلبّي الحاجات الأساسية، النقل لتأمين التبادل)، من الضروري إنشاء رقابة صارمة للنقد. وهذا يفترض أن يسترد كلٌّ شعب استقلاله ليخطط لحاجاته ومبادلاته. وهذا ضروري.

٢) بالتحول السياسي

كيف نخلق نظاماً سياسياً ذا وجهٍ إنساني.

كل ديموقراطية مؤسسة على الدفاع عن الفرد المجرد من غير أن تحسب حساباً لقدرته الحقيقية (مثلاً: قدرة المالك أو العاطل عن العمل) لا يمكن أن تؤدي إلا إلى انتخاب أكثرية عددية يتابع فيها كلٌّ واحد مصالحه الخاصة وينافس جميع الآخرين في السوق (سوق العمل أو سوق التجارة)، والناتج شيء لم يُردْه أحد، كما كان يقول ماركس.

ولنقدّمْ هذه المقارنة: عندما نتكلم عن الناتج القومي الإجمالي لكل نفس فالرقم الإجمالي لا يعني شيئاً: إنه المعدل الوسطي بين عائدات صاحب المليارات ودَخْل العاطل عن العمل، وهذا المعدل لا يعبر عن أي واقع ملموس.

إن ائتلاف المصالح (النقابية أو الطبقية) أو الأهداف المشتركة بين أعضاء مجموعة خاصة لا يحمل أيضاً واقع مشروع مشترك (كان روسو يقول: "الإرادة العامة") للمجتمع الكلي.

وأخيراً، إن التلاعب، ولاسيما في أيامنا، بالآراء العامة، عن طريق وسائل الإعلام التي تملكها إحدى الاحتكارات الكبرى أو إحدى القوى الكبرى (سواء أكانت "بيل غاتنر" أو "مردوك" أو "C.N.N" أو التلفزيونات التي تُدعى "وطنية" والتي تخدم مصالح الحكومات القائمة، أو اللوبي المنظم أحسن تنظيم والممّول أفضل تمويل) إن هذا التلاعب يخلق فكراً موحداً ومنضبطاً من الناحية السياسية.

إن ائتلافات اليمين واليسار تمارس منذئذ السياسة نفسها، وعدم اهتمام السكان (في فرنسا كما في الولايات المتحدة) يعبِّر عنه الإحجامُ الانتخابي المتعاظم أبداً.

تلك هي العناصر الكبرى لخدمة الديموقراطية الغربية، التي لا تقف عثرة على كل حال في وجه الدكتاتوريات التي تصب فيها في نهاية الأمر، إما بطريقة مباشرة، كما كان الأمر مع هتلر الذي وصل إلى السلطة نظامياً بحكم هذا النوع من

الديموقراطية، أي بحصوله على أكثرية مطلقة في البرلمان، وإما بطريقة غير مباشرة عندما تأتي دولة ديموقراطية أقوى من غيرها بالدكتاتوريات إلى السلطة لتحمي مصالحها الخاصة. الولايات المتحدة هي نموذج تمويه الحزب الواحد، بصورتين لأصل واحد، من أجل الجمهور: الديموقراطيون والجمهوريون، الذين يكوّنون بالفعل حزباً وحيداً هو حزب المال، مع فرقٍ مختلفة تتقاسم الغنائم (أي المراكز القيادية أو مراكز المال) عندما تحرز النصر. وهم يدعمون بالقوة نفسها دكتاتوريات أمريكا الأخرى، ويصوّتون بالإجماع نفسه على الاعتمادات من أجل اسرائيل، أو الفيتو نفسه لكل عقوبة على انتهاك قرارات الأمم المتحدة، أو الاعتداءات نفسها على كل من تسوّل له نفسه أن يعارض سيطرتها العالمية، أو يتحدى مقاطعتها.

ما الديموقراطية؟

تعني الديموقراطية، في أصلها اللغوي: حكومة الشعب من أجل الشعب. بيد أن أشهر منظّر للديموقراطية الذي تعتدُّ به الثورةُ الفرنسية، جان جاك روسو، يقول بوضوح في "العقد الاجتماعي" ممزّقاً أكاذيب الديموقراطيات الغربية المزعومة: "إذا أخذنا الكلمة بالمعنى الدقيق فإن الديموقراطية الحقيقية لم توجد قط". وذلك لسببين:

١ ـ تفاوت الثروات الذي يجعل من المستحيل تكوّن إرادة عامة، بل إنه يخلق تعارضاً بين من يملكون ومَن لا يملكون.

٢ ـ غياب الإيمان بالقيم المطلقة التي تحبّب الإنسان بواجباته بدلاً من أن تدع فردية الغاب هي السائدة، حيث يعتقد كل واحد أنه مركز الأشياء ومقياسها وأنه المنافس والخصم لجميع الآخرين. (العقد الاجتماعي. طبعة البليياد ص ٤٦٨). ولم يكن لديه حينئذ سوى مثال تاريخي واحد للديموقراطية المزعومة: ديموقراطية اليونان القديمة. وما نزال نعلم طلابنا اليوم أنها أم الديموقراطيات، ناسين أن هذه الديموقراطية الأثينية في أوجها (في زمن بيريكليس في القرن الخامس ق.م) كان فيها ٢٠٠٠٠ مواطن حر يؤلفون الشعب ويملكون حق الانتخاب،

و ١١٠٠٠٠ عبد لا يملكون أي حق. والاسم الحقيقي لهذه الديموقراطية ينبغي أن يكون: حكم القلة التي تعتمد الرق.

فهذا الاستعمال الكاذب لكلمة ديموقراطية لم يزل سائداً في الغرب. إن إعلان الاستقلال الأمريكي، في ٤ حزيران ١٧٧٦ (سنة موت جان جاك روسو) يعتبر أن من الحقائق البديهية بذاتها أن يولد الناس متساوين؛ وأن خالقهم وهبهم بعض الحقوق التي لا يجوز التصرف بها: كالحياة والحرية..." بيد أن الدستور الذي نجم عن هذا الإعلان الرسمي، أبقى على الرق أكثر من قرن.

إنها ديموقراطية البيض لا السود

يؤكد إعلان حقوق الإنسان والمواطن في الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ أن "جميع الناس يولدون ويظلون أحراراً ومتساوين في الحقوق" وفي مادتيه ١٤ و١٥ يوضح أن "جميع المواطنين لهم الحق في الاشتراك في وضع القانون". بيد أن الدستور الذي يكوّن هذا الإعلان مقدمته لا يمنح حق التصويت إلا للمالكين: أما الآخرون أي ٣ ملايين فرنسي فيُعتَبرون مواطنين سلبيين، وأما المواطنون الايجابيون (الناخبون) بحسب تعبير "سييس"، أبي هذا الدستور فهم (المساهمون الحقيقيون في المشروع الاجتماعي). وقبله كتب أكبر فيلسوف في القرن، "ديدرو"، في موسوعته (مادة: ممثّل): "المالك وحده هو المواطن".

إنها ديموقراطية المالكين لا ديموقراطية الشعب

في ١٨٤٨ أنشيء الاقتراع العام لكن للرجال فقط. وحُرِمَت منه النساء، نصف المجتمع.

إنها ديموقراطية الرجال لا النساء.

ويمكننا الإكثار من الأمثلة

ومثال اسرائيل نموذجي. فهو يقدَّم إلينا وكأنه نموذج الديموقراطية. بيد أن الأستاذ "كلودكلين" مدير معهد الحقوق المقارنة في الجامعة العبرية في القدس يُعْلمنا في الصفحة ٤٧ من كتابه الذي يحمل عنواناً له دلالته: "الطابع اليهودي لدولة إسرائيل" أن القانون الذي تبنته "الكنيست" في ١٩٧٠ يعرّف، في المادة ٤، اليهودي (الذي يُمنح حق العودة والمواطنة): "يُعَدُّ يهودياً مَنْ وُلِد من أم يهودية

أو الذي اعتنق اليهودية ولا ينتمي إلى أي دين آخر". هذا المعيار معيار عرقي وطائفي وهو يردّنا إلى محاكم التفتيش الاسبانية التي كانت تطلب "نقاء الدم" واعتناق الكاثوليكية.

إنها ديموقراطية اليهود لا غير اليهود

لكن المثال الأكثر كشفاً لخدعة الديموقراطية على الطريقة الغربية، والأكثر راهنية إذ عليه تقوم جميع أشكال حق التدخل المزعوم باسم الدفاع عن حقوق الإنسان هو: "الاعلان العام لحقوق الانسان" الذي أعلنته الأمم المتحدة في ١٩٤٨.

سنقتصر على بعض الأمثلة. جاء في ذلك الإعلان:

المادة ١ ــ "جميع الكائنات البشرية أحرار ومتساوون في الكرامة وفي الحق..."

مع الايضاحات التالية:

المادة ١،٢٣ - "لكلٍّ الحقٌّ في العمل..." في حين أن في العالم الذي يُدعى "العالم الغني" ٣٥ مليون عاطل عن العمل ومئات ملايين المستبعدين أو الذين لا يجدون عملاً في العالم الثالث.

المادة ١،٢٥ - لكلٍّ الحق في مستوى حياة يؤمن له الصحة والرفاه..." في حين أن في الولايات المتحدة ذاتها ٣٣ مليون يعيشون تحت عتبة الفقر، وأن الأمر كذلك بالنسبة إلى ٣/٥ البشرية.

مادة ٢،٢٥ - للأمهات وللأطفال الحق في الرعاية وفي العناية الخاصة"، في حين أن تقرير "اليونيسيف" في عام ١٩٩٤ يُعلمنا أن ١٣ مليوناً ونصف المليون من الأطفال يموتون كل سنة من الجوع ومن سوء التغذية أو من الأمراض التي تمكن معالجتها بسهولة، وأن طفلاً من ثمانية في الولايات المتحدة لا يجد مايسدّ به رمقه[1].

---

[1] تعليق: إن التفاوت الفظيع في الأجور يكشف عن انشطار المجتمع. قرابةُ عشرين من أصحاب العمل في فرنسا يكسبون أكثر من مليون فرنك في الشهر أي أكثر مما يمكن أن يكسبه عامل عادي في عشر سنوات. ــ وبين هؤلاء "جان لوك لاغاردير" الموجه الرئيسي "للفكر الوحيد"، و"غي ديجوني" مدير الشركة العامة

سؤالان رئيسيان يُطرَحان هنا:

١ ـ عندما نتحدث عن الإنسان، فما الإنسان المقصود؟ هل هو الإنسان الأبيض؟ أم المالك؟ أم الغربي؟.

٢ ـ مامعنى "الحق" بالنسبة إلى إنسان ليس لديه وسائل ممارسته؟

مثلاً: مامعنى "حق العمل" بالنسبة إلى ملايين العاطلين عن العمل؟ وحق الحياة بالنسبة إلى ملايين البشر الذين يموتون في العالم الغربي لكي يستمر أصحاب الامتياز في الغرب "بحرية"" في تبذيرهم؟.*

وفضلاً عن ذلك، مَن يملك سلطة التدخل؟ هل هناك شعب أفريقي يملك هذا الحق لينهي التمييز العنصري في الولايات المتحدة؟ ليعاقب مثلاً جرائم لوس انجلوس؟ التدخلات العسكرية للدفاع عن الحدود تطبَّق تطبيقاً وحشياً عندما يتعلق الأمر بالدفاع عن النفط الأمريكي في الكويت، لكن لا يباشَر بأية عقوبة بالرغم من إجماع الأصوات في الأمم المتحدة، عندما تضم اسرائيل القدس.

نستطيع أن نكثر من الأمثلة في هذا الغاب الذي يسوده قانون الأقوى بحجة الدفاع عن الديموقراطية: إن دعم "بينوشيه" وجميع الدكتاتوريات في العالم عندما

للمياه، و"سيرج تشوروك" رئيس "الكاتيل"، و"ليفي لأتع دي باريباس، وكلود بيير داكسا"، وأغرب من هؤلاء "جاك كالفيه" المدير العام لبيجو حتى السنة الماضية الذي رفض لعماله في سوشو زيادة في الأجور تعرض المشروع للخطر مع أن أجره ارتفع ٤٦٪ في سنتين. وصرح: "أجور المديرين لا يفهمها ولا يقبل بها العاملون في القاعدة.

وعدد غير قليل من هؤلاء السادة وأمثالهم يتعرضون للمحاسبة بسبب سوء استعمال الأملاك الاجتماعية، مثل "بيير سوار" المدير السابق "لالكاتيل" أو بينوفالنسيين رئيس شنيدر.

وعلى المستوى الدولي، يأتي في رأس القائمة "ميكائيل ايسنر" المدير العام لوالت ديزني أكبر مشروع للاثقافة والتلاعب بعقول الشباب. وثانياً المدير العام للكوكاكولا روبير توغازوبلار ثم: بوبر مارك في كولغات بالموليف، ولكل منهما أكثر من ١٠ ملايين دولار.

وفي المقابل، يُعلمنا المعهد الوطني للإحصاء في آذار ١٩٩٧ أن فرنسياً من عشرة يعيش تحت مستوى الفقر: وأكثر من خمسة ملايين ونصف هم الضحية. (وتقول إحصائياتٌ أخرى ٨ ملايين).

أولاً بسبب البطالة التي تطال ١٢٪ من السكان الفاعلين. لكن هذا الرقم يخفي واقعاً أقسى، واقع المأجورين الموقتين بعقود موقتة ولوقت محدد (هذه هي الطريقة الأمريكية لاخفاء عدد العاطلين.

في ١٩٩٠ كان مليونان ونصف من الأغنياء يحصلون على كمية من العائدات تساوي مايحصل عليه ١٠٠ مليون من افقر الناس.

تخدم المصالح الأمريكية، وسحقها عندما تكف عن خدمة هذه المصالح، من الجنرال "نوريبجا" في "باناما" الذي كان يُعاقل من "بوش" طوال كونه عميلاً أميناً، معاملة رئيس الولايات المتحدة ذاته، والذي عُزِيتْ بلاده عندما طالب بحقوقه الشرعية على قناة باناما. إلى غيره من الحكام.

إن الكذبة الأساسية التي تبرر جميع الجرائم باسم الديموقراطية (مثل الإبقاء على مقاطعة العراق التي تقتل مئات الأطفال باسم حقوق الإنسان)، قائمة على المماثلة المنافقة بين حرية السوق وحرية الإنسان.

الديموقراطية الحقة لا يمكن أن تقوم على إعلان عام لحقوق الإنسان مزيف وكاذب دائماً، بل على إعلان عام لواجبات الإنسان، إعلان يمكن أن تكون مبادئه الملهمة هي التالية:

إعلانٌ عام لواجبات الإنسان

مقدمة

إن الإنسانية بتنوع مكوناتها **كلٌّ لا يتجزأ.**

الواجبُ الأولي للجماعات ولأعضائها هو خدمة هذه الوحدة وتطورها الخلاق.

هذا الواجب الذي يميز الإنسان من الحيوان هو أساس جميع الواجبات.

إنه يستبعد كل طموح إلى التفرد وإلى سيطرة عقيدة أو أمة أو مجموعة وكذلك سيطرة الفرد.

إنه يضمن حرية التعبير لكل نزعة إنسانية (أي كل مذهب يخدم مصالح الإنسانية ككل)، مثل حرية التعبير، وحرية الإيمان وحرية ممارسة الدين (أي كل عقيدة تَنسب أصلاً إلهياً لهذه الوحدة)؛ ولكل طموح قومي يحمل إسهام ثقافته النوعية إلى سمفونية هذه الوحدة العالمية؛ ولتفتح جميع الإمكانات الخلاقة التي يحملها الفرد في نفسه (مهما يكن جنسه وأصله ونزوعه).

العالم اليوم واحد.

إن وحدته الفعلية محمَّلة بالتهديدات.

ووحدته الواجب ابتكارها حاملة للأمل.

١ ـ الوحدة الفعلية محملة بالتهديدات.

إن أعجب تقدم للعلم والتقنية، يُستخدَم غالباً لتدمير ماهو إنساني بدلاً من تفتحه إذا لم يوجهه هدفٌ شامل، وتفكير في معنى الحياة.

العلم والتقنية يعطياننا قدرات ووسائل لا حدّ لها لكنهما لا تستطيعان أن تعيِّنا لنا غاياتنا النهائية.

إن عالماً مبنياً على تصور كمي للسعادة وليس له من هدف سوى الإنتاج والاستهلاك المتزايدين والمتسارعين، إنتاج واستهلاك أي شيء بحيث أن أربح تجارة هي تجارة الأسلحة والمخدرات، في هذا العالم الذي تنال فيه الثروة عن طريق المضاربة المالية أكثر مما تُنال عن طريق العمل المنتج للخيرات والخدمات، تقود الانحرافات إلى الغاب الذي لا قانون فيه إلا قانون الأقوى وقانون العنف والفوضى.

إن تدمير ماهو إنساني بوحدانية السوق وعبادة المال، تخلق ردوداً من التمرد والهروب.

الهروب إلى المخدرات أو المهدئات، وإلى سقوط الفن في التسلية لنسيان الواقع والحس، معنياً بالجدة من أجل الجدة ولو كانت غير معقولة، أو بالعرض المسرحي أو السينمائي لا لليقظة بل للتبلد أو للذعر.

والتمرد الذي ينشأ من تفجر الأطُر القديمة للحياة الاجتماعية: الأُسر والكنائس والأمم.

سقوط ماكان إيماناً في تكاثر الأصوليات والخرافات أو الطوائف.

اشتداد القوميات القديمة بميثولوجيا الكيانات العرقية التي تؤدي إلى تفكك النسيج الاجتماعي إلى وحدات آخذة في الصغر غير صالحة للحياة.

هذا الانحلال للقوميات السياسية وللأصوليات الدينية يُعمِّم العنف ضمن الفوضى الدولية الجديدة الخالية من القانون ومن الحق، وكذلك للحيوات الشخصية التي تتجه هذه الفوضى إلى حرمانها من المعنى ومن المستقبل.

٢ ـ الوحدة الواجب إبداعها حاملة للأمل:

أن يكون للحياة معنى أمر لا سبيل إلى البرهنة عليه.

وألا يكون لها أي معنى أمر لا سبيل إلى البرهنة عليه أيضاً.

الرهان إذن أساسي لوقف الانحراف نحو الانتحار الكوكبي.

الرهان برفضه

الرهان بمشاريعه.

رفض نظام قديم تجاوزه الزمن

لا يمكن "للملكية" أن تكون بعد الآن حقاً فردياً في الاستخدام وإساءة الاستخدام، حقاً يقود إلى تكديس الثروة في قطب بين أيدي القلة على حساب الأكثرية.

ولا يمكن "للأمة" أن تكون غاية في ذاتها تقود إرادة القوة والنمو فيها إلى حروب ومجابهات لا نهاية لها.

ولا يمكن للدين أن يزعم أنه يملك الحقيقة المطلقة، وذلك يتضمن حق فرضها على الآخرين إن لم يكن واجب فرضها، وهو الذي برّر محاكم التفتيش والاستعمار.

والمشاريع هي مشاريع مستقبل لن يكون ما سيؤول إليه بل مانصنعه.

التحول الجذري الذي يستطيع وحده أن يؤمّن ازدهاراً جديداً للإنسانية، وحتى مجرد بقائها، يتطلب الانتقال من الفردية التي يعتبر فيها كل واحد نفسه مركزاً ومقياساً لكل شيء، إلى الجماعة التي يحس فيها كل عضو أنه مسؤول عن مصير جميع الآخرين (حرية الآخر ليست حداً لحريتي لكنها شرطها)؛ والانتقال من المذهب الوضعي القائم على الاعتقاد الخرافي بأن العلم والتقنية يمكنهما أن يحلا جميع المشكلات، بما فيها معنى حياتنا، وليصبحا **"دين الوسائل"**، إلى الإيمان الذي يدعوه بعضهم الإيمان بالله وبكل إيمان في الإنسان، لكنه دائماً إيمان بمعنى الحياة وبوحدة العالم، والانتقال من المصلحة الذاتية التي تقدم مصالح فرد أو مجموعة أو أمة على مصالح الكل. مامن عمل يمكنه أن يكون مبدعاً لمستقبل ذي وجه إنساني إذا لم يقم على الاعتبار الأول للكل ولا ينتظم فيه.

إن وضع العالـم، ونحن على عتبة القرن الواحد والعشرين، يفـرض علينـا هـذا الاختيار:

- اللاشعور بفوضى حرب الجميع ضد الجميع، وهو في مستوى قدراتنا الحالية، يقود إلى الـموت.

- الشعور بالأولية الـمطلقة للكل، من أجل إنقاذ الأمل، أي الحياة.

مشروع إعلان واجبات كل إنسان وأي إنسان

١ - الإنسانية جماعة واحدة، لا بالوحدة الامبراطورية لسيطرة دولـة أو ثقافـة. هذه الوحدة، على العكس، سمفونية، أي غنية بمشاركة جميع الشعوب وثقافتها.

٢ - إن جميـع واجبـات الإنسـان والجماعـات الـتي يشـارك فيهـا تنبـع مـن الإسهام في هذه الوحدة: لا يجوز لأي تجمع بشري، مِهَني أو قومي أو اقتصادي أو ثقافي أو ديني، أن يكون غرضه الدفاع عن الـمصالح أو الامتيـازات الخاصـة، وإنما رفعة كل إنسان وأي إنسان، مهمـا يكـن جنسـه وأصلـه الاجتـماعي والعرقـي أو الديني، لكي يُعطى كلٌّ واحد الإمكان الـمادي والروحـي مـن أجـل إظهـار جميـع القدرات الـمبدعة التي يحملها في ذاته.

٣ - الـملكية العامـة أو الخاصـة لا شـرعية لهـا إلا إذا تأسسـت علـى العمـل وأسهمت في تطوير الجميع. وصاحبها ليس سوى مديرها الـمسؤول.

ولا يجوز لأية مصلحة شخصية أو قومية أو تعاونية أو دينية أن تكـون غايتهـا الـمنافسة أو السيطرة، على الآخر، أو استغلال عمله، أو إفساد أوقات فراغه.

٤ - السلطة، آياً كان مستواها، لا يجوز أن تـمارَس أو تُسـحَب إلا بتوكيـل من الذين التزموا خطياً أن يُراعوا هذه الواجبات، ليصلوا إلى الـمواطنة.

ويمكن لأصحاب السلطة أن يُستبعَدوا منها عن طريق أقرانهم إذا أخلّوا بذلك الواجب.

ولا تتضمن السلطة أي امتيـاز وإنمـا الواجبـات والـمقتضيات. ولـما كـانت تتابع هدفاً عاماً فلا يجوز أن تعارض معارضة الخصم أية سلطة أخرى.

٥ ـ **المعرفة**، في أي ميدان من الميادين، لا يجوز أن تَزعم أنها تملك الحقيقة المطلقة، لأن هذه الأصولية الفكرية تولد بالضرورة "التفتيش التعسفي" والشمولية.

ولما كان الإبداع خاصية الإنسان فلا يمكن التصرف به أو إحلال الآلة محله، مهما تكن متطورة، دون السقوط في عبادة الوسائل (التي تستبعد كل أساس للواجب).

٦ ـ **إن هدف كل مؤسسة عامة** لا يمكن أن يكون سوى تكوين جماعة حقيقية أي، عكس الفردية، تكوين رابطة يعي كلُّ مشارك فيها أنه مسؤول شخصياً عن مصير جميع الآخرين.

٧ ـ **التنسيق الشامل بين جهود الإنسان** من أجل النمو يمكنه وحده أن يسمح بحل مشكلات الجوع في العالم والهجرة وكذلك البطالة الإجبارية والفراغ الطفيلي، وأن يُعطي كل كائن بشري الوسائل للقيام بواجباته وممارسة الحقوق التي تخوِّله إياها هذه المسؤولية. وهو يَستبعد كل امتياز للقوة، سواء أكانت قوة "الفيتو"، أم قوة الضغوط العسكرية أو المالية أو المقاطعات الاقتصادية.

من حق الجماعة العالمية وحدها ـ دون التفريق العددي ـ أن تسهر على التقيد بهذه الواجبات.

التلفزيون ضد المجتمع

إن "إعلان الواجبات" بمواثيقه ومؤيداته التي يستتبعها ليست ضرورية في أي مكان مثلما هي ضرورية فيما هو اليوم السرطان القاتل للديموقراطيات الغربية: التلفزيون.

نحن نعالج هذا الموضوع في فصل السياسة لأنه هنا إنما يمارس بأوضح شكل سلطته ودماره: فلا الأسرة ولا الكنيسة ولا المدرسة لها من التأثير مايشبه تأثيره في العقليات والتصرفات.

لقد قلنا آنفاً بصدد الديموقراطية الأثينية: كان كل شيء منوطاً بالشعب وكان الشعب منوطاً بالكلام (بسفسطائييه ومدرِّسي البيان والبلاغة فيه).

إن الرأي العام، الذي تعبر عنه، كما هو مفترض اليوم، الانتخابات (المهجورة على نحو متزايد بالإحجام عنها لفرط ما أن تأثيرها في الحياة طفيف جداً) مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتلفزيون سواء أكان التلفزيون جهازاً للدولة أو الحكومة أو كان قنوات خاصة بأيدي المشروعات الكبرى، أو فَرَضَ نفسه دولياً بالاحتكار العالمي لتخريب الإعلام مثل الـ C.N.N الأمريكية.

إن طابعها العام هو خضوعها لقوانين السوق، لوحدانية السوق التي تراقب الولايات المتحدة بصرامة استقامة سيرها.

الإعلام (لغة أو صورة) سلعة، تخضع بصفتها سلعة لمقتضيات المزاحمة والمنافسة حيث يمارس المال رقابة أشد عتواً من أشد الأنظمة شمولية.

إنه يملي البرامج تبعاً لعدد المشاهدين والمستمعين الذي يُؤثِّر، بحجة أن "المستهلك يحب ذلك، الإثارة والعنف والجنس أو الجدّة بأي ثمن (الركض وراء السَبْق الصحفي الذي يستبعد كل تحليل، وكل تفكير نقدي، وكل ثقافة، وكل فهم للواقعة، ليكون الراكض أول من يقدم هذا الطعام).

الإثارة لها الأولية

ماالخبر الصحفي؟ ليس الخبر الصحفي مايساعدك على فهم الاتجاهات ذات الوزن في المجتمع، وأن تحدد موقعك فيها وأن يوحي إليك بمسؤوليتك في تبدلاتها. وإنما هو مايروِّج للبيع عندما يكون المقصود الصحافة المكتوبة أو مايزيد عدد المشاهدين للقناة التلفزيونية (ومن ثم حجم الاعلان الناجم عن ذلك وتَعْرفته).

إذا كنت تحب امرأتك فذلك لا يعني أحداً. وإذا قتلتَها فذلك خبر تافه وهو يستحق مقطعاً صغيراً في الصحيفة أو ٢٧ ثانية في الأخبار المتلفزة. وإذا قطّعتها إرباً إرباً فذلك يستحق عموداً في الصحيفة أو ثلاث دقائق من البث التلفزيوني. أما إذا أكلتها (كما فعل مؤخراً أحد اليابانيين) فذلك هو المجد.

إن الاستثمار التجاري لهذه "السادية" لا حدّ له: من البث المباشر لاحتضار طفلة في مستنقع، وحتى التقديم الصحفي لإعدام امرأة حكمت بالإعدام ونفّذ

الحكم بعد أربعة عشر عاماً من وقوع الجريمة، يضاف إلى ذلك صورة السمرح السادي الصاخب للذين علموا بالنبأ واحتفلوا به في حانة على جرعات الويسكي.

والعنف مربح أيضاً: يشهد على ذلك تدفق الأفلام الأمريكية المثيرة. وهي كأفلام مكدونالد تسحر على الخصوص الأطفال إذ يجدون فيها، فضلاً عن العدوانية المتزايدة وجنحة الفتيان، نماذج من تقنية القتل قد يستلهمها على نحو متزايد، عدد متزايد من الشباب.

أما بالنسبة إلى البالغين فالصورة الكاذبة والمقابَلة الملفقة لهما عواقب أشد فتكاً: عندما تُخرَج من معرض الجثث في "تيميسوارا" جثتا امرأة وطفل (ماتا في زمنين مختلفين) وعندما ينجح المونتاج فإنه يوهم بحدوث مذبحة وحشية تشرط الرأي العام لتصوغه بحسب حاجات اللحظة السياسية.

وعندما يروي شاهد عيان في التلفزيون الأمريكي كيف أن الجنود العراقيين سحبوا رُضّعاً من مَحْضنتهم وكسّروهم على الأرض، فإن الرئيس بوش يتذرع بهذه الشهادة ليحمل الرأي العام على قبول تذبيحه لشعب بهذه الهمجية، ولذبح طفل كل ست دقائق بالمقاطعة، بعد ذلك بست سنوات.

ثم كُشِفَ النقاب، بعد إتمام العملية، أن شاهد العيان كان ابنة سفير الكويت التي لم تطأ أرض بلادها في اللحظة التي كانت فيها القوات العراقية في الكويت.

كان ذلك عملاً بالغ الإتقان لفعالية الصورة، لا كسلعة فحسب، وإنما كسلاح من أسلحة الحرب.

إن تعليم العنف وتعميمه بدأ في وقت مبكر. وتقدر الإحصاءات الأمريكية أن الولد من ٦ إلى ١٥ سنة يقضي نحو ٤٠ ساعة في الأسبوع وهو ينظر إلى التلفزيون أو يعالج ألعاب "الفيديو" (وفيها يستطيع مثلاً أن يعد نفسه بطلاً رياضياً وهو يلامس الأزرار دون جهد ليحقق انتصاراً).

إن التلفزيون، على جميع المستويات، يُنمّي السلبية ويتجه إلى التسوية من الأدنى، بحجة أن الجمهور يريد ذلك، والذي ليس له بالفعل سوى الاختيار بين

إنتاجات هؤلاء المرشدين غير الواعين، أشباه رجال رُفِّعوا إلى مرتبة نجوم عروض المنوعات ومبرمجي الأفلام.

تلك ثقافة تصنعها في هوليود "النُّخَبُ" المالية في العالم وتنوب عنها في "داكار" وباريس، و"تاييه" دورُ السينما، والتلفزيونات، واشرطة الفيديو.

إن التردد على دور السينما، وحضور الأفلام وكشوف قروض الفيديو، ومعدّل التنصت على التلفزيونات تشهد بذلك: فالأكثرية الساحقة لصور الحياة المبثوثة في العالم تتجه إلى نشر العنف والرعب، وذلك في الأفلام المثيرة للرعب؛ وإلى تمجيد أسطورة الأقوى الذي لا يُقهر، من طرزان إلى جيمس بوند؛ والعرقية وذلك في أفلام الغرب؛ والنظام والقانون وذلك في الأفلام البوليسية.

تعبُّد الأوثان والهيام بأشد حيواتها زيفاً، مع جميع بدائل المخدرات والديسيبيل.

تلك هي نتيجة دخول التلفزيون في منطق السوق وطقوسه الاعلانية.

أوضح "م. هيرسان" بوضوح القانون السائد: "أنا أقول إن الفيلم حسن وأن البرنامج حسن، عندما يقدّم الدعم الصالح للرسالة الإعلانية.

وهكذا تقوم دكتاتورية مشاهدي التلفزيون، بقياس عدد مشاهدي البث. وهذا العدد يشرط أسعار الإعلان وكذلك الاعتمادات الممنوحة للبرامج. أحد منتجي إذاعة المنوعات في القناة الفرنسية الاولى، السيد "البير انساليم" صرح لتيليراما: "كلما خفضنا المستوى ازداد الحضور؛ الأمر هكذا. هل ينبغي أن نتصنع الذكاء ضد المشاهدين؟ هؤلاء ليس عليهم أن يفكروا. إذن فلنكفَّ عن لعب دور مَنْ يعطي المواعظ".

إن في ذلك حثاً دائماً وحاسماً على الإغواء الرخيص، على الفوضى، على الخمول المداهن للرأي العام الذي يتلاعب به الإعلان ووسائل الاعلام، والتلفزيون نفسه الذي لا يروي بذلك التاريخ وإنما يصنعه. باتجاه التخلي، وعمى السوق وتفكك كل حس نقدي، وكذلك تفكك روح المسؤولية.. بدءاً من سَبْر الرأي العام لا لتعكسه بل لتتلاعب به، إلى البلاهة الخانقة للألعاب المتلفزة واليانصيب، وانتهاء بالأخبار التي ليست أخباراً والتي نُخضَع فيها لتأمّل كوارث

العالـم تأملاً بليداً. كل شيء يتجه، من جراء الانتهازية التجاريـة، إلى تبليـد الـرأي العام، دون أن يكون هناك شيء يمكن أن يساعدنا علـى فهـم الأحـداث في نهايـة الألف الثاني (إلا بمقدار من جنسها وبعد الساعة الحادية عشرة)، أو أن يرينا، علـى الأقل مشهد حياة إنسانية حقاً.

إن الحجة القائلة إن الجمهور لا يريد شيئاً آخر خدعة: إذ لا يُترك له الاختيار، في السبر، إلا بين السيء والأسوأ.

لقد مثّل "جيرار فيليـب" السيد Le Cid أمام جمهور مـن ١٥٠٠٠ مشـاهد متحمس، وغصت قاعة قصر "شايو" وكذلك غصت مسارح الضواحي عندما مثّل "جان فيلار" الـمآسي اليونانية القديمة وكذلك مسرحيات برتولت بريخت.

ليس الجمهور إذن هو الـمجرم وإنما الذين ينتزعون منه مدنيّته.

هاهنا شكل من أشكال تلوّث العقول أشد خطراً من كل إصابة لسلامة البيئـة الطبيعية والروحية.

ولذلك فإن الليبرالية الـمزعومة، في عُرف "إعلان الواجبات" لا ينبغي أن تدع للصحفيين، النجوم الـمزعومين الذين لا يعون الغايـات والـمسؤوليات التربويـة في رسالتهم، الحق في قتل الروح والجسد جميعاً.

من الـمفارقة أن يُطلب من الأطباء، بعد دراستهم الـمهنية لـمعالجة الأجسـام، قسَمُ "أبقراط"، ولا يطلب شيء شبيه بذلـك مـن الذيـن ينبغـي أن تكـون مهمتهـم تعليم ملايين الـمستمعين أو القراء أن يطرحوا علـى أنفسـهم أسئلة حـول مسـيرة العالـم وحول مسؤوليتهم الشخصية النقدية، في إعداد الـمستقبل. إنهم يُجمَّعون إما من مدارس الصحافـة وهـي أميَلُ إلى تعليـم تقنيـات النجـوع منهـا إلى التفكـير في الغائيات، وإما من الـمخفقين في الـمهن الأخرى، وذلك اسوأ؛ إذ يُجعَل ناقداً للفن والـموسيقا مَنْ لـم يستطع أن يكون مبدعاً في الفن وفي الـموسيقا، ومَـنْ لا يملـك سوى مبادىء أولية ثقافية صالحة لامتداح البِدَع السائدة أو حسـابات التجـار، ولا يُطلب منه أية ضمانة للـمسؤولية.

ولماذا لا يُطلَب منهم، بعد تعليمهم على الأقل مبادىء الثقافة والتساؤل الحقيقي عن الغايات الإنسانية لمهنتهم، "قَسَمُ هرمس" حول الواجبات الأدبية لحامل الرسائل، كما يُطلب قسمٌ أبقراط بعد انتهاء الدراسات الطبية؟

لن يكفي ذلك، لكنه يَلفت الانتباه إلى مشكلة من المشاكل الكبرى في زمننا. فلا يمكن للمدرسة وحدها أن تكفي لهذا التصحيح.

جميع أعضاء المجتمع المدني يجب أن يشتركوا في الإشراف على برمجة التلفزيون وإدارته، مثل جمعيات المستمعين والمشاركين في أجهزة المجتمع الأساسية: النقابية العمالية أو الزراعية، الجامعات، التجمعات الثقافية للفنانين أو لأعضاء المهن الليبرالية أو الحرفية. المطلوب الحصول على إشراف شعب بكامله لا الخضوع للدكتاتوريات، أو رقابة هذا الحزب أو ذاك، وذلك المشروع التجاري ذي الغاية التجارية، وتلك التجمعات الإعلانية التي تموّل البرمجة التلفزيونية وتأمر بها.

ليست الإصلاحات هي المقصودة هنا، كما أنها ليست المقصودة في أي مجال آخر، وإنما المقصود هو التحول، لأن أسوأ طوباوية في هذا الميدان وفي غيره، من الاقتصاد إلى السياسة وإلى التربية، هي "الوضع الراهن".

٣ ـ بتحول التربية

كيف نخلق تربية ذات وجه إنساني؟

الإنسان هو الحيوان الذي يخلق الأدوات والقبور. منذ داروين، بحث العلماء عن "الحلقات المفقودة" التي تسمح بالانتقال من تشريح القرود إلى تشريح البشر. وشيئاً فشيئاً، ومن بقايا إنسان "جاوه" الذي اكتشفه "دوبوا" في جاوه، في عام ١٨٩٠، وحتى اكتشافات "كيلي"، في عام ١٩٥٩، في "اولدوي" (في افريقيا الشرقية)، وإلى تابعيهم، تكاثرت هذه الحلقات، لكن حتى لو وُجدت أيضاً اكتشافات تشريحية، ووُجد علماء "إحاثة"[1] آخرون لسد هذه الثغرات إلا أن المشكلة ليست مشكلة تشابه الهياكل: إننا نتأكد من ولادة الإنسان عندما نجد بالقرب من هذه العظام في ماقبل التاريخ أدوات وقبوراً. هاهنا تقع ولادة الإنسان.

[1] علم الإحاثة علم يبحث في أشكال الحياة في العصور الجيولوجية السابقة. المترجم.

لقد بيّن ماركس الفرق الأساسي بين التطور البيولوجي والتاريخ الإنساني: لقد خضعت الحيوانات لأحدهما مؤبّدة الغرائز، وصنع الناس الآخر وهم يحوّلون الأدوات والبيئة.

لاشك أن القرد يستطيع أن يكسر غصناً أو يلتقط حجراً ليؤمّن حماية نفسه مثلاً، لكنه لا يلبث أن يرميه إذا زال الخطر. أما الإنسان فهو عندما يقطع عصاً أو صوانة يحتفظ بها كوسيلة للقيام بعدة أعمال تالية. إن هذه المداورة هي أول تجريد لفعل القتال أو القطع أو البناء.

والقبر شاهد آخر: لم تُترك جثة الإنسان في العراء لتفترسها الوحوش أو تتعفن. إن حفرَ الأرض، وتغطية الجثة، أو ترتيب الأحجار لحمايتها، أو دفنها أحياناً مع أسلحتها أو حتى مع المواعين والأطعمة، إن ذلك هو أول تأكيد أن الموت ليس نهاية الحياة البيولوجية فحسب، لكنه بالأحرى الانتقال إلى شكل آخر للوجود. والذي نظّم هذا الاحتفال الأول بما وراء الحياة الحيوانية طرح على الأقل سؤالاً عن المستقبل وإن كان محفوفاً بالأسرار.

وحملت الأسطورة جواباً عن هذا التجاوز. إنها ولادة المعنى من وراء الحدث. إنها الخطوط الأولى للتعالي، لاجتياز الواقع المدرَك والمعانَى من أجل تفسير أصله أو من أجل رسم غاياته.

هذا هو الإنسان. لقد بلغ حداً من العظمة يكفي فيه نفسه بنفسه، وهو يُسقط على الأبطال الذين يتجاوزونه طريق صنوفٍ عظمته الآتية: بروميتيوس يخترع النار والفنون، أو بالنسبة إلى الصينيين، الامبراطور "يو الكبير" الذي سيطر على التيارات وخلَق النظام في توزيع المياه.

هذه الأساطير ليست الأسلاف القاصرة للمفهوم، إنها تُسهم في تجاوزه، ولا تكتفي، كالمفهوم، بتقطيع الواقع، وإنما هي تستبق المستقبل.

الأسطورة

منطلق التربية هو هذا الفعل الخالق للإنسان. ومنتهى التربية أن تجعل من كل إنسان إنساناً، أي مبدعاً، شاعراً.

كيف إذن يحدَّد موقعُ الإبداع الفني في تطور فعل العمل الإنساني، فِعل إبداع الإنسان المستمر على يد الإنسان؟

كيف يمكن للأسطورة أن تكون مكوّناً من مكونات العمل لتحويل العالم؟.

إن كانت لغة التعالي، فهذا التعالي لا يمكن التفكير فيه بمصطلح الخارجية ولا القوة: لا التعالي من فوق، من الله، ولا التعالي من تحت، من طبيعة معطاة جاهزة.

الأسطورة ليست مشاركة إنها إبداع.

الأسطورة لدى ماركس ليست كما هي لدى "فرويد" ترجمة، ولو مصعَّدة للرغبة، بل إنها لحظة العمل. والفرق أساسي، لأن الرغبة امتداد للطبيعة في حين أن العمل تعال عليها.

إن جَعْل العمل رَحِمَ الأسطورة، مثلما أنه، على كل حال، رَحِمُ كل ثقافة في معارضة الطبيعة، يتيح لنا أن نرسم خط الفصل بين الرمز الحلمي والرمز الأسطوري. الأول تعبير أو ترجمة عن الرغبة، والثاني لحظة إبداع الإنسان المستمرة على يد الإنسان، بشكل شعري، نبويّ، مناضل، لكنه دائماً مستقبلي.

وهكذا يُنحّى الخلطُ بين الأسطورة الحقة وبين مايسمى خطأً بهذا الاسم: إذا كانت الأسطورة هي لحظة العمل هذه التي يتأكد فيها طُّوُّ الإنسان مع هذا البعد الجديد للكائن: فعالية المستقبل، فلا يجوز أن نسمي "أسطورة" ماهو إلا بقية من مخلفات الماضي ليس غير، العقل الكسول والمقصر للاستعارة أو للأمثال المقسرة للأسباب. وليست هي فوق ذلك مجرد نقل للحاضر أو محافظة عليه من خلال صورة تصبح قاعدة للسلوك. هذه القولبة الاجتماعية التي تحقق منها الدعاية ويحقق منها الإعلان، هي وهم واستلاب. إنها تتجه لا إلى إعلاء التاريخ بل على العكس إلى إيقافه بإعطاء الرغبة وجهاً فقط، وبترك الإنسان يدور على ذاته في دائرة الغريزة المغلقة. إن صور هذه القولبة متعددة، بدءاً من الدعاية الهتلرية عن العرق، أو الجنس وسيلةً للدعاية، إلى ذلك البديل المنحط للبطل الأسطوري الذي يكونه "الوثن" الذي يقدّم للشباب الوهم الذي يعوض عن حياة مستلبة، حياة بالوكالة من جراء تضخم الأسطورة: "ديانا" عن بيرينيس، و"مادونا" عن افروديت.

ثـمة أساطير لا تقدم لنا خدمة أو هي تضر بنا. إنها لا تفضـي إلى أي مكـان. وثـمة أساطير أخرى توجهنا نحو الـمركز الخلاق في ذواتنا، وتفتح لنا آفاقاً جديـدة أبداً وتساعدنا على تجاوز حدودنا. أساطير مغلقة، أو أساطير مفتوحـة، وهـذه هـي في الحقيقة الأساطير الحقيقية.

نحن نخص باسم أسطورة كل حكاية رمزية تدعـو الإنسـان إلى حقيقتـه في أن يكون مبدعاً، أي يُعرَّف قبل كل شيء بالـمستقبل الذي يبتكره، لا بماضي الجنس الذي يدفعه فقط بالغريزة وبالرغبة.

مثل هذه الأساطير ليست بالضرورة من منتجات العقلية البدائية.

إنها تتضمّن اقتلاعاً مضاعفاً من الـمعطى: من الطبيعة الخارجيـة ومـن طبيعتنـا الخاصة. إنها عودة إلى الأساسي: إلى الانسان الذي ينتصب ويحسن أن يقـول: لا!. إزاء كل ماهو معطىً كواقع.

كان ماركس يدعونا إلى تفسير سحر الأساطير العظيمة، الباقية عـبر العصـور، وكأنها تعبر عن طفولة الإنسان، رافضاً تحديد الواقع فقط بضرورة النظام القـائم في الطبيعة أو الـمجتـمع، سواء أكان الـــمقصود بروميثيـوس أو ايكـار، أو انتيغـون أم جلجامش وهم يجابهون الـمستقبل فيما وراء الـممكن حالياً.

في كـل أسـطورة عظيمـة، أكـانت شـعرية أم دينيـة، يمسـك الإنسـان بتعاليـه الخاص، بالنسبة إلى كل نظام معطى.

وذلك انطلاقاً من هذا البعـد الإنسـاني نوعيـاً الـذي هـو العمـل: أي حضـور الـمستقبل كخميرة للحاضر.

إن خاصية الأساطير العظمى "كانفتاح على التعالي"، هي "تحكّم" بالزمن أكثر مما هي "خروج" من الزمن. زمن الأسطورة العظيم يتيح للإنسان أن يحيا من جديـد فجر العالـم ـ لحظة الخلق، لا أن يدرك فقط أنه قطعة من الكـون، عالقـة في نسيج قوانينه، وإنما كقادر على التعالي عليه، وعلى التدخل كمبدع.

بروميثيوس أو انتيغون، ومثلها الحكايات الانجيلية، تقول لنا أن انطلاقة جديدة ممكنة، وأنني أستطيع أن أبدأ من جديد حياتي وأن أغيّر العالـم. هذا هو أثـمن ماقي الأسطورة من قدرة على الـمساءلة.

جاء يسوع ليكشف لكل واحد أن الحاضر ليس الحلقة الضرورية بين الماضي والمستقبل في حبكة المصير، بل إن "الحاضر هو زمن القرار". التعالي هو إمكان البداية المطلقة.

ليس التعالي صفة من صفات الله فقط لكنه بُعْدٌ من أبعاد الإنسان، والأسطورة تذكير بهذا التعالي، ودعوة موجهة إلى الإنسان في أن يمارس قدرته على المبادرة التاريخية.

وُلد معنى التاريخ مع أول إنسان، مع أول عمل، مع أول مشروع. وهذا المعنى يغتني بجميع مشاريع الناس. ويبقى مهمة ينبغي القيام بها وإبداعاً.

ليست الأسطورة إذن تقنية الخروج من التاريخ لكنها على العكس تذكيرٌ بما هو تاريخي نوعياً في التاريخ: فعل المبادرة الإنسانية.

البطل الأسطوري هو الذي يعي السؤال الذي يَطْرحه على الإنسان وضعٌ تاريخي، فيكتشف معناه (أي يتجاوز الوضع) وهو الذي يشكل انتصاره، أو حتى إخفاقه، لنا يقظةَ المسؤولية لحل مشكلات زمننا.

فليس ممكناً إذن أن يقال، كما يقول فرويد في "الطوطم والتابو" إن الميثولوجيا بالنسبة إلى الجماعة مثل الحلم بالنسبة إلى الفرد: الحلم ليس سوى ترجمة عن واقع موجود من قبل، والاسطورة دعوة إلى أن نتجاوز حدودنا؛ إنه كما قال بودلير عن أعمال "ديلاكروا": "تربية العظمة".

للعمل الدور الأول والمكوّن في تكون الأسطورة وهي لحظة منه. العمل الحيواني يَقَع على مجرد امتداد رغبة النوع وحاجاته، لكن مايميز العمل الإنساني نوعياً هو طَفْوُ المشروع، ابتكار نموذج يغدو قانون الفعل.

إن مايكوّن نوعية الرمز الأسطوري، بالنسبة إلى الرمز الحلمي، هو بالضبط طفوُ النموذج.

كتب "ليفي ستروس": "موضوع الأسطورة هو أن تقدم نموذجاً منطقياً لحل تناقض" ويضيف: "وربما اكتشفنا ذات يوم أن المنطق نفسه يعمل في الفكر الأسطوري وفي الفكر العلمي".

ميزة "ليفي ستروس"، أنه شدد، مثل باشلار، على الوحدة الوظيفية للأسطورة وللفرضية العلمية في مفهوم "النموذج" الذي يتضمنهما.

إن "هكتور" و"اوديب ملكا"، مثل تاريخ الآلهة، تساؤلات عن المعنى الذي يمكن للإنسان أن يكتشفه أو يمنحه حياته، وليسا فقط تعبيراً عما هو كائن، بل تساؤل عما يستطيع، ومطالبة بالمضي إلى أبعد منه.

ليس الواقع طبيعةً معطاة مع ضرورتها الخاصة فحسب، إنه أيضاً تلك الطبيعة الثانية التي يخلقها الإنسان والتقنية والفن، وهو أيضاً كل ماهو غير موجود بعد، الأفق المتحرك للممكن الإنساني.

لا يمكن أن تُدرَك الأسطورة فقط كعلاقة بالكائن وإنما كدعوة إلى الفعل. إنها لا تكشف لنا عن الحضور، بل عن الغياب، عن نقص، عن فراغ تُنذرنا بملئه.

هذه الأساطير تحمل شهادةً على الحضور الفاعل، المبدع، للإنسان في عالم لا ينِي يولد وينمو. كل عمل فني عظيم هو أسطورة من هذه الأساطير.

الواقع ليس معطيً لكنه مهمة يجب أن تُـودَّى. إن الانتقال من المفهوم إلى الرمز هو البحث مجدداً في كل نظام منته بمعنى منجز، وهو الوعي بأنه مُتناه فقط مقارنة باللامتناهي. المقصودُ، في هذه المرة، تحوّلٌ بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة: كنا حتى الآن متجهين، بالحواس أو بالمفاهيم، نحو ماصُنع من قبل، وتأمرنا الأسطورة بالاستدارة نحو ماينبغي فعله. إنها تدعونا إلى ألا نكون فقط بنّائين للأشياء أو حاسبين للعلاقات، وإنما أن نكون واهبين للمعنى ومُبدعين للمستقبل. الرمز يقتضي هذا الانفكاك إزاء الكائن، تجاوز الكائن في المعنى وفي الإبداع. يقول مَثلٌ بوذي: "عندما تُشير إصبع إلى القمر، ينظر الغبي إلى الاصبع".

إن تعريف الأسطورة كلغة للتعالي ليس نفياً للعقل لكنه تجاوز جدلي في عقل يعي أنه يتعالى على ذاته دائماً بالأنظمة الموقتة التي كوّنها من قبل.

الميثولوجيا هي السقوط الأصولي للأسطورة كما أن العلموية هي السقوط العقائدي للعلم. الميثولوجيا هي ادعاءُ الاحتفاظ بحرفية الأسطورة فقط لا بروحها، بمواد الرمز لا بدلالته. ماكانت أنتيغون لتهزنا لو لم تكن سوى العناد على إتمام شعائر جنازة "بولينيس"، وقيامة المسيح ماكانت لتزعزع حياة الناس

منذ ألفي سنة لو كان الموضوع يدور على مشكلة فيزيولوجية حلوية أو على الإنعاش.

إن الأسطورة، المتحررة من الميثولوجيا، تبدأ حيث يتوقف المفهوم، أي مع معرفة الفعل المبدع لا معرفة "الكائن". إنها ليست انعكاساً لكائن وإنما هي توجه إلى الفعل. ولذلك فهي لا تعبّر عن نفسها بالمفاهيم وإنما بالرموز.

إنها الفعل المبدع مُدرَكاً من الداخل، بالنية التي تحركه. هذه المعرفة، هذا المستوى من المعرفة ليس موضوعه العامُّ الشاملَ بل الشخصيَّ والمعيش. إنها تعطي الإبداع معنىً وتُطلق الفعل المبدع. هي نداء، هي فعل، هي شخص: "هاملت" و"ارجونا" و"فاوست" لا يمكن أن يُحصَروا في مفاهيم وإنما أن يعبَّر عنهم بأسلوب من السلوك الشخصي بتنشيط مبادرة البطل التاريخية.

الأسطورة، في أعلى معنىً لها، تقع إذن على مستوى المعرفة الشعرية وقرار الإنسان المسؤول والحر. على هذا المستوى فقط، مستوى إدراك الفعل المبدع والاختيار نستطيع أن نؤسس وأن نكتشف معنى الحياة والتاريخ. لأن هذا المعنى لا يُقتصَر اكتشافه كما يُكتشف المشهد من قمة الجبل: إنه لشيءٌ واحدٌ أن نتلقى المعنى بالمعرفة وأن نعطيه بالفعل، أن نعيشه، في الأسطورة، كمعرفة وكمسؤولية، أن نجوب، بمعرفة التاريخ الماضي، المنظرَ الشاملَ للتطور السابق وأن نشارك في الإنجاز العملي، المناضل لهذا المعنى. في الأسطورة ينكشف النظام بمعناه المضاعف الانسجام والأمر.

* * *

إن هذا التذكير بما يميز الإنسان عن الحيوان، والأسطورة عن المفهوم، تفكيرٌ ضروري وتمهيدي لكل محاولة فهم ما التربيةُ إذ نعطيها خطاً موجِّهاً لابد منه لتحديدها، وهو الدور الأولي للتساؤلات الغائية وحول معنى الحياة الإنسانية الحقة، وحول دور الفن كدعوة إلى الاستباقات المبدعة.

إن التحول السريع على نحو استثنائي لعالم القرن العشرين كان بحيث أن إنساناً بعمري (٨٥ عاماً) هو كالمولود في منتصف التاريخ البشري. لأن ماحدث

في هذا القرن من التجديدات والتغيرات أكثر مما حدث خلال ستة آلاف عام من التاريخ المكتوب.

وإذا شئنا ألا نقف إلا عند الاكتشافات الأساسية الثلاثة التي خلقت شروط النهضة الغربية في القرن السادس عشر: اكتشاف المطبعة بحروف متحركة (اخترعها الصينيون في القرن الأول الميلادي لا غوتنبرغ) الذي أتاح ديموقراطية الثقافة؛ والبوصلة، التي أتاحت الإبحار في عرض البحار وربط العوالم جميعاً؛ والبارود (الذي اخترعه الصينيون أيضاً كما اخترعوا الورق والمطبعة والبوصلة التي أدخلها العرب إلى أوروبا) الذي اتخذت منه أوروبا أداةً لسيطرتها العالمية، فمن الجدير بالملاحظة أن القرن العشرين قد أحدث تحولاً جذرياً.

أتاح الورقُ والمطبعةُ حتى ذلك الوقت للنخبة أن تتصور أنَسيّة القرن السادس عشر وثقافة الأقلية حتى القرن التاسع عشر (موسوعة ديدرو طُبعت في ١٥٠٠ عدد). وفي نهاية هذا القرن يُطبَع من الرواية الحائزة على جائزة مئات آلاف النسخ، ومن الشريط عدة ملايين، ويبلغ عدد مشاهي التلفزيون المليارات. و"الاتصالات" سواء أكانت عن طريق الإعلام، أو التلاعب بالعقول، لا تقاس، في آخر هذا القرن، بما كانت عليه في بدايته.

وكذلك الأمر فيما يتعلق بانتقال الناس وإيصال الأفكار: كان يوليوس قيصر ونابليون، وبينهما ألفا عام، يحتاجان إلى الوقت نفسه للذهاب من روما إلى باريس (الجياد والأبدال).

حلّقت طائرة لـ "رايت" أول مرة في ١٩٠٣ على عدة مئات من الأمتار. وفي ١٩٩٧، تستطيع الطائرة أن تدور حول العالم دون توقف في أقل من يومين. وفي ١٩٩٧ تُنجز المحطة الفضائية عدة دورات حول الأرض في بضع ساعات، وتستطيع أن تُنزل إنساناً على القمر.

أما وسائل الدمار فإن مدفع "واترلو" لم يكن مداه أكثر من القذائف المشتعلة لبيزنطة في القرن الثامن. واحتاج جنكيز خان إلى عشرة أيام لكي يبني في أصفهان هرماً من ١٠٠٠٠ جمجمة. وفي ١٩٤٤ أهلك القصف الجوي بالفوسفور ١٣٠ ألفاً من سكان "درسدن"، ودمرت القنبلة الذرية هيروشيما في بضع ثوان،

وفي آخر هذا القرن، مايزال مخزّناً مايعادل عدة ملايين من القنابل التي لها فعالية كبيرة.

* * *

مثل هذا التحول يتطلب إعادة التفكير وبشكل جذري في مشكلات التربية، مشكلة محتوى التعليم، وفي الوقت نفسه بنى نظام التنشئة.

جميع "إصلاحات" التعليم المزعومة في القرن التاسع عشر وفي القرن العشرين تمثلت في ترقيعات مع مخاصمات لا نهاية لها حول نسبة الكلاسيكي المدرسية (الكلاسيكي اللاتيني واليوناني) ونسبة الحداثة (الرياضيات ثم المعلوماتية) وفيما بعد حول مشكلات البنية أو مطالب المدرّسين المهنية.

ولم تُطرَح في أية لحظة قط المشكلة الأساسية: مشكلة غائيات التنشئة التي كان بإمكانها وحدها مع ذلك أن تسمح بتوجيه المحتوى والبنى في آن واحد. وفي هذا الميدان، كما في سائر ميادين الحياة الاجتماعية تغلّبت الحتمية على التعالي.

إن الحتمية التربوية، تمثلت، منذ قرون، في جعل التربية منهجاً لإعادة إنتاج النظام القائم. في العصر الوسيط كانت التربية موسسة على نظام الطبقات: بالنسبة إلى طبقة النبلاء، تأهيل الفرسان ليصبحوا محاربين أو قادة؛ وبالنسبة إلى الكنيسة إعداد رجال الدين ليصبحوا كهنة أو فقهاء وأحياناً رجال دولة. وكان الصانع يؤهّل العمال، والحرفيين في الرابطة، وأصحاب العمل. وكان الفلاح، المحصور في الإطار العائلي والمحلي، مقدَّراً عليه أن يصبح قنّاً لا يعطيه كاهن القرية سوى الحد الأدنى من التعليم الديني لضمان إذعانه.

لاشك أن الثورة الفرنسية سجلت انشطاراً بين عهدين. وكان المطلوب قبل كل شيء تنظيم البديل لتراتبات النبالة القديمة بالشَرْخ الجديد للمال المتولد من تطور الصناعات.

وهكذا قُدِّمت إلى المستوى الأول، في تقريري "كوندورسيه" و"لاكانال"، القيمة التربوية والأهمية الاجتماعية للعلوم والتقنيات، كما يُظهر ذلك مثلا، إنشاء المدارس المركزية في "السنة الثالثة".

كان المقصود إعداد الملاكات والجماعات للنظام الصناعي الجديد وذلك بإعداد الطفل للوظائف الاجتماعية وللمهن الجديدة، وبمحاولة إحلال دين مختلف عن الكاثوليكية التقليدية كعامل من عوامل التماسك الوطني. والتقرير المقدم إلى الجمعية التأسيسية ينطلق من هذا التعريف الموسوعي (الذي صاغه ديدرو من قبل): "يقوم فن التعليم على تقديم جميع المعارف الإنسانية في نظام عام".

تقوم الحضارةُ الغربية التي تزعم أن الحضارة قاصرة عليها، منذ "النهضة" على ثلاث مسلمات بَسَطتْ الفلسفةُ الانجليزية والفلسفةُ الفرنسية والفلسفة الألمانية، نتائجَها الكبرى، في الجوهري منها[1].

وبالرغم من ادعاء هذه الفلسفات العموميةَ والشمولَ، وإلى تجرّدها من تأثير الحوادث الممكنة الوقوع، إلا أن كل واحدة منها مرتبطة تاريخياً بتجربة نوعية في تطور برجوازيتها الوطنية.

إن من يُدعَون الفلاسفة الانجليز مرتبطون جميعاً بتطور الليبرالية الاقتصادية التي سمحت بالتطور الاقتصادي لشركة الهند، ومعظمُهم ـ وأهمهم ـ كانوا مستخدمين، ومثقفين عضويين (حسب تعبير غرامشي).

والمدرسة الفرنسية، وأبوها الروحي "ديكارت"، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بتطور الثورة الصناعية التي كان باعثها "الإوالية الديكارتية"، والتي كان "فلاسفة الأنوار" ورثتها الأشد صرامة. إن الثورة الفرنسية التي جعلت العلاقات السياسية على انسجام مع القدرات الاقتصادية الجديدة، سيادة البرجوازية، السيادة التي احتلتها الثورة الفرنسية ونظّرتها، والتي نظم بنيتها منهجياً نابلوليون، والتي أُعيد البحث فيها لبعض الوقت أثناء عودة الملكية، لن تقوم قائمتها إلا مع وضعية "اوغست

[1] انظر، في الملحق، هذا التحليل لتاريخ الفلسفة الغربية، لجذورها التاريخية ومسلماتها الخافية. (الغربُ عَرَضٌ. الانشقاق الثاني).

كونت" الذي حرص على تثبيت هذه السلطة ضد أية عودة لظهور النظام القديم والدين، وأيضاً ضد أية محاولة لتجاوز النظام القائم.

ظل التيار الوضعي كامناً تحت تصور العالم لدى كثير من الفيزيائيين أو علماء الأحياء، حتى القرن العشرين، مثلاً لدى "جاك مونود" في "المصادفة والضرورة".

إن السرعة المتعاظمة في تطور التاريخ والمشكلات الجديدة جذرياً التي تطرح نفسها، تتطلب تحولاً جذرياً في نمط التربية، وغاياتها، وبناها.

بيد أن التربية الوطنية سارت من تجديد رديء إلى تجديد رديء، من إصلاحات إلى إصلاحات، بدءاً من "جول فيري" إلى وزراء التربية الوطنية الحاليين.

كان "بونتاغرويل" و"أميل" بطَلَيْ البحوث الفلسفية التي يعالجها الطلاب (العلم دون الضمير تدمير للنفس) لكن لم يفكّر أحد في مؤسسة تربوية لاستقبالهما؛ إن تلاميذ المعلم "الكوفيبراس" أو "روسو" سيكونون، بالنسبة إلى مدارسنا حاملين غير مرغوب فيهم لأنهم سيصرون على طرح الأسئلة التي لا تُطرح أبداً: أسئلة عن غائيات التربية.

هذه المشكلة وحدها يمكن أن تعطي الحياة معنى، وأن تمنح المجتمع تماسكاً، من خلال هدف عظيم، ومشروع مشترك عظيم.

خلال القرن العشرين جرى البحث عن بديل في العلمانية. إن فصل الكنيسة عن الدولة، ممتاز من حيث المبدأ، لكنه سرعان ماانحلط، لا باحترام إيمان كل واحد أو إلحاده، وإنما باستبعاد ماهو جوهر الإيمان بعينه: الأسئلة حول الغايات النهائية للحياة الشخصية والاجتماعية.

وهكذا فإن هذا الدين الجمهوري الجديد لم يسهم في خلق الاجماع وإنما على العكس في خلق الخلاف، سواء في معارضته المدرسة الحرة (أي المدرسة الطائفية على العموم، وعلى نحو أدق، المدرسة الكاثوليكية) أم الخصومات العرقية لمنديل بعض الفتيات المسلمات اللواتي زعم المذهب العلماني (لا العلمانية) أنه رأى فيه هجوماً دعائياً إسلامياً (لا مسلماً)، في حين أن مثل صرخة الغضب هذه لم تُطلَقْ ضد حمل الصلبان المسيحية المكشوف أو الرموز اليهودية. كانت هذه

الـمناوشة الـمضحكة ضد ٤٢ فتاة هدد منديلهن الجمهورية! (والكثير من الـمدرسين السُذّج ـ بما فيهم الروابط التعاونية، قد انساقوا كالثور أمام الرداء الأحمر، دون أن يروا أن العرقية تضع قناع الدفاع عن العلمانية).

وأعمق من ذلك وأكثر ديمومة الخصومة بين الـمدرسة الدينية والـمدرسة العلمانية.

نستطيع أن نفهم حوافز الـمدافعين عن الـمدرسة الدينية (التي تدعى: الـمدرسة الحرة) أمام قصور الـمدرسة العامة التي تستبعد تكوين الإنسان، أي البحث عن معنى الحياة باستبعادها جميع النصوص التي تطرح هذه الـمشكلات في جميع الروحانيات وجميع الحِكَم من أنبياء العهد القديم إلى آباء الكنيسة، ومن الـمتصوفين الـمسلمين إلى زهّاد الهند. هذه الـمدرسة تجعل الناس دون معالم، وتسلمهم إلى علموية إنسان الحاسوب معتقدة أنها تجد في الآلة، وهي الـموفرة العجيبة للوسائل، أداة لاكتشاف الغايات. وكان من الـمؤكد أن مدرسة أخرى ستطالب بسد هذه الهوة في عالم لا يعمل دون إله فقط وإنما دون إنسان. عالم اللامعنى.

وكانت النية إعطاء الولد الضائع بين السماء الفارغة وهذه الأرض الغارقة في الفوضى، معالم وغايات، كانت لا جرم، أمراً ثميناً.

كان ذلك ممكناً لو حوفظ على توجيه البابا النبوي يوحنا الثالث عشر ومجمع الفاتيكان الثاني الذي أعلن أن الكنيسة في الطريق التي افتتحها يسوع ليست مهمتها قيادة العالم بل خدمته. هذا اللقاء الرائع مع العالم كان بوسعه أن يساعد على التخفيف من الانشطار.

لكن الكنيسة الكاثوليكية مالبثت أن عرفتْ شيئاً فشيئاً جموداً بسبب عودة الـملكية الكنسية التي ارتسم أوضح تعبير لها (بعد إدانة لاهوت التحرر الذي ترجم إلى أفعال مقاصدَ الفاتيكان الثاني ولاسيما في دستور Gaudium و SPS)، في تعاليم ١٩٩٢ التي ردتنا إلى مجمع "ترانت" في ١٥٤٥.

أعلن كاهنٌ أصولي على واجهة كنيسته: "هنا تجد الجواب"، فكتب ولد بالحوّار على الباب: "لكن اين السؤال؟".

وهكذا طرح أبسط الناس المشكلة الأساسية: هل الإيمان من باب السؤال أو الجواب؟.

هذا هو العمق الإنساني (سيقول آخرون الالهي، لكني أعتقد وقريباً من هذه اللغة، أنه لا إنسان دون إله ولا إله دون إنسان، كما سنحاول أن نشير إلى ذلك فيما بعد) لمشكلة العلمانية. وهي مشكلة تُطرح طرحاً سيئاً ولا تجد حلاً عندما تُخلط العلمانية مع إلحاد الدولة (كما كان هناك دين للدولة)، ويُخلط الإيمان مع طاعة الكنيسة (وهي كنيسة تعتبرها تراتبيتها وكأنها المدينة الكاملة، والعالم بأسره قُدِّرت عليه الطاعة لها).

بين أصوليتين متناظرتين لا إمكان لأي حوار. ولن يؤدي الحوار إلا إلى تسوية بين مثالين فاسدين. **إن المشكلة الأساسية للتربية لا يمكن أن تُطرح إلا فيما وراء هذه التناقضات الزائفة.**

ولن نعرض إلا إلى ثلاث لحظات منها: تعليم القراءة والتاريخ والفلسفة، لأن كل شيء في نظامنا التربوي الحالي يجب أن يعاد بناؤه انطلاقاً من البداية، من الأسس. ولنبدأ بتعليم القراءة.

* * *

كشف تحقيقٌ للـ OCDE[1] أن ربع السكان البالغين في العالم "النامي" يواجهون صعوبات حادة في القراءة والكتابة.

ملايين البالغين يجرون على حافة الأمية في البلاد النامية ١٠٠٪ تقريباً من قرعة السن الواحد في فرنسا ـ بموجب تحقيق حديث للـ (INSEE)[2] أُنجز مع المجندين الجدد ـ يجدون صعوبات كبيرة في القراءة. وبالإجمال ثلاثة ملايين وثلاث مئة ألف شخص تطالهم الأمية في فرنسا (أي ٩٪ من السكان البالغين). لكن النتائج في بلدان أوروبية أخرى مشابهة تقريباً. في ألمانيا، ذُكر رقم ثلاثة

(١) منظمة التعاون والتنمية الأوروبية ـ المترجم.

(٢) المعهد الوطني للإحصاء والدراسات الاقتصادية ـ المترجم.

ملايين شخص إذا مافُهم بالأمية "العجز عن قراءة وكتابة عرض بسيط وقصير للوقائع المتصلة بحياته اليومية، مع فهمه". (تعريف اليونيسكو).

وفي انكلترا، وبموجب تحقيق نشرته دائرة الإحصاء الوطنية، كل بالغ من خمسة أي ٨,٤ ملايين من البريطانيين، مستوى تعلمهم القراءة والكتابة غير كاف. وبين الـ ١٦ ـ ٦٥ سنة، ٢٢٪ عاجزون عن فهم خبرين مكتوبين، وعن قراءة صحيفة، وأن يفهموا جدول المواعيد، وأن يملؤوا بياناً.

وتحتفظ الولايات المتحدة، بين البلاد التي تدعى نامية، بالرقم القياسي في الأمية، شأنها في جميع مظاهر الانحطاط.

فقيما عدا الجامعات العالية المستوى، حيث يكلّف تعليمُ الطالب الأسرةَ من ٢٠ ألف دولار إلى ٣٠ ألف دولار في السنة للدراسة وحدها، وفيما يتعلق بجماهير الطلاب "أخذ نظام التربية الأمريكي ينهار"، هذا ماخلص إليه تقرير اختصاصي جامعة كولومبيا. ٤٠٪ من الشباب الأمريكيين الذين يدخلون الثانويات (التي تقابل التعليم الثانوي الفرنسي) يعترفون بأنهم لا يحسنون القراءة السليمة، و٢٣ مليون بالغ (حوالي ١٠٪ من السكان) أميون.

إن انحطاط مجتمع تحكمه قوانين السوق العمياء وحدها يولّد بالضرورة، وفي غياب كل مَعْلم وكل معنى، بلبلة بين المعلمين، وعدم اهتمام جزء كبير من الشباب بالمؤسسة المدرسية، والعنف الأعمى في نظام اجتماعي مبني على الصراع التزاحمي من الجميع وضد الجميع، وغياب الشعور بالانتماء إلى جماعة لدى ملايين العاطلين والمستبعَدين الذين يحسون بعدم جدواهم في المجتمع، وبغياب منظور المستقبل، وغياب معنى مثل هذا المجتمع.

إن درجة الانحطاط التي بلغها حالياً، لا النظام التربوي الحالي وحده، وإنما المجتمع الذي يعكسه ذلك النظام، تتطلب شيئاً آخر غير الإصلاح، أي التكيف مع الضرورات الجديدة، لأن هذا المجتمع لا يتوافق بالضبط مع أية ضرورة إنسانية، تتطلب تحولاً جذرياً. إنها تدعو إلى تفكير أساسي في غائيات التربية وقلباً كاملاً لمعطيات المشكلة. الفكرة الأساسية أمام التفكك الاجتماعي الذي بلغته اليوم مجتمعاتنا، مجتمعات السوق، هي أن التربية لا يمكن أن يكون هدفها بعد الآن

تكيّف الإنسان مع الفوضى القائمة، بل على العكس من هذه الحتمية التقليدية منذ قرون، مَنْح الإنسان وسائل التعالي، وابتكار تصور جديد للإنسان والمجتمع، والعالم. لا يجوز للتربية أن تظل انعكاساً، بل ينبغي أن تكون مشروعاً.

نقف فقط عند ثلاثة أمثلة لهذا التحول التربوي: القراءة والتاريخ والفلسفة.

* * *

كل شيء يبدأ مع القراءة التي بها بدأ التصور الكامل للثقافة. وهنا أيضاً، إذا كان تاريخ الإنسانية المكتوب يعود تاريخه إلى نحو ستة آلاف سنة، فمن الضروري أولاً أن نفهم عمق التحول الذي جاءت به الكتابة للانتقال مما قبل التاريخ إلى التاريخ المكتوب الذي يستخدم فيه الإنسانُ الكلامَ والإشارة لا ليشير بالصوت إلى خطر يتهدد الجماعة، كما تفعل الحيوانات بصراخها لتنذر بالقتال والهرب أو الطيران، وإنما ليخلق مستقبله الخاص به.

منذئذ صنع الناسُ تاريخهم: فالكلامُ المكتوب أداةٌ لتحويل الوسط والجماعة، ولنقل المعرفة الفاعلة، ولإعداد تحولات جديدة.

لن نحدد، من تعلم القراءة، سوى الخطوط الكبرى لأن عمل "باولو فريري"[1] يعطينا الطرائق الرئيسية لتحقيق هذا الهدف العظيم: التربية ممارسة الحرية، الهدف الذي يُعْتَبَر تعلم القراءة بالنسبة إليه وعياً للواقع (توعية).

تعلم القراءة ليس فقط حفظاً وتهجية للكلمات، إنها تعلم حل رموز الواقع مع العلم بما تكشف النقاب عنه الكلمات، أو على العكس بما تستره.

إن الطلاب الجاهلين القراءة والكتاب لدى دخولهم المدرسة الثانوية ليسوا أميين فقط لأنهم لا يقدرون على فهم النص أو تلخيصه مع معرفتهم قراءة كل كلمة منه، بل لأنهم حتى لو عرفوا كيف يفعلون ذلك لعجزوا عن حل رموز الكلمات التقليدية، والأحابيل، والتناقضات التي تخفيها.

---

[1] انظر بخاصة، في اللغة الفرنسية: "التربية: ممارسة الحرية". (سيرف ١٩٧٨) وتربية المضطهدين. ماسبيرو ١٩٧٤.

معرفة القراءة ليست ترجمة شفهية للعلامات المكتوبة في صحيفة أو كتاب، وإنما هي معرفة قراءة الواقع، وحل رموز الكلمات ـ الأحابيل، وتكوين رؤية واضحة للعالم وانشطاراته من أجل تحويله.

لا يقبل "باولو فريري" التمييز الأولي بين المعلم والمتعلم. التربية، قبل كل شيء، حوار. وفي "الحلقات الثقافية" التي يعقدها مقدمها (وليس ضرورياً أن يكون اختصاصياً)، المهمة الاولى له أن يُصغي، وأن يتعلم ما المشاغل وما الحاجات لدى هؤلاء الذين سيشرع معهم في الحوار التربوي.

عمله الأول كتربوي هو أن يصغي، أن يكتشف مع المجموعات التي اندمج بها الكلمات الجوهرية التي ينبغي أن يحلوا رموزها معاً مع عدم الفصل بين الكلمة وما تمثله (مثلاً بإسقاط نور مشعّ على صورة تكون فيه الكلمة متبوعة بما تشير إليه) مع الشروع في الحوار حول مايضعه كل واحد تحت الكلمة وتحت الصورة، من خلال تجربته الشخصية.

إن تعلم القراءة لا يمكن أن يكون تذكراً للعلامات وإنما هو وعيٌ ماتعنيه. أي من الواقع الذي تقصده، والمشكلات والتناقضات، والحركة التي تبعث الحياة فيه.

الصورة، أو بالأحرى الاستكثار من الصور وتبايناتها، يتيح هذا الوعي. الصورة لا تلعب مجرد دور "التصوير الممثل للشيء" مثلما يرسم كتاب الألف باء هراً قرب الكلمة، وإنما دور الموقظ للتفكير.

إذا درستُ كلمة "لباس" فليس ذلك لأقرأ تعريف المعجم: "اللباس هو كل مايصلح غطاءً للجسد"، بل لأفكر، عبر تصادم الصور، في الواقع الاجتماعي والإنساني الذي ترجعنا إليه الكلمة: في الرسم أو في الصورة، هناك بنطال مفرط الاتساع للأخ البكر، برقعه وبالخيط الذي استخدم كزنار لمنعه من الانزلاق، وربما صُوِّر بجنبه عرضٌ لمشاهير الخياطين أو مشاهد للقاعات الاجتماعية اللاهية. وتلك طريقة أخرى لتغطية الجسد..

إذا كتبتُ على اللوح: مسكن التي يعرّفها المعجم كما يلي: "المكان الذي نقطنه عادة"، فإنه صورة المتسول الذي ينام عند فوهة تهوية "الميترو" ليحتمي من البرد، وعلى جسمه بضع صحف لتحفظ الحرارة، هو المكان الذي "يقطنه

عادة"، مثل مدن الصفائح للمستبعدين، ومثل الـ (H.L.M) المساكن الخربة ذات الأجرة المعتدلة، أو صالون في دارة في "نويي" حيث يقطنه "الآخر" عادة.

المقصود شيء آخر غير التعريف: المقصود الوعيُ والعملُ الذي يزرعه الوعيُ".

نحن نخرج من التجريد اللفظي لنُعدّ الطفل كي يكون إنساناً، أي بانياً للمستقبل.

وإلا ظل أمياً، عاجزاً عن حل رموز الحياة ومعناها، حتى لو عرف كيف يتلجلج في العلامات، ويكرر تعريفات المعجم المجردة.

وحينئذ، سيكون مستعداً لازدراد جميع الكلمات المحشوة بالتجريدات:

والطفل الذي سيتربى على هذا النحو سيقرأ، دون أن ينتفض، مادة "الإعلان العام لحقوق الانسان" ١٩٤٨ حول المساواة في الحقوق. هذه المساواة أمام القانون ستبدو له شديدة الوضوح: يحرّم على العاطل عن العمل أو على صاحب الملايين سرقة رغيف الخبز، ويسمح لكليهما أن يبني مقراً ثانوياً في "كان" أو في "ميجيف". تلك مساواة لا غبار عليها أمام القانون، أساس كل ديموقراطية.

وفي جميع مستويات التعلم من القراءة إلى تعليم الفلسفة أو الإدارة تقوم الوظيفة الأولى للنظام التربوي على دمج الفرد في الفوضى القائمة مع استقطابها المال والسلطة من جهة، ومن جهة أخرى القبول المستسلم لـ "الأمور هكذا. وينبغي التكيف معها".

ذلك هو السرّ الأكبر "للفكر الوحيد" أي "اللافكر، للخضوع إلى الكائن، الذي يعرّفه معجم لاروس في عُريه التام: "كل ماهو كائن".

تعلم القراءة لن يكون حينئذ تعلم قراءة الكلمات والجمل، وإنما قراءة العالم الواقعي بتناقضاته واقتضاء تغييره.

وها هنا العكس تماماً لما دعاه "باولو فريري" تعلم الحروف الهجائية "المصرفي" الذي يقوم على تذكر وتكديس العلامات التي يضطلع التعليم بعبء خزْنها لدى المتعلم دون اهتمام بحاجاته الخاصة.

وهذا منذ البدء إعطاء مفهوم منحرف عن الثقافة وعن التنظيم الاجتماعي المزدوج.

ينبغي للتربية أن تمنح كلَّ واحدٍ وسيلةَ التفكير في الواقع وتحقيق أفكاره

في حين أن كل شيء، في النظام المدرسي الحالي، يغمر الولد في عالم غير واقعي، مُلقِّناً إياه أيديولوجية تبرير السلطات.

* * *

بدءاً من التاريخ الذي كان "بول فاليري" يقول عنه، في صفحات نبوية من "نظرات على العالم الراهن"، مقارناً بين مختلف الكتب المدرسية في أوروبا:

"تطمح أوروبا بشكل ملحوظ إلى أن تحكمها لجنةٌ أوروبية. فكل سياستها تقود إلى ذلك..." (طبعة Pleiade ص ٩٣٠). (كُتِبَ ذلك في ١٩٣٨ قبل خطة "مارشال" بعشر سنوات وقبل "ماستريخت" بأكثر من نصف قرن.

ولخص بعد عدة صفحات (ص ٩٥٥): "التاريخ هو المنتَج الأشدّ خطراً وهو أخطر مما أنتجته الكيمياء... إنه يدفع إلى الحلم، ويُسْكر الشعوب، ويولِّد لها ذكريات زائفة... ويقودها إلى جنون العظمة أو إلى جنون الاضطهاد... التاريخ يبرِّر ماتريد. وهو لا يُعلم شيئاً على نحو دقيق، لأنه يحتوي على كل شيء ويَضرب أمثلة على كل شيء... في وضع العالم الراهن".

وبعد عشرين عاماً سقول "كينيت بولدنغ" بقسوة أشد: "الأمة هي إبداع مؤرخيها". (يوميات النزاع. القرار ٣. ١٩٥٩ ص ١٢٢) لفَرْط ماأن الحرب العالمية الثانية قد أثبتت صحة حكم فاليري الرهيب.

وكان "هنري بيرين"، وهو اختصاصي في هذا الميدان، قد كتب في عام ١٩٢٣ أن "المؤرخين يتصرفون مع الأمة كما يتصرف المهندسون مع زُبُنهم: إنهم يخترعون تاريخاً قابلاً للسُكنى". (منهج المقارنة في التاريخ).

ولنقف عند مثالين من هذه المركزية الغربية التي تُنكر وجود الآخر أو على الأقل تنكر قيمته وثقافته. أولاً فيما يتعلق بدور التاريخ المدرسي في خلق الأساطير

المؤسسة للتماسك القومي، ثم الازدراء الاستعماري وما بعد الاستعماري لقيم الآخر الذي ليس لنا أن نتعلم منه شيئاً عبر "حوار الحضارات".

أ ـ خدعة فكرة الأمة

أولاً خدعة فكرة الأمة. مثلاً فكرةٌ فرنسا أبدية يُعاد بناؤها بالعودة إلى الماضي على نحو مغلوط تاريخياً وذلك بإسقاط الشكل السداسي الحالي على الماضي، وبحيث تُسبَغ عليها، حتى قبل وجود الشعب الفرنسي، صفات الشخصية الفاعلة تبعاً لهدف، مهما يكن من جهة أخرى الأصل الأسطوري المعيّن لهذا الفاعل.

إن بلادنا قد وُجدت دائماً أو سبق وجودُها واقعها الراهن. إن "تاريخ فرنسا" الذي وضعه "لافيس"، وكذلك تاريخ "ميشليه" من قبل، استخدما كقالب لصُنع الأسطورة، وبالرغم من التقدم الهائل "لمدرسة الحوليات"، إلا أن القالب لم يحطَّم تماماً.

"منذ ألفي سنة كانت فرنسا تدعى بلاد (الغول La Gaule)... وفيما بعد غيرت اسمها ودعيت (فرنسا). ولا يهم إن كان تجميع الأراضي التي تشكل اليوم فرنسا قد كان نتيجة سلسلة من الحروب والفتوحات والمذابح إزاء الناس والثقافات.

هذه الإلهة الأسطورية القائمة على التخيلات الخداعة لها صفات الشخصية التي تُلاحق هدفاً محدداً جداً: تحقيق النظام الحالي.

المنطلق فيه مخاطرة وهو منوط بسلطة اللحظة الحاضرة.

على كل حال فرنسا أبدية: لقد نزلت من عند الله. إن ملوكها، ملوك الحق الإلهي، بأسلافهم التوراتيين، جسدوا وحدهم، خلال قرون، فرنسا وطموحاتها في الاحتلال. وإذا صدقنا "جان لومير" البلجيكي نحو ١٥١٠ في كتابه: "صور بلاد الغول وفرائد طروادة" فإن ملوك فرنسا تحدّروا من الابن الرابع ليافث، وهو ابن نوح. وبكلمة واحدة إن فرنسا تنتهي بأصولها إلى آدم نفسه، إن لم يكن إلى الله. لكن يضاف إلى ذلك إرث غني هو الإرث اليوناني ـ الروماني: أحد أعضاء هذه

الأسرة الملكية، هرب طريداً إلى آسيا، وأسس طروادة، حاملاً الحضارة (الغولية) إلى اليونان وإلى روما.

في "الوقائع الكبرى لفرنسا" التي كتبت في آخر القرن الثالث عشر، في دير (سان ديني)، كان أول ملوك فرنسا هو "فارامون" (وذلك وارد في إعادة طبع كتاب "راغوا" في عام ١٨٣٨ عن تاريخ فرنسا).

وفي "الفرانسياد" لرونسار المقدمة للملك المسيحي جداً، يستعيد الشاعر ميثولوجيا الأصل الطروادي للملكة الفرنسية مع مؤسسيها الخرافيين: فرانسيون، فارامون، الخ... ولهذه الميثولوجيا صورها المختلقة، مثلاً التعارض بين العامة المنحدرين من الغاليين الرومان وبين الارستقراطية الفرانكية (أي من أصل جرماني) وهو تعارض لن يُحسَم الجدل فيه إلا مع الثورة الفرنسية التي قضت على الخصام بأن أحلت امتيازات المال محل امتيازات الدم.

إن هذا التذكير بالميثولوجيا القومية ليس استطراداً لأن التصور الأسطوري للتواريخ القومية مايزال يُحدث دماراً في عقول الشعوب وفي أجسادها.

إن فرنسا، حتى بعد مذابح اليهود، ومسيحيي بيزنطه، أو مسلمي القدس، حتى بعد إبادة المانويين، وبعد أن حمل الملك القديس لويس لليهود "الشريحة المستديرة"، (وهي قطعة من القماش الأصفر على شكل دائرة ــ لا نجمة)، إن فرنسا حيث فتكت مجازرُ "سان بارتيليمي"، وقمعُ لويس الرابع عشر، ووحشيةُ القمع "الفاندي" في عهد الثورة الفرنسية، ومذابح نابليون الأوروبية (الذي يظل، مع ذلك، بطلاً قومياً في حين أنه ترك فرنسا أصغر مما كانت عليه عند مجيئه)، وبعد أن بنت امبراطورية استعمارية بفعل تلك المذابح، بغض النظر عن مشاركتها في حرب الأفيون في الصين، أو تجارة الرقيق الأسود في جميع مرافئنا على الأطلسي، تظل جندي الله والحق.

هذا الماضي المجيد هو التبرير الرسمي للعرقية القومية التي صاغ نظريتها، في الجمعية الوطنية "جول فيري" في ٢٨ تموز ١٨٨٥: "يجب أن نقول بصراحة إن العروق العليا لها بالفعل الحق حيال العروق الدنيا".

فرنسا هذه تظل أبدياً "جندي الله" أو "جندي الحق"، حسبما يكون المطلوب الاحتفال بعمادة "كلوفيس" في ١٩٩٧، أو الاحتفال بطريقة بغيضة ومضحكة بالمئة الثانية للثورة الفرنسية، غير مستبقين منها سوى إعلان من ورق يستبعد من حق التصويت ثلاثة أرباع الفرنسيين.

ميثولوجيا الأمة هذه ليست على كل حال خاصة فرنسية، سواء أكان المقصود الامبريالية الانجليزية الجزارة في الهند والتي يمجدها "روديار كيبلنغ" ودعاها "عبء الرجل الأبيض"، أو الوحشية النازية باسم "التفوق الآري"، أم الاغتصاب والاستبعاد والقمع الوحشي في دولة إسرائيل باسم وعد الله القبّلي.

وباسم قَدَر الولايات المتحدة الظاهر وهي التي ماثَلَ محتلوها الأوائل من الطهريّين الانجليز بين الهنود وبين عمالقة يشوع مبررين سرقة الأراضي من الهنود، وقمعهم أو مجازرهم.

نستطيع أن نتأمل حتى الآن، على أطراف خرائب "ساحة" روما، خرائط الامبراطورية الرومانية التي كان موسوليني يعتقد أنه الوارث لها، مبرراً مذابحه الافريقية حتى الحبشة.

إن استخدام الكيان المجرد لفرنسا أبدية سبقت شعبَها وتاريخَه، أكان الموضوع "كلوفيس"، أم جان دارك أو عيد الاتحاد الذي ترأسه "لافاييت"، يمكن أن يبرر جميع الجرائم حتى اللحظة التي نَعْدِل فيها عن الميثولوجيا إلى التاريخ، فنتعرف على فرنسا ١٩٩٨، وهي خَلْقٌ مستمر مصنوع من مزيج عشرين عرقاً، وقد اغتنت ثقافتها بكل من هذه العروق، أكانت مثلاً من شعراء "اكيتانيا" الجوالين الذين استلهموا، كما يذكر ستندال، تصورات الحب والشعر من شعراء الأندلس العرب، واسبانيا المجاورة، أو القصائد البريتونية الملحمية للملك آرثر، والثقافات المتوسطية لليونان والرومان، أو التأثيرات الجرمانية، ومن الموسيقا إلى الفلسفة، بمسيرات الشرق التي هزت وأغنت الثقافة الفرنسية.

هذا النقد التاريخي الذي يُنهي الكيانات الميتافيزيكية للميثولوجيا، له أهمية رئيسية ليحل اليوم الخصومات الزائفة حول المواطنية والهجرة.

خصومة زائفة هي المواطنية القائمة على حق الأرض أو حق الدم، وكأن الانتماء إلى جماعة منوط بالعوامل الخارجة عن الإنسان وعن حساسيته: أنْ يولَد الإنسان في مكان معين غير منوط بالأنا ولا يمكن أن يكون إذن سبباً للافتخار أو المذلة.

أما حق الدم فهو يستند إلى عامل آخر مستقل عن إرادتي: كحق الحيوان في أن يكون فيلاً أو ضفدعاً.

الرابط الوحيد الإنساني حقاً، لجماعة إنسانية حقاً، هي المشاركة في مشروع مشترك والإسهام في تحقيق هذا المشروع، الذي هو تراث مشترك للإنسانية التي تُعتَبَر كلاً. كل شعب، بثقافته الأصيلة يشارك في تأنيس الإنسان، في نموه الحقيقي وتطوره في الإنسانية.

وكذلك الأمر بالنسبة إلى الهجرة التي لا يمكن أن تكون، بحسب القواعد المولدة للتفاوتات المتنامية لوحدانية السوق، مسألة استبعاد منافسين في سوق العمل وفي السوق العادية، وإنما مسألة حوار يُشارك فيه كل واحد لتوسيع رؤية الإنسان والمشروع الإنساني لكل واحد (مثلاً، تبادل وتقاسم معنى الجماعة لدى البعض ومعنى الشخص لدى الجماعة الأخرى، في صراعٍ مشترك ضد فردية الغاب أو شمولية الأرَضة).

وكذلك، التبادل والتقاسم للإفلات في آن واحد من تصور عقائدي جامد للدين الذي يطمح إلى الوصاية على المجتمع بأسره، وعلمانية تستبعد البحث عن الغايات الأخيرة، للنضال معاً من أجل وحدة الإيمان ومن أجل الإخصاب المتبادل للثقافات والمؤسسات التي عاش فيها هذا الإيمان.

ينبغي إذن أن تتحول جذرياً مكانةُ التاريخ في التربية. لا يمكن أن يكون المقصود بعد الآن أن تكون الكتب المدرسية التي تتتابع وينسخ بعضها بعضاً انطلاقاً من نموذجين أو ثلاثة مغيرة طرائق عرضها لكنها خاضعة جميعاً للمنطق نفسه، ناقلةً لفكرٍ وحيد، للأساطير حول أصل الأمة أو التكون التاريخي لها الذي يشكل مواطنين ذَوي فكر وحيد لما هو منضبط سياسياً. هذه الأساطير يزداد

أذاها كلما اقتربنا من الوضع المعاصر، بدءاً من محرمات الحرب العالمية الأولى التي حققت فيها "جنود الحق" وحدة مقدسة ضد العدو المتوارث.

بعد الحرب العالمية الثانية ومحكمة "نورمبرغ" حيث مُنِع أي ذكر للأسباب المولدة للوحش النازي (منذ معاهدة فرساي التي جعلت صعوده ممكناً، حتى عام ١٩٣٣ الذي أصبح فيه، بأكثر الطرق ديموقراطية، طاغية في شعبه)، مع دعم العالم الرأسمالي بأسره الذي رأى فيه منذ ١٩٣٣ أفضل "معقل ضد البلشفية". وقد رحب به على هذا الأساس تشرشل، وكذلك رؤساء الكنيسة الألمانية، (وعلى إثرهم جميع الكنائس التي دعت، بعد فوزه، إلى تعاون جميع الشعوب، في فرنسا كما في ألمانيا وإيطاليا واسبانيا واوروبا جمعاء).

وبعد هزيمته أصبح التاريخ أقل قابلية للفهم حين عزا (بعبادة الشخصية بالمقلوب) جميع مصائب العالم إلى الهذيان العرقي المعاصر لهتلر المجنون، وكان ذلك ثمرة حمل طويلة: من معاهدات فرساي، ثم تقديم المال والفولاذ من جميع المصرفيين في العالم، في انكلترا وفرنسا والولايات المتحدة، ثم التنازلات السياسية (وكانت ميونيخ رمزها وكانت الاتفاقات الألمانية ـ السوفييتية نتيجة دفاعية ضد الذين كانوا يريدون أن يوجهوه نحو الشرق) إلى المتعاونين الصهيونيين (حلفاء هتلر الطبيعيين ضد الألمان اليهود: أراد أولئك أن يساعدوا "على إفراغ أوروبا من اليهود" بخلق دولة إسرائيل القوية، وكان ذلك حلم هتلر، في حين أن رابطة الألمان من اليهود أرادت أن تبقى في ألمانيا، مطالبة فقط باحترام الدين والثقافة اليهوديتين. وعلى هؤلاء اليهود انصبت ضراوة النازيين (٩٥٪ من الطائفة اليهودية مقابل ٥٪ من الصهيونيين).

ومنذئذ شغّل التاريخ محظورات جديدة: تعاون الصهيونيين عن طريق اتفاقات الـ"هافارا" المصرفية، وبموجبها وعدوا، مقابل سفر بعض أصحاب الملايين اليهود وثروتهم، أن يقاوموا حصار ألمانيا النازية؛ إن اقتراحات التعاون العسكري للمجموعات المسلحة مخطوطة ص١٥٤ لعصابة "شتيرن" ولاسحق شامير مع الجيش الهتلري، نظراً لوحدة النظرة؛ والعرض الحقير الذي اقترحه هتلر وقبله القادة الصهيونيون عام ١٩٤٤ لمبادلة ١٠٠٠٠ شاحنة بمليون يهودي (شريطة ألا

تُستخدم هذه الشاحنات إلا في الجبهة الشرقية). وكان هتلر والحلفاء لا يحلمون إلا بصلح منفرد بوساطة الصهيونيين. (انظر يهودا باور. يهود للبيع. طبعة ليانا ليفي ١٩٩٦. ص ٨٧، ٢٢٧، ٨٠، ٨٨).

في هذا الفصل من التزوير المتعمد للتاريخ المعاصر (منذ سقوط هتلر) صيغت النتيجةُ بوضوح في عام ١٩٩٠، في قانون مجرم يدعى قانون "غايسو"، بالتواطؤ مع رئيس الجمعية الوطنية "لوران فابيوس"ٌ وهذا القانون يصادق على قمع كل تاريخ نقدي للجرائم الهتلرية فارضاً التحريم على كل نقد لقرارات محكمة "نورمبرغ" التي اعترف رئيسها ذاته، القاضي الأمريكي جاكسون أنها "آخر فصل في الحرب" وأنها من ثم غير ملزمة "بالقواعد القانونية للمحاكم العادية فيما يتعلق بالأدلة".

ب ـ الاستعمار الثقافي

مما له دلالته، في مرحلة الاستعمار الأوروبي، أن التاريخ هو تاريخ الاحتلال المشروع لمناطق جديدة، لكي تُحمَل الحضارة إلى البرابرة.

كل غزو واعتداء استعماري مشروع حينئذ باسم الحضارة، وكل مقاومة من الشعوب المستعمَرة والمنهوبة والمذبَّحة سوف تدعى، دون تفريق، إرهاباً.

إن التاريخ المدرسي، أي، تاريخ الغرب بصورة أساسية، لا يمكن أن يكون له، بطبيعة الحال، سوى مصدرين، كالغرب ذاته: المصدر اليهودي ـ المسيحي، والمصدر اليوناني الروماني.

في عام ١٩٧٥، اقتصر "بريسويرك" و"ميرو" اللذين درسا ثلاثين كتاباً مدرسياً الأكثر استعمالاً (٣ كتب ألمانية، ٦ كتب انجليزية، ١١ كتاباً فرنسياً، كتابان برتغاليان، ٨ كتب روسية) على مشكلة واحدة: التشويه القومي لكتب التاريخ والنزعة الاستعمارية الثقافية التي تجعل من التاريخ: "تاريخاً للغرب مع ملحقات تتعلق بسائر الشعوب". (المركزية العرقية والتاريخ ١٩٧٥).

إن منظور "المركزية العرقية" الذي يتخذ التقدم والحداثة معياراً، أي السلطة التقنية على الطبيعة والناس ليس غير، يسمح بإقامة لائحة للتفوق تكون أوروبا فيه

في المقدمة، مع حقها بل مع واجبها رفع "البدائيين" إلى مستوى كمالها. حتى عندما يقول الكتاب المدرسي: "وعندما وصل الأوروبيون إلى بلادهم وجدوا حضارة متألقة"، فهم لا يجدون التألق إلا في مايستجيب لمعاييرهم الخاصة.

نحن بعيدون هنا عن التواضع العلمي الجدير بالإعجاب، أو بكل بساطة، عن الموضوعية والعمومية التي كان ليفي ـ ستروس مثالاً لها في "العرق والتاريخ":

"خلطتْ العصور القديمة كل مالم يشارك في الثقافة اليونانية (ثم اليونانية الرومانية) تحت اسم "بربري"؛ واستخدمت الحضارة الغربية مصطلح "متوحش" بهذا المعنى ذاته؛... كلمة متوحش التي تعني "من الغابة" تشير إلى نوع من الحياة الحيوانية، في مقابل "الثقافة". (ص٢٠).

إن غزو الجزائر وتصريحات المارشال "بوجو" مثال نموذجي لذلك.

في ١٤ أيار ١٨٤٠ أعلن "بوجو" في مجلس النواب: "لابد من غزو كبير لأفريقيا يشبه ماكان يصنعه "الفرانك"، وما كان يصنعه "القوط".

وعندما أصبح حاكماً للجزائر وجه هذا الانذار لقادة المقاومة الجزائرية: "استسلموا لفرنسا... وفي حالة عدم استسلامكم سأدخل جبالكم، وسأحرق قراكم وبيوتكم، وسأقطع أشجاركم المثمرة، وحينئذ لا تلوموا سوى أنفسكم، وسأكون، أمام الله، بريئاً كل البراءة من هذه النكبات". (المرشد الجزائري ١٤ نيسان ١٨٤٤).

وذلك برنامج انتقام وقتل حققه نقطة نقطة مرؤوسوه من مثل المارشال "سانت ارنو": "نحن نخرب ونحرق وننهب، وندمر المنازل والأشجار". (رسائل المارشال "سانت ارنو"، في كل صفحات المجموعة). وتعْلمنا رسائل جندي العقيد "مونتانياك" من منطقة مسكره: "نحن نلاحق العدو، ونحن ننتزع منه نساءه وأولاده وماشيته وقمحه وشعيره". ويضيف "الجنرال بيدو وهو مزيّن من الطراز الأول، عاقب قبيلة على حافات "الشليف"... وانتزع بالقوة نساءهم وأولادهم وماشيتهم". ووصف لنا الكونت دي هيريسون، في "مطاردة الإنسان" (ص ١٣٣ - ٣٤٧ - ٣٤٩) عمليات الطابور الذي كان تابعاً له: "ظل ثمن آذان السكان المحليين زمناً طويلاً، ١٠ فرنكات للزوجين، وكانت نساؤهم طرائد حقيقية".

جميع هذه النصوص وكثير غيرها تظهر أن بناة الامبراطوريات قاموا "بجرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية"، بيد أنها لا تَرِدُ في أي كتاب مدرسي حيث يفضَّل أن يُعلم الطلاب مقاطع رقيقة عن عَمْرة الأب "بوجو"[1].

ليس المقصود نبش الذكريات من رحم القبور: فهذه الأساطير الدموية ماتزال تؤثر تأثيراً مُحدَّداً للتصرفات الحالية التي تصوغها هذه الأكاذيب التاريخية.

عندما تُوقف طغمة عسكرية، في الجزائر، الانتخابات التي لم تكن في مصلحتها، قَبِلَ في الحال، ديموقراطيونا الصالحون المحضَّرون الذين كانوا يطالبون بانتخابات حرة، الدكتاتورية العسكرية والفوضى الدموية التي ستجرها لا محالة عندما تُبعد من الحياة العامة أكثرية السكان.

إن الأخبار التي تبثها وسائل الاعلام للتلاعب بالرأي العام تنقل التخيلات الخداعة للذين لم تنته بالنسبة إليهم الحروب الصليبية ولا حرب الجزائر. وما أكثر الذين يخلطون بين الدفاع عن الذاكرة وبين كتاب صلوات الكراهية بجترّين انتقام ألفي عام.

أعلن الجنرال غورو في ١٩١٨: "صلاح الدين هاقد عُدنا". وعندما عاد، بالفعل، إلى لبنان، نظم لذلك تجزئة دينية وعرقية خلقت فيه الفوضى، لمدة قرن.

وقال الجنرال الانجليزي اللنبي أمام قبر صلاح الدين: "انتهت الحروب الصليبية اليوم"؛ ونظم في فلسطين شروط نظام عنصري مُضيّقاً على السكان الأصليين، مولِّداً الأحقاد والحروب التي قضى عليها صلاح الدين، في عام ١١٨٧م، لقرون عديدة حين دخل القدس دخول المنتصرين وأعاد فتح معابد اليهود وكنائس المسيحيين.

وفيما يخص المأساة الجزائرية، ماتزال اليوم القوالب الجاهزة للميثولوجيا التاريخية التي مضى عليها الف سنة تطفو على السطح من جديد في جميع صورها، من اليمين أو من اليسار، صور المذابح التي تستحضر، في نموذج مصغّر، المذابح

[1] جميع هذه النصوص المستقاة من مصادر (المكتبة الوطنية) نشرتُها في عام ١٩٧٧ في "من أجل حوار الحضارات. الغرب عَرَضٌ" ثم في "ملفات تربوية حيث جمعتُ جميع الوثائق المتعلقة بخدع تاريخية أخرى ولاسيما حول أسباب الحربين العالميتين الأخيرتين.

الاستعمارية: يشدِّد بعضهم على مسؤولية أصولية الإسلاميين المتوحشة، وآخرون على الطغيان الشرقي لرجال السلطة، كما كانت الحال بالنسبة إلى "راوانده"، حين كانت الذريعة الخصومات القبلية العرقية المتخلفة، بدلاً من التذكير أن القادة الفرنسية (شأنهم شأن الانجليز، في بلد مجاور) لم يكفّوا عن تمويل وتسليح وتدريب الجلادين على نفقتهم، أو رشوة جيرانهم المتواطئين، على طريقة "موبوتو".

* * *

ثمة مثلان يعبران عن الادعاء الكاريكاتوري للمركزية العرقية الغربية: **الرواية الرسمية لمعركتي "الماراتون" و"بواتييه".**

ولإزالة ماعَلِقَ بمعركة "الماراتون" من تضليل يكفي مع ذلك ألا نقتصر على ترديد رواية "هيرودوتس" التي يحذرنا منها "بلوتارك" مذكِّراً أنها ترمي إلى هذا الهدف "وهو تملق الاثينيين لينال منهم كمية أكبر من النقود".

وردّ تيوسيديد الواقعةَ إلى حجمها الحقيقي فلم يخصص لها سوى سطرين في "حرب البيلوبونيز". وذلك لم يمنع أحدَ كبار المتخصصين في الهيلينية، في السوربون، فرانسوا شامو، أن يكتب في كتابه الحضارة اليونانية (ص١٠٠) أن المعركة كانت معركة حاسمة للغرب ضد الشرق. يقول: "لم يكن اليونانيون يقاتلون لأنفسهم فحسب، وإنما من أجل تصور للعالم سيصبح فيما بعد خيراً عاماً للغرب".

وكتب اختصاصيٌّ رفيعٌ آخر هو "روبير كوهين"، في كتابه "اليونان وإضفاء الهيلينية على العالم القديم"، بصدد بعثات الاسكندر: "إن تاريخ اليونان يختلط، إلى الأبد، بتاريخ الكون.

في عصر الاسكندر كانت توجد منذ زمن بعيد الأناشيد الفيدية، والأوبانيشاد، وبوذا، وصين "لاوتسو" وكونفوشيوس، وشعوب أخرى كثيرة كانت تجهل وجود الاسكندر وأسطورته، لكن رؤية الغرب تحد العالم بأفقها الخاص.

مما ينسينا حقيقتين تاريخيتين أساسيتين:

١ ـ أن هذه المناوشة كانت قليلة الحسم، فبعد قرن من الـ "ماراتون"، في عام ٣٨٦، أملى مجرد حاكم فارسي "لايونيا"، "تيريباز"، باسم الملك العظيم، مشيئته على مندوبي أثينا واسبارطه وكورنته وآرغوس وطيبة. وأعلمنا "كزينوفون" في "الهيلينيات" (الكتاب الخامس، الفصل الأول)، أن اليونان سترعوا بناء على دعوته. وكان أمر ملك الفرس، ارتاكزيرسيس، يقول: "من العدل أن تكون مدن آسيا له، ومَن لم يقبل بهذا الصلح فسوف أحاربه على الأرض وفي البحر". وقد حمل المبعوثون هذه الشروط كلٌّ إلى دولته. وقرروا جميعاً المصادقة عليها.

ويعلق "ايزوقراط" "الآن سيكون هو (البربري) الذي ينظم شوون اليونان... ألم ندْعُه الملك العظيم وكأننا أسرى له". (المدائح ص ١٢٠ ـ ١٢١).

في الطرف الآخر من الغرب نعثر على نظير "عقدة الماراثون" في عقدة معركة "بواتييه" التي تعرّض وكأنها تدفّق البربرية الآسيوية على الغرب.

في تاريخ فرنسا الذي يديره "ارنست لافيس"، في فصل "الكارولنجيين"، جرى الكلام على "بواتييه" كما على الماراتون في أمكنة أخرى: "إن معركة بواتييه تأريخ مشهود في تاريخنا.. لقد سمى مدونُ الأخبار الجنودَ الفرنكيين الأوروبيين، والواقع أنه في هذا اليوم قد قُرِّر ألا تكون فرنسا عربية مثل اسبانيا، وإنما دافع الجنود الفرنكيون عن أوروبا ضد الأسيويين والافريقيين".

كانت الهزيمة قليلة الحسم، إذ بعد سنتين، في عام ٧٣٤، بلغت مادعاه ليفي بروفنسال، الغارات والغزوات (وهي غير الغزو الجماعي من نمط غزوات "الهان" قبل ثلاثة قرون) "فالانس" على "الرون"، واستولت بقوة على "ناربون".

وهنا أيضاً ليس المؤرخون "المحترفون" هم الذين دمروا هذه الرواية الأخرى لأسطورة التعارض المانوي بين الحضارة الغربية و"البرابرة". ذلك أن أناتول فرانس كتب في "الحياة المزهرة": "سأل السيد (دوبوا) السيدة (نوزيير) مااليوم الأكثر شؤماً في تاريخ فرنسا، فلم تكن السيدة نوزيير تعلم. فقال لها السيد دوبوا، إنه يوم معركة (بواتييه). يوم تراجع أمام بربرية الفرانكيين في عام ٧٣٢ العلم والفنّ والحضارةُ العربية.

وسأحتفظ أبداً في ذاكرتي بهذا الاستشهاد الذي أدى إلى طردي من تونس في عام ١٩٤٥ بحجة الدعاية المعادية لفرنسا! كان ممنوعاً التأكيد أن الحضارة العربية كانت تسيطر سيطرة واسعة، على الحضارة الأوروبية، حتى القرن الرابع عشر.

شرح الكاتب "بلاسكو ايبانيز" في "في ظل الكاتدرائية" أن بعث الحياة في اسبانيا لم يأت من الشمال مع الحشود البربرية، وإنما من الجنوب مع العرب الفاتحين". وتحدث عن الحضارة العربية فكتب: "ماكادت تولَدُ حتى تمثلت أفضل مافي اليهودية والعلم البيزنطي. وقد حملت معها التقاليد الهندية العظيمة، وذخيرة الفرس والكثير من الأشياء المأخوذة من الصين الملفوفة بالأسرار. كانت الشرقَ الذي ولج أوروبا مثل داريوس وكزيركيز، لا عن طريق اليونان الذي كان يصدهم لينقذ حريته، وإنما من الطرف الآخر، عن طريق اسبانيا، التي كان يستعبدها الملوك اللاهوتيون، والأساقفة المحبون للحرب، فاستقبلت فاتحيها بذراعين مفتوحتين". وأضاف بلاسكو ايبانيز أيضاً: "وفي سنتين استولى العرب على مااستغرق استرداده سبعة قرون. لم يكن ذلك غزواً يُفرَض بالسلاح، بل كان مجتمعاً جديداً يمد جذوره القوية في كل الجهات.

وكان ليفي بروفنسال، في "تاريخ اسبانيا المسلمة"، قد رد الحدث العسكري إلى بعده الصحيح: فكرّس له عشرين سطراً في كتاب من عدة مجلدات.

لكن كان لابد من انتظار الثلث الأخير من القرن العشرين لكي يتفرغ "هاو" اسباني هو "اغناسيو اولاغي"، لتحليلٍ دقيقٍ للمصادر. فيُظهر أن أقرب نص من الأحداث استغله المؤرخون أكثر من غيره كان نص دير "موساك" الذي يلعب، والحالة هذه، بالنسبة إلى معركة "بؤاتييه" الدورَ الذي لعبه هيرودوت بالنسبة إلى معركة الماراتون.

ففي كتابه "الثورة الإسلامية في اسبانيا" (الذي شُوِّه في ترجمة فرنسية مزعومة حُذفت منها المراجع الأساسية) حلل "اولاغي" كيف وُلدت الأسطورة التي أعيد خلقها بعد عدة قرون من الحدث، اثناء الغزوات - الحقيقية هذه المرة - غزوات المرابطين والموحدين التي هي معالم في مراحل تراجع الإسلام في اسبانيا.

وقد توسع الملوك الكاثوليكيون في الموضوع الذي استمر حياً حتى آخر القرن العشرين.

أما شارل مارتيل، فدوره كمنقذ للغرب يبرز بوضوح أكبر عندما ندرجه في سياق تلك الحقبة.

١ - إن هذا المنقذ لفرنسا وللغرب، بعد مناوشته التي انتصر فيها على مغاوير "عبد الرحمن" العرب، في عام ٧٣، قد تمم مآثره ضد البرابرة المسلمين حين اندفع إلى احتلال "اكيتانيا" و"برغونيا" ثم البروفانس التي ظلت حتى ذلك التاريخ رومانية.

٢ - إن السحق النهائي للعرب هو بحيث أن العرب، بعد عدة قرون، كانوا مايزالون في ناربون، وسادة البروفانس، وقاعدتهم الرئيسية فريجوس. وصعدوا وادي الرون كما تشهد كاتدرائية "بوي" التي ماتزال واجهتها تحمل كتابات بالأحرف الكوفية.

وفيما يتعلق "باليقظة" من المستحسن أن نتذكر مثلاً، أن المركز الثقافي في قرطبة، بعد عدة قرون من "بواتييه" يوقظ أوروبا من سُباتها الفكري الطويل: لا بأن نقلَ لها فقط الثروات القديمة للصين والهند وإيران، وإنما نقل لها حتى تراثها الخاص، التراث اليوناني مثلاً. ففي شروحات ابن رشد لأرسطو؛ وفي مجادلة أعماله إنما بسط "البير الكبير" و"سان توما الأكويني" مذهبهما، وتوسعت "الرشدية اللاتينية" في جامعة باريس مع "سيجيردي باربان"، وكذلك في اوكسفورد وفي القرن الخامس عشر في ايطاليا، مع "بيك دي لاميراندول".

إن خرائط الإدريسي وهو من سبته (في القرن الثاني عشر م.) الذي درس في قرطبة ستخلق لروجيه الثاني في صقلية، بغية الانتقال من كروية الأرض إلى خارطة نصفي الكرة، طرائق الإسقاط الشبيهة بطريقة "ميركاتور"، بعد أربعة قرون، والتي ستسمح بالاكتشافات الكبرى.

وكتاب أبي القاسم الزهراوي في الجراحة العامة وهو المولود في القرن العاشر في قرطبة، كان حجة على مدى خمسة قرون، في جميع كليات الطب في الغرب، في مونبيلييه كما في بالرما، وفي باريس أو في لندن.

إن "روجيه باكون" (١٥٦١ ــ ١٦٢٧) الذي يُعتبر في اوروبا رائد العلم التجريبي (فَرْض فرضية رياضية وبناء جهاز تجريبي للتحقق منها)، في القسم الخامس من "مؤلّفه الأعظم"، قد عمد إلى تقليد كتاب "الناظر" للعالم المصري ابن الهيثم مع تبديل طفيف ومع الاعتراف بما أخذه عنه، كما عمد أحياناً أخرى إلى مجرد ترجمته. يقول: "الفلسفة مأخوذة من العربية ولا يستطيع أي لاتيني أن يفهم، كما ينبغي، الحكمةَ والفلسفةَ إن لم يكن يعرف اللغات التي تُرجمت عنها".

إن روح الوحدة هذه تسود جميع العلوم التي امتاز بها العلماء العرب: من الفيزياء إلى الفلك، ومن علم الأحياء إلى الطب:

ان مبدأ الثقافة الإسلامية، في جميع ميادين اللاهوت، ومن الفلسفة إلى العلوم والفنون هو فكرة التوحيد. هذا التوحيد الأساسي لا يقتصر على تأكيد أن الله واحد.

التوحيد ليس من نمط ماهو كائن بل من نمط مايُفعَل. إنه لا يؤسس فلسفة الكائن[1] ، كالتي لدى اليونان، بل على العكس فلسفة الفعل.

وهذا ماسمح بتحديد جميع العلوم.

وإذا تخلينا عن الوهم الذي يقوم على اعتبار أوروبا وكأنها مركز التاريخ كله، وجب الاعتراف بأنه، من القرن الثامن إلى القرن الرابع عشر، لم يكن هناك "ثقب أسود"، وإنما تفتحت، في هذه الفترة، على العكس حضارة عربية إسلامية من أعظم حضارات التاريخ تألقاً.

ابن عربي (من مرسيه في اسبانيا، ١١٦٥ - ١٢٤١) يمضي بفلسفة الفعل هذه إلى نهايتها، ويعارض بها فلسفات الكائن اليونانية (الأفلاطونية والارسطية). لا شيء يبدأ مع واقع ناجز من قبل، مُعطىً، سواء أكان واقعاً محسوساً أم معقولاً، وإنما يبدأ بالفعل الخالق الذي لا ينتهي، فعل الله.

إن مشكلته الأساسية هي أن يُري كيف يستطيع الإنسان أن يشارك في فعل الخلق هذا لعالم لا يَني يولّد أبداً.

---

[1] الكائن أو الوجود.

رؤية العالم الدينامية، في القرآن، نابعة من هذا الفعل الخالق الذي لا ينتهي، فعل الله. "هو الحي القيوم" (٢ ــ ٢٥٥؛ ٣ ــ ٢ الخ..)؛ "أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى هو الخلاق العظيم" (٣٦ ـ ٨١)؛ وأنه "كل يوم هو في شأن" (٥٥ ـ ٢٩)؛ هذا الخلق المستمر يحفظ كل شيء على حاله "ولا يؤوده حفظهما وهو العليّ العظيم) وهو، خلافاً لسفر التكوين: "وفرغ الله في اليوم السابع من عمله فاستراح..." لا تأخذه سنة ولا نوم" (٢ ــ ٢٥٥) "إنه يبدأ الخلق ثم يعيده" (١٠ ـ ٤).

إن نظرية المعرفة الإسلامية التي تنطلق من الفعل الخالق، لن تُستأنف إلا بعد عدة قرون في الفلسفة الغربية، ولاسيما على يد "كَنْت" وخياله المتعالي، وأكثر منه مع "غاستون باشلار" الذي يبحث عن تاريخها.

إن الجوهري في إسهام العلم الإسلامي ليس فقط الطريقة التجريبية وطائفة عظيمة من الاكتشافات، إن الجوهري فيها هو أنه استطاع أن يربط بين العلم والحكمة والإيمان. إن الحكمة، لا تحد عمل العلم الذي يرتقي من سبب إلى سبب؛ وهي ترتقي من غاية إلى غاية، من الغايات الدنيا إلى غايات أسمى لكي لا يُستخدم العلم لتدمير الإنسان أو تشويهه بل إلى تفتحه حين تحدَّد له غايات إنسانية. لأن العلم التجريبي والرياضي لا يقدم لنا غايات هذا العمل القوي. إن الحكمة التي هي تفكير في الغايات، هي استخدام آخر للعقل. وهو استخدام للعقل جعله الغرب يَضْمر: فلا الفلسفة ولا اللاهوت تلعبان فيه هذا الدور المكمِّل للعلم الذي يعطي الوسائل، مع الحكمة التي تتحرّى الغايات.

العقل الغربي، القابع في تحري الوسائل المعتَبرة غايات في ذاتها يقود العالم إلى الدمار عن طريق معالجة الذرة والصاروخ والمورثات، دون حكمة.

إن الإيمان هو البعد الثالث لعقلٍ كامل: فلا العلم في تحريه للأسباب، ولا الحكمة في تحريها للغايات، يبلغان أبداً السبب الأول أو الغاية الأخيرة. الإيمان يبدأ بوعي جليّ لحدود العقل والحكمة، وهو يغدو المسلمة الضرورية لتماسكهما ووحدتهما: هذا الإيمان ليس حداً أو منافساً للعقل. الايمان عقل بلا حدود.

* * *

الخلاصة: إن دور التاريخ في التربية ينبغي أن يتغير جذرياً، **إن تحرّي المصادر يجب أن يحل محل نقل الأساطير.**

إن ماإتفق على تسميته العالم الاستعماري حتى منتصف القرن العشرين، والعالم الثالث في عهد مواجهة معسكريْ الشرق والغرب، وبصورة عامة، البلاد النامية (بحسب معايير النمو الغربية) لا يظهران في الكتب المدرسية وفي الصحافة إلا بتهديدهما لأمن المحتلين، سواء في ذلك أهلُ الغرب الأمريكيون حيث لا يمكن للهندي الطيب أن يكون إلا ميتاً أو متعاوناً، أم الفلسطينيون الذين طُردوا من أراضيهم المسروقة، أو قُتلوا بالرصاص ولا سلاح في أيديهم سوى الحجارة القديمة من أرض أجدادهم. وهنا أيضاً، الأمر كما كان في عهد الاستعمار والهتلرية، تُدعى مقاومة المحتل إرهاباً. إسرائيل تطالب بأمنها في حين أنها تهدد جميع جيرانها محتلة حدودهم (بالرغم من كل قانون دولي ومن الإدانات الأفلاطونية لهيئة الأمم المتحدة، ومع إعدادها برنامجاً لتفكيك جميع الدول المجاورة من الفرات إلى النيل[1]).

هاهنا خطوة استعمارية على نحو نموذجي: لقد كتب مؤسس الصهيونية "تيودور هرتزل"، منذ قرن: "سنكون حصناً متقدماً للحضارة الغربية في وجه بربرية الشرق"، مثله مثل "هنتغتون" منظّر البنتاغون، بعد قرن من منظّر الصهيونية، في "صدام الحضارات" حيث يجعل التعارض بين الحضارة اليهودية ـ المسيحية والتواطؤ الإسلامي الكونفوشيوسي.

المخطط الميثولوجي هو نفسه والصيغ نفسها تجمع بين طرد الولايات المتحدة للهنود وتذبيحهم، وطرد الفلسطينيين وتذبيحهم على يد صهيونيي إسرائيل التي تمارس سياستها سياسة التمييز العنصري والتوسع الاستعماري التي يمارسها داعمها الأمريكي.

---

[1] انظر في كتابي "فلسطين أرض الرسالات السماوية" النصَّ الكامل بالعربية والفرنسية لهذا البرنامج، وخلاصته في "الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية".

ورفْضُ الآخر بنفسه ورفضُ حوار الثقافات والحضارات المخصب، يلهم منذ قرون مطاردي البشر منْ يشوع إلى يوليوس قيصر، ومن بيزار إلى نتنياهو، المطاردين الأسطوريين أو التاريخيين في جميع الصليبيات وجميع ألوان الاستعمار والسيطرة وجميع الحروب.

إن التاريخ الذي يكتبه دائماً المنتصرون قد دعا انتصار **الأقوى انتصاراً للحضارة والحق**[1].

* * *

إن التسمية الرسمية لهذه الميثولوجيا التي تحل محل مايستحق اسمَ "التاريخ"، تغطّي خدعةً أخرى هي تلك التي تجعل من الشعوب والحضارات غير الغربية ملحقات بتاريخ الغرب ولا تدخل التاريخ إلا عندما يكتشفها الغرب. إن التاريخ الذي تنقله إلينا الكتب المدرسية ليس سوى تاريخ الغرب مع ملحقاته التي تتعلق بشعوب دراستُها من اختصاص الاختصاصيين في "الكوليج دي فرانس" أو في "مدرسة اللغات الشرقية".

وطالبُ المدرسة الابتدائية أو الثانوية يجد بعض الفصول للقراءة حول "ماركو بولو" في آسيا، و"سافورينان دي برازا" أو "فيديرب" في افريقيا، لكن لا شيء عن الصين التي منها جاءت جميعُ الاكتشافات العلمية التي أتاحت "نهضة أوروبا"، ولا شيء عن امبراطوريات "سونغاي" التي جعلت من "تومبوكتو" أحد أعظم مراكز البحث الرياضي، ولا شيء عن حضارة المايا التي خلق علم الفلك فيها تقويماً أدق من التقويم الغريغوري، مع سَبْقه بعدة قرون.

إن مركزية الغرب العرقية هي بحيث أن كتبنا المدرسية مثلاً، تجعل من "غوتنبرغ" مخترعاً للمطبعة التي مارسها الصينيون قبله بخمسة عشر قرناً، وتجعل من "هارفي" مكتشف الدورة الدموية الصغرى في القرن التاسع عشر. في حين أن ابن النفيس، الطبيب العربي المولود في عام ١٢١٠، قبل "هارفي" بأربع مئة عام، وقبل

[1] لما لم يستطيعوا أن يجعلوا ماهو عادل قوياً عملوا بحيث يكون ماهو قوي عادلاً.

"ميشيل سيرفيت" بثلاث مئة عام، قد أعطى الوصف البسيط والتخطيط المرسوم لجريان الدم في شرحه لابن سينا.

كل غزو أو اعتداء استعماري مشروعٌ حينئذ باسم الحضارة، وكلُّ "مقاومة" من الشعوب المستعمَرة المنهوبة والمذبّحة تدعى دوماً، دون تفريق، إرهاباً.

ج ـ الأسورة والتاريخ في اسرائيل

إن هذا الدور للأسطورة الحالّة محلَّ التاريخ لم تبلغ في أي مكان من القطاعة مابلغته في الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية وفي المكان الجغرافي الذي يكوّن نقطة الاتصال بين الشرق والغرب: فلسطين.

برهنّا على ذلك في كتابنا الأساطير المؤسّسة للسياسة الإسرائيلية، المندّد بالتزييف الفاضح للتاريخ بحيث أثار الاهتمام العالمي: تُرجم الكتاب في اليابان والصين وروسيا وأوروبا بأسرها وفي البرازيل، في ٣٠ بلداً، والتقى الأبحاثَ الراهنةَ للمؤرخين الجدد في اسرائيل نفسها حيث أصبحت عبارة "الأساطير المؤسسة" شائعة ولاسيما منذ فتح ملفات الدولة بعد ٥٠ عاماً من السرّية.

وبالفعل إن الأساطير الصهيونية المنتشرة على نحو واسع في العالم كله، تجعل الجرائم النازية غير قابلة للفهم.

فتارة تنسَب هذه الجرائمُ إلى جنون هتلر المعادي للسامية وحده، وتارة أخرى إلى البغض الشيطاني للشعب الألماني. وفي الحالة الأولى يسلم بوجود شيطان غريب عن التاريخ غربة نيزك ساقط من السماء؛ وفي الحالة الثانية، لابد لنا، لتفسير أن يكون الشعب، في أكثريته، قد قَبِل هذا الجنون، من التسليم بأن هناك شعوباً ملعونة، وأن هناك "شعباً مختاراً" اختاره إلهٌ متحيّزٌ رمى، هو أيضاً من السماء، قضاءه، الاختيارَ أو اللعنةَ، على شعب بأكمله. وهذا الزعم الأخير هو الأكثر شيوعاً لأنه المرافق لادعاء الاختيار.

مثلاً "جوناه غولدهاجن" يرى أن الشعب الألماني وثقافته قُدِّرت لهما الجريمة، كما الشعب الفرنسي بالنسبة إلى "برنار هنري ليفي". وذلك من تمام الاعتقاد في "الشعب المختار" الذي أنقذه الله من حَمْأة جميع الشعوب الأخرى.

وعقيدةٌ أخرى نابعةٌ من الاعتقاد بشعب مختار، هي الاعتقاد بالطابع الوحيد لـمذبحة اليهود حين تُعطى الطابعَ الحصري، الـمقدس، اللاهوتي: الـمحرقة.

جميع الضحايا الأخرى، على مر التاريخ، وبينها ضحايا مساوىء البربرية الفاشية، مبتذلةٌ ابتذالاً زمنياً: وهي لا تدخل في خطط هذا الإله الذي يختار، كما يُقال، والذي يَسْتبعد.

وفيما عدا "الشعب الـمختار"، جميع الشعوب الأخرى مَعْرضٌ للوحوش، لكن لهتلر وجلاديه الـمتطوعين، في هذا الـمعرض، منزلة مختارة: أما أن يكون الانجليز قد ابتكروا معسكرات الاعتقال في زمن حرب البوير أو أن يكون علم تحسين النسل قد قَتَل الحابطين، أو أن يكون الغُزاة الاسبان قد ذبّحوا آلاف الهنود، وأن تكون أوروبا بأسرها قد شاركت في تجارة الرقيق الأسود، وأن يكون الأرمن ضحايا الـمذابح، وأن يجعل هملر هدفاً له إنقاصَ السكان السلاف إلى ٣٠ مليوناً (جان مارك فارو: محاكمة نورمبرغ ١٩٩٢. ص ٥٧). فذلك كله لا يُقاس باضطهاد اليهود، "اليهود وحدهم" كما يقول "غولدهاجن".

وخارج الـمختارين، هناك صيغة "بيغن" بعد عربدات صبرا وشاتيلا الدموية التي دبرها آرييل شارون: "غيرُ اليهود يقتلون غيرَ اليهود، فيم يخصنا ذلك؟".

شعبٌ واحد فقط يتمتع بامتياز النقاء: الولايات الـمتحدة. أحد رؤسائها، تيودور روزفلت، حدد سياستها العرقية، دون لبس: "أعْدَلُ الحروب جميعاً هي الحرب ضد الـمتوحشين... إن الـمستعمر الخشن والأبي الذي يطرد الـمتوحشين من أرضهم له حق الاعتراف من جميع الـمتحضرين... وما كان العالم يستطيع أن يخطو خطوة في التقدم دون انتقال الشعوب الـمتوحشة والبربرية وسحقها على أيدي الـمستعمِرين الـمسلحين، وهم من عرق الذين يمسكون في أيديهم مصير القرون". (انتصار الغرب. ١٨٨٩. الـمجلد الأول. ص ١١٩).

استشهدت محكمة نورنمبرغ بتيودور روزفلت مع الثناء. في الـمجلد الخامس ٣٥، ٢٧٩، ٤٩٧ من الترجمة الانجليزية).

طبعة ١٩٧٠ للتصريحات الرئاسية لتيودور روزفلت تُطلعنا على مايلي: "إن الحرب التي وسّعتْ حدود الحضارة على حساب البرابرة والتوحش، كانت أحد العوامل القوية للتقدم الإنساني" (المجلد الأول ص ٦٢ - ٦٣).

ومن الجدير بالملاحظة أن محكمة نورمبرغ قد استشهدت عدة مرات بكلمات لهتلر من المضمون نفسه: "العرق المتفوق... أخضعَ عرقاً أدنى... نظراً لحقّ الأقوى كما يوجد في الطبيعة بما أنه الحق الوحيد المعقول لأنه قائم على العقل"

في ١٩٤٥، وبعد قصف طوكيو الذي أوقع مئة ألف قتيل مدني (اسلخوا جلودهم، أحرقوهم بالماء الحار، اشووهم)، كذلك كان قائد العملية يقول لجنده: الماجور جنرال كورنيس لوماي)، لم يظهر في الرأي العام الأمريكي احتجاجٌ عميق، وأضاف "ايليوت روزفلت" ابن الرئيس أن من الواجب قصف اليابان إلى أن ندمّر مايقرب من نصف السكان المدنيين".

في استفتاء أجرته مجلة "فورتون"، في كانون الأول ١٩٤٥، كان ربع الذين استجوبوا يتمنون أن تستخدم الولايات المتحدة كمية أكبر من القنابل الذرية قبل استسلام اليابان (دوار، حرب لا هوادة فيها، ص ٣٠، ٤٠ - ٤١، ٥٣ - ٥٥).

لم تَكْفِ هيروشيما وناغازاكي هؤلاء المدافعين عن حقوق الإنسان.

كما لم يَكْفهم إعدام ٣٠٠٠ زنجي بين ١٨٨٠ و١٩٣٠ دون محاكمة، ولا الآذان المقطوعة للأسرى اليابانيين في عام ١٩٤٥، أو جماجمهم التي استخدمت كالزينة للسيارات العسكرية بل كعناصر زخرفية لامرأة شابة في الصور التي نشرتها مجلة لايف (المصدر السابق ص ٦٥).

هذه العقلية ماتزال تُلهم "غولدشتين" و"نتنياهو" (اللذين تربيا في الولايات المتحدة) كما أشار إلى ذلك صحفي اسرائيلي "آري شافيت" غداة الجريمة المرتكبة ضد الإنسانية في قانا: "قتلنا ١٧٠ شخصاً... وبينهم عدد من النساء والشيوخ.. وطفل ابن سنتين.. لقد حرصنا أن نحمل الموت من بعيد... قتلناهم لأن الهوة بين الطابع المقدس الذي يمتد شيئاً فشيئاً والذي نعزوه إلى حيواتنا الخاصة وبين الطابع الذي يضيق شيئاً فشيئاً والذي نعترف به لحيوات الآخرين قد

سمحت لنا بقتلهم". (الصحيفة الاسرائيلية هاآرتس، نيويورك تايمز، ترجمة "ليبراسيون"، الثلاثاء ٢١ أيار ١٩٩٦).

إن فلسفة هذه الرؤية للعالم هي من عمل "ايلي ديزيل"، الذي يطرح نفسه كشاهد مطلق: "مَنْ يرفض تصديقي.. يقود إلى ضمان مَنْ ينكرون المحرقة".

وأدان الذين احتجوا على قصف لبنان وبذروا بذلك الفوضى، فكتب: "كان الأجدر بهم أن يدعموا إسرائيل دعماً غير مشروط دون اعتبار للآلام التي قاساها أهالي بيروت". (ضد الصمت N.Y ١٩٨٤ المجلد الثاني ٢١٣٠ - ٢١٦).

كتب "نورمان بودوريتز" في "بريكنغ رانكز" (نيويورك ١ ــ ٩٧٩) إن دولة اسرائيل هي الآن، بعد حرب الأيام الستة، دين اليهود الامريكيين".

هذا الليُّ للتاريخ مع النتائج الدموية الناجمة عنه مردّهُ إلى التكافل الأمريكي الإسرائيلي الذي تحقّق، منذ السنوات الخمسين الأخيرة والذي قلب نسبةَ القوى فجعل من الولايات المتحدة اليوم مستعمرةً لإسرائيل[1].

* * *

المثال الأكثر سطوعاً اليوم للتلاعب بالتاريخ واستعمال ذلك التلاعب لتبرير أسوأ الابتزازات، هو استخدام الصهيونيين الذين أصبحوا قادة اسرائيل لذلك التلاعب وذلك الاستعمال.

وهذا يفسر هياجهم عندما جمع كتابي "الأساطير المؤسسة للسياسة الاسرائيلية" حصيلة خمسين عاماً من أكاذيبهم الدموية. وهذا يفسر أيضاً الدويّ العالمي لهذا الكتاب الذي تُرجم في ٣٠ بلداً، في أربع قارات.

لم أكن لا الأول ولا الوحيد الذي شرع في هذا العمل النقدي من أجل تمييز الميثولوجيا عن التاريخ، ولست أدّعي الفضلَ لنفسي، لكن الفضيحة كانت أكبر مما كانت عليه عند الاتهامات السابقة لسببين أساسيين:

ـ إن عَرْضي الشامل كان يتابع عن كثب اللحظة التي لم يغدُ فيها الكذب مقدساً فحسب، بل مشروعاً في قانون فرنسي ـ مع الأسف ـ القانون الذي يُدعى

[1] انظر الملحق: الولايات المتحدة مستعمَرة لإسرائيل.

قانن "غايسو" الذي يدين مسبقاً كل تاريخ نقدي للحُكْم الذي أصدره الغالبون على الجرائم التي ارتكبها المغلوبون أثناء الحرب العالمية الثانية، وهو الحكم الذي أقرته محكمة "نورمبرغ". رئيس المحكمة (القاضي الأمريكي جاكسون) عرّف هذا الحكم بأنه آخر عمل من أعمال الحرب، مبرراً المحكمة بالاستثناء الذي حددته أنظمتها (وهي أنها "غير ملزمة بالقواعد القانونية للإدلاء بالأدلة")؛ ومن هنا بالذات فإنها لا يمكنها أن تكون مرجعاً قاضياً، وأقل من ذلك، أن تكون معياراً للحقيقة التاريخية.

ـ والسبب الثاني لهذه الضراوة القانونية بل والإعلامية ضد كتابي يرجع إلى كونه قد التقى مع الدراسات النقدية ومع أطروحات المؤرخين الإسرائيليين الجدد الذين ندّدوا بالأساطير نفسها ونسفوا بذلك مطامع الهيمنة والاستعمار لدى القادة الإسرائيليين. وحطموا حتى ماكان حتى الآن إجماعاً حول الميثولوجيا المؤسّسة.

ظهر كتابي: "الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية" الذي أطلق العاصفة من عقالها، في عام ١٩٩٦، وها إن "زيف ستيرنيل"، أستاذ العلوم السياسية في الجامعة العبرية، في القدس يكتب في عام ١٩٩٧ كتاباً عنوانه: الأساطير المؤسسة للقومية الإسرائيلية الذي نشرته (Princeton University Press) الأكاديمية جداً. وقد نشرت "الموند الدبلوماسية في أيار ١٩٩٨، قبل الترجمة الفرنسية للكتاب، مقالة للمؤلف أعلن فيها: "ان مراجعة أساطيرنا المؤسسة لم تبلغ من الانتشار مابلغته اليوم".

هذا النقد التاريخي يسمح بكشف النقاب عن الإساءة السياسية لاستغلال الأسطورة. كتب: "إن القومية اليهودية لا تكاد تختلف عن قومية أوروبا الوسطى والشرقية (أي القائمة على وحدة الدم) الثقافة والدين المغمورين في عبادة الماضي التاريخي... وهي لا تستشعر أية صعوبة في أن ترفض الحقوق الأولية نفسها للآخرين... الروحانية المتعلقة بالأرض التي أمْلَتْ على حكوماتنا المتتالية ـ العمالية واليمينية ـ قرارها السياسي الاقليمي، كانت تقود دائماً إلى المجموعة الاتصالية "التاريخ ـ الدين"، الأساس الأول للصهيونية... إن عالماً يفصل الكتّاب

والفنانين اليوم عن الأسماء الكبيرة في الجيل السابق، وهي أسماء اقترنت بالتأسيس، بعد الأيام الستة، للحركة من أجل "اسرائيل الكبرى".

وكتاب "ستيرنيل" ليس مفرداً: إنه إحدى المراجعات التي اظهر المؤرخون الجدد، في اسرائيل، ضرورتها.

أحدهم، وهو "بيني موريس"، ندّد بتسمية "المؤرخين الجدد" فقال في صحيفة "هاآرتس": إنهم مؤرخون لا أكثر، لأنه لم توجد حتى الآن سوى "الميثولوجيا"، وها إن جميع الأساطير تنهار واحدة واحدة.

وقبل كل شيء أسطورة: "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض"، وهي قديمة منذ قرن، وقد استأنفتها رسمياً السيدة غولدا مئير التي أنكرت حتى وجود الشعب الفلسطيني. ومن أجل إثبات الأسطورة، اقتلع القادة الصهيونيون بالبلدوزر ٨١٪ من القرى الفلسطينية لإقناع الزوار أنهم أعادوا إلى الصحراء نضارتها. ومنذ ١٩٧٥ وضع الأستاذ اسرائيل شاحاك، من الجامعة العبرية في القدس، في كتابه: "عرقية دولة اسرائيل"، لائحة بـ ٣٨٣ قرية فلسطينية دُمّرت عمداً. إن كشف الوثائق الرسمية اليوم، "خطيئة اسرائيل الأصلية"، بحسب عنوان كتاب دومينيك فيدال، الذي يلخص أعمال المؤرخين الاسرائيليين (بيني موريس، آفي شلايم، ايلان باب، ورائدهم سمحا فلابان) يدمّر جذرياً الأسطورة الرسمية: لم يذهب الفلسطينيون من أنفسهم تلبية لنداء الإذاعات العربية، وإنما طُردوا بالقوة العسكرية (وقد عُثِر على الأوامر المكتوبة المعطاة للضباط المكلفين بالابتزاز).

إن اكتشاف هذه الوثائق الدموية أصبح مشهوراً جداً بحيث فسحت المجال لبث مسلسل متلفز في اسرائيل ذاتها أظهر للجمهور الأعظم كيف أن ٧٠٠٠٠٠ فلسطيني اقتلعوا من جذورهم، دُكّتْ ٤١٨ قرية من قراهم (أكثر مما كشف النقاب عنه اسرائيل شاحاك) "وبقي في اسرائيل ١٥٠٠٠٠ عربي كمواطنين من الدرجة الثانية" (مقالة "المونـد" في ٤ نيسان ١٩٩٨ بعنوان: من الميثولوجيا إلى التاريخ)[1].

---

[1] لم يلحض أحد بطبيعة الحال مضمون هذا المسلسل وجرى له ماجرى لي أنا نفسي: أي التهديد بالموت: فقد تلقت المخرجة "روميت وبس بركوبتز" نداءات هاتفية من مجهولين تهددها بالموت:

كان ذلك نتيجة البحوث التي قام بها المؤرخون الشجعان الذين (بحسب عبارة المقالة ذاتها) بدؤوا عمل إزالة بناء الأساطير. وهناك باحثون من فرنسا في الجمعية الوطنية للبحث العلمي، مثل "جان كريستوف آنيس" و"ايستير بن باسه"، وجدوا في ذلك "خميرة نقدية صحية إلى أعلى درجة"، خلافاً لبعض شرائح الجماعات اليهودية في الشتات التي لا تغتفر أدنى نقد "لإسرائيل".

هؤلاء شرائح، فبين المليون يهودي فرنسي ٥١٠٠٠ فقط ينتسمون إلى المنظمات الصهيونية (CRIF, LICRA وغيرهما)، وذلك شبيه بزمن وصول هتلر إلى السلطة، إذ كان ٥٪ فقط من اليهود المنظمين ينتمون إلى الحركة الصهيونية (ومعهم تحالف هتلر لأنهم كانوا ينادون بالسفر إلى فلسطين، وتلك كانت مُنيته، في حين أن رابطة الألمان اليهود (٩٥٪ من الطائفة) كان يهودها يطلبون أن يظلوا ألماناً بصورة كلية، مع الاحترام المشروع لدينهم). وضد هؤلاء تحامل النازيون بضراوة.

هذه المراجعة الجذرية لدور الدولة في الدعاية للأساطير يُدمّر، دون شك، نفوذَ الصهيونية. ففي تعبّدهم للمحرقة، بحجة "الدفاع عن الذاكرة" يقدّم هذا الحدثٌ المأساوي تقليدياً وكأنه التبرير النهائي للصهيونية ولتكوّن إسرائيل... ويطالب الصهيونيون المتأخرون بالفصل بين الفحص التاريخي الرسمي للمحرقة وبين النزاع الإسرائيلي العربي. إذ ليس للعرب أية مسؤولية في مذابح اليهود التي لرتكبها الأوروبيون. ولا يجوز أن تستخدم المحرقة ذريعة للاستعمار الصهيوني.

وتخلصَ آيتاس وايستيربن باسه إلى أن نقد الأساطير الرسمية مُحْيٍ ولا نزاع في ذلك، لا لأنه يندّد فقط بالأكاذيب المسوّغة للنزعة الاستعمارية الحالية لدى القادة الإسرائيليين، وإنما لأن هذا النقد يفتح الطريق لبحث تاريخ اليهود بحثاً حقيقياً

"ستحرقك، يسارية، مع العرب"، تهديدات شبيهة بالتي لقيتها: "لن يمر عليك الربيع وسنقتلك دون أن تتوقع". ب) طليتْ وزيرة المواصلات في حكومة نتنياهو منع الفيلم الذي اعترفت بأنها لم تره (كما أن نقاد كتابي لم يقرؤوه) ولما لم تستطع منعه قررت ألا يشاهد ابنها الفيلم لأنها لا تقبل أن يُعرض موقف المعسكر الآخر. مثلما أُدِنتُ لأسباب نقضتها محكمة النقض، في ١٩٨٧.

"وهو تاريخ أعيد التفكير فيه وأعيدت كتابته في القرن العشرين، عبر الموشور الأيديولوجي الصهيوني". (المقالة المذكورة آنفاً في ٢٠ نيسان ١٩٨٨).

هذا التمييز الجذري بين السياسة الصهيونية والدين اليهودي يلتقي مع التقاليد العظيمة "لبرنار لازار" و"حنّة آرندت"، في تعريفهما للصهيونية: "هي مذهب يرى أن معاداة أبدية للسامية تسود العلاقات بين اليهود وغير اليهود". (اليهودي كمنبوذ. نيويورك ١٩٨٠ ص ١٠).

وتذكّر "حنة ارندت": "أن كل مَنْ ليسوا يهوداً هم، بالنسبة إلى الصهيونيين، معادون للسامية... وبرأي هرتزل أن العالم مقسوم بين من هم معادون للسامية جهاراً ومن يُخفون عداوتهم لها".

وخلصت إلى القول: "هذا الموقف هو بالطبع تعصب قومي عرقي خالص وهذه القسمة بين اليهود والشعوب الأخرى لا يختلف عن النظريات الأخرى حول العروق المتفوقة". (من أجل إنقاذ الوطن اليهودي في "كومنتاري" أيار ١٩٤٨ ص ٤٠١).

أنا فخور، من جهتي، بأنني أسهمت في هذا الجدل الواسع حول التاريخ والأساطير التي استنكر "ستيرنيل" استعمالاتها السياسية والقومية. يقول في المقالة المذكورة آنفاً: "التاريخ أداةٌ للبناء القومي... كان لابد لنا من خمسين عاماً لنرى الصهيونية على نحو مختلف ولننظر إلى المرآة بطريقة أكثر موضوعية".

لم تعد الأمور مقصورة اليوم على أعمال منعزلة لبعض المؤرخين، وإنما هناك حركة واسعة تعي خطر السياسة الاسرائيلية، سياسة الاستفزاز والنزوع الاستعماري الذي يمكن أن يكون المفجّر لحرب عالمية ثالثة. الدليلُ على هذا الوعي هو الـ"نداء للشتات ولأصدقاء اسرائيل من أجل إنقاذ السلام" الذي يستنكر الانحراف الحالي للحكومة المبنيّ على الاحتقار والأكاذيب والاستفزازات". هذه الحكومة "لا يمكنها أن تدير ظهرها أبدياً للعالم بأسره... ولا أن تستمر في فرض الاحتلال العسكري على الفلسطينيين، وهو احتلال مترافق مع الاختناق الاقتصادي، وأن تهزأ من طموحهم الوطني محولة أراضيهم إلى سلسلة من الأماكن المحاصرة".

هذا النداء وقعه سبعة من حاملي جائزة "نوبل"، وثلاثة أعضاء من المعهد، وأربعة أعضاء في الكوليج دي فرانس، وأساتذة وباحثون أكاديميون من بينهم "روبير بادينير"، و"جاك ديريدا"، و"بيير نورا"، و"بيير فيدال ناكيه"، وكثير من العلماء والفنانين مثل "يهودي منوحين"، و"آريان موشكين"، و"سوزان سونداغ"، و"بيير سولاج"...

لنقف عند مثالين: إن كتب التاريخ المدرسية الإسرائيلية لا تذكر حتى وجود الفلسطينيين، وتؤيّد "الخرافة الذهبية" عن خلق عالم جديد من صنع الرواد، في "الكيبوتزات المؤمَّلة بالفعل، الميسيانية في أصلها، لكنها لا تمثل أكثر من ٣٪ من السكان، والتي شُوِّهتْ روحُها الأصلية اليوم بأمركة مدنهم، وباستعمار الكوكا كما كتب عالم الاجتماع الإسرائيلي "اوز آموس": "يأسف ايان هوبر أن الكيبوتز غدا متحفاً". "لم يعد أحدٌ يصغي إلينا... الإعانات تذهب إلى المستعمرين. وبين ٢٥٨ كيبوتز، مارَفَض منها التكيّفَ مع قواعد الرأسمالية على شفا الإفلاس". "Le monde ٢١ نيسان ١٩٩٨).

البلبلة بين الشباب عظيمة. كتب "اوز آموس" بشيء من الحنين: "كانت الحياة قاسية فيما مضى، لكن كان لها معنىً. أما اليوم فإنها الفوضى". (٢٩ نيسان ١٩٩٨ Le monde). وتلخص المغنية الإسرائيلية الشهيرة "نوا"، في الصفحة نفسها، خيبة الأمل هذه: "مرَّ خمسون عاماً، ونحن لا نعلم ماذا نريد... دولة يهودية، أو دولة لليهود، أو ديموقراطية مصطبغة باليهودية... وحتى لو وجب تعديل الحدود هنا أو هناك، ينبغي أن توجد الدولة الفلسطينية وسوف توجد". وحدّدت "المحاصرة" فقالت: "يحاصر المجتمع عندما يتخذ المتدينون موقفاً من جميع جوانب حياتك دون أن تختاره. إنه سرطانٌ وسوف يقتلنا".

المثال الثاني على الانتهاك المتعمّد للنقد التاريخي وعلى احتقار المصادر من وراء الأسطورة، هو الدفاع اليائس عن أسطورة الملايين الستة التي تظل العقيدة المركزية للهرطقة الصهيونية، في حين أنْ مامن أحد يستطيع تبريرها.

الطريقة الديموغرافية تصطدم بهذه الواقعة العنيدة: "إبان التوسع الأكبر للنازية، حتى روسيا، في ١٩٤٢، كان، في أوروبا، تحت رحمة هتلر ثلاثة ملايين ومئة

وعشرة آلاف يهودي (الكتاب اليهودي السنوي رقم ٥٧٠٢، في ١١ ايلول ١٩٤٢، المنشور في فيلادلفيا، والإحصاءات الأجدر بالثقة، مثل إحصاءات "روبان" قبل الحرب، وإحصاءات المؤتمر اليهودي العالمي بعد الحرب مهما تكن فرضيات التعميم، القائمة علي الوفيات والولادات في الجماعات اليهودية علي مدى عشرين عاماً، والممكنة تبعاً لأوثق المعطيات، تؤدي إلى نتائج قريبة جداً. ولنفترض أن النازيين أبادوا جميع الذين في حوزة هتلر (وذلك مستبعد لأنهم عرضوا في عام ١٩٤٤ مبادلة ١٠٠٠٠ شاحنة بمليون يهودي)، فكيف أمكنهم أن يقتلوا ستة ملايين؟ والرقم لا يستند إلا إلى شهادة نازيين في نورمبرغ أكدا أن ايخمان قال أنه قيل له...

١ ـ وتبعاً للأخبار الرسمية اليهودية كان عدد اليهود الذين يعيشون في أوروبا عند وصول الحزب القومي الاشتراكي إلى السلطة ٥ ملايين و٦٠٠٠٠٠ (عند محاكمة ايخمان قال النائب العام: ٥ ملايين و٧٠٠٠٠٠).

الصليب الأحمر السويسري (Basler Nachrichten في ١٣/٤/١٩٩٦) والصحيفة الناطقة باليديش في نيويورك، في ١٣/٨/١٩٤٨) يتفقان على عدد المهاجرين اليهود بين ١٩٣٣ و١٩٤٥: مليون و٤٤٠٠٠٠ و ٤١٣٠٠٠ يعيشون في بلاد محايدة أو في انكلترا. ويرى "ريتلنجر" (الحل النهائي ص ٣٤) أن عدد المهاجرين إلى روسيا كان مليوناً و٥٥٠٠٠٠، فيكون عدد اليهود الذين يمكن أن يقعوا بين أيدي النازيين مليونين و٤٠٠ الف.

وطريقة أخرى للتقاطع: في عام ١٩٣٨ كان عدد اليهود في العالم ١٥ مليوناً و٧٠٠ ألف يهودي. (التقويم العالمي ١٩٤٧. وهذا العدد نقلته اللجنة اليهودية الأمريكية والدائرة الإحصائية لمجامع أمريكا اليهودية).

وبعد عشر سنوات (١٩٤٨) كان في العالم ١٨٧٠٠٠٠٠ يهودي (نيويورك تايمز في ٢٢ شباط ١٩٤٨) بحسب الخبير الديموغرافي "هانسون وليم بالدوين". ومهما تكن نسبة الولادات (وهي من دون شك ضعيفة جداً في هذه الفترة من الاضطهاد)، فمن المستبعد أن يكون قد قُتل ستة ملايين. نقلت مجلة "دي تات" زيوريخ (في ١٩ كانون الثاني ١٩٥٥)، تقديرات الصليب الأحمر الدولي أن

٣٠٠٠٠٠ يهودي ماتوا لا بالإبادة بل لإصابتهم بالمرض والأوبئة والتيفوس والجوع والإنهاك والقصف.

جميع هذه الأرقام ينبغي أن تخضع للنقاش وتتطلب بحوثاً تاريخية عميقة. والمستبعد أن يُجعل من أي من هذه الأرقام عقيدة لا يجوز المس بها، ولاسيما رقم الملايين الستة المجافي للواقع في جميع الفرضيات.

الطريقة الثانية الأكثر مباشرة التي أوصى بها "بولياكوف" تقوم على جمع ضحايا كل معسكر اعتقال. وهنا أيضاً من المستحيل بلوغ ٦ ملايين: بدءاً من أفظع عدد للموتى في "اوشويتز"، فالتقرير السوفييتي، بعد التحرير، توصل إلى أن يسجل على واجهة المعسكر: ٤ ملايين من الموتى، وهو رقم قُبل رسمياً في نورمبورغ، بموجب المادة ٢١ من أنظمة المحكمة التي تنص على أن: "الوثائق والتقارير الرسمية للجان التحقيق لدى الحكومات الحليفة لها قيمة الأدلة الصحيحة".

كان لابد من تغيير الكتابة المسجلة، بعد أربعين عاماً: فمجموع الرابطة العلمية، بحسب تعبير السيد "بيراريدا"، وكان حينئذ مديراً لمعهد تاريخ "الزمن الحاضر في اللجنة الوطنية للبحث العلمي"، تعتبر أن "رقم أربعة ملايين غير مستند إلى أية قاعدة جدية ولا يمكن أن يؤخذ به".

"وإذا ماعُدنا إلى الأعمال الأكثر جدة وإلى الإحصائيات الأجدر بالثقة : كما هي الحال في كتاب "راول هيلبرغ": "تدمير يهود اوروبا (فايار ١٩٨٨) نصل إلى حوالي مليون ميت في "اوشويتز" وعلى اثر ذلك غُيِّرت الكتابة التذكارية المسجلة:

أغرب مافي الأمر أننا نصف دائماً حاصل الجمع الذي أوصى به "بولياكوف" إلى ٦ ملايين، حتى بعد أن نحذف ٣ ملايين من ٤ ملايين ميت في معسكرات الاعتقال.

ويمكن أن نتأكد، دون تغيير الرقم الكلي، من نقص المراجعات الخافضة للعدد بالنسبة إلى المعسكرات الأخرى. مثلاً، كم كان عدد الموتى في "ماجدانيك"؟

* مليوناً وخمس مئة الف كما تـرى "لوسـي دافيدوفيتـش"، "في الحـرب ضـد اليهود"، "كتبُ بنغوان" ١٩٨٧. ص١٩١.
* ثلاث مئـة ألـف علـى حـد قـول "ليـا روش ايبرهـارد جيكـل في كتـاب: Der Todistein Meisterim DRITTEN Reich. طبعة هوفمان وكامب. ١٩٩١. ص ٢١٧.
* خمسون ألفاً بحسب راول هيلبرغ. (مرجع ذُكر آنفاً).

والسؤال المطروح حينئذ: أليس خدمـة لدعاية النـازيين الألـمان الجـدد (أو ذاك الحزب اليميني المتطرف، في فرنسا) أن تقدِّم هذه الحجة: "إذا كنتـم جميعاً قد كذبتـم في مسألة عدد الضحايا اليهـود، فلـماذا لا تكونـون قـد بالغتـم في جرائـم هتلر؟

لا يحارَبُ التقليل الإجرامي من الهول النازي بالأكاذيب الوَرِعـة بـل بالحقيقـة التي هي أفضل متّهمة للبربرية.

الواقع أن الرقم بذاته، قليل الأهمية. فكما قلت في موضعـين مـن كتـابي (ص ١٥٩ و٢٤٧): لو قتـل يهـودي واحـد (أو غـير يهـودي) بسـبب دينـه أو انتـمائه العرقي لكان ذلك "جريمة ضد الإنسانية".

أما ماهو إجرامي فهو استغلال الرقم وإضفاء صفة القداسة عليه (وهو مذكور في الكتب المدرسية والموسوعات ويعتد به دورياً في الصحافة والتلفزيون) لتغطية جرائم أحدث.

أجل نحن بإزاء إضفاء صفة القداسة، بإزاء عقيدة، وأحد المحرمات، إذ مامن مؤرخ يُزعَج إذا ماقُدِّر تقديراً مختلفاً عددُ الهنود الموتى لـدى غـزو الغـزاة الاسـبان لأمريكا: ذهب بعضهم إلى أن العدد هو ٨٠ مليونـاً، وذهـب آخـرون إلى أنـه ٢٠ مليوناً، ويبدو أن هناك إجماعاً علمياً على ٧٥ مليوناً.

لكل مؤرخٍ الحقُّ أن يحسب حساباً مختلفاً عدد الموت الناتج عن تجارة الرقيق الأسود. وقد توصل الرئيس "سنغور" الذي جمع كل التحريات التاريخية حول هـذه المسألة، إلى رقم بين رقمين متطرفين: نُقِل حوالي ١٠ ملايـين إلى ٢٠ مليونـاً مـن السود إلى أمريكا؛ ويبدو أنه كان لابد من قتـل عشـرة لأسـر واحـد، هـذا إذا لـم تُحسَب الخسائر الفظيعة أثناء النقل. يمكننـا إذن أن نقـدّر أن تجـارة الرقيـق كلفـت

حياة ١٠٠ أو ٢٠٠ مليون أفريقي. نستطيع إذن، عند الكلام على "أكبر إبادة جماعية في التاريخ، أن نقبل بتغيير العدد الإجمالي من البسيط إلى المضاعف، أما عندما يَردُ الكلامُ على ٦ ملايين، فيُمنع تغيير أية وحدة فيه، مهما تكن طريقة الحساب، والاكتشافاتُ المتتالية، تحت طائلة الطرد والتهديد بالموت والملاحقات القضائية والإعدام الإعلامي المتعسف.

آخر كلمة في كتاب "بريساك": "شارق اوشوتيز" (١٩٩٥) هي أن حصيلة اوشوتيز بلغت ٨٠٠٠٠٠ (ص ١٤٩) بعد أن اعترف أن القرار الذي اتّخذ في مؤتمر "وانسي" نص على طرد اليهود لا على إبادتهم، وبذلك أبطل شهادة "هيس" آمر معسكر اوشوتيز (ص ١٠٢).

فلسفة الوجود[1] أو فلسفة الفعل.

قلنا آنفاً بأي معنى وقّع اوغست كونت صكّ وفاة الفلسفة.

إن التركيب الفخم للفكر الغربي الذي حققه "هيغل" قد سجل بالفعل نهاية الفلسفة.

وكان على أساتذة الفكر من بعده، في الغرب، أن يخرجوا من هذه الدائرة المسحورة. فبعضهم، مثل "كيير كيغارد" وفّروا انطلاقةً جديدة للاهوت مبينين أن الإيمان يدخل في باب السؤال لا الجواب.

وآخرون، مثل ماركس أنزلوا الفلسفة إلى الأرض، وانتقلوا من فلسفة الوجود إلى فلسفة الفعل، ففتحوا طرقاً جديدة لفكرٍ محسوس عبّاً، بالفعل، حماسة أو كره ملايين الرجال والنساء المناصرين أو المعادين منهجيته للبادرة التاريخية.

وأخيراً قلب نيتشه بشراسة الأوثان التقليدية للثنائية الغربية: فيما وراء الخير والشر، والوجود والعدم، خلّص هذا الشاعرُ النبيُّ الحياةَ، "فِعْلَ الخلق والتهيؤ للانتصار". (تعليقات وأقوال مأثورة).

لقد أطاح بجميع أوثان اليهودية أو الهيلينية (ورأى في سقراط وأفلاطون أعراض الانحطاط" (المعرفة المرحة ١٠١) وتجرأ على أن يعلن، بصدد اليهودية

[1] الوجود أو الكون أو الكائن. المترجم.

التي أصلحها القديس بولس والتي سادت منذ عشرين قرناً: "العهد الجديد ماهو إلا الغراب اليهودي القديم الذي زُيِّن بريش الطاووس اليوناني". (رينيه جيرار).

هكذا كانت مسيحية بولس. كتب نيتشه: "المسيحية هي ماأدانها يسوع". (تعليقات وأقوال مأثورة ٢٤). يسوع الذي يدعوه "الرسول الفَرِح الحامل للبشارة الذي مات ليُرينا كيف نعيش" (المسيح الدجال ص ٣٥). ولكي يفتتح هذا التجديدَ كان عليه أن يعود إلى ماوراء الفلسفة الغربية: "رائداي الفيدانتا وهيراقليت". (تعليقات وأقوال مأثورة).

ماذا كانت، خارج هؤلاء العمالقة، الفلسفة الغربية؟ "العصيدة للهررة" لفكتور كوزان هي الرمز الذي يلخصها. ثم كانت البِدَع الفكرية التي لم تتجاوز الحي اللاتيني، مع "فلسفة الفكر" "لهاملان". وبرونشويغ، ولافيل، و"ليسين". انفصل الفكر عن الحياة، عن عالم "آكلي الخبز"، كما يقول هوميروس، ليغدو "تاريخ الخضوع" (جبل ديلوز)، أو التمردات العاجزة. قال سارتر لكامو: "أنت تجريد المتمرد"، لكن هل كان هو شيئاً آخر؟.

الفلسفة في العالم الراهن، لعبة من لعب المجتمع لاختصاصيين متميزين في البهلوانية اللغوية، بعيدة عن المشكلات الحيوية وعن حركات حياة الشعوب بُعْدَ حياطة مشاهير الخياطين أو المغامرة على العقارات.

والمثال النموذجي لدورها، لدى الأكثرين ذيوعاً من هؤلاء الحواة المشعوذين الذين يُخفون الواقع: في ١٩٤٣، في قلب العاصفة الدموية النازية، كان سارتر يلعب لعبة كرة الطاولة بـ"الكون والعدم" الذي خلا من الأذى بحيث سمح المراقب لأطروحته دون أن يهتز[1]، لأن المؤلف قد حبس نفسه، مرة أخرى، في الوجود، ولم يدرك الحرية إلا "تصدعاً في الوجود"، اعتباطياً مثل انحراف الذرات لدى سقوطها في الفراغ، عند ابيقور.

[1] في حين أن الأعمال الفلسفية لمعاصره "هنري لوفيفر" مثلاً، كانت في الفترة نفسها على قائمة الكتب المحرمة من النازيين.

إن حريةً مؤسسةً بهذا الشكل لا يمكن أن تكون إلا سلبية "القدرة على قول (لا) دون قدرة خالقة". وكانت النتيجة واضحة: "الحياة هوىً غير مُجد"، كما كتب في الصفحات الأخيرة من الكون والعدم.

كانت هذه الحقبة هي الحقبة التي كان القس "بونهوفر" فيها، في سجون الغستابو، بتهمة المشاركة في المؤامرة على هتلر، وهو يتفكر في الحياة الحية والمناضلة، فيجد التعارض لا بين مفهومي الوجود والعدم أو الوجود والزمن وإنما بين المقاومة والخضوع، قبل أن يقتله النازيون.

وقع لي أن أغضبت سارتر كثيراً عندما قلت له في أثناء حديث ودّي: "لم أجد في فلسفتك شيئاً إيجابياً لم أره أولاً في (فخته)". والفرق أن "فخته" قطع صلته بالوجود ليبدأ فلسفة "الفعل" معترفاً في آن واحد بضرورة مسلماتها واستحالة البرهنة عليها.

ونستطيع أن نقول مثل ذلك عن "هيديجر"، في ألمانيا، في الفترة نفسها، إذ جعل من نفسه "راعي الوجود أو استمر في سرد نسيج "الوجود والزمن" وهو في رئاسة جامعة اقليمية مطمئنة، ليدثرهما ويجعلهما بمنحىً من الوجود الواقعي الذي كان آنذاك هتلرياً، ومن الزمن الواقعي زمن "اللبيتزكريغ" ومعسكرات الموت.

لا يكاد يستحق الذكر بعض الآخرين لولا إظهار نهايتهم المشتركة: إنهم يخلطون بين نهاية فلسفتهم ونهاية الإنسان، والحالة النموذجية أكثر من غيرها هي حال "التوسر" لأنه تصدى للماركسية، الفكر الأكثر حياة في قلب الجماهير، دون أن يتمكن من التجذر فيها، وأن يتخطى شارع "اولم"، وحلقة أنصاره في الحي اللاتيني، لا لنقصٍ في الموهبة الشخصية والمهنية، وإنما لأنه يعكس روح الزمن اليائسة: لقد طبقَ البنيوية المحققة فقاد تلاميذه إلى الاعتقاد أن "الإنسان دمية تتلاعب بها البنى".

وانتهى ميشيل فوكو إلى النتائج نفسها: موت الإنسان.

إن أساتذتنا في الفلسفة المطابقة للدُرْجة السائدة يستمرون في التقاليد المهيبة لهؤلاء العاقلين ، بالمعنى الذي نستخدم فيه لفظة عاقل في قولنا: ولد عاقل، أي مطيع).

وفي الصفوف والمدرجات حيث أراد هؤلاء السادة عَزْل طلابهم عن ضوضاء الشارع، وعن زلزال الشعوب، يبدو الفكر الوحيد (أي غياب الفكر "المنضبط سياسياً") أنه يجهل النظريات المكلّفة بالحفاظ على الوضع الراهن العالمي: نظريات أيديولوجيي البنتاغون، مثل فوكوياما، الذين رأوا انتهاء التاريخ في الانتصار الشامل لهذا الدين الذي لا يجرؤ على التصريح باسمه وإن كان في أساس جميع العلاقات الاجتماعية: وحدانية السوق.

وآخرُ، تفاؤله أقل احتفالاً بالنصر، هو "هنتنغتون"، يريد، هو أيضاً أن يُجمِّد التاريخ في مواجهة أبدية بين حضارة يهودية ـ مسيحية وبين تواطؤ إسلامي ـ كونفوشوسي.

هذه كلها صور أخرى لموت الإنسان، ولكن لا يتصدى أحدٌ لنقدها لأنها شديدة القرب من أرض البشر ومن معاركهم الواقعية بحيث تخشى الفلسفة الجامعية أن تحرق أصابعها فيها.

وأكثر أمْنا أن يدور البحث حول "ميرلوبونتي"، كما أن من الظرف، بالنسبة إلى الذين يستهويهم تقليد مَنْ يعتبرونهم ارقى منهم، أن يضعوا في متناول النظر، على رفوف المكتبة، كتابات "لاكان" التي لم يقرؤوها، والتي يتجادل حولها المحللون النفسيون وفق الدُرْجة السائدة (أي الذين يحاولون دمج المنحرفين في عالم مشوَّه ومشوِّه)، بدلاً من العمل (كما حاول أحدهم وهو إيريك فروم) على تحويل هذا العالم لكي يمكن العيش فيه بطريقة سويّة، أي طريقة مبدعة، بالنسبة إلى الإنسان.

وآخرون يضعون جنباً إلى جنب في هذا العالم "الضرورة والمصادفة" "لجاك مونود"، لا ليزدادوا علماً فيه حول الخمائر المتبدلة أو تطبيقات السيبرنيتيك على الظواهر الخلوية التي أسهم فيها جاك مونود إسهاماً عالياً، وإنما ليقرؤوا في الصفحات الأخيرة تعريضه الساحر الذي خلط فيه كارل ماركس والأب "تيلاردي شاردان" اللذين لم يقرأهما ـ على مايبدو ـ قراءة جادة.

ينبغي أن أضيف لكي أكون عادلاً، أن تدنّي الفلسفة هذا ليس حكراً على غرب أوروبا. ففي الفترة التي كنت فيها، في الاتحاد السوفييتي، شخصاً مرغوباً فيه،

بصفتي قائداً شيوعياً فرنسياً مسؤولاً عن الترجمة الفرنسية لأعمال لينين الكاملة، وفي الوقت نفسه بصفتي حامل دكتوراه من أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفييتي، أُخِذ برأيي، اربع مرات، على الأقل، في أكاديمية العلوم: المرة الأولى عندما جعلتُ ترجمة آراء لينين في تقريظ هيغل أكثر أمانة لفكره الفلسفي. المرة الثانية، عندما حصلتُ على نشر الظاهرة الإنسانية للأب "تيلار دي شاردان" مع مقدمة طويلة بقلمي، (وهكذا اصبحتُ عرّاب أول يسوعي يُنشر عمله في اللغة الروسية منذ الثورة). والمرة الثالثة عندما حصلت على القبول بدمج مخطوطات ١٨٤٤ لماركس في الطبعة الروسية الجديدة لأعمال ماركس، وتحتوي هذه المخطوطات على الجوهري في فلسفته وعلى نظريته في "الاستلاب". والمرة الرابعة، عندما علمتُ وأنا مدهوش، بطبع كتابي "واقعية بلا ضفاف"، باللغة الروسية، مع أنه يهاجم مهاجمة جَبْهية المذهبَ الرسمي للواقعية الاشتراكية. والحق أن "اراغون" الذي أثنى على كتابي في موسكو وهو يضيف: "انه لم يُقرأ في الاتحاد السوفيتي إلا من العلماء" ونبّهني وهو يحمل إليّ نسخة، أن غلافه يحمل هذه الإشارة: "للمكتبات العلمية فقط". (وهو تحذير شبيه بالتنبيه في الأفلام الممنوعة عندنا لمن هم اقل من الثامنة عشرة).

إن الفلسفة، بحصر المعنى، أي التفكير في الغايات وفي معنى الحياة، والمشاركة في العمل الرامي إلى تحقيق هذه الغايات وهذا المعنى، قد كانت رسالتها في الغرب كما في الشرق. الرسالة التي كانت قديماً رسالة اللاهوتيين الكبار الذين تجاوزوا زمنهم مثل "جواشيم دي فلور"، "رامون لول" أو كاردينال دي كويز"، الذين انتعش فكرهم لدى الاحتكاك بالشرق الصيني، والإسلامي، والافريقي بطريق الاسكندرية.

ومع ذلك، ففي القرن العشرين. حدثت بداية صحوة لفلسفة الفعل، أولاً مع الكاثوليكي "موريس بلونديل" (١٨٦١ ــ ١٩٤٩)، الذي طرح، في أطروحته ١٨٩٣ ذات العنوان الكبير الدلالة: "العمل، محاولة نقد للحياة وعلم للممارسة" السؤال الآساسي التالي: **ماذا ينبغي أن نريد لكي نصبح أكثر إنسانية؟**

وتتلخص طريقته في أن يُظهر كيف أنه ما من طموح ولا مشروع جزئي يمكن أن يُرضي تطلّبنا الأساسي.

و"غاستون بيرجيه" ((١٨٩٦ ــ ١٩٦٠) وعملُه امتدادٌ لعمل موريس بلونديل (وكان أحد المقرّبين منه): فهو يرى أن "الاستقبالية" التي كان رائدها، ليست التنبؤ بمستقبل موجود من قَبْل. ليس المستقبل ماينبغي اكتشافه (كما هي الحال في "المستقبلية" الأمريكية التي لا يكون المستقبل فيها سوى تعميم كمّي للحاضر، أي استعمار الماضي للمستقبل) بل المستقبل هو ماينبغي ابتكاره. ليس المستقبل ماسيكون بل ماسنصنعه. والمسألة ليست: **كيف سيكون العالم بعد خمسين عاماً؟ وإنما: ماالذي سينجم بعد خمسين عاماً، عن القرارات التي نتخذها اليوم؟.**

وأخيراً غاستون باشلار (١٨٨٤ - ١٩٦٢) الذي كان له الفضل في تصور نظرية للعلوم غير ديكارتيه ينزع إلى أن يجعل من البحث العلمي ومن فرضياته المؤسِّسة، حالة خاصة (التحقق التجريبي) من الإبداع الشعري، وذلك انطلاقاً، في موازاة ذلك، من تأمل في الخيال الشعري.

لكن هؤلاء المفكرين الثلاثة، الأكثر تجديداً في هذا القرن لإتمام نداء الحكمة الأول، لا تكاد تعبأ بهم الفلسفة الجامعية (ماعدا باشلار)، وهي تظل غريبة عن مطمحهم الحيوي.

اتجاه الذين يحترفون الفلسفة هو الابتعاد عن العالم الواقعي، اليومي، للتفكر في مستوى الوجود المجرد.

انفصل الفكر عن العلم.. وصنعتْ الفلسفة لنفسها عالماً مستقلاً: عالم الوجود، دون علاقة مع حركة الوجود الواقعية ودون تأثير فيه. فلسفة الوجود هذه غدتْ فلسفة السيطرة لا فلسفة التحرر.

إنها غير مؤذية للنظام القائم، وهي جزء من زيناته ومن أدواته.

الفلسفة الألمانية التي هي أغنى فلسفة في أوروبا قاطبة، تقدم هذه الخاصية: فبحُكْم التأخر السياسي لألمانيا وبحكم تفتتها إلى إمارات صغيرة من نمط إقطاعي، لَم يكن بوسع المفكرين الألمان أن ينطلقوا من تجربة تاريخية مباشرة، فتوجَّب عليهم أن يبحثوا عن قاعدة في بلدان أخرى وحضارات أخرى.

* * *

لم يتم إعداد فلسفتنا انطلاقاً من تأمل منعزل حول المذاهب السابقة فحسب، وإنما انطلاقاً من تجريب تاريخ القرن العشرين بأسره، بانقلاباته السياسية، وتبدلاته العلمية، وبتساءلاته الدينية، وبأبحاث فنونه. جميع هذه التحولات تتطلب من الذين أتيح لهم، مثلي، أن يعيشوا طوال هذا القرن تقريباً، تجديداً عميقاً لطريقتنا في التفكير ولأسسها.

هذا التفكير في نظرية العلوم يغدو مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بسيرة المؤلف كمشارك فاعل، مناضل، في تحولات العلوم والفنون والاقتصاد السياسي والدين[1].

٤ ـ بتحول الإيمان.

إن مشكلات الإيمان والتربية مرتبطان ارتباطاً حميماً لأن هذه المشكلات جميعاً تطرح مشكلة غايات الإنسان الأخيرة. وذلك في جميع حضارات العالم.

ولكي تُطرَح هذه المشكلات في اتساعها الإنساني، من الضروري أولاً، بالنسبة إلينا، نحن الغربيين، أن نتخلى عن ذلك الرأي المسبَق الذي يرى أن أوروبا، وهي شبه جزيرة في آسيا، تلعب الدور المركزي، إن لم يكن الوحيد، في تاريخ الإنسانية.

وقبل كل شيء: ماأوروبا التي تقع في قمة التطور الخطي الذاهب من إنسان حاوه البدائي المنقرض إلى الإنسان الماشي على القمر؟

أوروبا هذه تدعي هذا الامتياز وهي أنها من صُنع دينٍ هو الوحيد وهو الدين الحق، وهو وحده يتيح الاقتراب من الإله الحقيقي، وجميع الأديان الأخرى وثنية وكفر. لكن ماذا فعل هذا الدين بأوروبا؟ أوروبا القرن الرابع، أوروبا قسطنطين، وارث السيطرة الرومانية، مؤسس المذهب القسطنطيني، أي وحدة الكنيسة والسلطة، الذي استخدم السلطة الزمنية لاضطهاد كل من يُقدم على اختيار آخر باعتباره مُهرطِقاً.

---

[1] انظر الملحق: العيش في قرن ملتهب.

أوروبا التي لـم تُلغ الرقّ، بل أعطتـه شـكلاً جديـداً مـع اسـترقاق الهنـود ثـم السود؟.

أوروبا الحروب الصليبية التي بشّر بها "سان برنارد" فأعلن: "من يقتل مسلماً فليس قاتلاً لإنسان وإنما هو قاتل للشر"؟ أوروبا الصليبيين الذين ذبّحوا في طريقهم يهود أوروبا ومسيحيي بيزنطة التي نهبوا آبهتها، ريثما يذبّحون المسلمين، ثم المانويين. أوروبا التي مزقت القارة بحروبها الدينية منذ محاكم التفتيش، إلى مذابح "سان بارتيليمي"، ومجازر لويس الرابع عشر.

أوروبا البابا الذي قسم أمريكا، في "توردزيلا"، بين اسبانيا والبرتغال، وبارك بجزرة الهنود باعتبارها تبشيراً بالانجيل، كما بارك في العالم كله؛ جميع النزعات الاستعمارية؟.

والذي أيد هتلر، في الحرب العالمية الثانية، في مجمع فولد الاسقفي، أيده في معركته العظمى ضد الشيوعية، والذي دعا الشعب الفرنسي، في فرنسا، إلى التعاون دون تحفظ مع الزعيم الذي منحنا إياه الله؟

والذي ظلت مراتبه العليا، غداة الحرب، حاملة تستنكر الشيوعية بصفتها فاسدة جوهرياً وتستنكر من الرأسمالية مفاسدها فقط.

والذي صمت أمام هيروشيما، مع كلام معسول عن الظلم على العموم، دون أن يدين ظلماً بعينه، مهنئاً "بينوشيه في الوقت نفسه الذي كان يدين لاهوت التحرر في أمريكا اللاتينية، ملقياً الحرم على الأب الآسيوي "بالاسوريا" للتنديد القوي ببؤس الجنوب الشرقي من المحيط الهادي وللاعتراف بقيم البوذية؟ والذي أصدر في عام ١٩٩٢ كتاب التعليم الديني فلم يدن عقوبة الإعدام ولا مبدأ الحرب؟ كان ذلك في زمن سحق العراق واستئناف استعمار. فلسطين اللذين لم يثيرا أي استنكار من الفاتيكان. عن أية أوروبا واي دين يتحدثون؟

يذكرون بكل رضا الدين الذي بنى الكاتدرائيات ليصل، عبر تعاون المسيحيين الديموقراطيين المشهورين الثلاثة: "ادناور"، و"دي غاسبيري"، و"شومان" إلى "وحدة الفحم والفولاذ"، لتقود إلى النقد الموحد، وهو إنجاز لا نزاع في روحانيته!.

هذا الغرب ومسيحيته لا يمكنهما، إذا ماحكمنا عليهما من خلال تاريخهما، أن يُعرَّفا إلا بمشروع السيطرة العالمية المادية والروحية على نحو لا يتجزأ.

أين يسوع في ذلك كله؟ وجميع الذين اختاروا طريقه، رغم جميع خيانات المؤسسة؟.

أين يسوع على منصة "وودستوكز" الحبرية؟

على عرش الحبر الأعظم (الحبر الأعظم للامبراطورية الرومانية التي هو وارثها) أو تحت الرداء الأرجواني لأصحاب المقامات من رجال الدين؟.

إن هبَّة يسوع كانت مع ذلك اللحظة التي انفتحت فيها ثغرة في تاريخ البشر والآلهة: اللحظة التي اعتبر الناس فيها أضعفَ الناس بينهم وأشدهم تجرداً هو الذي عبّر أفضل تعبير عن الكمال الإلهي للإنسان. لا شيء في الماضي اليهودي أو اليوناني كان يحمل على التنبؤ بهذا الانقلاب الجذري للفكرة التي كوّنها الناس حتى الآن عن آلهتهم: ليس يسوع ابناً "لزوس" ولا ليهوه، ولا لأي إله قدير[1].

ولم يكن التعالي الإلهي يُعبَّر عنه معه بمصطلح الخارجية أو القوة. كانت القطيعة جذرية مع "إله الجيوش" كما كانت كذلك مع "زوس" الملوِّح بالصاعقة. التعالي، تجاوز الإنسان، لم يكن يُتخيَّل مثل سيطرة الملوك الأقوياء، الذين يحكمون، من أعالي السموات أو من "الاولمب"، على أعمال البشر ليمنحوهم النصر أو ليُوقعوا بهم الهزيمة، ليتلاعبوا بهم من الخارج أو حتى ليقاضوهم. عاش يسوع حياة أكثر الناس تواضعاً، دون سلطة ودون ملكية. ومات أكثر الميتات تواضعاً، ميتة العبيد العُصاة الذين كانوا وحدهم يُسمَّرون على الصليب.

ومن القديس بولس حتى كتاب التعليم المسيحي في ١٩٩٢، تُوِّج ابن الناصرة سيداً وملكاً. وأيّ ملك، ملك من نسل داود، ووارث داود الذي تقدِّمه لنا أسفار صموئيل والملوك (وهي المصادر الوحيدة المتوافرة التي تتحدث عن سيرة داود) كقائد مرتزقة يعيش مع عصابته على النهب والقتل، خادماً، دون وازع

---

[1] كتب الأب "غونزاليز فوس": (الوصول إلى يسوع) ١٩٩٢ الإله الذي كشف عنه يسوع ليس إله العهد القديم (ص١٦). وكتب ايتليبر ستوفر (الترجمة الانجليزية): يسوع وتاريخه ١٩٦٠: "أعلن يسوع رسالة جديدة من الله، ديناً جديداً، وأخلاقاً جديدة غير مرتبطة بالتوراة".

من ضمير العبرانيين حيناً وأعداءهم حيناً آخر، وقد بلغ من نذالته ان نصب حبائله لأكثر قادته أمانة وتُقىً ليستولي على امرأته وليجعل منها أماً لابنه سليمان. هذه الشخصية البغيضة التي كانت حياتها النقيض بالتمام لحياة يسوع، منذ القديس بولس حتى كتاب التعليم المسيحي في ١٩٩٢، هي التي يسوع خليقتها.

ومثل سلفه الخرافي داود "سيضع جميع الأعداء تحت قدميه" (رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنتوس ١٥ ـ ٢٥).

لأن مسيح بولس يعود إلى "شريعة المِثْل". فهو "مسّيا" الله الذي ينتقم "إذ هو عادل عند الله أن الذين يضايقونكم يجازيهم ضيقاً". (الرسالة الثانية إلى أهل تسالونيكي ١ ـ ٦). ويُعطي بولس البرهان التاريخي على قدرة الله وهو أنه بعد "أن أهلك سبع أمم في أرض كنعان وقسّم لهم أرضهم بالقرعة" (أعمال الرسل ١٣ ـ ١٩).

هذا هو المقطع الوحيد من الأناجيل الذي يذكر هذه المذابح كعلامات على حماية الله. ومنذئذ اسس لاهوت بولس هذا لاهوت السيطرة، باسم المسيحية.

دخل يسوع الذي غدا يسوع المسيح، في الحق العام لآلهة القوة، على طريقة الآلهة القديمة. وقد كُوِّنت له انطلاقاً من العهد القديم سيرة جديدة: إنه ليس سوى ممثل مطيع لسيناريو كتبه القدماء. "لابد أن يتم جميع ماهو مكتوب عني في ناموس موسى والأنبياء والمزامير" (لوقا ٢٤ ـ ٤٤). "لا أقول شيئاً غير ماتكلم الأنبياء وموسى أنه عتيد..." (أعمال الرسل ٢٦ ــ ٢٢). وإذن فحياة يسوع الخاصة لا تكون قد أظهرتنا على شيء جديد.

على هذا الأساس المذهبي، بُنيت، طوال سبعة عشر قرناً، هذه اليهودية المصلَحة، والتي أُعيد التفكير فيها عَبر الفلسفة اليونانية، فلسفة أفلاطون مع القديس اوغسطين حيناً، وحيناً آخر انطلاقاً من أرسطو مع القديس "توما الاكويني"، وهو مايدعى الحضارة اليهودية المسيحية، والكنيسة الرومانية، الوارثة، في الواقع، ببناها وتراتباتها ملكية الامبراطورية الرومانية ورغبتها في القوة.

وكان القديس بولس أيضاً رائد اللغة المزدوجة التي جعلته يعلن بروعة "ليس يهودي ولا يوناني، ليس عبد ولا حر، ليس ذكر وأنثى". (رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية ٣ ـ ٢٨) وانظر رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية (١٠ ـ ١٢). هذه الصيغة الرفيعة قد ناقضَها تعليمه العملي.

أكان المقصود تأكيده: "ليس يهودي ولا يوناني"؟ فهذا هو نفيه الأكثر جذرية، أفضلية اليهودي: فالله يرحب "باليهودي أولاً ثم باليوناني"، شريطة أن يقبل بالتصور اليهودي لله وأن يقبل إصلاح بولس الذي جعل من يسوع خاتمة التاريخ اليهودي، فكوّن إسرائيل الحقيقية، "البقية" الحقيقية. (رسالة إلى أهل رومية ١ ـ ١٥).

أم كان المقصود تحرير العبيد؟ "الدعوة التي دُعي فيها كل واحد فليلبث فيها. دُعيتَ وأنت عبد فلا يهمك. بل إن استطعت أن تصير حراً فاستعملها بالحري". (الرسالة الاولى إلى أهل كورنثوس ٧ ـ ٢٠ ـ ٢٨).

"أيها العبيد أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة في بساطة قلوبكم كما للمسيح" الرسالة إلى أهل أفسس (٥،٦).

"والعبيد أن يخضعوا لسادتهم ويرضوهم في كل شيء.. لكي يزينوا تعليم مخلصنا الله في كل شيء". (الرسالة إلى تيطس) (٢ ـ ٩).

وفيما يختص بالنساء، طلب منهن الخضوع ذاته وبطريقة أكثر تكراراً: "لأن الرجل ليس من المرأة بل المرأة من الرجل. ولأن الرجل لم يُخلق من أجل المرأة بل المرأة من أجل الرجل". (الرسالة إلى أهل كورنتوس. ١١، ٨ ـ ٩).

من هذا التفاوت اللاهوتي تنبع هذه الممارسة: "ايتها النساء اخضعْنَ لرجالكن" (الرسالة إلى افسس ٥، ٢٢؛ وإلى أهل كولوسي ٣ ــ ١٨). "ولكن لستُ آذن للمرأة أن تعلم ولا تتسلط على الرجل بل تكون في سكوت" (الرسالة الاولى إلى تيموثاوس ١ ـ ٢ ــ ١٢)، "بكل خضوع" (إلى تيموثاوس ٢ ــ ١٢). "لتصمتْ نساؤكم في الكنائس" (الرسالة الاولى إلى أهل كورونتوس ١٤ ــ ٣٤)؛ والرسالة الأولى إلى تيموثاوس ٢ ـ ١٢). "إذ المرأة إن كانت لا تتغطى فليُقَص شعرُها" (الرسالة الاولى إلى أهل كورنتوس ١١ ـ ٦).

وهكذا ستتكلم كنيسته في الغالب لغة يسوع حول "الاختيار التفضيلي للفقراء"، وتدين في الوقت نفسه الذين يمارسون هذا الاختيار ويعبرون عنه في لاهوت التحرر، في الوقت نفسه الذي تدينه المخابرات المركزية الامريكية. ستمدح الفقر وسط الأبهة الباهظة الثمن لأحبارها من ليون العاشر إلى جان بول الثاني، وستمجد قداسة الحياة على نحو مفرط الإلحاح، مع قبولها في كتاب التعليم الديني، عقوبة الإعدام و"الحروب العادلة"، وكأن الحياة الإنسانية ليست مقدسة إلا في حالتها الجنينية، بل النطفية، وتكف عن أن تكون مقدسة منذ سن التجنيد، وترتاح للسادية المذهلة في الإعدامات التي لا تثير في أمريكا سوى الفرح الهستيري لدى المساكين المشروطين والمخدرين أخلاقياً بمشهد العنف في سينماهم وتلفزيونهم.

هذه اللغة المزدوجة سمحت للمؤسسة بالتعاون، في الوقائع، مع السلطة، في حين أن ملايين المؤمنين كانوا يعيشون بحسب كلمات يسوع وحياته المقدسة، من سان فرانسواداسيز إلى دوم هلدر كامارا، دون أن يزعزعوا السلطات القائمة التي كانت الكنيسة تمنحها دعمها الرسمي حيناً، والصامت حيناً آخر.

قال لي يوماً كاهن مبشر في "الكاميرون" خلال سنين: "مصيبة كنيستنا المسيحية في أفريقيا، هي أنها أعطت انطباعاً بأن الله لم يَصِرْ إنساناً، وإنما صار غربياً، بحيث أن الأسود يشعر أنه، لكي يصبح مسيحياً فعليه أن يصبح أبيض".

هذه المأساة ليست مأساة افريقيا فحسب، لكنها مأساة جميع البلدان التي عرفت الحضارة الغربية بوجهها الثلاثي العسكري والتاجر والمبشر، الأول فرض عليها سلاحها، والثاني نموذجها الاقتصادي، والثالث دينها.

إن الدين الذي يذهب إلى أنه كاثوليكي مثلاً، أي "جامع" وإن كان في الواقع رومانياً لا يرى تاريخاً مقدساً سوى تاريخ العبرانيين ثم تاريخ المسيحيين الذين انتصروا عليهم ثم أعلنوا بدورهم تطلعهم إلى أن يكونوا "الشعب المختار" المعد للسيطرة على جميع الآخرين.

في عام ١٩٧٧، في ساحل العاج، انعقد مؤتمر اللاهوتيين المسيحيين في افريقيا السوداء برئاسة رئيس أساقفة أبيدجان "ياغو": الحضارة السوداء والكنيسة الكاثوليكية.

ذكّر الأب جان مارك باسم الجامعة المسيحية أن "الحضارة اليهودية المتوسطية التي نقلت حتى الآن المسيحية ليست سوى ثقافة بين ثقافات أخرى... والكاثوليكي ليس مرادفاً للروماني".

هذه الرغبة في إزالة الاستعمار عن الإيمان وفي إسباغ النسبية على الثقافة الغربية لانقاذ القيم الشاملة في المسيحية أعرب عنها بقوة في كتاب يسوعي من الكاميرون هو الأب "هيغبا": "تحرر كنائس تحت الوصاية": "ليست المسيحية ديناً غربياً، لكنها دين شرقي احتكره الغرب وطبعه بطابع لا يُمحى هو طابع فلسفته وحقه وثقافته، وهو يبدو منذئذ كذلك بالنسبة إلى سائر شعوب العالم. ويقع علينا أن نطبع سيمتنا التي لا تمحى على الدين نفسه، وألا نرفع إلى مصاف الوحي الإلهي الفلسفة الأرسطية ـ التومائية، والفكر البروتستانتي الجرماني أو الانجلو سكسوني، أو أشكال الفكر والعادات الغولية أو اليونانية الرومانية واللوزينانية والاسبانية أو الألمانية التي نصّرتها أوروبا إن لم تكن اضفت عليها القداسة.

واستخلص الأب "اوسانا" النتائج من تصريحات الأسقف "زوا"، اسقف "ياوندا": "نحن الورثة الشرعيون للديانات الأفريقية التقليدية التي هيأت الإنسان الافريقي، كاي إنسان آخر، لمجيء يسوع. إن لها دوراً شبيهاً بدور العهد القديم".

كان هذا هو الاتجاه الاساسي في لاهوت التحرر الذي رفض، انطلاقاً من تجربة "جماعات القاعدة" في أمريكا الجنوبية، الأكثر فقراً والأكثر تصميماً على أن تعيش مسيحيتها، الكنيسة الرومانية التي كانت تعتبر كنائس العالم الثالث ملحقات بتاريخ البعثات التبشيرية، وتواطأت مع المحتلين ومع الاستعمار، ثم مع جميع السلطات القائمة المتتابعة.

كانت خاصية لاهوت التحرر قَلْبَ طريقة اللاهوت الغربية: فبدلاً من استنباط مذهب اجتماعي من بعض آيات الإنجيل (وهو مذهب يرتاح إليه السادة

في نهاية الأمر) لتبرير الفوضى القائمة، كما في السياسة التي استخلصها "بوسويه" من الكتابة المقدسة، وبارك حكم لويس الرابع عشر المطلق، وحتى الرسائل البابوية في القرن التاسع عشر والقرن العشرين التي تستنكر بالكلام مساوىء الاستغلال الرأسمالي دون أن تضع مبدأه موضع الاتهام.

لاهوتيو التحرر يعملون بعكس ذلك. لا بالاستنتاج بل بالاستقراء: إنهم ينطلقون من واقع بؤس شعبهم ويقرؤونه على ضوء انجيل يسوع. وضد ذلك، وقف الكردينال "راتزنجر" باسم مَجْمع المذهب للدفاع عن الايمان (محاكم التفتيش والاستقصاء القديمة)، وتذرّع مرة أخرى بنصوص القديس بولس ليستنكر التحليلات الاجتماعية للاهوت التحرر باعتبارها "متشبعة بالماركسية"، وشرحَ بشكل مذهبي، كيف أنه لا يجب الخلط بين التحرر من الخطيئة والتحرر من العبوديات الاجتماعية التي لم تعد تقبل الاستسلام التقليدي للشعب، الذي لابد منه للطغاة. وليس من باب المصادفة أن توجيهات الكردينال راتزنجر تلتقي مع إعلان المخابرات المركزية الأمريكية الحرب على لاهوت التحرر الذي كان يشكل خطراً على الأمن القومي للولايات المتحدة وعلى الدكتاتوريين الذين نصّبتهم في أمريكا الجنوبية وأمريكا الوسطى.

ومع أمريكا الجنوبية وأفريقيا بلغ آسيا هذا التمرّدُ ضد المركزية العرقية والنزعة المحافظة لدى الإدارة البابوية الرومانية.

وكان إعلانٌ مشتركٌ من أساقفة العالم الثالث قد صاغ بعض التحفّظات. واتخذت القضية شكلاً حاداً عندما أُلقي الحِرمُ الأكبر، في ٢ كانون الثاني ١٩٩٧، على لاهوتيٍ من سيريلانكا، هو الأب تيسابالاسوريا، ألقاه مجمع الاستقصاء للكردينال "راتزنجر" بموافقة البابا (مما يجعل الحرم غير قابل للاستئناف ولا رجعة عنه) لأن الأب المذكور قد أظهر إلى أي حد ظلت المسيحية غربية ولأنه حاول أن يعيش إيمانه في سياق سيريلانكا والهند، مع الاعتراف بالدور الرفيع الذي تتخذه فيهما الروحانية البوذية.

وفي كتابه: "مريم أو التحرر الإنساني" يتعارض لاهوتان من غير شك: لاهوت روما الذي بموجبه يجب على كل تفكير لاهوتي أن يمر بالسلطة العقائدية،

أي بالتراتب الروماني المالك الوحيد دون غيره للحقيقة، واللاهوت الآخر يفضل أن ينطلق من العناية التي يوليها الفقراء ومعركتهم من أجل العدالة مع اعتبار قيمة إيمان روحانيات المواطنين الأصليين.

ومنذ أيار ١٩٩٦، كان المجمع الروماني قد أنذره بالاعتراف رسمياً بعصمة الحبر الأعظم، وبتولية مريم، وبأن الله هو صانع جميع اسفار التوراة، وبالأصل الإلهي لمنع كهنوت النساء. فرفض الأب "بالاسوريا" باسم "ممارسات الكنيسة بدءاً من مجمع الفاتيكان الثاني، وحرية المسيحيين واللاهوتيين ومسؤوليتهم، التي أقرها الحق الكنسي".

لبُّ القضية أن الأب "بالاسوريا"، شأنه شأن لاهوت التحرر في أمريكا الجنوبية، لم يكن يكتفي بإدانة مساوىء الرأسمالية، بل أدان منطقها ذاته، مولّد التفاوت والاستبعاد. كتب: "إن مقاربة مريمية من العالم الثالث يجب أن تستلهم حساسية المشروع الذي تجسده تسبيحة البتول: إطعام الجائعين ورفع المتواضعين".

أثارت الإدانة السخط في آسيا وحتى في العالم بأسره. وأعلن المجمع الذي ينتمي إليه الأب: مَنْذورو مريم البتول، الرابطة المسكونية للاهوتيي آسيا، الرابطة الدولية للاهوتيي العالم الثالث، حركة الطلاب الكاثوليك في آسيا والمحيط الهادىء، تضامنه مع المحروم.

لكن، فيما عدا ذلك، جرت تظاهرات من البوذيين والهندوسيين، ومن لاهوتيين بارزين مثل اليسوعي الهندي "صموئيل رايان"، أو الدومينيكي الاسترالي "فيليب كينيدي". ومن العالم كله وُجِّهت أكثر من ١٠٠٠٠ رسالة إلى الكاهن "المهرطق". وفي بداية ١٩٩٧، انتقد الأساقفة اليابانيون بحدة الوثيقة التحضيرية لمجمع الكنائس الآسيوية المقرر في نيسان ١٩٩٨ ـ في روما، كما كان السابق من أجل أساقفة افريقيا ـ فهذا النص ـ كما يقول الأساقفة اليابانيون، يفتقر إلى فهم الثقافة الآسيوية.

أمام مثل هذا الاستنكار العريض والشامل، اضطُرت الـملكية الـمعصومة في روما أن تتنازل، وفي ١٥ كانون الثاني ١٩٩٨، رفع الفاتيكان الحكم بالجِرم الـذي أصدره قبل سنة راتزنجر والبابا.

تجلت الـمركزية العرقية الغربية واليهودية لدى الإدارة البابوية في باريس أثناء احتفـال الاستقبال لرئيس أساقفة باريس الكاردينـال "لوستيجر" في الأكاديميـة الفرنسية.

"هارون لوستيجر"، في الواقع، من أصل يهودي. ولـم يتخلَّ عن دينه إلا في اللحظة التي كانت فيها معاداة السامية الهتلرية الوحشية تضطهد طائفته (مـاتت أمه في معسكر "اوشويتز"). حينئذ تنصَّر "لوستيجر" وأخته، بعد أن تجاوزا سن الرشد، سن الشجاعة والاختيار، بالرغم من معارضة ابيهما، في هذه اللحظة الرهيبة بالنسبة إلى اليهود.

ولدى استقباله في الأكاديمية الفرنسية، قالت له السيدة "كارير دانكـوس"، في خطبة الاستقبال: "عندما صرت مسيحياً فإنك لـم تكف عن كونك يهودياً.. فالـمسيح، تذكروا ذلك، ولد في بيت لحم في يهـودا.. ولـم يولد الـمسيح هناك مصادفة؛ لـم يكن ممكناً أن يولد صينياً ولا طفلاً افريقياً؛ "الـمسّيا" ليس "مسّيا" إلا لأنه جاء من الشعب الذي اختاره اللـه".

هذه العرقية لـم تستثر سخطاً من جانب الكاردينال، وارتضى، باسم أصولـه، إنكار ذلك التعليم الأساسي حول عمومية يسـوع التي يلخصها أحد أشهر آباء الكنيسة، "كليمان الاسكندري":

"الـمسيح ليس بربرياً، ولا يهودياً، ولا يونانياً، ولا رجلاً، ولا امرأة، إنه الإنسان الجديد، إنسان اللـه الـمتحول بالروح القدس". (كليمـان الاسكندري. الـمواعظ ١١ ـ ١١٢).

لاهو باليهودي ولا بالأفريقي الأسود ولا بالصيني، لقد سمى نفسه بأجمل الأسماء: ابن اللـه.

وذلك يعني إلى أي حد نحن بعيدون عن كنيسة تعترف بحضور الله، حتى قبل إعلانه، في جميع أشكال البحث، في الإنسان، عن تجاوزه في محبة الكل والواحد، وفي الاعتراف بما لم يوجد بعد.

هذه الحركة الداخلية أليست حاضرة لدى الأسود أو الصيني أو الهندي، وإن كانت طقوس عبادته مختلفة، وإن كان مختلفاً التاريخ المقدس لطفوه من الحيوانية، بمحبة كل مايتجاوزه ويجعله واحداً مع الكل. إن الصيغة نفسها لما هو لب كل إيمان حي: أن يكون الإنسان واحداً مع الكل، هي بالضبط صيغة تاوسيّ صيني: "تشوانغ تسو"، قبل عصرنا بستة قرون. لسنا هنا بإزاء مذهب توفيقي أو انتقائي وإنما المقصود الإخصاب المتبادل، وانفتاح إيماننا الخاص وتعميقه.

هناك طرق كثيرة تفضي إلى منزل أبي. فلماذا لا نعرف ولا نحترم مسبقاً الذين يحاولون، بطرق أخرى، أن يتسلقوا الذروة ذاتها؟ والتشابه بين هذه الطرق، من جهة أخرى، لافتٌ للنظر.

وأولاً صَمْتُ عقولنا، ورغباتنا، ومطامحنا الجزئية. وأحياناً تواضعُ رفض إعطاء اسم لمصطلح صعودنا. كان اليهود يحرمون ذكر اسم الله، كما كان "لاوتسو" يقول عن مبدأ "تاو": "الاسم الذي يمكن أن يسميه، ليس الاسم، لأنه لا اسم له.

ليس لله اسم. والأسماء التي يمكن أن نطلقها عليه ليست سوى رموز لنقصنا، ليقيننا أيضاً أن لحياتنا معنىً وأننا مسؤولون عن البحث عنه وإتمامه.

لأننا لو أعطيناه اسماً كما نعطي الكائنات، لكان ذلك وثنيّة، فكأن الاله كائنٌ بين الكائنات. مخطوطة ص ٢١٢،وحينئذ علينا أن نبحث عن كائن قبل هذا الكائن، وسنتوهم أننا توصلنا في نهاية سلسلة براهيننا، ومفاهيمنا، إلى البرهنة على وجوده كما يُبَرْهَن على وجود سائر الكائنات، في حين أنه فيما وراء الكائن، الفعلُ الذي يصنع الوجود، الذي يجعلنا دائماً موجودين وجوداً يتجاوز ماكان من قبل.

جوهر الوثنية ليس في الطابع المادي لموضوع العبادة الذي تصنعه أيدي البشر، ولا هو حتى في الطابع التصوري، اللفظي أو الميتافيزيكي، للآلهة التي خلقها خيال البشر لسد الفراغ الذي يُخلّفه العقل عندما نقترب من مسألة الأصول

الأولى، والغايات الأخيرة أو من المعنى التام للحياة. الوثنية هي إضفاء صفات الخليقة على الله.

والوثن ليس فقط المنحوتة المصورة الخشبية أو الصلصالية التي بها تحاول تلك القبيلة من المحيط الهادي أو من أفريقيا السوداء أن تردم تلك الهوة الفاغرة للامتناهي التي تفلت منا فيما وراء كياننا اليومي. إنها الاستجابة للحاجة نفسها، للنقص نفسه الذي نستشعره عندما نعي أننا كائنات "متناهية" لا بمعنى تامة، وإنما على العكس بمعنى جزئية، نهمة إلى اللامتناهي الذي تكتنفه، بالنسبة إلينا، الأسرار كالهاوية، إنها إعلان الكائن الأسمى.

الوثن هو دائماً ذلك الفمُ الفاغر، الموقت والمضحك، والذي نحاول به عبثاً إشباع حاجتنا إلى الامتلاء.

يمكنه أن يكون صورة أو مفهوماً، أو استعارة مثل استعارة خلق الفاخوري، أو سلطات الملك.

لكنه في جميع الحالات، فعلٌ باطل، من صنع أيدينا أو فكرنا، يضفي على مانسميه الله صفات هي صفات الكائنات المخلوقة: الإيمان بإله يأمر كما يأمر الملك، ويعاقب ويغفر كالقاضي، ويقضي بالنصر أو يوقع الهزيمة، إزاء الفرد أو الشعب اللذين اختارهما أو انتخبهما هذا الكائن المتحيز (وإن دُعي، تعسفاً، كائناً أسمى لأن عقلنا لا يمكن أن يتصوره أكبر) مثل "توتم" القبيلة الذي يغار من آلهة أخرى كما نكره خصماً ونتمنى تدميره.

الوثنية باقية، سواء أرتّلنا، بالعبرية أو المسيحية، المزامير ذاتها توسلاً للقوة، ومناشدةً للوعود ذاتها.

وبعد المدائح المتملقة كالتي يُمدح بها الملوك، تأتي التوسلات للانتقام: "العدو تم خرابه، وهدمت مدناً" (مزامير داود، المزمور التاسع).

هو إله يؤدي خدمات طفيفة أو كبيرة مثل آلهة البيوت عند الرومان، أو مثل تلك المرأة المتزمتة التي صلت للقديس "أنطوان" كي تعثر على مفاتيح بيتها لأنها تعلمت منذ قرون، هذه الوثنية، وكأنها دين (كما يعلم أطفال الغابة العذراء قدرات التميمة) هذه النداءات إلى النجدة الموجهة إلى إله النقمة: "يمطر على

الأشرار. فخاخاً ناراً وكبريتاً وريح السموم" (مزامير داود. المزمور الحادي عشر ــ ٦).

المزامير نفسها وردت في التوراة كما الأناجيل، وهي ترتّل في الكنائس. لقد أصبح يسوع بعد القديس بولس ابن ملك (هو الأسوأ بين الملوك، سيد الحرب، ورئيس عصابة المرتزقة، داود) وأُدخل من جديد في الحق العام لآلهة القوة، كما لو كان ابن يهوه رب الجيوش والانتقام أو "زوس" الذي يلوّح بالصاعقة، فيخلق العوالم ويدمرها بكلمة متلبسة بجميع الشعارات التقليدية لآلهة القوة القبلية. ومر خمسة عشر قرناً من المذهب القسطنطيني، أي من اليهودية ــ المسيحية، التي تطرح نفسها على أنها خليفة الشعب المختار، واسرائيل الرب، وهي بهذه الصفة تقلّد الامتياز الحصْري للسيطرة الاستعمارية على العالم بالتحالف مع جميع السلطات الزمنية المتتالية.

كل هذا يسير جنباً إلى جنب مع مغفرة يسوع، ومحبته الكاشفة عن قلب الله الذي يحقق لجميع مافي العالم من بؤس.

ولذلك، تبدأ جميع أفعال العبادة بتجربة صمت الله. وقبل كل شيء، صمت كل مافينا غير الله: صمت شهواتنا الجزئية، شهوة المال والسلطة والجنس دون حب، والهروب إلى المخدرات وجميع أشكال انحلال الشخص.

كتب "لاوتسو": "عندما يكون العقل البشري.. فارغاً وهادئاً تماماً، يكون مرآةً نقية وصافية، قادرة على أن ترى "جوهر" المبدأ الذي لا يُوصَفُ نفسه".

وعَبْر القرون، هذه الكلمات من القَرض الكنسي التي رددها المعلم "ايكهارت" معتداً بابن سينا: "الخلو من جميع الكائنات امتلاء بالله، والامتلاء بجميع الكائنات خلو من الله..." (كتاب الانفصال ٤ ــ ١). إن هذا "الإخلاء" دائماً وأبداً، هذا الفراغ الجذري الحادث فينا، هو الفعل الأول للتقرب من الله.

إن "تاو" يطالب بعدم الملكية، بعدم المعرفة، بعدم الكون وبالفراغ في الذات مثل اوبانيتساد الهند عندما تصبح الذات الفردية "براهما"، الذات تتوحد بمبدأ الأشياء:

"اذهب من أوضك، ومـن عشـيرتك، ومـن بيـت أبيـك". هكـذا قـال الـرب لابراهيم. (تكوين ١٢ ـ ١).

ويطلب يسوع التخلي عن كل مايخصنـا ومـا تلخصـه "الـملكية". لقـد قـال للشاب الغني الذي حفظ جميع الوصايا: "يعوزك أيضاً شيء: بِعْ كل مـالك ووزعـه على الفقراء... وتعـال اتبعـني". كـل شـيء. وكذلـك الأمـر مـع سمعـان ويعقـوب ويوحنا: "تركوا كل شيء وتبعوه" (لوقا: ٥ ـ ١١). "فترك كل شيء وقـام وتبعـه" (لوقا ٥ ـ ٢٨). "فكذلك كل واحد منكم لا يترك جميع أمواله لا يقـدر أن يكـون لي تلـميذاً". (لوقا ١٤ ـ ٣٣).

ليس الـمقصود هنا لعنةَ الأغنياء وتصرّفِهم كما قـال الأنبيـاء مـن قبـل، لكـن ذلك مطلبٌ مطلق، يتهم الثروة والـمَلكية، لا في إفراطهمـا أو سـوء اسـتخدامهما، لكن في ذاتهما، في مبدئهما ذاته. هـذا التخلـي للأنـا الصغـرى هـو شـرط اليقظـة، الوعي.

تكون الـمملكة حيث يحقق الإنسان نزعـاً كـاملاً للـملكية. فـإذا لـم توجـد بعد، فذلك لأن العلاقة بالعالـم لـم تتحقق في الجميع. هذا الشدُّ بين الـمتحقق من اليقظة الشخصية بالنسبة إلى حياة الكل، وبين مالـم يتحقق بعـد مـن يقظـة الجميـع بالنسبة إلى حياة الكل، هو الـمأساة الـمتفائلة لليقظـة، لأن كـلاً منـا مسـؤول عـن يقظة الجميع.

وعلى الطريق التي شقها لنا روحانيو الإيمان في جميـع الشـعوب، يمكننـا، علـى الأكثر، أن نحاول استذكار وجودها بطريقة سلبية، أي برفض كل ماليس إياها، أو بطريقة شعرية باستعارات مأخوذة من حياتنا اليومية نشير إلى ما يتجاوزهـا، مثلـما نقل إلينا أنبياء اللـه بالأمثال رسالات اللـه التي لا يمكن أن تكون إعلاماً أو قوانـين، لكنها دعوات، والقوة للاستجابة لها.

وعندما لا نعي هذه الحقيقة الأولى نتجرأ على مساءلة اللـه: أمام شرور العالـم والكثير من الأبرياء الذيـن يُضحّـى بهـم، مـاذا صنعـتَ؟ والجـواب الإلهـي بسـيط: صنعتكَ!".

أجل، مع مسؤوليتنا الكلية لـمحاربة "الـمملكة ـ الضد" الحالية لوحدانية السوق العدوة الرئيسية لله وللإنسان، هل نبغي أن يكـون إلـهٌ معلومـاتيٌّ قـد خلق عالـماً من النـاس الآليين الـمبرمجين من أجل مجيء مملكة تحققت دون إرادتهم ومسؤوليتهم؟.

وحتى قبل ولادة فلسفة الفعل الذي به اللـه موجود في كل شيء وفي كل إنسان، الفعل الذي يجعله موجوداً، الفعل الفائق، فعل الخلق، كان اللـه معيشاً كقوة تبث الحياة في كل حياة. مثلاً في روحانيات افريقيا واوقيانوسيا أو أمريكا الهندية، وكذلك في أمثال يسوع الـمبشر بالـملكوت عبر صور بذار الحنطة وإنتاشها، ولادة الحياة وتفتحها.

يمكن أن نأسف أن كلمة "اللـه" اسم يدعونا مداورة لأن نبحث تحت الاسم عن الجوهر. اللـه "فِعلٌ"، يمكن تصريفه على النحو التالي:

أنا لـم أخلق نفسي

أنت لست نور نفسك

نحن لا نكفي كفايتنا

تصريف فعل اللـه

اللـه دائماً من نمط ما ليس كائناً، لكنـه يستدعي الحركة والحياة. مثل أفق مُلاحَق أبداً وهارب أبداً: بحور أخرى بعد هذا البحر، وجبال أخرى بعد هذه الجبال.

إله، دائماً في ولادة، ودائماً خالق، ودائماً يدعو إلى انتجاعات جديدة للحياة.

مثل هذه التجارب، وترجمتها إلى أمثال، تكشف لنا عن وحدة العالـم، وعما وراء العوالـم. وعن هذين الـمفهومين، الـمتناقضين في الظاهر، مفهوم الكلية ومفهوم اللاتناهي، توحي إلينا أحدث الفيزياء بالواقع كصورة لهذه الوحدة وذاك اللاتناهي للعالـم. فعندما يتحدث فيزيائي القرن العشرين عن الجزيئة، لا يفكر أبداً في عزلة الذرة، هذا الجزء الصغير من الـمادة الذي لا يجري في داخله شيء والذي هو مفصول عن الأجزاء الأخرى بالفراغ.

أما الجزيئة في الفيزياء الحديثة فهي تعتبر على العكس عقدة من العلاقات، نقطة فريدة في صورة موجة، موجة عابرة على بحر بلا ضفاف. فيها تحيا جميعُ اندفاعات البحر، بل ومن ورائه، جاذبية القمر في مد البحر وجزره، والقمر نفسه مرتبط بتبعية الكوكب ـ الأم: الأرض، وهذه بتبعيتها، في حركاتها وحياتها، للشمس التي ليس لها نفسها من دينامية ووجود إلا في قلب مجرة بين مليارات ممكنة من المجرات. وهكذا فكل جزيئة لها جذورها في تخوم الكون.

ليس هناك من صورة أكمل من تلك عن الشرط الإنساني: الحياة، في امتلائها الفَرِح، ليست مجموعة من الأفراد المنعزلين، لكنها جماعة من الأحياء كل واحد منهم مسؤول شخصياً عن مصير جميع الآخرين. إن ذلك يُدعى المحبة، المسؤولة عن تفتح الجميع، جميع شعوب الأرض، وعن توازنات الطبيعة. هذا البحث عن الله هو قبل كل شيء وعي للحد الذي يحدنا: لا يمكنني أن أعود إلى أصلي الأول، ولا أن ارتفع أيضاً إلى معرفة غايتي الأخيرة.

الإحيائي الافريقي يعلمنا أن الحضور الإلهي ليس حضور "الكائن" ولكن حضور "القوة".

وتعلمنا الهندوسية أيضاً الواقع الثالوثي لكل حياة، وهو، في آن واحد وجود ووجدان وفرح.

المسلم روزبهان الشيرازي أعطانا هذا التعريف الشفاف للثالوث، التعريف المتخلص من غلّه الهيليني:

"الله هو وحدة العشق والعاشق والمعشوق".

إن حضور الله يتجلى أيضاً مثل الطاقة الخلاقة لدى الهندونسيين. وكان هذا هو التعليم الأكبر لدى الآباء الشرقيين:

"صار الله إنساناً ليتمكن الإنسان من أن يصير إلهاً". كما يذكر القرآن كلام الله عن آدم: "ونفختُ فيه من روحي" (١٥ ـ ٢٩)؛ وهو يعرف هذه الروح: "قل الروح من أمر ربي" (١٧ ـ ٨٤).

ليس العالم سوى كلية وحيدة، أي انبثاق وحيد للحياة، والإنسان أقرب صورة له على الأرض، كما علم ذلك "سان غريغوار النيسي، وسان غريغوار

بالامـاس": "الانسـان خلاصـة لكـل مـاهو موجـود". مثلـما انـه في القـرآن فـوق الـملائكة وله حرية الاختيار.

الخلق الفنّي الحقيقي هو مايُعيننا أفضـل معونـة علـى فهـم ذلـك الانتقـال مـن الكائن إلى الـمعنى، إلى تجلي الإله الذي يحمله في ذاتـه: إن لفافـة صينيـة مـن عصـر "سونغ" ليست صورة للجبل، لكنها تكشـف عـن حضـور تـاو، كمـا أن الأيقونـة البيزنطية لا تعطينا صورة يسوع أو العذراء، لكنها تدعونا إلى واقع من نمط آخـر، فيما وراء الصورة.

واقرب من ذلك إلينا، يكفي أن نقارن بين كنيسة "اوفـير" كمـا هـي (مثلـما هي اليوم) وبين انحلال الحياة والعصر في قلقه وآماله اليائسة، في لوحة "فـان غـوغ" الحافلة بالرؤى.

ماذا يمكن أن يكون إذن دور الإيمان في بناء القرن الواحد والعشرين بوجـه إنساني وإلهي؟

لقد ذكرنا آنفاً، ماالشيء الـمشترك، فيما وراء حكمة الحكماء والأديـان، أي عبر الأشكال الثقافية التي يعبر بها الإيمان عن ذاته، ما الشيء الـمشترك بينها جميعاً: إنه تجربة التعالي الـمعيشة، عبر التخلـي عـن الـذات، والـترحيب بـالآخر، والشعور بحضور انبثاق الحياة في الذات، وهي التي لا نعرف مبتداها ولا منتهاها.

هذه التجارب الثلاث تتلخص في تجربة واحدة هـي تجربـة التعـالي. والكلـمة رهيبة لفرط صعوبة إدراكها. ومع ذلك فهي التجربة الـمشتركة أكثر من أية تجربـة أخرى، والتجربة الـمعايشة للحياة، على النحو الأكثر مباشرة.

١ ـ التعالي ضد القدَرية (الأمر كذلك وسيكون كذلك أبداً). إنه اليقـين دون برهان، الـمسلـمة، الرهان (كما يقول باسكال) أننا يمكن أن نحيا علـى نحـو آخـر، وأن قطيعة جذرية ممكنة. وذلك هو على كل حال أصـل كلـمة تعـالى: مضـى إلى ماوراء، تجاوز. يمكن أن يوجد شيء مختلف عما هو كائن.

٢ ـ التعالي ضد الفردية. ليس الإنسان ذرّة. الإنسـان، لا هـو مثـل الفـرد ولا مثل الأمة، إنه ليس مركزاً لكل شيء ومقياساً لكل شيء. إنه مواطن في جماعة يعي كل واحد فيها أنه مسؤول عن مستقبل جميع الآخرين.

٣ ـ التعالي ضد الاكتفاء. الإنسان أكبر من أن يكفي ذاته. وكان القس "بونهوفر" يقول إن الخروج من الذات، التقاء الآخر هو أول تجربة للتعالي. وهذا مايدعى المحبة. "ومن لا يحب لم يعرف الله لأن الله محبة" (رسالة يوحنا الرسول الاولى ٤ ـ ٨).

التجربة ذاتها أملت على المتصوف الفارسي روذبهان الشيرازي: "في كتاب المحبة الإنسانية إنما نتعلم فك رموز المحبة الإلهية".

وهكذا فقط يمكن للتعالي، بمصطلح المحبة، ألا يفكَّر فيها بمصطلح الخارجية (مثل خارجية السيد والعبد). لأن الإنسان والله ليسا واحداً ولا اثنين. إن "آدفايتا" الفيدا (أي لا ثنائية) تساعدنا على التفكير في هذه الوحدة الثنائية للإنسان المسكون بالله: "جميع الكائنات فيّ ولا يحتويني أيٌّ منها.. أنا الفعل الذي يجعلها تولد". (باغافادجيتا. ٩ ـ ٤٥).

هذا المظهر الثلاثي للروحانية، هذا الشعور بالتعالي المعيش يحذرنا من هذا الوهم وهو أن عالمنا مغلق، وأن الواقع يرتد إلى ماهو موجود من قبل، وأن المستقبل غير مسكون إلا بإمكانات الحاضر.

هذه هي روح كل إيمان

المسيحيون يدعونها الثالوث، والهندوسيون يدعونه سات سيت اناندا (الكائن والوجدان والغبطة).

هذه هي في الواقع الأبعاد الثلاثة لكل واقع طبيعي وإنساني وإلهي.

علمتني تجربتي كماركسي أن الحتمية التي لا ترى المستقبل إلا امتداداً ضرورياً للماضي، لا يمكن أن تؤسس سوى مذهب محافظ على طريقة التجريبية التنظيمية "لشارل مورا". **الثورة بحاجة إلى التعالي أكثر من حاجتها إلى الحتمية.**

وتجاهلها يؤدي إلى التفجر الذي كان التاريخ الحديث مثالاً عليه.

وعلمتني تجربتي كمسلم المقتضيات، بل التضحيات التي تتضمنها الجماعة. فكل فردية، حتى لو دُوِّنت في "إعلان حقوق الإنسان، لا تؤدي إلا إلى غابة الأنانيات المتصارعة حيث يكون كلٌّ واحد مزاحماً وخصماً لجميع الآخرين في

جميع الأسواق، أي في نطاق (ولو كان عالـمياً) تتصادم فيه مصالحُ كل واحد، لتجعل من الإنسان ذئباً للإنسان.

وعلمتني تجربتي كمسيحي أن يسوع هو ذلك المسيح الكلي القدرة الذي يستنبطونه مما يظنون أنهم عرفوه من الله ليجعلوا منه ابناً "ليهوه"، رب الجيوش والانتقام، أو ابناً "لزوس" الذي يلوح بالصاعقة. على العكس، لقد أظهر لنا بأعماله واقواله وموته أن التعالي يمكن أن يطفو من اللاقدرة ذاتها ومن المحبة: كل كائن محبوب يغدو تجلياً لله، ظهوراً حياً لله الذي يحمله في ذاته: "بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم". (متى ٢٥ - ٤٠).

هذه التجربة الثلاثية التي لا تتجزأ، تجربة المتعالي، هي التي أريد أن انقلها، لأنها اصل كل إيمان وكل عمل مبدع.

كتب بول ريكور ذات يوم: "الدين استلاب الإيمان"، لأن كل دين هو الإيمان الذي تعبر عنه لغة ثقافة. إن مانسميه أزمة الدين هو، في الواقع، أزمة الثقافة التي عُبِّر فيها عنه: الثقافة الغربية، ثقافة القوة والسيطرة.

ما المكان الذي يمكن أن يكون، منذئذ، لهذا الإيمان، قلب كل دين، في الحياة الاجتماعية والسياسية؟

لا يسوع ولا بوذا حملا ديناً جديداً: بل لقد كان أقل الناس تديناً بنقضهما شرائع أديان القوة التي لم تكن تعلم الإنسان إلا ماكان ممنوعاً ولا يجوز مسُّه، سواء أكانت شريعة الصدّوقيين أو الفريسيين، أم نظام الطبقات في الهند، وكلا الدينين يتضمن، باسم القداسة، سيطرةَ القلة القليلة واستسلام الكثرة الكاثرة.

هؤلاء الأنبياء، الحاملون رسالة الإيمان اللادينية، قد علموا معنى الحياة ذاته.

هذا الإيمان المولود مع الإنسان الذي نفخ فيه الله من روحه، كما يقول القرآن، أو علم التضحية غير المشروطة كما فعل مع ابراهيم أو يسوع، هذا الإيمان لا يمكن أن يُحبَس في كنيس أو كنيسة أو مسجد، بخدامها الذين يحيون ذكرى دين معتاد.

هذا الإيمان لا يمكن فصله عن الحياة، حياة القرية والحقول، وفي المصانع ومخابر المدن، في المدارس ومراكز البحث.. وحتى في المجامع والكنائس والمساجد والمعابد.

وكما يقول حسن الترابي: "الله موجود في الحياة اليومية، في السياسة، في المدرسة، في الفن، وفي الاقتصاد، لكنكم حبستموه في معابدكم وكنائسكم.. جميع أنبيائكم أكدوا القيم ذاتها، لكن، بما أن المشكلات تطورت خلال العصور، جدد الأنبياءُ أشكالَ التعبير.

ويقول الأب "بانيكار" الشيء نفسه في دراسته حول "مستقبل الإيمان (بيليا ١٩٨٨): إن مشكلات الجوع والتفاوت واستغلال الإنسان والأرض، والتعصب والحروب، والاستعمار الجديد، كلها مشكلات دينية".

إن "يهودي منوحين"، المنطلق من إيمانه اليهودي والذي أفضى إلى بتأمله حول الدفاع عن "المقدّس"، يبحث هو أيضاً، دون انتقائية، عن القاسم المشترك لهذا الإيمان الحاضر في قلب جميع الناس والذي يدعوه إلى التجاوز مهما يكن الشكل الثقافي الذي ألبسته إياه العوالم الثلاثة: "لم تُخلَق الحياة مرة واحدة وإلى الأبد. الأصوليون وحدهم يمكن أن يعتقدوا ذلك.. نحن بحاجة إلى دين جديد مؤسّس على الإيمان، وقيم الإيمان الأبدية، وعلى فكرة الوحدة الكلية... لكنه دين متكيّفٌ أيضاً مع المعرفة ومع التجربة المعاصرة.

وذكر العقائد التي جعلت من الآلهة ملوكاً كليّي القدرة وقادةً لكهنةِ هذا السيد، فأضاف: "أنا مقتنع أن عالمنا يقتضي صياغةً جديدة لقيم المقدّس، وتصوراً جديداً للدين، متفقاً تماماً مع مبادىء العبادة والصلاة وإن عُبِّر عن هذه المبادىء بطريقة جديدة تعترف بكياننا الخاص، وكذلك بكيان الآخرين على اعتبار أنهما كيانان مقدسان؛ مسؤولياتنا بعضنا حيال بعض، وقدرتنا على خلق عالم أعدل... في ديننا الجديد... القوي والغني والعالم عليهم مسؤولية، في حين أن المحروم له الحق... الدين والاقتصاد والنظام الاجتماعي والحياة المبدعة للفنون والتقنيات والتربية، كل ذلك شيء واحد لتوجيه فكرنا وعملنا".

ماذا ستكون مكانة هذا الإيمان في المجتمع؟ ستكون مركزية، محرِّكة. ويجب أن نتحاشى هنا أكثر من عثرة: إن التصور الذي يُدعى "ليبرالياً" الذي لا تتدخل فيه الدولة في الدين وطقوسه وعقائده. هذه "الخصخصة" للدين تتناول العقائد لا الإيمان. والعقيدة طريقة للتفكير، أما الإيمان فهو طريقة للعمل. والتسامح سيكون إذن كلياً فيما يتعلق بالعقيدة، بيد أن من الممنوع على الإيمان أن يؤثر في بنى العالم المحسوسة، بموجب مصالح الأفراد والمجموعات. احضروا القداس كأنكم تحضرون إحياء لذكرى؛ استمعوا إلى قراءة التوراة من حاخامكم، اسجدوا خلف إمامكم، لكن، عندما تخرجون، اندمجوا بطاعة في النظام..

لِتكنْ لكم جميعُ الأوثان الفكرية التي ترغبون فيها شريطة ألا تتدخلوا، لدى خروجكم من المعبد، لتغيير النظام القائم بحكم وحدانية السوق التي تدير، في الحياة العملية، جميع العلاقات الإنسانية.

وعلى العكس، تحاول الشمولية أن تحكم في آن واحد العقولَ والأجساد، والإيمان والأعمال التي يأمر بها الايمان، إما برفع الدولة إلى دين، وإمّا بجعل الدين الخاص دين الدولة الذي ينشيء ثنائية سياسية واجتماعية لا مفر منها. وسواء أكان المقصود الدولة اليهودية أم الدولة المسيحية، أو الدولة الإسلامية، **مَن لا ينتمي إلى الدين الرسمي مواطنٌ من الدرجة الثانية.**

من وجهة النظر هذه إن الزعم المسيحي بأن المسيحية هي الدين الشامل شكلٌ نموذجيٌّ للنزوع الاستعماري الروحي الذي لا ينفصل عن النزوع الاستعماري حصراً.

ومهما يكن الحل المختار فالخلط بين العقيدة الدينية وبين الإيمان الحي والفاعل داخل جميع الأديان يجعل المشكلة مستعصية على الحل بظهور الأصوليات التي تقوم على الزعم بأن جميع المشكلات قد حُلّت، وإلى الأبد، على أيدي "الآباء المؤسسين".

إذا كان بوذا وموسى ويسوع ومحمد قد حملوا أجوبةً عن تساؤلات زمنهم وحلولاً لمشكلات زمنهم، فإن ذلك لا يُعفينا بأية حال من المسؤولية بأن نحل، انطلاقاً من مبادئهم، مشكلات زمننا: ما من عظة بوذية، وما من آية في التوراة أو

القرآن، تسمح لنا بأن تحل، دون تأويل مسبق، المشكلات التي تطرحها الطاقة الذرية، والشركات المتعددة الجنسيات، ومضاربات الأسواق المالية، والنزعة الاستعمارية وغيرها، مما لم يُطرَح في زمن الأنبياء. يمكننا فقط، انطلاقاً من المبادىء التي حملوها، أن نضطلع، وسط جميع المخاطر، بمسؤولية تطبيقها في أوضاع تاريخية جديدة جذرياً.

إن ذلك لا يتضمن أية نسبية ولا انتقائية ولا توفيقية. فكل دين قد أفرز، حول المبادىء المشتركة في كل قبول للتعالي، قيماً مطلقة، وعبادات مع طقوسها وعقائدها الخاصة بكل ثقافة سعياً وراء مقاربة المطلق. ومن الممكن أن تعطي هذه العلاقةُ بالله أو هذا الخضوع له الذي يقتضي المشاركة التامة لكل كياننا، بما فيه جسمنا، شكلاً خاصاً للصلاة وللعبادة اللذين سيمنحان بعد ذلك عملنا شكلاً.

إن التقاليد الثقافية لكل شعب يمكنها بذلك أن تعبّر عن نفسها بوضع خاص للجسد، وضع اليوغا الخضوع لله، وضع السجود لدى بعضهم، والركوع لدى آخرين.

الجوهري أن هيئة الجسد هذه تسهل الاتصال بالله أو بالحكمة (مهما يكن الاسم الذي يشار به إليهما)، ولا تنحطّ إلى حركة رياضية لا روح فيها.

إن تعدد الديانات يكوّن، بالإخصاب المتبادل للثقافات التي تميزها، ثروةً لا يجوز تدميرها بأن نفرض على الآخر شكل التعبير الذي ورثناه مع ثقافتنا.

لا يمكننا أن نطالب باحتكار طرق الوصول إلى التعالي، أدَعوناه الخلاص أو التحرر أو الموكشا أو الزفانا.

نستطيع فقط، مع عظيم الاحترام للتصرف الشعائري لدى الآخرين، وللرموز التي بها يعبرون عن إيمانهم وحكمتهم أو الهمهم، أن نغتني بتجربتهم التي تتسلق، بطرق شتى، القمة نفسها التي لعلها لا يمكن بلوغها، والذي تدفعنا إلى البحث عن معنى حياتنا وتاريخنا، وطرق إتمامه.

والخلاصة أن الأثمن بين الأمرين لا مايقوله الإنسان عن إيمانه، وإنما مايفعله الإيمان بهذا الإنسان.

كيف يحرره من استلاباته؟

أي من طموحاته الشخصية التي تحققت بسحق الآخرين، من مشاريعه الجزئية، الفردية أو القومية التي لا تتجه إلى خلق جماعة شاملة، سمفونية، هي الغاية العليا للإيمان الذي يدعو جميع الديانات إلى التعالي، إلى تجاوز الذات.

لابد قبل كل شيء من الهداية الروحية.

ينبغي، دون شك، تصحيح خطأ التوجيه الذي ارتُكب في النهضة عندما دُعي العقل "العلم الوحيد للوسائل"، فحُذف منه بعدُه الآخر الأساسي والقادر على أن يجعل اكتشافاته العجيبة في خدمة تفتح الإنسان لا تدميره: الحكمة التي هي تفكير في النهايات.

لكن ينبغي، من وراء ذلك، القضاء على أسوأ انحراف في الفكر الإنساني: المفهوم القبَلي للشعب المختار الذي يقسم الإنسانية بين المختارين والمستبعَدين، مانحاً المختارين سلطان الحق الإلهي في السيطرة والاستعباد أو تذبيح جميع الآخرين مهما يكن الذين يمنحون أنفسهم هذا الامتياز، أكانوا عبرانيين أم مسيحيين من أوروبا يطالبون بإرث الاختيار ليضطهدوا اليهود الذين يعتقدون أنهم في حوزتهم، ثم المسلمين في الحروب الصليبية، ثم العالم بالاستعمار، إلى أن انتزع منهم هذا الحق الأسطوري. "بالمصير الجلي" الذي منحته الولايات المتحدة لنفسها على حساب الهنود والسود ثم على حساب العالم، مضفية القداسة على مملكة الدولار حين كتبت على كل ورقة نقدية خضراء أن قدرتها الكلية من جوهر ديني: نحن نؤمن بالله.

يجب قبل كل شيء أن ننتهي من القراءات الأصولية للتوراة التي تجعل منها الكتابةَ المقدسةَ الوحيدة للإنسانية، في حين أن كل شعب، في العالم، قد عاش ماقبل تاريخ إنسانيته بخلقه الأساطير العظيمة التي هي معالم على المسيرة الألفية للتأنس الإلهي للإنسان. جميع الشعوب لها تاريخ مقدس: تاريخ الإنسان في بحثه عن الله.

إن نتائج هذه الحُبْك حول الشعب المختار التي لا أساس لها سوى نص وحيد، قد فاقم منها أن ضرباً من المسيحية يزعم أنه الوارث لهذه التقاليد، قد خص نفسه "بالاختيار الالهي" لكي ينسب لنفسه الحق في السيطرة على العالم،

ممارساً علـى غـير الـمختارين سـيطرته، وابـتزازه، ومجـازره، باسـم التفـوق الاونطولوجي واللاهوتي ذاته، على هنود أمريكا، والعبيـد الـمنقولين مـن افريقيـا، وعلى قسم كبير من آسيا، من "حرب الأفيون إلى هيروشيما، ومن التدمير الجماعي في فيتنام إلى تدمير العراق".

* * *

نحن اليوم بحاجة إلى الأنبياء أكثر من حاجتنا إلى السياسيين، نحن بحاجـة أكـبر إلى بوذا ويسوع وغـاندي منـا إلى قيصـر ونـابليون، إذ لا شـيء يبـدأ مـع القوانـين والامبراطوريات: كل شـيء يبـدأ في فكـر البشـر، وقبـل كـل شـيء في الـمراجعة الصارمة للديانات التقليدية التي تحولـت، باتحلالهـا الأصـولي إلى لاهـوت السـيطرة. الأصولية هي زعم كل تراتب ديني وكذلك زعم كل سلطة سياسية (التي تسـتخدم التراتب الديني لتبرر بقاءها) أن يعودا بالإيمان إلى الشكل الثقافي أو الـمؤسسي الذي اتخذ في هذه الـمرحلة السـابقة أو تلـك مـن تاريخـه: واقتصـاراً منـا علـى الديانـات الـمسيطرة لدى الـمسيطرين، والديانات الـمسيطرة لدى الـمسيطَر عليهـم نقـول: إن الـمسيحية لا يمكـن أن تظـل كمـا ارد لهـا قسـطنطين: وارث الامبراطوريـة الـممركزة في روما التي تزعم أنها تريد فـرض ايديولوجيتهـا وتراتباتهـا علـى سـائر العالـم، العالـم الذي ماتزال تجْهل روحانياته الوطنية.

مثل هذا الدين يقسم. وكان ذريعة لكثير من الحروب في حين أن الإيمان يجمع في مجهود تضامني للتجـاوز مـن أجـل الوصـول إلى ذلـك اليقـين الـذي يظـل دائمـا مخاطرة ومسلـمة:

- مامن إنسان يمكنه أن يزعم أنه يملك الإيمان كما يُملَك الكنز.
- إنسان الإيمان هو دائماً في طريقه نحو البداية.
- العالـم ليس مصنوعاً من الأشياء، بل من الينابيع، من انبثاق الـمعنى.
- ليس الله كائناً (كالأشياء) لكنه فعل (فعل الخلق بلا انتهـاء). ولذلـك فهـو ليس بحاجة إلى أن يكون منظوراً لكي "يوجد": إنه تلك الحركة التي هـي فينـا دون أن تكون لنا.

وهكذا فإن التاريخ، خلافاً للواعظين القائلين بنهاية التاريخ، كالأنهار، وليس له من مصب سوى المحيط.

* * *

الإعداد سياسياً لهذا التحول الروحي الشامل هو أولاً القضاء على تلك العولمة المزعومة التي هي ضد الشمول: إنها مشروع امبراطوري لتسوية أو إلغاء الثقافة والإيمان لدى جميع الشعوب من أجل أن تفرَض عليهم بقوة السلاح دولارات الولايات المتحدة واللاثقافة واللامعنى لدين لا يجرؤ على التلفظ باسمه: وحدانية السوق التي لن تكون فقط نهاية للتاريخ وإنما موت الإنسان والله الذي فيه.

* * *

في عام ١٩٩٥، واثناء زيارة البابا للبيرو، سلمه هنود "الآند" هذه الرسالة: "نحن، هنود الآند وامريكا، ننوي انتهاز زيارة يوحنا بولس الثاني لإعادة توراته إليه، لأنها، على مدى خمسة قرون، لم توفر لنا لا المحبة ولا السلام ولا العدالة... أعِدْها إلى مضطهدينا لأنهم أكثر حاجة إلى هذه المبادىء الأخلاقية منا. لقد وصلتنا التوراة كجزء متمم للنظام الاستعماري المفروض".

بالفعل، إن المشكلة الراهنة اليوم، ليست فقط في نزع الطابع اليهودي عن المسيحية، وإنما في نزع الطابع الغربي أيضاً عن هذه المسيحية التي اعتبرت دائماً كنائسَ الصين وأمريكا الهنود وأفريقيا كأنها "ملحقات بتاريخ البعثات التبشيرية"، كما كتب "انريك دوسيل" في كتابه: "تاريخ التحرر ولاهوته" (الصادر في عام ١٩٧٢ والذي ترجم إلى الفرنسية في "المطبوعات العمالية" ١٩٧٤). لقد أظهر، كما سيفعل ليوناردو بوف في عام ١٩٩٢، في كتابه: "التبشير الجديد بالانجيل" (طبعة سيرف)، كيف أن غزو أمريكا منذ ١٤٩٢، لم يكن إسهام المسيحية "الجامعة" (الكاثوليكية) في الثقافات الوطنية في بحثها عن الله، لكنها كانت استيراداً لمسيحية متوسطية رومانية، وحالبة لنظام اجتماعي فُرض فيه الاستعمار الرأسمالي في اشد صوره لا إنسانية، وذلك تحت اسم التبشير بالإنجيل.

كتب ليوناردو بوف: "جرى التبشير بالإنجيل في أمريكا اللاتينية تحت شعار الاستعمار". (ص ١٦٩) والإنذار الموجه للهنود في عام ١٥١٤ يقول: "سنأخذكم أنتم ونأخذ نساءكم وأولادكم وستصبحون عبيداً... سنأخذ أملاككم... مثل الأتباع الذين يرفضون أن يستقبلوا سيدهم".

وهذا ما احتج عليه عبثاً الأب مونتيسينوس، أول نبي في أمريكا كلها، والأسقف "بارتولومي دي لاس كازاس" وبعض رجال الدين مثل بيدرو دي كوردونا، الذين كرههم المستعمرون لأنهم رفضوا أن يوحدوا بين كنيسة تتواطأ مع المحتلين وبين مملكة الله، وأن يقبلوا تدمير الثقافات التي سبقت مجيء كريستوف كولومبس.

هذا الجهل الجذري بالآخر خلق المبتورين من إنسانيتهم، المنعزلين في شعائريتهم وعقائد دينهم الجامدة، الدين الذي يظنونه أفضل الأديان لأنهم يجهلون أديان الآخرين. وكان الجدير بهذا الدين ألا يحل محل دينهم، وإنما أن يغتني بتجارب مختلفة للتعالي. إن مُطلقاً واحداً لا يمكن احتكاره من قِبَل من يعتقدون أنهم شعب الله (أي جميع القوميات والنزعات الاستعمارية). وكما قال جان جاك روسو: "إن إلهاً يختار شعباً بمنحه امتيازاً لابتزاز الآخرين جميعاً وتدميرهم، لا يمكن ان يكون أباً لجميع الناس".

والآن؟

بعد هذا المسار غير المألوف والفظّ، لن ينتظر أحد، كما آمل، خاتمةً، أي إقفالاً أو إغلاقاً، أي الجواب العظيم الجاهز والهازىء.

لأن مايُعارض أساساً فلسفة الفعل بفلسفة الوجود[1] هو أن فلسفة الفعل ليست من نمط الجواب وإنما هي من نمط السؤال.

خاصية فلسفة الوجود هي أن "تستقر في الوجود وتقول ماهو". سواء أكان ذلك في شكل الوضعية التجريبية التي تنطلق من معطيات حواسنا (المعطاة نهائياً)، أم كان في شكل العقائدية الجامدة التي تزعم أنها عقلانية الأفكار الأبدية، القطرية أو المنزلة، لكنها على كل حال لا يطالها الشك لأنها كالأوليات.

[1] الوجود أو الكائن. المترجم.

وخاصية فلسفة الفعل هي، على العكس، وَعْيٌ مسلماتها وبحثها مجدداً على نحوٍ صارم، مثل نائم انتزع من طمأنينة وسادته ومن سحر أحلامه ليستيقظ على عالمٍ في طَوْر انصهاره. الإنسان المستلقي يغدو الإنسانَ الناهض، اعتدتْ عليه اليقظةُ وهو يريد أن يعتدي على الممكن. بعضهم يدعو ذلك: القيامة والكلمة تَخلب الألباب: إنها تستحضر فعل القيام، القيام من بين الموتى.

لقد تساءلنا معاً عبر هذه الصفحات، وتوصلنا معاً إلى نظرة نسبية. وربما كانت طبيعتنا أن نستسلم لطبيعة هي السائدة بل والشاملة وأن نندمج بها. إن هذا الانفكاك، أو على الأقل، هذا المجهود للانفكاك عما يُقدَّم إلينا غالباً كطبيعة للإنسان، هو الثقافة، أي كل ماأضفناه إلى الطبيعة وكل مايجعلنا "إنساناً": لا حيواناً أعلى. لكنه شيء آخر غير الحيوان: مايمنحه التعالي. وهنا أيضاً، جرت العادة أن تُستَخدم كلمةٌ للتعبير عن ذلك: اللـه، الالهي. وربما كان من الأفضل، في البداية، عدم استخدامها: أولاً لأن الله اسمٌ وهذا يدفع إلى البحث عن جوهر وراء الاسم، عن كائن، حتى لو كان "الكائن الأسمى". آه! ليت اللـه كان فِعلاً!. الفعل الذي يخْلق الكائن. والإلهي صفةٌ تُستَعمل، على الأغلب في غير موضعها، وهي تنطوي أيضاً على مخاطر: لأنها توحي قبل كل شيء بأنها تقليد لذلك الكائن الأسمى، الذي يُعرَّف تعريفاً سيئاً، أي تاريخياً. ولن نستخدم هذه الصفة إلا عندما تكف عن أن تكون تقليداً حرفياً، وإنما عندما تكون خلقاً على طريقة يسوع، شاعر الحياة بلا منازع.

هذه الرؤية للأشياء، أو، على نحو أكثر تواضعاً، هذا القصد، أدخلَ في طريقة العرض فوضى محيرة. لم يعد المقصود تاريخاً للفلسفة الموضوعةِ في منظورها المنطقي أو الزمني على يد "معلم"، معلم المطلق وكأنه بديل لله. آخر من حاول ذلك، آخر عملاق، هيغل، لم يكن له سوى مقلدين مصابين، في آن واحد، بالقماءة وبالاكتفاء الأستاذي. وليس من الضروري ذكر الأسماء.

هذا البحث في فلسفة الفعل لم يكتبه معلم وإنما كتبه طالب. طالب بذَرَ بذاره، وهذا حق، لأنه بلغ الخامسة والثمانين، لكنه ظل طالباً لأنه لم ينته من الاندهاش. الاندهاش من سذاجاته نفسها، ومن الادعاءات التي تنقلها وسائل

الاعلام عن المتلاعبينْ "بالحقائق المقررة"، المديرين الذين لا يجوز المساس بهم، للفكر الوحيد، ولما هو منضبط سياسياً، وللاستقامة الدينية أو الصور الجمالية لهذا العدم.

في هذه الصفحات، تخطيط أولي لتاريخ الفلسفة، لكنه لم يُبنَ بحسب نظام العقول.

إنه يرسم، على عُهدتي، مراحل حماساتي وخيبات أملي، على نحو ربما كان مفرط الاعتداد، أو لعله ربما كان مفرط التواضع، لست أدري. واللقاء (ولا أجرؤ أن أقول الاكتشاف) مع الحدود وأصناف الغش، كالتي في أحبار الغرب، مثلاً، الذين مضى عليهم أكثر من ألف عام من أرسطو إلى القديس بولس، أو من ديكارت إلى اوغست كونت، أو لنعطي مثلاً صغيراً كأن ننسب علامة الفلسفة أو تسميتها المراقبة للأيديولوجيين الانجليز في حزب البندقية وفي شركة الهند.

وإنه لعملٌ يتجاوز قوى حياة واحدة أن نستنكر أكثر من ثلاثة آلاف سنة من المسلمات التي عُدّتْ بديهيات، أو أن تتراجع التراجع الضروري وتندفع الاندفاعة الضرورية لاجتياز الحدود التقليدية.

ولو أني أطلعتُ الآخرين فقط، ممن هم الأكثر شباباً، على رغبتي في متابعة هذه المهمة، لبلغت شطراً من هدفي.

لكن ليس المقصود برنامجاً يعكس المساءلة فقط. إنه لشيءٌ كبير أن يُفهم أن كل فلسفة لا تهيّيء الإنسان للبحث عن معنى حياته، وعن اعتبار نفسه عضواً مسؤولاً عن جماعة كلية، يتصرف بحسب هذه المبادىء لا يستحق اسم "فيلسوف".

لكن هذا الوعي يقتضي تغييراً في أسلوب الحياة والعمل. الفكر الواعي لمسلماته والذي يعمل على نحو مبدع استباقاً: سواء أكان المقصود الفرضيات العلمية، أو أفعال الإيمان أم الطوباويات الاجتماعية، هذا الفكر وحده هو الذي يسمح لنا بالتأثير في العالم وبتغييره.

الخطوة الاولى تجعل الفلسفة قريبة مما يُسمى اللاهوت وهي تسمية غير موفقة، وكأننا نستطيع أن نتحدث عن الله، لا تلمساً، ودون كلام، محاولين التعرف على مقتضيات حياة مسكونة بكلية الحياة.

لأن الثقافة هي: مجموع العلاقات التي يُقيمها الفردُ أو الجماعة مع الطبيعة والناس الآخرين، والبحث عن الغايات الأخيرة التي يسميها بعضهم الله وآخرون الحكمة.

في هذا البحث عن معنى الحياة، كان إسهام الملحمة والرواية والقصيدة ونصوص التصوف أعظم تلبية لرغبتنا: إن اسخيلوس وسوفوكلس واريستوفانوس، بالنسبة إلى التقاليد الغربية، ساءلوني عن معنى الحياة أكثر من كل الفلسفة اليونانية منذ أن انفصلت عن الفكر الشرقي الذي تشرّبه، مثلاً، الأميرُ هيراقليطس، قبل أن تعرّف أسئلةّ سقراط عبر عقائدية أفلاطون.

كان لابد من "كازانتزاكي" ليُحيي "بالاوديسيه" التي له أرفعَ رغبات الإنسان الماضي أبداً في طريقه والمستفهم أبداً بنَهَمٍ.

إن روما بجُندها وبنّائيها وبلاغييها لم تعلمني شيئاً حياً وقابلاً للحياة.

من فرنسا، حملني رابليه وباسكال، ثم فيكتور هيغو، ورومان رولان، وموررياك، وبرنانوس، وكلوديل، أو سان جون بيرس، على اليقظة أكثر من أي فيلسوف محترف في أي بلد، ربما باستثناء "ليبنيتز" و"كانت" و"فختة" وكذلك "فاوست" و"ويلهلم ميستر" لغوته.

ثم المولّهين بحب الله الذين كانوا الحكماء الحقيقيين: من جواشيم دي فلور، إلى "الكاردينال دي كوز"، إلى "المعلم ايكهارت"، إلى "سان جان دي لاكروا"، ومن كيير كيغارد إلى دستويفسكي. وإلى نيتشه، وهو أعظم من تخطى الحدود بعد يسوع.

جميع هؤلاء عاشوا، مثل آباء كابادوسيه في آسيا، أو "كليمان" الاسكندري في افريقيا، من هذا الايمان الأساسي والأول، أو من هذه الحكمة الموحِّدة الملقّحة كونياً، التي وُلدت في الصين مع الـ"تاو": "أن تكون واحداً مع الكل"، أحد كبار المفكرين في جميع الأزمنة: "تشوانغ ـ تسو".

أن نَعْثر في ذاتنا على نفحة الحياة المبدعة، وأن نكتشف أعمق مافينا من شخصي، إن ذلك هوالفعل المبدع أبداً للحياة الشاملة: "أنت هو ذاك"، الواردة في "الفيدا" وفي "الاوبانيشكاد"، وفي "الرامايانا"، وفي "الباغهافاد جيدا"، من "سنكارا" إلى "رادهاكريسنان".

إن شعراء الإسلام، ومتصوفيه، وأصحاب الرؤى فيه، هم مدخلٌ رائع لهذا الإيمان الشامل. بدءاً من الكتب الكبيرة العِرفانية من "الإنسان الكلي"، وحكايات المنفى والملاك الأرجواني لابن سينا والسُهروردي، إلى "لغة الطيور" للعطار، إلى ديوان "الرومي" الفخم "المثنوي" (الذي دُعي أحياناً قرآن الفرس)، إلى القصائد الاوردية لكبير، إلى أعمال ابن عربي العملاقة في اسبانيا الأندلسية، الأخ الروحي لسان جان دي لاكروا، مع فارق ثلاثة قرون، جميع هذه الأعمال تقودنا إلى أعمق مافي الإسلام من حميمية وخصوصية بالنسبة إلى الديانات الثلاث المنزلة: روح الشمول والعمومية، التي تعترف بجميع الأنبياء، فتجعل من ابراهيم أباً للمؤمنين كما يقول القرآن. ومن يسوع "خاتم القداسة"، كما يقول ابن عربي، في "حكمة الأنبياء" الذي يحتفي بهم جميعاً باعتبارهم رسُل الله.

إن التفكير الأساسي في الإيمان، في عمومية هذا الإيمان، موجود في أجمل التقاليد الإبراهيمية بدءاً من "حي بن يقظان" لابن الطفيل في قادش (١١٠٠ ـ ١١٨٥)، إلى كتاب اللاهوت السياسي لسبينوزا (١٦٣٢ ـ ١٦٧٧)، إلى "جَهْر كاهن السافوا بعقيدته" لجان جاك روسو (١٧١٢ ـ ١٧٧١)، وتجد لدى المسلم واليهودي والمسيحي، المصدر المشترك لكل إيمان يمكن إيصاله إلى عالم بلا إله، كما كتب القس "بونهوفر" في سجنه النازي.

* * *

إن الـ "وودستوك" الحبرية لا تعني يقظة الايمان مثلما أن الـ "وودستوك" رقصة "الروك" لا تعني يقظة الموسيقا والثقافة.

ولا نجاح شيعة "مون" ولا التدفق الإعلامي للمواعظ المتلفزة للقساوسة الأمريكيين "المحترمين"، سادة "تجارة الدين".

إن جائحة ٤٠٠٠ انتحار من اليافعين في فرنسا الذين هم، في فرنسا، (كما هي الحال في البلدان المتطورة، حيث يموت الناس لا من فَقْد وسائل العيش، كما هي الحال في العالم الثالث، وإنما من غياب الغايات) السبب الرئيسي لوفيات الشباب، لن يُبطله علماء النفس، الذين يُنقذون الضالين الفرديين، كما قد تفعل الكلاب في بحثها عن الضالين.

ماينقص هؤلاء الشباب، هو الهدف العظيم الذي يستحق أن يعيشوا من أجله، ضد تفكك النسيج الاجتماعي بوحدانية السوق، وبصحرائهم الروحيّة وهروبهم إلى الديسيبل والمخدرات أو الموت.

وُلد هذا الهدف العظيم خارج أوروبا. وليس فقط لخلق الوحدة المتناغمة لوحدة العالم ولإعطاء كل حامل لله في قلبه، مهمْا يكن اصله، الإمكانات الاقتصادية والسياسية والروحية، لكي ينشر كلياً "ميكيل آنج" أو الـ"كيوهسي" اللذين يحملها في ذاته، وإنما للقضاء على تلك الأنانيات المقدسة لدى الأفراد الذين لا يستطيعون أن يرتفعوا إلا بخَفْضْ خَصمِهم في الغاب، أو لدى "الشعوب المختارة" لتستعبد الآخرين.

الهدف العظيم هو ضد الفردية المعزولة والمقفرة، هو الجماعة حيث يُشَدُّ كل واحد إلى الحياة بمعنى مسووليته حيال جميع الآخرين.

هذا الإيمان الذي يعبِّر عنه في العمل، في عمل يسوع، شرع يولد حيث يودّ "بولسيّو" روما أن يقتلوه: لدى الذين اختبروا التجربة الإنسانية على نحو إلهي من الكهنة العمال؛ في جماعات القاعدة في مدن الصفائح في البرازيل التي كانت وما زالت الموطن الإنساني للاهوت التحرر، لدى جميع الذين يبحثون أين يمكن لهذا الإيمان أن يولد في قلب جميع الروحانيات الحية والمناضلة في العالم. وكان الأب "مونشانان" رائداً لذلك في جهده الرامي إلى "إعادة التفكير في الهند كمسيحي وفي المسيحية كهندي"؛ وهو الذي حفز اليوم المتابعين له مثل "راموندو بانيكار" في اسبانيا أو "رينيه غانون" في فرنسا الذي يعيش الإسلام كما يستحضر القرآن يسوع، أو الأب "هيغبا" في افريقيا، الذي جذّر يسوع في أعمق روحانيات العالم الأسود.

هذا البحث الأخوي لا علاقة له بالانتقائية أو التوفيقية. إنه التعبير عن إيمان حقيقي بالتعالي: إذا كان الله لا يُقاس بكل معرفة إنسانية قد تزعم أنها تعرّفه أيّ أن تحبسه في ثقافتها الخاصة، فنحن بحاجة إلى تجربة جميع الذين يحاولون المقاربة ذاتها انطلاقاً من ثقافتهم الخاصة. وهكذا فقط يمكننا تحطيم حدودنا، وإثراء إيماننا، وفهم نوعيته بالاتحاد الداخلي والعميق مع ثقافة الآخرين وإيمانهم. ومن المفْقر الاعتقادُ أن ديني هو أفضل الأديان، لمجرد أنني أجهل جميع الأديان الأخرى.

هذه هي النتائج النهائية للتعارض بين فلسفة الوجود وفلسفة الفعل. الفلسفة الأولى، فلسفة الوجود تنص على وجود طبيعة يستطيع الإنسان أن يستخلص منها معطيات وأن يؤلف بينها بطرق شتى من أجل سهولة تصنيفاتها للكائنات وتراتباتها. وانطلاقاً من هنا، يستطيع الإنسان أن يعالج هذه الطبيعة تقنياً لكنه لا يستطيع أن يحدد لها غايات غير التي حددها لها خالقها الأولي (أو قوانينها الخالدة إذا كنا ننكر هذا الخلق الذي خلِق من مرة، نهائياً). وبعبارة أخرى، للإنسان طبيعة لا يمكن التعالي عليها.

الفلسفة الثانية، فلسفة الفعل، وهي تستند أيضاً إلى مسلمة: وهي قدرة الإنسان على التعالي على هذه الطبيعة، وأن يباشر، على العكس، خلقها المستمر: ليس للإنسان طبيعة، إن له تاريخاً. تاريخ إبداعات ثقافته التي تميزه عن الحيوان: نَحْلُ قصائد "فيرجيل" الرعوية يتصرف مثل نحلنا اليوم، وحتى على مستوى علم الإحاثة، ليس التطور تاريخاً: الكائن البيولوجي غير الفاعل في هذا الكائن.

لو كان للإنسان، كالحيوانات، مثل هذه الطبيعة، لما تجاوز الحدود التي تفرضها البيئة للمحافظة على ذاته. ولكي يتجاوز الإنسان الملايين القليلة من الكائنات البشرية التي عَمَرت الأرض خلال ملايين السنين كان لابد له من أن يخلق زراعةً لغذائه، وصناعة لتحويل وَسَطه ولحماية نفسه، وبكلمة واحدة كان لابد له من ثقافة تتيح تكاثر النوع.

كان لابد، من أجل ذلك، وفيما وراء الانحرافات الثابتة في غريزته، ألا يكتفي باستخدام المواد في هذه الطبيعة التي تحيط به، وتحتويه، وتقيده، وإنما أن يُوجّه

عملَه الخاص مشروعٌ يحدّد تنظيمَه وتنظيم المجتمع الذي كوّنه والذي حدد له غايات وبنىً غير مكتوبة في قوانين الغريزة الداخلية أو البيئة الخارجية.

وهكذا فإن كل تجريبية تنظيمية، بحسب عبارة "شارل مورا"، أشد منظّري المحافظة تصلباً، تقود إلى الامتثال للنظام القائم وإلى تطوراته الطبيعية، الخطية، مثل تطورات العناية الإلهية عند بوسويه، والتقدم عند كوندورسيه، وقانون الحالات الثلاث عند "اوغست كونت"، وهما صورتان "مُعَلمنتان" عن عناية "بوسويه".

الخنوع أو التمرد، التعاون أو المقاومة، كما نقول في مصطلحنا الحديث، ذلك هو الخيار الحيوي، وكل فلسفة لا تساعدنا على تحقيق هذا الاختيار ليست سوى أيديولوجية لتبرير ماهو كائن أو لما سيكون دوننا، مثل النمو التقني للإنتاج والاستهلاك.

هذا الاختيار أردنا أن نوحي به خلال جهودنا لشرح الفلسفات تبعاً للمقتضيات التاريخية للمسيطِرين والمسيطَر عليهم. المسيطِرون يبررون سيطرتَهم باسم التجريبية أو باسم عقل أبدي، والمسيطَر عليهم لهم أن يختاروا بين قبول تلك الرؤية وبين التمرد عليها، والرهان على مستقبلٍ لا يكون محصلةً للماضي، مَقصد العناية الإلهية أو الانحرافات الميكانيكية لحتميةِ "لابلاس".

وضد استسلامات "الأمر هكذا"، نُصرّ على هذا الاختيار الذي كان اختيار "بابوف" غداة موته على المقصلة حيث أرسلته حكومة المديرين، في ٢٨ أيار ١٧٩٧، حين كتب لصديقه "فيليكس ليبيليتييه": "عندما يخفّ الاضطهادُ ذات يوم، ربما استطاع فيه الناسُ الأحيار أن يتنفسوا بحرية كافية يمكنهم معها أن يلقوا بعض الورود على قبرنا، وعندما يستطيعون التفكير من جديد بالوسائل التي يوفرون بها للنوع الإنساني السعادة التي نقترحها لهم، يمكنك أن تبحث عن هذه المقاطع التي تحتوي على كل مايدعوه الفاسدون اليوم أحلامي، وأن تقدمها لهم".

في ٢٠ أيار ١٩٩٨

مُلحقات

مسار قرن وحياة

العيش في قرن يلتهب

ربما كانت فرصة مؤاتية أنني وُلدت مرتين في النار الملتهبة:
وُلدت في المرة الاولى عام ١٩١٣ عشية الحرب العالمية الأولى؛
والمرة الثانية حين بلغت العشرين في عام ١٩٣٣ عندما طغت على اوروبا الأزمة الكبرى وأن هتلر وصل إلى السلطة.

كان لابد من العثور على فن العيش في زمن العاصفة. وفي الغاب الذي يسمى باحتشام: حرية السوق، أي المجابهات بين إرادات القوة، والنمو، ومُتعة الأفراد والمجموعات والأمم، كانت الحرية هي الإمكان المتروك للأقوياء كي يفترسوا الضعفاء.

كانت المشكلة سياسية ودينية على نحو لا يتجزأ: دينية لأنها كانت تتطلب قراراً بالمجازفة بالحياة حول اختيار الغايات الأخيرة: وسياسية لأن سلامتنا الشخصية لم تكن هي وحدها المعرّضة للخطر وإنما سلامة الجماعة البشرية بأسرها، وكان أمراً مطلقاً أن يتخذ المرء مكانه في القتال، وأن يختار معسكره، وأن يُحدِّد منهجية المبادرة التاريخية التي تمنحنا الوسائل للتغلب على تناقضات الفوضى.

في هذه المرحلة الأولى من مسيرتي، كان يبدو لي أن اشد الأمور إلحاحاً هو أن أعيش "كبيركيغارد" وكارل ماركس في آن واحد، وذلك تبعاً للثقافة الفلسفية في سنواتي العشرين. كييوكيغارد لأنه أوحى، في تأملاته، عن "الخوف والرجفة" حول تضحية ابراهيم، أن وراء منطقنا الصغير وأخلاقنا الصغيرة العابرة يمكن أن تبرز مقتضياتٌ غير مشروطة. وجدتُ هاهنا نقيضاً للفرديات المثيرة للسخرية والتي تجعل من كل واحد مقياساً لجميع الأشياء يقودنا إلى المجابهة الدائمة، على صعيد الأفراد والجماعات، بين إرادة القوة وإرادة النمو. ولأول مرة، اكتشفت الضرورة الحية للقيم المطلقة، لإله لا يقيم خارجي، في السماء بنجومها وآلهتها الزائفة، لكنه يولد من ضرورة داخلية لا سبيل إلى دفعها، ضرورة مسلمة أساسية

وأولى يمكنها وحدها أن تمنح حياتي وعملها تماسكاً، إن لم يكن ايضاً، فعاليةً بمشاركتها في حركة اجتماعية واقعية.

ولم أكن اجد عند ماركس الذي كنت أقرؤه بشغف، وإن كان حتى الآن شغفاً فكرياً خالصاً، تصوراً جديداً للعالم، لا تصوراً دينياً ميتافيزيكياً، ولا وضعياً، وإنما وجدتُ تطلباً آخر: ألا يزعم المرءُ أنه سيحل وحده، وبالفكر لا غير، المشكلاتِ المتولّدة عن هذه الفوضى العالمية، وإنما ينبغي أن ينضم إلى قوة مقاومة هذه الفوضى، وأن يناضل فيها، معْ المجازفة باقتسام هذه القوة المانوية، بأخطائها، وتجاوزاتها، وربما جرائمها في عالم عمّته الجريمة.

وهكذا أصبحتُ مناضلاً، على مدى أربعين عاماً في الحزب الذي كان ينتسب، تاريخياً، إلى منهج ماركس الذي أثبته الوضع التاريخي تماماً والذي بدا لي، في الممارسة، من ميونيخ إلى المقاومة، وإلى النضال ضد استعباد اوروبا ممن جعلتْهم الحرب، بأقل تكلفة، سادة العالم، بدا لي أقل الأحزاب سوءاً، أما الحزب الصالح فلم يكن موجوداً.

أن يعيش المرء في حياة واحدة ماركس وكيير كيغارد كان، دون شك، مسألةَ حقبة زمنية لأنني سمعت سارتر نفسه يقول إن ذلك كان مايطمح إليه. (والحق أننا استخلصنا نتائج متعارضة كلياً: انطلق سارتر من المواجهة الدرامية لكيير كيغارد بين الذاتية والتعالي، فحاول، فكرياً أن ينضم إلى ماركسية، نظّرها بنفسه، ورأى فيها "فلسفة زماننا التي لا سبيل إلى تجاوزها".

أما مسيرتي فكانت معاكسة على نحو شديد. مابدا لي أولياً هو التجسد. لن نقلب العالم برأسنا. ولو اضطررنا إلى توسيخ أيدينا. ففي المعارك التي تمزق العالم والتي لا سبيل إلى ردها، لا يمكننا أن نظل نتفرج عليها من علٍ، وأن نكتفي، في كل لحظة، بأن نعلن ماهو صالح، بل علينا أن ننحاز للأقل شراً (وهو، على العموم، في ناحية الذين لا يملكون).

وينبغي لنا، في الأكثر، أن نجاهد لخلق فتحة للتعالي لدى المقاتلين، على نحو مااختبرتْ ذلك أعمقُ التجارب المناضلة إنسانيةً وألوهية، في زمننا؛ تجربةً الكهنة

العمال الذين كنت صديقاً لهم، وتجربةً لاهوتيّي التحرر الذين يهدفون إلى التوفيق بين التاريخ والتعالي.

لا أدري إن كنت قد ربحتُ رهاني الأولي، لكني لست آسفاً على إقدامي عليه والوفاء له طوال أربعين عاماً، في حزب أصبحتُ أحد قادته. ولم أستقل منه أبداً: لكنني أُبعدتُ عنه (في عام ١٩٧٠) لأنني أكدت أن الاتحاد السوفييتي لم يعد يمكن أن يُعدَّ بلداً اشتراكياً.

وحصيلة هذه السنين الأربعين من الأمانة لا تبدو لي سلبية.

كانت، والحق يقال، في صراع دائم، داخل الحزب، ضد كل تفسير "وضعي" لمفهوم الاشتراكية العلمية: الاشتراكية يمكن أن تكون علمية بوسائلها: تحليل الاقتصاد الراسمالي (إذ مامن علم اقتصادي إلا للإنسان المستلَب من النظام)، واستراتيجية توافق ذلك التحليل، لكن على شرط ألا نغض النظر، كما أكد ماركس، عن الإمكان الدائم، للقطيعة مع الاستلاب، مهما يكن عميقاً.

وما قادني إلى النقد الجذري لهذه "الوضعية" الماركسية الجديدة، حتى عندما تتخذ هذه الوضعية مع "التوسر" ولاتلاميذه الشكل البنيوي: "الإنسان دمية تحركها البنى" وأنها تؤجل من عقد إلى عقد، كما يفعل "التوسر"، القطيعة في نظريةالعلوم التي تتيح لماركس أن ينتقل من الايديولوجية إلى العلم.

يتطلب الخروجُ من هذه الفوضى حيث يظن كل فرد، كل أمة نفسيهما أنهما مقياس كل شيء، الإيمانَ بقيم مطلقة فيما وراء منطقنا الصغير وأخلاقنا الصغيرة: تضحية ابراهيم. هذا اليقين، في سن العشرين، قادني إلى أن أصبح مسيحياً، وبالحركة نفسها إلى أن أصبح ماركسياً. لا تناقض بينهما، بل إن بينهما تكاملاً: الإيمانُ بحثٌ عن الغايات. والماركسية التي ليست عقائدية جامدة، هي منهجية المبادرة التاريخية التي تسمح بتحليل تناقضات مجتمع ما، وانطلاقاً من هذا التحليل تكتشف المشروع القادر على تذليل هذه الصعوبات. هذه الماركسية بحث عن الوسائل لبلوغ هذه الغاية: إعطاء كل طفل يحمل في ذاته عبقرية موزار أو "فان غوغ" الوسائل الاقتصادية والسياسية أو الثقافية التي تسمح له بنشر عبقريته تماماً.

وفي هذه الطريق التي رسمتُها في مذكراتي: "طوافي بالقرن وحيداً"، كانت المهمة الكبرى لحياتي هي أن أكتشف معناها وأن أتممه مختاراً لنفسي الموقع الذي يكون فيه العملُ السياسي والإيمان والخلق الفني، شيئاً واحداً.

الفن أقصر طريق من إنسان إلى آخر، وليس من تربية أكثر ثورية من تعليم الطفل أن العالم ليس واقعاً معطىً، وجاهزاً من قبل، ولكنه عمل ينبغي إبداعُه.

والسياسة، بالمعنى النبيل، هي التي تمنحنا الوعي بأن كلاً منا مسؤول عن مصير جميع الآخرين، والتي لا تحبسنا في هذه المعضلة: فردية الغاب أو شمولية المأرضة.

الثورة، في مثل هذا المنظور، بحاجة إلى التعالي أكثر من حاجتها إلى الحتمية، وزمننا بحاجة إلى الأنبياء (ليذكّروا بالغايات) أكثر من حاجته إلى إنسان الحاسوب الذي يمنحنا الوسائل الهائلة في خدمة أية غاية.

إن الجهد المستمر لتضمين لحظة التعالي في الماركسية تضميناً تاماً أتاح لي، عندما أنشأتُ وأدرتُ "مركز الدراسات والبحوث الماركسية" أن أنظّم على مستوى الغرب المتنصِّر (من ايطاليا إلى ألمانيا ومن كندا إلى الولايات المتحدة) الحوارَ بين المسيحيين والماركسيين، حيث تعلمت كثيراً، بالإخصاب المتبادل، من كبار اللاهوتيين المسيحيين: في فرنسا من الأب "شينو" والأب "دوبال"، في ألمانيا من الكاثوليكيين مثل "كارل رهنر" أو من البروتستانتيين مثل "جورغن مولتمان" وفي ايطاليا من الأبوين "بالدوتشي" و"جيرا ردي"، وفي تشيكوسلوفاكيا من القس "هورمادكا"؛ وفي انجلترا من الأسقف "روبنسون"، وفي الولايات المتحدة من الأب "كورتني موراي" والأب "كانتان لاور" أو من "هارفي كوكس"، وفي اسبانيا من الكاهن "غونزاليز رويز" والأب "كافارينا".

في ذروة هذا الحوار، في سالزبورج، طرح الأب "راهنر" (من جمعية يسوع) وهو أحد الخبراء الرئيسيين في المجمع، هذا السؤال الأخير جواباً عن استفهامي: فعندما ذكّرته بأن ماركس حين حمل منهجية المبادرة التاريخية (مسألة من نمط الوسائل) قد حدد مع ذلك الاشتراكية بغاياتها، قبل كل شيء: وهي أن تخلق لكل طفل يحمل في ذاته عبقرية رافائيل أو موزار، الشروطَ الاقتصادية والسياسية والثقافية التي تسمح بتفتح جميع هذه الإمكانات، رد الأب راهنر بما كان، في رأيي،

الجواب عن بحثنا المشترك، (ثم سجل هذا الجواب في المقدمة التي كتبها للترجمة الألمانية والانجليزية لكتابي: من الجِرْم إلى الحوار. ماركسي يخاطب المجْمَع)، فأظهر لي أن ماركس، لم يحدد (كما حاولت أن افعل أنا نفسي في هذا الحوار) سوى الغايات قبل الأخيرة، في حين أن المسيحية كانت "دين المستقبل المطلق". قبلتُ من جهتي، وبالرضا، أطروحته، وأبحْتُ لنفسي أن أضيف فقط: لنعملْ معاً، كاثوليكيين وماركسيين، لنبلغ هذه الغايات قبل الأخيرة، وإذا ماسوَّلتْ لنا أنفسنا، نحن الماركسيين، بالظن أننا بلغنا غاية التاريخ فسوف يُسعدنا أن نراكم إلى جانبنا، أنتم المسيحيين، لتقولوا لنا: يجب المضيّ إلى أبعد من ذلك في الخَلْق. لكنا نرجوكم ألا تستعجلوا في ذلك كثيراً لكي لا تَحرفونا عن طريق النضال نحو الهرب إلى التقوى

بدا لي آنذاك أننا بلغنا معاً الهدف الروحي الذي حددناه لأنفسنا لكن بقي علينا عمل الكثير لنسيّر جماعتينا نحو هذا الهدف.

بيد أن تراجع الكنيسة الكاثوليكية، منذ ذلك الوقت، بالنسبة إلى الانفتاح الرائع للفاتيكان الثاني، وكذلك تقهقر الأحزاب الشيوعية؛ وتفجر الاتحاد السوفييتي، والانشطار المتعاظم في العالم بين الشمال والجنوب، والانشطار في كل مكان من جهة أخرى، بين من يملكون ومن لا يملكون، بالانتصار الموقت لوحدانية السوق، انتصار الأثرياء، وسحق الجماهير، كل ذلك يُظهر الطريق الذي يترتب علينا أن نقطعها لتجسيد الحقائق التي لمحناها معاً.

استنتجتُ، من جهتي، النتائج الإيجابية الحاصلة على صعيد التوضيح النظري للمشكلات، لكني قدّرت ضخامة المخاطر الجديدة في العالم المنشطر بين الشمال والجنوب، فاقترحت، في عام ١٩٧٤، في مجلس الكنائس المسكوني (بحضور مراقبيْن من الفاتيكان هما اسقف هنغاري والأب كوتييه) توسيع حوارنا: لقد كان لنا، نحن المسيحيين والماركسيين، المراجع الثقافية ذاتها: اليهودية ـ المسيحية واليونانية ـ الرومانية. اقترحتُ أن ننتقل من الحوار المسيحي الماركسي إلى حوار أعم هو حوار الحضارات مع آسيا وافريقيا وأمريكا الهندية.

استقبِل المشروع بشيء من الفتور لأني عرّفتُ الحوار بأنه "مبادلة" يكون فيها كل شريك مقتنعاً، منذ البداية، بأنه سيتعلم شيئاً ما من الآخر، أي انه سيكون مستعداً للاعتراف بأن شيئاً ما ينقص حقيقته الخاصة، وأنه من ثم مستعدٌ لإعادة البحث في ذاته مجدداً.

هذه الفكرة وهي أنه قد يكون هناك ثغرات فيما نعلنه، منذ قرون، على أنه كاثوليكية، أي عمومية جامعة، لم تَرُق، ولاسيما للممثلين الكاثوليكيين (ولا بد لي من القول أني وجدت هذا التحفظ لدى العلماء المسلمين ولأسباب مشابهة: زعمهم أنهم يمتلكون الحقيقة المطلقة).

ومن الجانبين، كنت أصطدم، مرة أخرى، بفلسفة للوجود ذات معيار مطلق للحقيقة وللخير، لخليقة ونظام صُنِعَ بن مرة نهائياً. وإذا كان هذا الوجود ونظامه قد أرادهما الله، فمن خرْق المقدسات ادعاء تغييرهما؛ ولو وُجد وحيٌ أخير أو نبوة أخيرة لكان تصوّرُ التجديد أو الابتكار خرقاً للمقدسات أيضاً.

وحين جئتُ إلى الإسلام حاملاً بيد التوراة وباليد الأخرى "ماركس"، جهدتُ في أن أحييَ في الإسلام، كما في الماركسية، أبعادَ الداخلية، والتعالي، والمحبة.

وضد جميع أصوليات الانغلاق والمجابهة في عالم أصبح واحداً من الناحية التقنية، يحتاج الإسلام إلى "لاهوت التحرر".

والماركسية أيضاً.

والغرب بأكمله إلى التغيير.

ماجرى في الشرق ليس إفلاس الماركسية بتاتاً وإنما انحرافاتها، والإفلاس الأسوأ هو إفلاس كل إعادة للرأسمالية.

وأخطر من ذلك مايرتسم، في المستقبل، من تمزق الكوكب الأرضي بين غرب مؤتلف، من المحيط الهادي إلى الاورال، وراء الخصومات الاستعمارية القديمة وتوازنات الإرهاب القديمة بين الشرق والغرب، لإدامة هيمنة الشمال على الجنوب. لم يعد المقصود حروباً عالمية تكون فيها المستعمرات ملحقات من اللحم البشري في آليات الفولاذ لصراع الكبار؛ المقصود حربٌ بين عالمين: حرب جماعة الأثرياء الذين يريدون أن يحتفظوا باحتكار جميع موارد هذا الكوكب والإشراف عليها، ضد سائر العالم المرصود لهيروشيما أخرى من الجوع.

٢ ـ اللقاءات على طريق الأعالي.

أُتيح لي أن أعرف القرن العشرين من "الداخل" نوعاً ما، غير ماعرفته في الكتب، وذلك بفضل العلاقات الشخصية، الأخوية أحياناً، والسجالية أحياناً أخرى مع معظم الذين صنعوا هذا القرن (بصرف النظر عن الذين رأيتهم من بعيد فقط أو من خلال كتاباتهم).

العلاقات الشخصية مع ستالين وجنرالات ستالينغراد، مع خروتشوف وغورباتشوف، وكذلك مع البابا بولس السادس والبابا يوحنا بولس الثاني، مع الجنرال ديغول في الجزائر وكذلك مع "موريس توريز" مرشدي خلال ثلاثين عاماً. ومنذ أحاديثي مع امبراطورة ايران "فرح ديبا" التي أنشأتْ في طهران، مع حسين نصر و"كوربان" فرعاً جديداً لمعْهدي من أجل "حوار الحضارات"، حتى لقاءاتي مع الخميني وآيات الله الذين غدوا قريبين مني، مثل الذين جاؤوا إلى قرطبة لتدشين مركزنا الثقافي الأندلسي للتذكير بحضور الإسلام في الغرب.

وفي افريقيا حيث أنشأنا، مع الرئيس سنغور، في جزيرة "غوريه" الرمزية، "جامعة المتنقلين" بحثاً عن أنماط النمو الداخلي.

ولقاءات سياسية لا تُنسى مع "هوشي منه"، وكذلك مع "شي غيفارا" ومع فيديل كاسترو، ومع "بن بيلا" وكذلك مع "اربكان"، ومع "ناحوم غولدمان"، رئيس المؤتمر اليهودي العالمي الذي دعاني إلى منزله في القدس مع بعض قادة إسرائيل التاريخيين، وكذلك مع ناصر في القاهرة والرئيس حافظ الأسد في دمشق.

ومن الأربعة عشر عاماً في البرلمان كنائب وكعضو في مجلس الشيوخ، وكرئيس للجنة التربية الوطنية أو كنائب لرئيس الجمعية الوطنية، لم يبق سوى القليل من الذكريات والقليل من الوجوه، إن لم يكن وجه الأب بيير، أخي منذ نحو ٦٠ عاماً، منذ الجمعية التأسيسية الأولى؛ ووجه "مارك سانييه" (الذي كنا ندعوه العم مارك).

وأعمق تأثيراً كانت حواراتي المسيحية الماركسية حيث استطعتُ، بفضل الكردينال "كونيغ" من فيينا، أن أعمل مع أكبر خبراء الفاتيكان الثاني، الذين كانوا مؤلفي أجرأ نصوصه: "Gaudium et Spes": الأب "شينو" أبي الروحي، الأب كونغار الذي أرسل إلي رسالة فيها أعظم العزاء وذلك عندما علم بإقصائي من الحزب الشيوعي، والأب راهنر، وهانز كنغ.

هذه الحوارات مدينة بشطرها الأعظم من غِناها إلى التجربة التي عشتها في "شينيبقر"، مع الكهنة ـ العمال الذين ارتبطتُ معهم بعلاقة أخوية وثيقة حتى ان الكاردينال "سوهار"، رئيس أساقفة باريس أمكنه القول لواحد منهم: "إن كان الكهنة العمال بحاجة إلى مرشد فبوسعهم أن يختاروا غير روجيه غارودي!". مما أضحك خليفته الكاردينال "مارتي"، عندما دعاني، فيما بعد، إلى مائدته.

ثم كان الانفتاح الحاسم مع أعظم أمل في زمننا: لاهوت التحرر. لقائي أولاً مع دوم هلدر كامارا، رئيس أساقفة البرازيل، وأخي منذ ثلاثين عاماً. ثم مع الأب "غوتييريز"، أول منظّر للاهوت التحرر؛ والأب "ايلاكوريا" الذي شارك في تدشين مركزنا في "قرطبة"، قبل أن تقتله سرايا الموت؛ وليبوناردو بوف" الذي رسم معالم الوجدان الكوكبي، ورامون بانيكار الذي كان، من بيناريس إلى سانتا باربارا، نموذجاً يُحتذى في "مسكونيته" انطلاقاً من إقامته في عش النسر في "تافيرته" في كاتالونيا، وهي مسكونية عممها إسهام روحانيات الهند، كما استذكرنا ذلك، في "سانتا باربارا" مع "مرسيا الياد".

ومع البروتستانتيين، كان اللقاء، في ستراسبورغ، في عام ١٩٣٧، مع كارل بارت، الذي افتتح درباً جديداً للاهوت، ثم في سالزبورغ، مع "جورغن مولتمان" ولاهوت الأمل، وفي كارلو في فاري، مع القس "هرومادكا"، الناطق البطولي باسم الإيمان المسيحي إلى شرق أوروبا.

وكان إخصاب آخر لقاء الكتّاب الذين يتفكرون في زمنهم ويستَبِقونه أحياناً.

شعراء مثل "بابلو نيرودا" الذي رأيته في المنفى، في "مكسيكو"، أو التركي ناظم حكمت في هلسنكي؛ و"تزارا" و"ايلوار" و"آراغون" و"سان جون بيرس" الذي نوّرني يوماً كاملاً في شبه جزيرته "جيان"؛ وسيزير أوسنغور.

وروائيون مثل رومان رولان، وكانت رسالة منه حذوة لحياتي كلها، وجورج امادو الذي أيقظ الوجدان الشعبي في أمريكا اللاتينية، وايليا اهرنبورغ الذي أطلعني على أسرار المعرفة النقدية بالاتحاد السوفييتي، وكذلك هان "سوين" بالصين.

وكان هناك رجال المسرح والسينما الذين علموني حول التصور المأساوي للحياة أكثر مما علمني الوجوديون التجريديون: "جوفيه" مثلاً الذي قبل أن يُدير قسم تاريخ المسرح في موسوعة النهضة الفرنسية التي كنت أديرها، بعد التحرير، إلى جانب علماء مثل "بول لانجيفان" و"جوليو كوري".

ولم تكن ضعيفة أيضاً تجربتي، في مهنتي كأستاذ لفلسفة الفن في الجامعة، وأنني عشت ملحمة التصوير المعاصر: وأنني كنت صديق بيكاسو الذي لم يجدد فقط طريقة النظر إلى العالم على نحو مختلف عما هي عليه في التصوير الكلاسيكي منذ النهضة، وإنما رسم، مع "غيرنيكا" شعار جرائم القرن.

وأنني عرفت مجددي الواقعية البرازيلية، عندما سكنت، في "ريودي جانيرو"، في منزل "بورتيناري"، أو عندما عشت في مكسيكو تجربة الواقعية المكسيكية الجديدة، في صداقتي مع "دييغو ريفيرا" و"سيكيروس"؛ والواقعية الإيطالية الجديدة في العلاقة الأخوية مع "غوتوسو"، والتجريد الغنائي المتزامن مع الرسام "ماثيو".

والرقص كبعد من أبعاد الحياة أتاح لي أن ألتقي في آن واحد أساتذة الرقص الأمريكي الحديث، مثل مارثا غراهام التي كانت ربة الرقص، بالنسبة إلي، والفنان نيكولايس، وميرسي كوننغهام، وفي الاتحاد السوفييتي مايا بليسيتزكايا، وفي فرنسا "بيجار" الذي كتب مقدمة كتابي: "أن ترقص حياتك"، ولودفيلا تشيرينا التي خلقت شخصية سان سيباستيان في دار الاوبرا بباريس. ثم أكبر راقص في الهند، رام غوبال، الذي أراني في لندن كيف أخرج رقصة "سيفا" خالق العوالم ومدمرها.

وفي الفلسفة، في عمل حياتي كلها حول الانتقال من فلسفة "الوجود" التي تقود إلى قبول النظام القائم، إلى فلسفة "الفعل"، أداة تغيير ذلك النظام، كما علم ذلك كارل ماركس، حظيت بدعوة الكاثوليكي "موريس بلونديل" لي إلى البحث، وهو الذي كتب رسالته حول "الفعل"، وغاستون بيرجيه الذي تحول من علم الظاهرات إلى المستقبلية التي لم تكن تهدف إلى التنبؤ بما سيكون بتعميم الحاضر والماضي، وإنما بأن تقول لنا ضروب المستقبل الممكنة التي يفتحها كل من قراراتنا.

والعون الذي قدمه لي المشرف على رسالتي، غاستون باشلار، ساعدني على الجمع بين الإبداعات المتكاملة في الشعر والعلم. وأخيراً "ماركوز" الذي غدا رفيق المعركة في عام ١٩٦٨.

والكثير من الأصدقاء الذين كانوا قدوة فيما تكون عليه الحياة البطولية حين تكون في خدمة هوىً ما؛ بدءاً من السينمائي لـ"سن العشرين في الاوريس"، رينيه فوتييه، إلى الملاح الذي "لا يناله الخوف ولا اللوم" برنار مواتيسيه. أو عملاق الموسيقا "يهودي منوحين" الذي إنسانيته أكبر من فنه، والذي شجعني، في دفاعه عن المقدّس، كما في لقاءاتنا في قرطبة أو فيينا، بقوة بالغة، وكقدوة، في بحثي عن وحدة الإيمان.

تلك هي بضعة عناصر من التجربة التي عشتها في قرني، وهي تسمح لي اليوم أن ارسم الخطوط الأولى لحلول المستقبل للقرن الواحد والعشرين التي يسعى إلى خنقها، بكل ثمن، الذين يريدون أن يحافظوا على الوضع الراهن "بمختاريه" و"مستَبْعديه" و"فكره الوحيد".

وأنا أرمي إذن، كما تُرمى زجاجة في البحر، هذه الحرّاقة: المستقبل: نمط استخدامه، آملاً أن تحملها أيد شجاعة إلى جميع الشواطىء، وأن تولّد منها العقول المتحررة والصاحية قرناً جديداً.

ليس هذا الكتاب سوى صرخة لاستنفار الأحياء. وهي قبل كل شيء صرخة ألم، لأن العالم بأسره جسدي: وأنا موجوع في فلسطين وفي "سرتاو" بالبرازيل. ورأسي يشتعل تمرداً لأن معظم زعمائنا السياسيين أو الروحيين يبدو عليهم أنهم لم يعودوا يملكون رأساً أو أنه فارغ.

وهي صرخة أمل أيضاً. لأنني أعلم أنني لست وحدي. أنا ابنٌ لمليارات الموتى الذين لم يعلموا قط لأي شيء تصلح حياتهم وعملهم وألمهم وموتهم لكن أملهم سيعيش ألف عام في صدر أبنائنا.

لست سوى برعم من تلك الشجرة. بذار لا يريد أن يكون غير جدير بما سينبت.

سنقاتل حتى آخر نفَس الذين يريدون أن يفرضوا علينا، بقوة الصواريخ والمليارات، تاريخاً كذاباً ومستقبلاً خالياً من المعنى، وأن يفرضوا الصمت على حقائقنا الجزئية والمرتجفة.

الإنسان في خطر: وأمله وإلهه مهددان بالموت.

ومن حقنا جميعاً أن ندافع عن أمل الإنسان وشرف الله.

٣) ١٩٦٨: لنكنْ عاقلين، ولنطلبْ المستحيل

إن المنعطف الحاسم في فكري، المنعطف الذي يسجّل مرحلة كبرى في إعداد فلسفتي للفعل بقطيعة جذرية مع فلسفة الوجود، قد حدث في عام ١٩٦٨.

ومع أن حركة ١٩٦٨ قد انتهت بهزيمة، أي بعودة المجتمعات الغربية إلى وضعها القديم، إلا أنها حملت في ذاتها عودة إلى الشامل والعام وراء هيمنة الغرب العالمية والاستعمارية، أي وراء نموذجٍ للتطور يكون فيه النمو الاقتصادي متماهياً مع السعادة، ويكون فيه التبادل الحر متماهياً مع الحرية، حرية الأكثرين غنىً والأكثرين قوة في استغلال الأكثرين ضعفاً وافتراسهم.

الجديد في هذه الانتفاضة أنه لم يطرأ في لحظة أزمة: كان هناك القليل من البطالة، ولم يكن هناك تضخم، وكان معدل النمو مرتفعاً نسبياً. كانت صحة النظام، في الظاهر، حسنة.

وإذا بأكبر حركة اجتماعية عرفتها فرنسا (حتى في زمن الجبهة الشعبية) تنفجر: ١٠ ملايين من الأجَراء يضربون، وتغدو الجامعات خاضعة لمراقبة الطلاب، وبدت علامات التردد حتى في هيئات الدولة الكبرى.

لقد جرى إذن حدث جديد جذرياً. والعادة أن تولد الإضرابات الكبرى أو الانفجارات الاجتماعية من كل نوع، في لحظات الأزمة الاقتصادية أو الاجتماعية أو الجمود السياسي.

في ١٩٦٨ لم يظهر شيء من ذلك.

في بضعة أسابيع انتقل الطلاب من نقد الجامعة إلى نقد المجتمع وتصوره السرطاني للنمو. وتظهر منشورات المطالب العمالية أن مطلب المشاركة بل والإدارة الذاتية تتخذ مكاناً متعاظماً بالنسبة إلى مطالب الأجور.

رأت النورَ إرادةٌ عامة: المشاركة الفاعلة في تحديد غايات العمل ومعناه (العمل اليدوي أو الفكري) وجميع البنى الاجتماعية.

وبكلمة واحدة، في لحظة من الاستقرار النسبي ومن نجاح النظام، **حدث وعيٌ عام جداً أن النظام أشد خطراً، وأكثر استلاباً بنجاحاته منه بإخفاقاته.**

كان ذلك يغيّر معنى الثورة. فحتى الآن، كان كون المرء ثورياً يعني إبراز تناقضات النظام والأزمات الدورية التي تولّدها: فعَل ذلك كارل ماركس لزمنه بصورة رائعة وخلق منهجية المبادرة التاريخية لتحليل هذه التناقضات، واكتشاف المشروع القادر على التغلب على تلك التناقضات، انطلاقاً من ذلك التحليل.

ومنذئذ، جرى التشديد على المشروع، دون التخلي عن ذلك الاكتشاف الأساسي لماركس، ولكن هذا التشديد على المشروع كان سيكون سابقاً لأوانه، وبالتالي غير قابل للتحقق، في عصر ماركس، حيث لم تبلغ الرأسمالية، حتى في انجلترا كامل تفتحها.

ومن الجدير بالملاحظة أن الحركة كانت عامة شاملة نظراً للسيطرة العامة الشاملة للنموذج الغربي.

القاسم المشترك بين جميع هذه الحركات، بالرغم من الفروق اللونية العائدة للشروط الخاصة في كل بلد، حتى ضمن العبارات السديمية، والملتبسة، والفوضوية أو الميسيانية التي تسهّل سحقها في كل مكان، كان الأمل بالتحرر من استلابات النظام الذي لا يمنح الحياة معنىً سوى الزيادة الكمية للإنتاج والاستهلاك.

وفيما يخصني شخصياً، قادني اعتناقي لمبدأ هذه الحركة وحتى مشاركتي في بعض تظاهراتها إلى استبعادي من الحزب الذي كنت حتى الآن أحد قادته. وإذ كنت حينئذ أستاذاً علمني طلابي الكثير. قال أحدهم: "ليست هذه ثورة، هذا تحول!".

كان كل شيء يرتعش ويدوِّم في فكري أمام ماكان، في الظاهر، ارتداداً شاملاً: في ٦ نيسان، في روما، زرتُ "ماستروواني"، الذي بدا أنه يلمح مع دور "الكاهن العامل" الذي جئت أقترحه عليه، سفحاً آخر ممكناً غير الانحدار الذي يفرضه المشرفون: السفح الشعري للتبشير بمستقبل آخر.

في ٩ نيسان، في جنيف، في مجلس الكنائس المسكوني (البروتستانتيين والارثوذكس): ندوة حول النمو.

٢٣ نيسان: نقاش في كلية اللاهوت الكاثوليكية ي "آنجيه" حول: المعنى الروحي لثورة اكتوبر.

في ٧ ايار: ندوة اليونيسكو حول مرور مئة عام على موت ماركس: المواجهة مع ماركوز حول القوى المحركة لثورة مقبلة، مواجهة تعارض فيها جوابان: جوابي الذي اقترحته عن التكتل التاريخي، إذ أن التطور التكنولوجي الذي يدمج فئات جديدة من الشغيلة بالطبقة العاملة، سواء أكان التطور في مكننة الزراعة التي تحول الفلاح إلى عامل مأجور أم في تقنية المعلوماتية وفي تعميم الرجل الآلي في الصناعة اللذين ينمّيان مكونات ثقافية واسعة في التكتل التاريخي الجديد.

وكان ماركيز يراهن بخاصة على العالم الثالث والهامشيين. وأعتقدُ اليومَ أننا يجب أن نحل محل هذا التعارض الجبْهي تركيباً يدمج بعض عناصر تصوريْنا، على أن تؤخذ بالحسبان التغيرات الطارئة منذ ثلاثين عاماً في التكتل التاريخي الجديد، وفي الوقت نفسه، في العلاقات المتبادلة الممكنة بينها.

هذا التفكير حول أصالة الحركة لم يرقْ أعضاء إدارة الحزب: نشرتُ في "الديموقراطية الجديدة" مقالة: التمرد والثورة، وجهدت في إبراز "الرابط الداخلي العميق بين مطامح الطلاب وأهداف الطبقة العاملة".

صدرت المجلة في ١٢ أيار. في ١٥ ايار، قررتْ سكرتارية الحزب إلغاء المقالة.

لم أعد سوى مبعَد من الحزب مع وقف التنفيذ.

ومع ذلك، استُخدمتُ، طوال أكثر من عام، كمادة للتصدير.

وفي كلية لاهوت "هيدلبرج" حول الحوار بين المسيحيين والماركسيين.

في مونريال حول كتابي: ماركسية القرن العشرين.

وفي كاليفورنيا، وسان فرانسيسكو، حيث دعاني الأب "بوركلي" إلى الكلام معه، في القداس، عن فييتنام.

في لندن لمناقشة مع الأب "جانيير" وهو يسوعيٌّ، مدير مجلة: "مشروع". لا شيء في هذا النشاط الخارجي قد يلوث الحزب الفرنسي.

لكن بعد غزو السوفييت لتشيكوسلوفاكيا، في آب ١٩٦٨، تلقيتُ أولَ لومٍ عامٍّ لأنني أدنتُ القادة.

وانتهى وقف التنفيذ، في المؤتمر التالي، في شباط ١٩٧١. فبعد أن صرحتُ أن "الاتحاد السوفييتي ليس بلداً اشتراكياً" نُحّيتُ من جميع مهامي، وبعد ذلك بقليل، أُبعدت من الحزب.

لم يكن ذلك دراما شخصية، وإنما كان فرصة تاريخية مضيّعة: ذلك أن الحزب الشيوعي الفرنسي لم يفهم المعنى النظري لحركة ١٩٦٨، وانكشف عجزه، عملياً، عن تولي قيادتها، فوقع منذئذ في الجهات الدنيا من التاريخ، ليصبح، بالانحطاط البطيء، مجموعةً صغيرة يلتهمها الحزب الاشتراكي وتندمج معه في "الفكر الوحيد"، فكر النمو وأوروبا، والعولمة، أي قبول واقع الهيمنة الأمريكية ووحدانية سوقها.

لم يبق لديه منذئذ رسالة تاريخية ينبغي القيام بها: مهمة الإثارة الجماهيرية. أصبح حزباً مثل سائر الأحزاب "المنضبطة" سياسياً، أي انه لم يعد يقترح بديلاً يقطع الصلة بالنظام السائد.

بدأتُ منذئذ، وحيداً، وتلمساً، في إعداد طريق آخر، من "البديل" (في عام ١٩٧٤) إلى نداء إلى الأحياء في عام ١٩٧٩.

في هذا الكتاب الأخير، وبعد أن أسستُ في جنيف، في ١٩٧٤، "المعهد الدولي لحوار الحضارات"، بدأتُ أستشف أخيراً، في آن واحد أسباب انحطاط الغرب، وإمكانات أشكال أخرى للحياة تعرضها البلدان غير الغربية، لو لم يُوقِف نموَّها الداخلي الاستعمار منذ خمسة قرون، ومنظورات وحدة العالم التي يمكنها وحدها اليوم أن تؤمّن بقاء الكوكب حياً، وبعثاً جديداً للإنسانية.

* * *

٤ ـ فلسفة الوجود وفلسفة الفعل

لو شملتُ اليوم بنظرة جملةَ حياتي، مايصنع وحدتها، في تنوع بحوثها، لوجدتُ أنه هذا الانتقال من فلسفة الوجود إلى فلسفة الفعل.

في السياسة، النضال الطويل ضد حتمية ماهو كائن، ضد كل فلسفة خطية للتاريخ تُعيّن له مسبقاً الغاية، بدءاً من انحرافات الماركسية التي تصورت "قلب" هيغل مثل إحلال ديالكتيك المادة محل ديالكتيك العقل. هذه الحتمية التاريخية الزائفة تجعل من الاشتراكية مرحلة ضرورية، بعد غيرها من المراحل وناجمة عنها. (وبشكل كاريكاتوري ضلالات فوكوياما الذي أعلن نهاية التاريخ، وانتصار وحدانية السوق). التاريخ غير مصنوع من الوقائع وإنما من الاختيارات الإنسانية والإبداعات الإنسانية. فمن المهم إذن أن نعثر على إلهام ماركس، أن نفهم معه أن الناس يصنعون تاريخهم الخاص، لكنهم لا يصنعونه اعتباطاً، وإنما في ظروف مشروطة بالماضي. وإلا صنعنا أكثر مما يلزم من الثوريين الذين يجعلون من اتجاه التاريخ قدراً، ويريدون أن يغيروا كل شيء ماعدا أنفسهم.

في علم الجمال، كانت المساجلة الطويلة، خلال حياتي، (ولاسيما في أعمالي الستين التي تبشر بالمستقبل "أن ترقص حياتك" ولاسيما "واقعية بلا ضفاف") ضد واقعية المحاكاة لدى أرسطو، التي تدنت إلى تقليد لعالم جاهز من قبل، يتجاهل تبشير الفنون بمستقبل سيولَد وبعالم في ولادة مستمرة.

وفي اللاهوت، البحث القَلِق والشغوف عن الله الذي ليس وجوداً وإنما هو فعل، الفعل الموحد للوجود، الفعل الذي نحن مدعوون، كل يوم، إلى المشاركة فيه. وإذا ماوُجد إله صنع العالم من مرة واحدة ونهائياً، وإذا كان كل نظام وكل سلطة من عمله الأبدي أيضاً، فإن من الكفر أن نزعم أننا سنغير ذلك النظام وتلك السلطات. "أطيعوا مَن منحهم اللـه السلطة" هذا هو مبدأ قاعدة كل لاهوت السيطرة، عند القديس بولس وعند المسلم ابن حنبل وتلاميذهما اليوم.

الله، كما يُذكّر القرآن، لا ينِي يخلق العالم ويعيد خلقه، وهو يعهد إلى الإنسان (إلى جميع الناس) بعبء أن يكون خليفته على الأرض ليتابع هذا الخلق.

ثانياً - الغربُ عَرَضٌ

الانشقاق الأول:

من سقراط إلى النهضة

انشطار العالم هذا تم منذ آلاف السنين، بثلاثة انشقاقات في الغرب الذي اعتقد دائماً أنه يملك الثقافة الحقيقية والوحيدة.

الانشقاق الأول بدأ مع سقراط وتلميذيه أفلاطون وأرسطو، مؤسسي فلسفة الوجود.

بارمينيد الإيلي (في ايطاليا) أعطى صيغتها الأولى: "الوجود كائن والعدم غير كائن". وذلك يعني أن يُستبعد من الواقع كل ماهو غير قابل للتفكير فيه من عقلنا. وبالتالي يُحَدُّ الوجود بما كان من قبل ـ ونحن نقول اليوم: "بالنظام القائم"، وكل ماسوى ذلك ليس سوى انحطاط بالنسبة إلى الوجود الخالص والأول. أفلاطون مثلاً، في "الجمهورية"، يحدد مراحل انحلال الأنظمة النسياسية، منذ الأصول الارستقراطية حتى ديماغوجيات زمنه الأخيرة، ولا يقترح حلاً سوى العودة إلى نظام الطوائف مع تراتب الأسياد والعسكريين والشرطة الذين يدعوهم الحراس ومن جمهور أدنى يلبي حاجات المدينة المادية، من الفلاحين وبخاصة من العبيد المكرسين للأعمال اليدوية أعمال الزرع أو المناجم.

وسقراط، الذي مهما يكن خصباً إسهامه في نقد المعرفة، إلا أنه وضع قواعد تقطيع "الوجود" بقطّاعة التصورات والكلمات، وتمم أرسطو هذا العمل الذي سيدوم خمسة وعشرين قرناً، مسلسلاً الكائنات والتصورات التي تحددها، والكلمات التي تعبر عنها. وكان نمط الاستدلال الذي ينبع من هذا التوسع المتفاوت في التصورات والذي يدمج بعضها في بعض، هو القياس، وهو عقيم تماماً بالنسبة إلى كل فكر مبدع، لكنه سيطر بالمقابل، على جميع أشكال التصنيفات سواء أكانت تراتباتها اجتماعية أو تصورية.

فلسفة الوجود هذه تتضمن تضييقاً قاتلاً لحقل الفلسفة. فكل ماكان يتعالى على التصور (والذي كان يُعتبر عادة من الميدان الديني أو المقدّس) قد نُحّيَ.

ولـم يبق لدى سقراط منـه إلا جَذَعـة: وان مايسـميه "شيطانه" يذكّـر أحيانـاً بـأن هناك ميادين تتجاوز الواقع الإنساني الخالص.

كان كل شيء منذئذ مركّزاً على الإنسان وعقله وحده (ولـم تكن الأخـلاق عند سقراط سوى قسم يخص الـمنطق)، ولـم تكـن الطبيعـة الـمتروكة لنشـاطات العبيد الدنيا أو للعاملين اليدويين، جديرة ببحث الحكيم. وستكون الفلسفة اليونانية نظرية، بشكل أساسي، حتى مع جهود بعض الأطباء والفلكيين أو الطبيعيـين، مثـل أرسطو، الذي ستلعب عنده الـملاحظة دوراً ولكن لكي يمد حقل تصنيفاتـه، أكـثر مما هو لتحليل الحياة الداخلية للكائنات الحية، على نحو آخر غير شكلها، وجوهرها وغائيتها الداخلية والخارجية.

وهكذا غدا الإنسان مقطوعاً من الإلهي ومن الطبيعة، في آن معاً.

بل إنه كان مقطوعاً من باقي العالـم الإنساني: فمَنْ لـم يكن يونانياً، أي مَـنْ لا يتكلـم اليونانية، ومن كانوا يعتبرون لغته مجرد تـمتـمة دون الإنسانية، كان يُعتـبر بربرياً.

وهكذا قام العالـم اليوناني (ثـم قردُه الروماني الـمقلّد له الكلـي القـدرة علـى البحر الأبيض الـمتوسط) بأول انشقاق لـه حيـال سـائر العالـم. وكـان أحـد آبـاء الكنيسة وهو "كليمان الاسكندري" قـد سَخِر مـن الـمعجزة اليونانيـة الـمزعومة حين ذكـر في كتابه الشـهير "السـترومات" (١، ١٥، ٤٦، ٦٣) الـمصادر الـتي استقى منها تلاميذ فيثـاغورس وأفلاطـون، وهـي: "أنبيـاء مصـر، والكلدانيـون مـن آشور، والدرويد من بلاد الغول، وسَحَرة فارس وفلاسفة الهند".

وقد كتب نيتشه بحق أن الانحطاط بدأ مع سقراط، إذ به يبدأ انشـقاق الغـرب عن آسيا. ومَنْ يُدعَون "الـمتقدمين على سقراط" لـم يكونـوا روّاداً لسـقراط كمـا توحي بذلك هذه التسمية.

كانوا عكس ذلك: كان لهم، لدى احتكاكهم بمفكري الشـرق، رؤيـة كاملـة عن علاقات الإنسان بالطبيعة، وبالإلهي، وبالنـاس الآخرين. ولـم يكـن "لتـاليس" الذي من ميليه، واناكزاغوراس الذي من غلازومينيس، وفوقهم جميعاً، هـيراقليطس الذي من افسس، لـم يكن لهؤلاء من اليونانية سوى اللغة التي فرضها الفتح.

ومن الأمور الكاشفة أن أصحاب الرؤى الكبار الناطقين باللغة اليونانية في الشرق الأوسط: تاليس واناكزيمَاندر اللذين من "ميليه"، وكزينوفان الذي من "كولوفون" شمال ميليه (وسيتفرق تلاميذه بارمينيدس وزينون في "ايليه" وصقلية، وكذلك "امبيدوكل" الذي من "اغريجنت")، كانوا يعيشون جميعاً في اقليم يحكمه مرزبان من الامبراطورية الفارسية، أي عند ملتقى الحكم العظمى في آسيا. لم يفصل أيٌّ منهم التفكير في الإنسان عن الدراسة الحية للطبيعة. جميعهم يكتبون رؤاهم في قصائد، (في حين أن أفلاطون أقصى الشعراء من جمهوريته). وبعد هيراقليطس حدث التحول الكبير للإنسان الغربي: ومنذئذ ستنفصل الفيزياء عن الاونتولوجيا (علم الكائن). الله والإنسان. وفي هذا الفكر المقتَلع من الحياة، فقدت الكلمات والأشياء معناها كعلامات إلهية.

كان هيراقليتس مايزال يتكلم لغة الكهّان والوحي

"كل شيء واحد". (الفقرة ٥٠)

"القانون أن تُطيع مشيئة الواحد". (الفقرة ٣٣).

"الحكمة تكمن في شيء واحد: معرفة الفكر الذي يدير كل شيء وفي كل مكان". (الفقرة ٤١).

"لولا الأمل لما وجدنا مالم نأمله". (الفقرة ١٨).

"الكون نار حية أبداً تشتعل وتنطفىء بحسب إيقاع". (الفقرة ٣٠).

"الإله الذي كاهنه في "ديلف"، لا يتكلم: إنه يشير". (الفقرة ٩٣).

التصوّر لا يسمح بتعريف إلا ماهو كائن من قبل. أما المستقبل الذي ينبغي خلقه، فيمكن فقط أن يوحي به المثَلُ والاستعارة والقصيدة.

تلك كانت مُسارَّةُ آخر راء: اليقظة، بالنسبة إليه، هي العقل المنفتح للحس الذي ينكشف مع علامات العالَم وكلام الأنبياء.

أن نعيش الموت، وأن نموت "حياتنا". تلك هي الألفة بين الإنسان والالهي لدى "الحراس اليقظين للأحياء وللموتى". (فقرة ٦٢ - ٦٣ - ٧٧ - ٨٨).

* * *

المصدرُ الثاني لانشقاق الغرب يهودي ـ مسيحي. فبعد عمومية الآسيوي يسوع (كما كتب الأب دانييلو)، استأنف القديس بولس وتلاميذه المفهومَ الملعون "الشعب المختار": قديماً كان هناك "الغوييم" أي الغرباء غير اليهود، أما الآن فصار هناك الوثنيون والكفار الواجب تبشيرهم بالإنجيل، أي استعمارهم روحياً واستعمارهم اجتماعياً على حد سواء.

هذا الخليط من اليهودية والهيلينية (الذي لم يعد يحمل اسم يسوع، لكنه سيُدعى المسيحية (المسيح، هو الترجمة اليونانية "خريستوس" للكلمة العبرية القديمة "مسِّيا"، الذي يرمي إلى إعادة مملكة داود التي لا صلة لها بالمملكة التي بشر بها يسوع) هذا الخليط جعل التصدع الإنساني أشد عمقاً. لم يعد هناك، فيما وراء المتحضرين اليونان والرومان، البربر ("اليونان خُلقوا للحرية، والبربر خُلقوا للعبودية"، هكذا قال اوروبيدوس)، بل صار هناك، وعلى مدى عشرين قرناً، المستقيمو الرأي، وهم الرعايا المطيعون للكنيسة الرومانية (دارته الامبراطورية الرومانية) والمهرطقون.

وهنا أيضاً حدث إلحاقٌ غير مشروع، إلحاقُ الآباء اليونانيين الشبيه بإلحاق الفلاسفة المتقدمين على سقراط. كانوا يكتبون بالفعل لغة يونانية، لكن إسهامهم البنّاء أكثر من غيره لم يكن أنهم جعلوا المسيحية إغريقية، وإنما أنهم أخصبوها انطلاقاً من حكمة الشرق. ويُلاحظ الأب "سيغوندو" أن "مرحلة آباء الكنيسة مازالت تقاوم اتجاهات الهيلينية المخلة بالتوازن" (ما العقيدة؟ ص ٣٠٧).

مَن هم الآباء اليونانيون؟

كلهم عاشوا وفكروا، في الشرق الأوسط أو في مصر، في الاسكندرية. "جوستان (مات ١٦٥) وُلد في نابلس في فلسطين؛ "إيرينيه" من ليون وُلد في "سميرنه"، و"سان كليمان" من الاسكندرية، (مات ٢١٥)، مثل اوريجنيس؛ سان ايلير من "بواتييه" نُفي إلى الشرق، حيث كتب أعماله الكبرى؛ بازيل الكبير، غريغوار النازيانسي وغريغوار النيسي، هم آباء "كابادوسيا" (تركيا الحالية)؛ افرام السوري، سيريل من القلس، وسيريل من الاسكندرية، وُلدوا مثل يوحنا فم الذهب في انطاكيه (في سورية).. جميعهم شرقيون، لا بولادتهم فحسب وإنما بالفكر

العميق الذي عاشوا به تجربة الثالوث المسيحي دون بَتْر أبعاد روحانيات الشرق منها.

هذا التراث الشرقي الموجود لدى أفلوطين يظهر بجلاء لدى آباء الكنيسة حيث كتب سان كليمان الاسكندري الذي كان يعرف جيداً البوذية: "إذا عرف الإنسان نفسه عرف الله، فإذا عرف الله صار الله". (المربي ١ - ٣).

ولم يكفّ الآباء الشرقيون منذ القديس ايرينيه عن القول: "صار الله إنساناً لكي يتمكن الإنسان من ان يصير إلهاً".

هذا التأليه للإنسان Theosis غير مدين بشيء للهيلينية، ماعدا الكلمة المستعملة بمعنىً مختلف جذرياً. إذ المقصود مشاركة الإنسان لا في ماهية الأب أو في جوهره الذي لا يمكن بلوغه جذرياً، وإنما المشاركة في طاقته، القابلة باستمرار للمشاركة في تدفقها الخالق الأبدي. "ماهو الإنسان أراد يسوع أن يكونه لكي يتمكن الإنسان من ان يكون ماهو المسيح" (سان سيبريان، الأوثان ليست آلهة ١٠ - ١٥).

إن غنى تجربة الثالوث المعيشة تأتي من أن الآباء اليونانيين ولاهوتيي بيزنطة قد عاشوا هذه التجربة دون أن يقطعوا من أجل ذلك صلتهم مع حِكَم الشرق وروحانياته، من ايران والهند.

التمييز بين الله الخفي وبين طاقاته القابلة لمشاركة الإنسان بأكمله، جسداً وروحاً، قريب من الوحدة العليا، في الهند، وفي "الاوبانيشاد".

نحن بعيدون هنا عن الثنائية اليونانية للماهية وفصل النفس عن الجسد. وقد شدد سان غريغوار النازيانسي على أن الفكر المسيحي يجب أن يتصرف على طريقة الرسل لا أرسطو. وقال سان غريغوار النيسي: "التصورات تخلق أوثاناً لله".

هذا هو أول انشقاق في الغرب قسّم العالم بين اليونان والرومان المتحضرين وبين البقية البربرية، أو بين "شعب مختار" (يهودي أو مسيحي) وبين عالم الوثنيين الكفار.

هذه السيادة الأولى ستدوم ١٢ قرناً، منذ قسطنطين (٣٢٦)، الذي به يبدأ المذهب القسطنطيني، وارث التنظيم المسيطر في الامبراطورية الرومانية التي

غدت "كنيسة رومانية"، والتنصيب الإلهي "للشعب المختار" الذي عبّرت عنه في آن واحد اللاسامية العميقة ضد اليهود الخصوم، واضطهاد المهرطقين الذين اختاروا طريقاً غير أرثوذكسي للتوجه إلى الله.

هذه الكنيسة الرومانية بعد أن استولت على التقاليد العبرية "للشعب المختار"، وبعد أن هيأت أفلاطون للكهنوت على يد القديس "اوغسطين" وأرسطو على يد القديس "توما الأكويني"، أُعيدت إليها يهوديتها وهيلينيتها، فتوصلت، عبر الصراعات القيصرية البابوية، والامبراطورية والكهنوت، والتحالفات المريبة بين السلطة الزمنية والروحية، أن تكوّن أوروبا، وأن تسود فيها بلا شريك بفضل حروبها الصليبية ومحاكم التفتيش حتى مااتفق على تسميته النهضة.

هذا الانشقاق الأول في الغرب وُلد هكذا من أسطورتين تاريخيتين: أسطورة المعجزة اليونانية واسطورة الاستثنائية اليهودية ثم المسيحية.

* * *

الانشقاق الثاني:

النهضة

كانت النهضة الغربية، قبل كل شيء، الولادة المتزامنة للرأسمالية وللنزعة الاستعمارية، وهي ولادة تقنّعت بإعادة ثنائية اليونان الفلسفية ولاسيما أفلاطون، وبالإصلاح الديني، إصلاح لوثر وكالفن الذي انتزع من الكنيسة الرومانية الامبراطورية نصف أوروبا، وبانشقاق أوروبا التي أخذت تظن نفسها منذئذ مركز العالم، والخالقة الوحيدة للقيم لأنها تدّعي لنفسها جميع الاكتشافات العلمية والتقنية التي امتازت بها عن سائر العالم: البوصلة وحاملة السكّان اللذين مكّنا من الإبحار في لجج البحار، أي من الاكتشافات الكبرى، والبارود الذي سمح بأن يجعل من هذه الاكتشافات فتوحات، والمطبعة التي يسّرتْ ديموقراطية الثقافة وبعث اليونان وروما.

كل هذا جاء من الصين والهند بطرق الحرير، ومن توسع الإسلام. ومن الهند الغربية أي من أمريكا، تدفّق الذهب والفضة اللذان مكّنا الاقتصاد التجاري من التوسع الهائل. وازدادت كمية الذهب والفضة المتداولة في أوروبا إلى ٨٠٠٪ في القرن السادس عشر، بفضل جماهير الهنود الذين كانوا يموتون من العمل الشاق في مناجم المعادن الثمينة.

وأهم من ذلك تدفق الموارد الغذائية الآتية من أمريكا إلى أوروبا والتي قضت على مجاعات العصر الوسيط، وأعطت الولادات دفعاً لا سابق له: دعا "فرناند بروديل"، في ١٨٩٢، وصول البطاطا الآندية والذرة المكسيكية إلى أوروبا: "الزراعات العجيبة"، ولاحظ بروديل: في مدى قرنين، حلت البطاطا محل ٤٠٪ من استهلاك الحبوب. وفي ايرلندا، التي زُرعت فيها البطاطا قبل غيرها، تضاعف ثلاث مرات عدد السكان.

وعندما بدأ الاوروبيون استيراد القطن الأمريكي الطويل الخيوط، انطلقت صناعة النسيج الأوروبية انطلاقةً لم يسبق لها مثيل على حساب نسّاجي الهند، وفي أمريكا نقِل العبيد السود لإنتاجه.

إن أسطورة النهضة الأوروبية أي ولادة وحدانية السوق وعبادة المال، وانشطار العالم بالنهب الاستعماري، والاستقطاب المتزايد، حتى في أوروبا، بين مَن يملكون ومَن لا يملكون، تقنّع انحطاط ماهو إنساني.

الانحطاط هو تفكك الإرادة الجماعية لمصلحة الأفراد. وما يميز الانحطاط الروماني، هو التباين المتزايد بين ثروة المساكن الخاصة وتداعي المعابد.

ولادة الوحوش ومملكة الذهب

الشاهدان الكبيران: سيرفانتس وشكسبير

هذا الانحطاط، كشف النقاب عنه، عباقرة العصر. لم يفهم أحدٌ ولم يصف آليات تفكّك عالمنا في أواخر القرن العشرين أفضل مما فعل شكسبير. ولم يُشر أحد إلى الطريق الوحيدة لإحباط الموت أفضل من سيرفانتس.

في ١٦٠٥ ـ الملك "لير" يكشف القناع عن انحلال عالم "يقود فيه المجانين العميان"[(١)].

"العالم الكبير سوف يبلى هكذا حتى العدم"[(٢)] والملك لير ليس سوى "قطعة من خراب"[(٣)] وهو يسأل السؤال الأساسي "مَن يستطيع أن يقول لي: من أنا؟"[(٤)].

فيجيب "دون كيشوت" في هذه السنة نفسها ١٦٠٥: "أنا أعرف من أنا"[(٥)].. وهو أيضاً، في قلب المصيبة. لكنه مسكون بالله. وهو يحمل هدفاً ومعنى. ويعلم أن عالم القطيع ليس العالم الحقيقي.

عالم سيرفانتس وشكسبير هو عالمنا: عاشا ولادته؛ ونحن نعيش احتضاره.

مايُدعى النهضة هو رفض كل قيمة مطلقة مع النتيجة الطبيعية لهذا الرفض: فردية الغاب. النهضة ولادة الوحوش. وما اتفق على تسميته الواقع حُلم وكذب: نحن نقول: استلاب الإنسان.

---

(١) الملك لير، الفصل الرابع، المشهد الأول.

(٢) الفصل الرابع، المشهد السادس.

(٣) الفصل الرابع، المشهد السادس.

(٤) الفصل الأول: المشهد الرابع.

(٥) دون كيشوت: ١ ـ ٥ ص ٥٧.

شكسبير وسيرفانتس هما أول من صرحا: "الملك عار!" وواقعكم واقع زائف: ليس له معنى لأنكم ليس لكم هدف!.

المال يجعل من جميع القيم قيماً تجارية: "أنت تساوي مقدار ماتملك، وتملك مقدار ماتساوي" (٢ ـ ٢٠ ص ٦٦٩ و٢، ٤٣ ص ٨٣١). الثروات قادرة على أن تسد كثيراً من الثقوب.." (٢ ـ ١٩، ص ٦٥٥) (دون كيشوت).

وهكذا يندد سيرفانتس بالخراب الأخلاقي النابع من انتصار الرأسمالية في النهضة، مع الصفاء الذهني ذاته والعنف ذاته اللذين نجدهما لدى شكسبير وهو يُرينا: "العالم المدعي يسجد أمام الغبي الفاحش الثراء".

"ماذا أرى هنا؟ الذهب، هذا المعدن الأصفر الثمين واللامع! هذا القليل من الذهب يكفي لأن يردَّ الأسود أبيض، والبشع جميلاً، والظالم عادلاً؛ والحقير نبيلاً، والشيخ شاباً، والجبان مقداماً. هذا الذهب سوف يُقصي عن معابدكم كهنتكم وخدّامكم؛ وسوف ينتزع الوسادة من تحت رأس مرضاكم. هذا المال الأصفر سوف يَحْبك ويحل النذور، ويبارك الملعون، ويدفع إلى عبادة الجذام الأدكن، ويُجلس اللصوص على مقاعد مجلس الشيوخ، مع منحهم الألقاب والتكريم والمدائح؛ وهو الذي يحدو الأرملة المحزونة على أن تتزوج ثانية. والتي يلفظها باشمئزاز مشفى المتقرحين البشعين، ينفحها الذهبُ بالطيب والعطر ويخلق لها نيسان جديداً.. هيا! أيها الغبار الملعون، أيتها البغي للجنس البشري كله، أنت التي تبذرين الشقاق في جمهور الأمم، أريد أن أردّك إلى موضعك في الطبيعة"[1].

استشهد كارل ماركس بهذا النص ورأى فيه بداية لوعي استلاب الإنسان، استلاب ماسيدعوه في رأس المال "صنميّة السلعة"[2].

وفي نقد سيرفانتس لجوهر الرأسمالية الناشئة، مفتاح موضوع السَحَرة. ومهمة دون كيشوت هي أن يُبطِل السحر عن العالم المسحور. وبلغة أخرى سنقول: إبطال الاستلاب عن العالم المستَلَب".

---

[1] تيمون الأثيني (الفصل الرابع، المشهد الثالث).

[2] كارل ماركس، رأس المال، الكتاب الأول ١ ـ ٤.

ماكان يظنه ملحمة روحية تبين له أنه واقع الاستعمار اللئيم. وفي "غيور استرامادورا" يدعو الهند: "ملجأ وملاذ يائسي اسبانيا، كنيسة الساقطين، جواز مرور المجرمين... خيبة آمال الكثيرين ودواء البعض". (بلياد ص ١٣٠١).

ولقد سُحِقَ سيرفانتس في نهاية الأمر: كان مقاتلاً قديماً من "ليبانت"، وأصبح في اشبيلية بيروقراطياً مغموراً في الورشات التي يجهَّزُ فيها الأسطول الذي لا يُقهَر، وغدا منذئذ أحد هؤلاء اليائسين في اسبانيا، فتوجه بطلب استخدام لفيليب الثاني: "أتوسل بتذلل إلى جلالتكم... أن تمنحوني رعايتكم لمركز شاغر في الهند... محاسب في غرناطة الجديدة، أو في مقاطعة "سوكونوسكو" أو "غواتيمالا" أو في سجون كارتاجين (البيرو)، أو في دوائر الـ"باز"...".

خيبة أمل سيرفانتس المأساوية، في "منعطف أحلامه" عُبِّر عنها من خلال "دون كيشوت". وفي خطبته عن "الأسلحة والآداب"، أبدى حزنه لأنه "مارس مهنة الفارس التائه في عصر كريه كالذي نعيشه اليوم". (١ - ٣٧ - ٣٨).

ونقدُه لعصره لا هوادة فيه مثّله مثلُ نقد شكسبير[1].

إن الإنسان الذي لازمه الهم في السيطرة على الطبيعة عن طريق العلم والتقنية، أصبح شيئاً بين الأشياء: "هذا العالم كله مؤلف من الحيل والآلات" (٢ - ٣٠ ص ٧٣٨). ولاسيما آلات السحق: الطواحين مثلٌ على ذلك، "كالسلسلة" في هذا المجاز الآخر: "الأزمنة الحديثة" لشابلن.

مِن مكننةِ العالم هذه، ومن سحق الإنسان الذي جُرد من بُعده الإلهي، أبرز دون كيشوت المصدر: السلطان المطلق للمال الذي أصبح سيد الناس وسيد مجتمعهم مكان الله. "أفضل أساس للعالم هو المال" (٢ — ٢٠ ص ٦٦). "المصلحة قادرة على كل شيء" (٢ - ٢٠ ص ٦٦٧).

تدفّق الذهب من أمريكا غمَر اسبانيا.

أصبح المال محرك جميع الأفعال. إنه يمنح السلطة ويُفسدها: "ما من وظيفة نبيلة لا يُحصل عليها بالرشوة". (٢ - ٦١ ص ٨١١).

---

[1] انظر كتابي: الشعر المعيش. دون كيشوت. طبعة فيغابريس ١٩٦٨ الترجمة الاسبانية في ١٩٨٩. المنار. قرطبة.

فسادُ القادة عام: "التقاط الذهب... جميع الحكام الجدد يذهبون إليه بالرغبة نفسها (٢ ـ ٣٦ ص ٧٩..).

الإقطاعيون الكبار، ملاك الأراضي الخاملون، يعيشون من عمل الآخرين (١ ـ ٥٠ ص ٤٩٢).

ذلك هو هذا العالم الذي عاد من جديد حيواناً في غاب رأس المال، في هذا النظام المؤسَّس على المال والمصلحة الشخصية والذي وُلد في النهضة.

يلعن دون كيشوت هذه الروح الجديدة التي تنفذ حتى إلى سانشو بانسا الشريف: "إن تعلقك بمصلحتك الخاصة... أنت أيها الرجل الذي فيك من الحيوان أكثر مما فيك من الإنسان". (٢ ـ ٢٨. ص ٧٣٢).

هكذا كانت ولادة عالمنا.

شكسبير وسرفانتس عاشا في بدايات اللعبة، عندما كانت تتحدد قواعد اللعبة. واليوم، مع "بيكيت" واللامعقول في "في انتظار غودو"، يجري لعب الجزء الأخير من اللعبة[1].

* * *

هكذا وُلدت ماتسميه كتب التاريخ الموجزة "الأزمنة الحديثة" التي تتميز بنفي الوحدة الإنسانية نظراً لهيمنة الغرب واحتقار الثقافات الأخرى أو تدميرها.

الثقافة الغربية السائدة منذ خمسة قرون وحتى اليوم، التي تعتقد أنها المبدعة الوحيدة للقيم، والمركز الوحيد للمبادرة التاريخية، تقوم أساساً على ثلاث مسلمات للحداثة:

* في العلاقات مع الناس الآخرين، مسلمة آدم سميث: "إذا كان كل واحد تقوده مصلحته الشخصية فهو يسهم في الرفاه العام".

* وفي العلاقات مع الطبيعة، مسلمة ديكارت: "أن نصبح سادة الطبيعة ومالكيها".

---

[1] أصبح الفساد قانونياً، في فرنسا، بقرار من أعلى مرجع قضائي، في شباط ١٩٩٧.

* وفي العلاقات مع المستقبل، مسلمة "فاوست". إن مؤلف فاوست الأول، الكاتب المسرحي الانجليزي مارلو (١٥٦٣ ـ ١٥٩٣) كتب: "أيها الإنسان، اغدُ، بدماغك القوي، إلهاً، سيد جميع العناصر".

إن المسار التاريخي لهذه الحضارة الغربية المؤسَّسة على هذه المسلمات الثلاث التي رأى بعضهم فيها "نهاية التاريخ"، يجد تعبيره في الفلسفات الانجليزية والفرنسية والألمانية، في هذه المرحلة من التاريخ.

١ ـ **من مسلمة آدم سميث** إلى وحدانية السوق.

٢ ـ **من مسلمة ديكارت** إلى إنسان الحاسوب: الفلسفة الفرنسية.

٣ ـ **من مسلمة فاوست** إلى عالم اللامعنى: الفلسفة الألمانية.

* * *

أ ـ من مسلمة آدم سميث إلى وحدانية السوق

الفلسفة الانجليزية.

في انكلترا إنما وُلِد أول شكل للرأسمالية، وأوائل الوعي لأسسها الإنسانية.

تطورت الثورة الصناعية فيها في زمنين: من ١٥٧٠ إلى ١٦٤٠ ارتسمت خطوطها الكبرى، ومن القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر انتشرت جميع نتائجها.

في المرحلة الأولى، جعل التوسعُ الشرس للتجارة الكبرى في أوروبا، وبفضل تدفق الذهب والفضة الذي مردده إلى الغزو وإلى نهب أمريكا بدءاً من ١٤٩٢، جعل الانتقالَ من الاقتصاد الزراعي إلى الاقتصاد الصناعي متوحشاً، ليكتشف من تجارة الصوف مع الفلاندر، مركز الاقتصاد التجاري في غمرة نموه، عبر أسواق فرنسا إلى المدن الإيطالية الكبرى.

لقد طُرِد الفلاحون الانجليز الصغار الذين مارسوا حتى الآن الزراعات القوتية، من ارضهم بفعل تسوير الملاكين التجاريين الكبار الذين استكثروا من الأراضي المسوّرة لترعى قطعان الخراف الكبيرة فيها، وانتزعوا من الفلاحين ملكيةَ قِطَعهم

الصغيرة فمنعوا، بذلك التسوير، ماشيتهم القليلة من الرعي في الحقول الخاصة بالقرية والتي كانت مفتوحة لهم من قبل.

وقفز تصديرُ الصوف قفزة عجيبة: في ١٧٥٠ بلغت الصادرات النسيجية ٨٠٪ من الصادرات الانجليزية، لا ببيع الصوف فقط، بل ببيع النسيج المصنوع بأيد عاملة قليلة الكلفة لدى الفلاحين المطرودين من أرضهم والجائعين. كتب توماس مور في "طوباويته"، منذ ١٥١٦، في حقبة كان فيها في لندن ٧٠٠٠٠ متسول، وفي سائر البلاد، عصابات من الفلاحين فقدوا أرضهم وغدوا مشرّدين: "الخراف تأكل البشر".

تحلقت ولادة الرأسمالية تمردات حين حولت الفلاحين الذين انتُزعت أرضهم إلى وضع البروليتاريا البائسة.

وهكذا مثلاً، انضم، في ١٥٤٩، ٢٠٠٠٠ فلاح إلى العاطلين عن العمل في نورويش، المركز النسيجي، واقتحموا المدينة مطالبين بإنهاء التسوير الذي طرد أولئك وهؤلاء من أرضهم، وبعودة الأراضي الخاصة بالقرية التي تسمح لهم بالعيش.

ارسل ولي العهد (كان ذلك في زمن القصور الشرعي لادوار السادس ابن هنري الثامن) ضدهم جيشاً من ١٥٠٠٠ مرتزق ايطالي وألماني قتلوا ٣٥٠٠ فلاح وشنقوا قادتهم الإخوة "كيت".

عرف النظامُ انطلاقة أسرع أيضاً بالاستغلالالاستعماري: في ١٥٩١ جرت أول حملة انجليزية إلى الهند؛ في ١٦٠٠ أنشئت الشركة الانجليزية للهند الغربية (وسيقتدي بها الهولنديون في ١٦٠٢، والفرنسيون في ١٦٦٤).

إن إدخال نظام الملكية الخاصة من النموذج الرأسمالي إلى المستعمرات، حيث فُرض بطرائق أشد وحشية أيضاً، أحدث صنوفاً أعظم من الشقاء.

ويكشف التقرير الرسمي لشركة الهند في ١٧٧٠: "أكثر من ثلث السكان هلك في اقليم "بورنيه" وكان مزدهراً من قبل، والبؤس أشد في أمكنة أخرى".

وعندما نابت الدولة الانجليزية عن الشركة، قدّر الحاكم العام للهند، اللورد كورنواليس، النتائج: "أستطيع أن أصرح بيقين أن ثلث أراضي الشركة في

"هندستان" هي الآن أدغال تقطنها الحيوانات المتوحشة". والتنظيم العقاري الدائم الذي أصدره، في عام ١٧٩٣، للبنغال ولبيهار بتقسيمه الهند إلى ملكيات خاصة وبسلب الفلاحين الفقراء الأراضي التقليدية الخاصة بالقرية والتي تتيح اقتصاد المعاش، هو في أصل أول مجاعة كبيرة في الهند: مات نحو مليون بين ١٨٠٠ و١٨٢٥، ثم خمسة ملايين بين ١٨٥٠ و١٨٧٥، و١٥ مليوناً بين ١٨٧٥ و١٩٠٠. وهكذا قُضي على اقتصاد المعاش الزراعي، ثم على الصناعة النسيجية في الهند. إن فِعْلَ هذه الحرية جعل من هذا البلد مستورداً لنسيج مانشستر الذي انتقل بين ١٨١٤ و١٨٣٤ من مليون دولار إلى ٥١ مليون دولار.

قدّمت البندقية حينئذ للقلة الانجليزية الحاكمة والناشئة التي كانت تستعد لبناء امبراطوريتها، أيديولوجياً التبرير الذي تحتاج إليه. وآخر رئيس وزراء لانجلترا في القرن التاسع عشر "دزرائيلي" شدد على هذه النبوة في كتابه "كوننغسبي": "إن الهدف الرئيسي لقادة حزب "الويغ"... هو أن يجعلوا من انجلترا دولة القلة الحاكمة على مستوى رفيع، على نمط البندقية"، أي مع جمعية كبيرة ومجلس شيوخ يراقب الزعيم المنتخب.

إن كبار شعراء العصر، مثل شكسبير، في "تاجر البندقية (شايلوك) أو عطيل، مغربي البندقية، استنكروا أخلاق البندقية السياسية (ففي عطيل، كانت شخصية "اياغو" التعبير الأكثر نموذجية عن تلك الأخلاق). لكن حزب البندقية لم يكفّ عن تصلبه في الاستيلاء على السلطة.

إن الاستمرار السياسي تام بين امبراطورية البندقية والامبراطورية الانجليزية، المؤسستين على الإيديولوجية الأرسطية البولسية. وشركة البندقية التي أنشأها الكونت "دي ليسستر"، مؤسس الحركة الطهرية، تفتح لانجلترا دروباً جديدة نحو الشرق وآسيا: وفي ١٨٥١ أُنشئت شركة أخرى: الشركة التركية. وباندماجها في شركة الشرق أصبحت شركة الهند الشرقية التي كان أول حاكم لها "توماس سميث"، الطالب في جامعة "بادو" الأرسطية.

هذا التاثير اقترن مع تأثير البولسية السياسية الذي يظهر بجلاء سواء مع القديس توما الاكويني الذي أجاد تهيئة أرسطو للكهنوت أم مع لوثر.

رأى "لوثر" لدى القديس بولس الايديولوجية التي ترفع عن الإنسان كل مسؤولية بخارجية النعمة وتبرير الإيمان، والاستمرار البولسي بين العهد القديم والعهد الجديد. هذه الايديولوجية كانت تؤسس كفاحها المعادي للثورة ضد "توما منزر" المتوسل بقوة القطيعة المستقاة من عند يسوع، وكانت تبرر النزعة الاستعمارية لدى طهريّي "مايغلور" الذين استأنفوا ضد الهنود النزعة الاستعمارية المستوحاة من المذابح الخرافية ليشوع في بلاد كنعان.

(تماهى الطهريون المهاجرون إلى أمريكا مع العبرانيين التوراتيين الذين افلتوا من عبودية فرعون (ملك انجلترا) ليصلوا إلى أرض كنعان الجديدة: أمريكا. وفي مطاردتهم للهنود بغية الاستيلاء على أراضيهم، كانوا يتذرعون بمثال يشوع، والإبادات المقدسة (التحريم) في العهد القديم. كتب أحدهم: "من الجلي أن الله دعا المستعمرين إلى الحرب... والهنود.. مثل قبائل العمالقة والفلسطينيين الذين توحدوا مع غيرهم ضد اسرائيل". (ترومان نيلسون، طهريّو ماساشوسيت: من مصر إلى الأرض الموعودة. المجلد ١٦ رقم ٢ ـ ١٩٦٧).

مهّد ادمون سبنسر في كتابه The Faery Queene (١٥٩٠) لفكرة قَدَر انكلترا الامبراطوري، الشعب "المختار من الله".

النظام الانجليزي نقلٌ لنظام البندقية: إنه يميل دائماً إلى تحاشي الملكية المطلقة ليجعل من الملك "زعيماً" على نمط البندقية يمثل القلة التجارية الحاكمة ويطبق سياستها.

وهذا النظام هو الذي طغى منذ انتصار الرأسمالية في عصر النهضة، وحتى منتصف القرن العشرين (أي حتى آخر الحرب العالمية الثانية ومؤتمر "بريتون وودز"، الذي يسجل انتقال الهيمنة على العالم الرأسمالي من انجلترا إلى الولايات المتحدة بتفوّق الدولار والذرّة).

هذه الامبراطورية سيطرت على العالم مايقرب من خمسة قرون. وقد استمرت، بقدرتها الكلية، أكثر من الامبراطورية الرومانية، أو الامبراطوريات الوقتية لنابليون أو هتلر. وقد ولّدت ماسماه غرامشي "المثقفين العضويين" الذين يضعون أيديولوجية، أي التبرير الفلسفي الكاذب، للنظام السائد.

جميع الذين يُدعَون، في الكتب الرسمية، الفلاسفة الانجليز كانوا أولاً رجال سياسة مرتبطين ارتباطاً وثيقاً بالاقتصاد الامبراطوري لزمنهم إذا لم يصبحوا، على نحو أكثر مباشرة، المنظّرين المأجورين لشركة الهند الشرقية.

الأب المؤسس لهذه المدرسة، التي تُقدَّم برضاً، في التاريخ الرسمي، على أنها رائدة العلم الحديث، هو فرانسيس باكون (١٥٦١ - ١٦٢٦).

في "الاورغانون الجديد" (١٦٢٠) استأنف باكون الأطروحات الكبرى لـ"ساربي" الذي من البندقية في "فن التفكير السليم" الذي استمد فكرته الأساسية من أرسطو مباشرة: "الحواس هي مصدر المعرفة الوحيد".

لعب فرانسيس باكون دوراً من الطراز الأول في السياسة الانجليزية: كان نائباً في البرلمان منذ ١٥٨٤، وأصبح لورداً مستشاراً في ١٨٦١ (وتعرّض للشبهة في قضية رشوة وأُجبر على الاستقالة في ١٦٢١). ولم يطرح من أرسطو إلا ماكان يمكن أن يخفف من توجهه المبتذل: استبعد الأسباب النهائية ولم يَسْتَبْقِ سوى التجربة الفعالة.

الفلسفة الحقيقية لا يمكن أن يكون لها سوى فائدة عملية (أي أن تخدم التقنية)، انطلاقاً من البديهية الأساسية لباكون: "الإنسان لا يَفْهم إلا مايلاحظه"، وهي كلمة السر، منذئذ لكل التجريبية الانجليزية اللاحقة.

إن ملاحظة الواقع، أي ملاحظة النظام القائم، قاد حليفته الأقرب وصديقه "هوبز" (١٥٨٨ ــ ١٦٧٩) إلى أن يستخلص من ملاحظة مشهد المجتمع الانجليزي في ذلك العصر، النتيجةَ المفجعة ذاتها التي استطاع أرسطو أن يستخلصها من المجتمع الاثيني في زمنه، ولكن في وضعٍ تاريخي أكثر مأساوية أيضاً: وَضْع الرأسمالية والنزعة الاستعمارية المنتصرتين.

نظر "هوبز" في قوانين الرأسمالية الناشئة كما يُنظر إلى قوانين الطبيعة.فأبرز في "عناصر القانون السياسي والطبيعي" (١٦٤٠) مبدأ الفردية الوحشية في اقتصاد المزاحمة التجاري الذي لا رحمة فيه. وخلص إلى أن حالة المجتمع الطبيعية هي أنها حرب الجميع ضد الجميع.

رأى في إفلاس الديموقراطية الاثينية تنبيهاً، فقدّر أنه، لكي تُفرض الوحدة على هذه الغابة، غابة الشهوات المتصادمة، لا مناص من الحكم الاستبدادي المطلق. وهذه هي الأطروحة المركزية في كتابه "لَوِياثان" (١٦٥٤).

وهكذا عثر "هوبز" على منطق الليبرالية الذي ستثبت حقيقتُه خلال القرون الثلاثة التالية: فهي نظام يبدأ بغاب الأنانيات المتخاصمة للأفراد وللأمم على حد سواء، ويسمح بذلك للأكثرين قوة أن يفترسوا الأكثرين ضعفاً، ويقتضي، في نهايته، الدكتاتورية المطلقة لواحد وحده. (كما يتجسد ذلك مثلاً بالانتقال من جمهورية "فايمار" الليبرالية إلى دكتاتورية هتلر التي لا ترحم).

رسم هوبز مسار الفردية التزاحمية ووحدتها النهائية مع مايبدو في الظاهر أنه العكس، وإن كان في الواقع نتيجة لمنطقها الداخلي: الدكتاتورية الشمولية، وحتى إن اتخذت أشكالاً سياسية مقنّعة أكثر من غيرها مع أنها فعّالة واستبدادية كغيرها؛ إنها تقنّع مشروع الهيمنة العالمية في شكل وحدانية السوق.

جاء بعده "جون لوك" (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤) الذي رأى أن العدالة هي حماية التملك، فاستمر في إنضاج المذهب في "بحث في الفهم البشري" الذي وضع معالمه بدءاً من ١٦٧١ ونشره في ١٦٨٣.

بين هذين التاريخين، تجربة كاملة لحياة رجل اقتصادي وسياسي: كان أولاً مستشاراً لوزير العدل، ثم مستشاراً لوزير المالية، وعين، في ١٦٩٨، عضواً في مجلس التجارة والمزروعات. وفي ١٦٩٤ أُنشىء مصرف انجلترا بإدارة اللورد "مونتاجو"، زعيم حزب البندقية والوزير الجديد للمالية وقد اصبح فيما بعد سفيراً في البندقية.

أصبح "لوك" حينئذ مروِّجاً للمصرف بمدحه الربا، وهو ضروري بالنسبة إلى الدول القائمة على تراكم النقد. وأصبحت المضاربة منذئذ ميداناً حراً للدفاع عن التملك: الإنسان يساوي مايكسبه، العقد الاجتماعي يقوم على الحق، حق المالك أن يدخل في لعب المصرف الذي تحول إلى "كازينو".

كافح لوك الذي عُيِّن "وكيلاً ملكياً للتجارة والمستعمرات"، بضراوة للحدّ من حقوق المستعمرات الانجليزية في أمريكا (وهي حقوق منحت قبله بوثيقة

ملكية) لكي يُخضع اقتصادها خضوعاً دقيقاً لاقتصاد الدولة المستعمِرة، وألا تُسمح للمستعمرات صناعة السلع.

مثل هذه السياسة لا يمكن أن تستند إلا إلى تصور حيواني للإنسان الذي تحركه مصلحته وحدها. لم يكن للروح مكان في ذلك كله: تحول الإنسان إلى صفحة بيضاء، فارغة مُعَدَّةً لأن تملأ بالتصورات الحسية التي تكوّن الواقع الوحيد. والصورة الدينية التي جاء بها الأسقف "بيركلي" (١٦٨٥ ـ ١٧٥٣) لا تغير شيئاً من التصور المركزي للدور السلبي للروح في فلسفة الوجود هذه: لسنا نستطيع أن نعرف غير تصوراتنا المحسوسة (Esse est Percipi، الوجودُ هو التصور). الإحساسات تظل إذن معطاة، لا من المادة، وإنما، عند بيركلي، من الله، بتلق سلبي دائماً، دون فعل إنساني.

وعبثاً كافح ليبنيتز (١٦٤٦ ـ ١٧١٦) ضد هذه التجريبية وهذه التصورية المطلقة (وهي الاسم الفلسفي النبيل للأنانية) عندما أصبح في انجلترا محميَّ الملكة "آن". ففي بحثه عن مفاهيم الحق والعدالة (١٦٩٣)، عرّف المحبة بأنها: "أن تؤثر سعادة الآخر على سعادتك". وكانت فلسفته كلها حيث كلُّ جزيئة من الواقع (الموناد) واقع حي ونشيط مرتبط بجميع الكائنات الحاضرة فيها حتى تخوم العالم، نقيضاً تاماً لهذه التجريبية الوضعية لمجتمع تجاري وامبراطوري.

وفي انجلترا ذاتها تابع "جوناثان سويفت" نقد ليبنيتز للتجريبية التصورية المطلقة وسخر منها في بحثه عن الجنون في ١٦٩٦، وفي "قصة البرميل". وهجا المجتمع الانجليزي في "رحلة غوليفر: هجاء لاذعاً. لكن ليبنيتز، نُحّيَ من البلاط، في ١٧١٤، عند موت الملكة آن، واضطر إلى الهرب إلى ايرلندا، حيث تسلم رئاسة كاتدرائية "سان باتريك" في (دبلن) (حيث عينته الملكة)، واصبح، في ١٧٢٠، القائد السياسي لنضال ايرلندا، من أجل حرية الإنسان ضد الصحراء الروحية للتجريبية الانجليزية والميكانيكية الديكارتية، ومن أجل السيادة الوطنية ضد السيطرة الانجليزية.

بعد هزيمة هذين اللذين كانا يريدان الدفاع عن الإنسان ضد سحق التجريبية (والليبرالية الاقتصادية التي كانت أساساً لها) استأنف النظام المدمر للإنسانية

جريه. مـن ١٧٢١ إلى ١٧٤٢، أصبـح السـيد الرمـزي لانجلـترا هـذه هـو "ادمـون والبول". وكان أمراً له دلالته أن "والبول"، سجين حصن لندن في ١٧١٢، بسـبب الرشوة، قد اصبح وزيراً للـمالية في ١٧١٥.

وقد شارك في "صفقة بحار الجنوب" (التي غطى فيها مصرف انجلـترا مضاربي شركة بحار الجنوب الذين قادوه إلى الإفلاس الـمدوّي في عام ١٧٢٠).

أصبح "ادمون والبول" على مدى عشرين عاماً (من ١٧٢١ - ١٧٤٢) السـيد الحقيقي لانجلترا، مكدّساً ومبذراً ثروةً أسطورية حصل عليها بالـمضاربة، والسـلطة الـمطلقة والابتزاز. وكان بوسعه أن يصرح في مجلـس العمـوم، دون أن يجـرؤ أحـدٌ على رفع صوته: "أنا أعرف كم يساوي ضمير كل واحد من أعضاء هذا الـمجلس الشرفاء".

وكان له منظرون من شـاكلته: في ١٧١٤، "مـانديفيل" (١٦٧٠ ــ ١٧٣٣): دافع في "مَثَل النحل"، (١٧١٤) عن أن العيوب الخاصة تخدم الخير العام.

وعلى الصعيد الفلسـفي، هنـاك "دافيـد هيـوم" (١٧١١ ــ ١٧٧٦)، سـكرتير السفارة البريطانية في باريس، في ١٧٦٣، وسكرتير دولة لدى عودته إلى لندن، وقد استأنف النغمة التقليدية لسابقيه: لا يوجد شيء خارج التجربة الحسية، مما سمح لـه أن يقلّص "الأنا الإنسانية إلى باقة من الإحساسات، وهي إحساسات لا رابط بينهـا كما يُربط السبب بالنتيجة، وإنما تتالٍ وتداعيات معتـادة فقـط. وانطلاقـاً مـن هـذا التصور "لوجود"الإنسان، لا معنى لـمفهومي الـمسؤولية والفعـل الأخلاقـي، وهـو في حواراته حول الدين الطبيعي (١٧٧٧) يبرز نتائج بحثـه حـول الإدراك الإنسـاني (١٧٤٨) فـيردّ كـل الأخـلاق، شـأنه شـأنُ الايديولوجيـين الانجليـز الآخريـن، إلى العدالة (التي تكمن عندهم في احترام التـملك والدفاع عنه)، وعلى نحو أعـم (شـأنه شأن الذين يستبعدون كلَّ تعالٍ للفعـل بالنسـبة إلى إدراك "الـموجود" السـلبي) إلى الـمنفعة وإلى إرضاء الذات والآخرين.

ويُعد "جيريمي بنتام" (١٧٤٨ - ١٨٣٢) الأكثر تـمثيلاً لهذه الذرية، إذ مـاثل، هو أيضاً، بين النظام الرأسمالي والنظام الطبيعـي، واعتـبر الإنسـان كـالنوع الحيوانـي الذي لا يتصرف إلا طلباً لـمصلحته في البحث عن اللذة وعن غيـاب الألـم. وقـد

تخيل حساباً رياضياً للذة غير ممكن إلا إذا وُجد قاسم مشترك لقياس اللذة. وهو برأي "بنتام"، سعر الأشياء التي توفر لنا هذه اللذة أو تجنبنا الألم. وهذا السعر يتم في السوق. المال إذن هو هذا القاسم المشترك، هو أداة القياس. هذا هو المبدأ الأساسي لعمل "بنتام" الفلسفي. وهو يوجّه جميعَ أفكاره بدءاً من: "مقدمة لمبادىء الأخلاق والتشريع" (١٧٨٩) حتى استنتاجاته القانونية حول: "عقلانية العقاب" (١٨٣٠) حيث تقضي العدالةُ، في نظام المزاحمة، بالنسبة إلى رجل القانون، بالعقوبات الاقتصادية المتناسبة مع الجريمة بحسب الحساب ذاته المتعلق بالألم واللذة.

وهكذا وجدَ عصرُ الكمّ أساسه في نظام تكون السوق فيه هي الناظم الوحيد للعلاقات الإنسانية، وهي تقلّص الإنسان (الإنسان الاقتصادي) لكي يكون منتجاً ومستهلكاً فقط وألاّ يتصرف إلا تبعاً لمصلحته. هو الإنسان الذي سيدعوه "ماركوز" بعد ثلاثة قرون: الإنسان الوحيد البُعْد.

وبما أن "بنتام" لم يفرّق أبداً بين الإنسان والحيوان عندما لا يكون كلاهما مَسوقاً إلا بالمنفعة والاندفاع إلى اللذة أو الخوف من الألم، فهو يلخص فكره بهذه العبارة: "لقد عملتْ الطبيعةُ بحيث أن الإنسانية لا يقودها سوى سيدين: اللذة والألم".

أحد تابعي "والبول" على راس حكومة انجلترا في ١٧٦٣، اللورد "شلبرن"، كان يعتبر "بنتام": "نيوتن العلوم الإنسانية".

وكان شيلبرن الذي رفض، بمساعدة شركة الهند ومصرف "بارنغ"، كل تنازل لارلنده ولامريكا المتحررة من الاستعمار الانجليزي، يرى أن الخط الموجّه للسياسة هو: حرية التجارة الكلية.

في ٢٧ كانون الثاني ١٧٨٣، طلب من مجلس اللوردات التصديق على معاهدة باريس التي تضع حداً لاستعمار أمريكا، فشرح أن بالإمكان تدمير أمريكا الفتية وإعادتها إلى النير الانجليزي بمجرد العمل الحر لحرية التجارة، وقال: إن التنافس هو أساس حرية التبادل السليم... يجب ألا نهدف لغير حرية التبادل على الأرض.. بمزيد من الصناعة، ومن رؤوس الأموال، والمشاريع، أكثر من أية أمة

متاجرة في العالـم، ويجب أن يكون شعارنا، فتح جميع الأسواق". كانت هـذه هـي لغة الـمؤسسين الأمريكيين "للغات"، Σ.A.T.T ولـمنظمة التجارة العالـمية، مع نفس أهداف السيطرة العالـمية.

وأوصى "شيلبرن" على كتابين، أوصى آدم سميث (١٧٢٣ ــ ١٧٩٠) وادوار جيبون (١٧٣٧ ـ ١٧٩٤).

العملُ الرئيسي لادوار جيبون "تاريخ انحطاط الامبراطورية الرومانية وسقوطها" كُتبَ من ١٧٧٦ إلى ١٧٨٨، وقد لخصه كما يلي: "وصفتُ انتصار البرابرة والدين". ولكونه عدواً لكل روحانية مثل معظم معاصريه في القرن الثامن عشر، طرح نفسه كمدافع عن الحضارة ضد البرابرة. ولكونه عضواً في البرلـمان ووكيلاً للتجارة والـمزروعات على الخصوص، دافع في "مذكرة تبريرية" (١٧٧٩)، عن الاستعمار البريطاني ضد الانتقادات الـموجهة إلى سياسته حيال الـمستعمرات الأمريكية.

إن شيلبرن الذي كانت سياسته الاستعمارية عندما أصبح رئيساً للوزراء (١٧٨٢ ــ ١٧٨٣) ورئيساً للجنة السرية لشركة الهند تتلخص بهذا الشعار: التخلص من أمريكا بحرية التبادل، أوصى آدم سميث على كتابه الثاني.

انتهى آدم سميث الذي كان وكيلاً للجمارك في "ادنبورغ"، من عمله في (١٧٧٦) وهو "ثروة الأمم". وما تزال راهنيته باقية. ومَن دُعي أباً للاقتصاد السياسي أنشأ نظرية النمو التي لـم يزل يُثني عليها جميعُ منظّري التبادل الحر ولاسيما في أمريكا في النصف الثاني من القرن العشرين عندما حلّت محل انجلترا في سيطرتها الاقتصادية على العالـم.

محرّكُ الاقتصاد هو الـمنفعة الشخصية. ففي الكتاب الرابع من "ثروة الأمم"، صاغ آدم سميث فكرته الـموجِّهة لنظامه: "إن كل واحد عندما يوجّه صناعته نحو إنتاج أعلى قيمة ممكنة يبحث فقط عن ربحه الخاص، وهكذا يحقق، مسوقاً بيد غير منظورة، هدفاً لا يعيه... وعندما يتابع منفعته الخاصة يخدم منفعة الـمجتمع على نحو أكثر نجوعاً مما لو كان ينويها".

وينجم عن ذلك أن التدخل الواعي للدولة سيكون ضاراً، وينبغي من ثم أن يُخفّض إلى أدنى الدرجات.

أما بصدد العلاقات مع المستعمرات فيجب ألا تكون علاقات قوة لأن ذلك يزيد من نفقات الدولة للحرب: حرية التجارة تكفي، فعلى هذا الصعيد لا جدال في التفوق الانجليزي.

كان يمكن أن يرضى شيلبرن من نتائج توصيته. لكن "بنتام" قدر أن ليبرالية آدم سميث غير كافية، فكتب "الدفاع عن الربا" وفيه لامَ آدم سميث لأنه لم يمض بعيداً البعد الكافي: كان عليه أن يقول بصراحة أكبر إنه لا ينبغي فرض أي حد للربا لكي لا تُخنق المبادرة والحرية.

استقبل آدم سميث برضاً هذا النقد وأجاب بنتام: كتابكَ كتاب رجل فوق الرجال".

ليبرالية بنتام كانت بالفعل أكثر جذرية ومنطقية. ذلك أن آدم سميث لم يذكر في عقوبات الدولة (الجيش والبحرية والإدارات والأشغال العامة) المساعدة المقدمة للعاطلين عن العمل وللمستبعدين. سد بنتام هذه الثغرة: ففي كتابه "الجامع"، قضى بوجود معسكرات حقيقية للأعمال الشاقة، بالنسبة إلى المجرمين والمعوزين وأولادهم، واقترح أن يُكتب على مدخل هذه المعسكرات: "لو كنتم شغيلة عندما كنتم أحراراً لما جيء بكم إلى هذا المكان كالعبيد". مما يذكّر بما كتبه النازيون على بوابة اوشوتيز: "العمل هو الحرية".

في ١٧٧٦ تهكم من "إعلان الحقوق" عند استقلال مستعمرات أمريكا، فقال: "لا يمكن لأية حكومة أن تمارس عملها إلا إذا انتهكت أحد هذه الحقوق".

ومضى بهذا المنطق إلى نهايته فكتب: "إن أحد مبادئي القديمة هو أن: المنفعة كالحب يجب أن يظلا حرين".

وكتب حينئذ بحثه عن اللواط (١٧٨٩) مما يلحق، مرة أخرى، بالحملات الحالية لصالح الشذوذ الجنسي، لفرط ماأن نظرات "بنتام" حول منطق التبادل الحر كانت نبوية فيما يتعلق بحرية الجنس والمضاربة على حد سواء.

وعند موته، في ١٨٣٢، حُنّط جسمه، وفي ١٩٩٠، كانت مومياؤه ماتزال موجودة في جامعة لندن.

وهو ملهم "جيمس ميل" وابنه "جون ستيوارت ميل" (١٨٠٦ ـ ١٨٣٧). لخص ستيوارت ميل، في حياته وفي أعماله، كامل نموّ هذه الأيديولوجية لحكم القلة وللاستعمار الذي هو غايتها. كان جيمس ميل أبو ستيوارت (١٧٧٣ ـ ١٨٣٦) تلميذاً لأخلاق "بنتام" ولاقتصاده السياسي، ولهيوم والتجريبيين، الميكانيكيين والذرائعيين في القرن الثامن عشر، فغدا ستيوارت الذي تربى بتربية أبيه العقائدية المتزمتة، ولداً عبقرياً. وقد قيل إنه درس أرسطو في نصه اليوناني الأصلي، وهو في الثانية عشرة. كان تلميذاً وصديقاً لبنتام، وأقام في باريس من ١٨٢٠ إلى ١٨٢١، عند أخي بنتام، وفي عام ١٨٨٢، في السادسة عشرة، عرض مذهب بنتام الذي تشبّع به، كما أنه كتب في أواخر حياته، في ١٨٦٥، كتاباً جامعاً حول: "اوغست كونت والوضعية".

بين هذين القطبين من فلسفته، في "مبادىء الفلسفة الاقتصادية" (١٨٤٥)، وكتبه عن "الحرية" (١٨٥٤)، والنفعية (١٨٦١)، و"المنطق الاستقرائي والاستنتاجي" (١٨٤٣) الذي هو العمل المركزي في دربه الكتابي، سيطرت خدمةُ شركة الهند على نشاطه كلياً.

دخلها في الثلاثين من عمره، في عام ١٨٣٦ وظل فيها حتى حلها، في عام ١٨٥٨، عندما تولت الدولة الانجليزية بذاتها هذا المشروع الذي شكل دولة في الدولة، كما تشهد بذلك وظائف ستيوارت ميل: أُوكِلت إليه طوال أكثر من عشرين عاماً، من ١٨٣٦ إلى ١٨٥٨ علاقات الشركة مع الدول الهندية.

ومن الجدير بالملاحظة أن هذا المنظّر للاستعمار الانجليزي، لدى احتكاكه بإحدى أعظم روحانيات العالم، روحانية الهند، "الفيدا"، والاوبانيشاد، والماها باراتا، والرامايانا، لم يتنازل حتى أن يتعرف عليها وظل منغلقاً على تقاليده الخاصة، بحيث أنه لم ير العالم إلا عبر ترابطية "هيوم"، وحساب اللذات عند بنتام، والاقتصاد السياسي لآدم سميث، و"وضعية" أوغست كونت، آخر دينٍ للإنسانية.

شارك مالتوس في ايديولوجيته (ومالتوس منظّرٌ آخر في شركة الهند) وكان المرجع الأساسي لكل داعية إلى الاستعمار. وهي مرجعية استحقها، بالفعل، بكفاءته المهنية. فقد شارك، كمدير لشركة الهند، في حرب الأفيون ضد الصين منذ ١٨٤٢، وفي قمع تمرد "السيبيز" في الهند، في ١٨٥٨.

عندما عرض "جول فيري" سياسته الاستعمارية، استند إلى ستيوارت ميل الذي شاركه في مركزيته الأخلاقية الأوروبية وفي العرقية.

في الجريدة الرسمية للجمهورية الفرنسية (ص ١٠٥٨)، يمكننا أن نقرأ الخطبة التي ألقاها جول فيري في ٢٨ تموز ١٨٨٥:

"نعم، إن لنا سياسة استعمارية، سياسة التوسع الاستعماري القائمة على نظام... هذه السياسة الاستعمارية تستند إلى ثلاث قواعد: اقتصادية وإنسانية وسياسية".

١ ـ الحجة الاقتصادية

المستعمرات، بالنسبة إلى البلدان الغنية، هي التوظيف الأنفع لرؤوس الأموال. "لقد كرس ستيوارت ميل الشهير فصلاً من كتابه للتدليل على ذلك، وهو يلخصها كما يلي: بالنسبة إلى البلاد القديمة والغنيةِ الاستعمارُ هو أفضل الصفقات التي يمكن أن يتعاطاها. وفي الأزمة التي تجتاز جميع الصناعات الأوروبية، يُعدّ تأسيس مستعمرة خلقاً لسوق".

٢ ـ الحجة الإنسانية

السيد كاميل بيليتان: "ماهذه الحضارة التي تفرضها بقصف المدافع؟".

ـ جول فيري: "دونكم، أيها السادة، القضية: لستُ أتردد في القول إن ذلك ليس من السياسة ولا من التاريخ. إن ذلك من الميتافيزيك السياسي. أيها السادة يجب أن نتكلم بأعلى صوتنا وبالحق، يجب أن نقول صراحة إن العروق العليا لها، بالفعل، حيال العروق الدنيا الحق...".. (تململ هائج على عدة مقاعد في أقصى اليسار).

السيد جول مينيي: "أتجرؤ على هذا القول في البلد الذي أعلن حقوق الإنسان.

السيد دي لاغيوتيه: "ذلك تبرير للرق ولتجارة الزنوج".

جول فيري: "إذ كان السيد "مينيي" المحترم محقاً، وإذا كان إعلان حقوق الإنسان قد كُتب لزنوج افريقيا الاستوائية، فبأي حق ستفرض عليهم التبادل حينئذ، التجارة؟ إنهم لا يدّعونك".

٣ ـ الحجة السياسية

"... يجب أن يُصبح بلدنا قادراً على أن يفعل مايفعله الآخرون جميعاً، وبما أن سياسة التوسع الاستعماري هي المحرك العام الذي يجرف، في الوقت الحاضر، جميع القوى الأوروبية، فلابد لبلدنا من أن يحزم أمره".

ومن أجل ذلك كان لابد لنا من تونس، ومن أجل ذلك كان لابد لنا من سايغون والكوشنشين، ومن أجل ذلك كان لابد لنا من مدغشقر، وأننا في "دييغو ـ سواريز"، وأننا لن نتركها.

* * *

الشخصية الرمزية لهذه الفلسفة الانجليزية التي أفرزت شركة الهند والاستعمار الانجليزي (وجميع الامبرياليات اللاحقة) أفضل رجالها وكذلك "مثقفيها العضويين"، كان مالتوس. وتكشف أعماله عن أسس هذه الفلسفة.

كان مالتوس (١٧٤٦ ـ ١٨٣٤) أستاذاً للتاريخ والاقتصاد السياسي في مدرسة شركة الهند عندما كتب بحوثه حول مبدأ السكان حيث أوضح مادعاه قانوناً: "يزداد السكان بحسب متوالية عددية وإنتاج قوت المعاش بحسب متوالية "هندسية".

ولم تثبت صحة هذا القانون بأية واقعة. على العكس: فالثورة الصناعية الانجليزية، بفضل آلة غزل (هارغريفز)، والآلة البخارية لـ"واط"، والنَول الميكانيكي "لكارترايت" وإدخال حرية السوق، أوصلت إلى هذه النتيجة: من ١٨٧٠ إلى ١٩١٠ تزايد سكان انجلترا ٥٨٪. أما سكانُ الهند فلم يزدادوا إلا ١٩٪.

وهكذا فإن منظّر شركة الهند والليبرالية الانجليزية الذي عفا، بقانونه، عن جرائم الاستعمار، هو الأب الشرعي للذين ماثلوا بين التضخم السكاني والبطالة التي ولّدها

النظام فأرادوا اليوم أن يُبرّئوا المجرم الحقيقي المسؤول عن الجوع. ورأى "مالتوس" أن "صناديق المعوزين" يجب أن تلغى لأنها تشجع الولادة لدى الفقراء.

* * *

لم يكتشف مالتوس قوانين ثابتة، وإنما اكتشف قوانين الرأسمالية والاستعمار، قوانين الليبرالية الاقتصادية، أي المزاحمة الشرسة: حرب الجميع ضد الجميع، دون تحديد قانوني ولا أخلاق، الحرب التي أبادت الحيوانات والنباتات بالمليارات، والبؤساء بالملايين، والمشروعات الصغيرة بالآلاف.

ومالتوس هو الذي ألهم داروين نظرية "الاصطفاء الطبيعي". يقول داروين انه عندما قرأ في تشرين الأول ١٨٣٦ لمالتوس بحثه حول مبدأ السكان فرض حلّ مشكلته نفسه على فكره.

"كنت مهيأً جداً.. لتقدير قيمة الصراع من أجل البقاء الذي نجده في كل مكان، والفكرة التي راعتني أن بعض السكان، في مثل هذه الظروف تميل إلى البقاء، وأن بعضاً آخر، أقل حظاً، سوف تدمر".

إن نتيجة ذلك هو تشكّل أنواع جديدة. وقد توصلتُ أخيراً إلى صياغة نظريتي".

واستخلص جميع النتائج السياسية والعرقية من مذهب مالتوس، فكتب إلى "غراهام" (٣ تموز ١٨٨١): سوف تهلك، عما قريب، العروقُ الدنيا على يد العروق التي بلغت درجة أعلى من الحضارة".

هذه العرقية، اساس كل نزعة استعمارية، لم تكفّ منذئذ عن السيادة، ولم تزل إلى اليوم.

* * *

ب ـ من مسلمة ديكارت إلى إنسان الحاسوب

المسلمة الثانية التي تقوم عليها الحضارة الغربية منذ النهضة تتعلق بعلاقات الإنسان بالطبيعة. وهذا ماأدعوه: مسلمة ديكارت.

في كتابه "مقالة في الطريقة" (١٦٣٧) يصوغ ديكارت (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠) هدفه: "أن نصبح سادة الطبيعة ومالكيها".

ديكارت هو معاصر "هوبز" الذي أقام معه، من جهة أخرى، مراسلة سجالية. لكنه كان ينتمي إلى العصر نفسه الذي أصبح فيه الإنسان، من جراء الفردية الملازمة للنظام الناشيء، محروماً من أبعاده الإنسانية الخالصة: العلاقة بالإنسان الآخر، والجماعة، والمحبة. ليس للآخر من علاقة بي إلا كنفي وكتعد. وستكون هذه سمة دائمة لهذه الحضارة، منذ هوبز، الذي حدد مبدأها، كما رأينا: "الإنسان ذئب للإنسان" حتى آخر نفس من موت الإنسان: "الجحيم هو الآخرون"، الذي صاغه أحد أبطال سارتر.

ولم يبق، في منظور النظام الذي وُلد في انجلترا سوى أفقر شكل لفلسفة "الوجود": المواجَهة المنفردة بين الفرد المحروم من أبعاده الإنسانية الخالصة، ومن علاقاته بالآخرين وبالكل، وبين الطبيعة التي تقلصت بالتجريبية الانجليزية إلى معرفة الظواهر المحسوسة وحدها بحيث تعتَبَر مجموعُ الإدراكات الحسية الواقعَ المادي الوحيد الذي اختبرناه بالتجربة، بحسب التقليد الواقعي لدى "هوبز" و"لوك"، أو أن هذه الإحساسات هي لغة الله الذي يكلمنا، بحسب التصور اللا مادي للأسقف "بيركلي".

يعارض "ديكارت" هذه التجريبية، لكنه ينطلق من نفس التصور المنغلق، الفردي للإنسان، ليتصور علاقات أخرى بالطبيعة، لكن دون أن يخرج من الثنائية الأساسية لفلسفة "الوجود".

ومن الضروري، لكي نتابعه في مساره، أن نفكر في ماكان، بالنسبة إليه، المنطلَق، اليقين الأولي الذي سينتج عنه النظام بأكمله: "أأشك في كل شيء، من المؤكد أنني أشك: أنا أفكر إذن أنا موجود".

"أنا أفكر إذن أنا موجود". من الصعب أن يُقال من الحماقات أكثر مما قيل في هذه الكلمات القليلة. أن توارى في خمس كلمات أربع مسلمات.

أنا. حتى روبنسون، ذلك الإنسان الفظ المنعزل في جزيرة، لن يكون له مثل هذا الوهم الساذج.

أنا ليس صحيحاً أن الأنا كانت البدء. على العكس تماماً، إنني أتميز شيئاً فشيئاً، وبجهد كبير، من كلية مختلطة للأشياء وللأحياء الآخرين. إن اللحظة التي أؤكد فيها أنني فرد، متميز عن الآخرين، منفصل إن لم أكن مجابهاً، إن هذه اللحظة أول فتح في طفولتي الأولى. ذلك التأكيد للنزعة الفردية محدّدٌ تاريخياً بتاريخ، ومحدد جغرافياً بموقع: لقد وُلد مع النهضة وفي أوروبا. والحق أنه منذ هذا التحول التاريخي الذي تميز بمؤسسة معممة هي السوق والمزاحمة، غدا كل إنسان خصماً لكل إنسان آخر، ومُسِحَت الحريةُ في سجلات المساحة كما تمسح الملكية: تنتهي حريتي حيث تبدأ حرية الآخر. والحق أن هذه الفردية المتمترسة في "أناها" الأنانية، اعتبرت أوروبا مركز العالم: وجميع الآخرين ليسوا سوى برابرة أو بدائيين.

هل للهنود روح؟ هكذا تساءل رجال الكنيسة بخطورة في القرن السادس عشر. وكان لابد من عدة "باباوات" ليبتوا في الأوامر.

٢ ـ "عرفتُ أنني ماهيةٌ جوهرُها كله أو طبيعتها هي أن افكر". هذا الداء يأتي من زمن أبعد، من سقراط ومن افلاطون؛ كل مالا يمكن أن يُترجم إلى معان مجردة غيرُ موجود. ويمضي ديكارت بهذه الوحشة المحزنة إلى نهايتها: هلْ للحب والإبداع الجمالي والعمل نفسه (غير العمل التقني) هل لها مكانها؟ حاول أن تستخلص جمالية من ديكارت! أو أن تتعلم منه ماالحب! ابحث عنه، ذات مساء مفعم بالحزن، في كتاب "الميكانيك" الذي يدعى، بشكل مثير، "كتاب الأهواء".

٣ "إذن". علىْ أي منطق يمكن أن يستند هذا الاستنتاج؟ ما المسافة التي بين فكري وبيني؟ بين حبي وبيني؟ بين فعلي وبيني؟ وإذا كانت تلك المسافة موجودة فأي استدلال يمكن أن يجتازها؟ كيف نعيد إلصاق قطع ذلك الإنسان الممزق: هنا الروح وهناك الجسد، هنا أنا وهناك الآخرون؟..

"أنا". ماهذه الماهية، هذا الجوهر، هذه الطبيعة؟ التي يمكن أن ندركها كشيء خارجي (كما أن الأشياء خارجية عن الأشياء) متميز عن العمل ذاته مثل آلة يصفها المهندس قبل عملها وهي مستقلة عنه هو.

كيف سيخرج ديكارت من هذا التأمل المنغلق؟

أولاً، لابد من جسم لهذه الروح المفكرة. يوفر هذا العقلانـي الغريب ذلك بأكثر الفرضيات لا عقلانيـة: فالجسر الذي يتيح احتياز تلك الهوة بين الروح المفكرة والجسد هي الغدة الصنوبرية: قطعة صغيرة من اللحم ستكون العبّارة غير المؤمّلة لإعادة الالتصاق بالعالم. فحتى أرسطو لم يلجأ إلى مثل هذا التعسف الميتافيزيكي للتغلب على ثنائية فلسفة "الوجود": الكائن والفكر يكتفيان بتعايش مسالم.

ثم لكي لا تكون الطبيعة الخارجية بشدة عن الفكر المنغلق وهماً، كان لابد من ضامن لوجودها الواقعي. وهنا يلجأ ديكارت إلى حيلة تحن اقل توقعاً لها من الغدة الصنوبرية: الله سيكون الضامن لواقع العالم الخارجي. لكن أي إله؟ لا يمكنه أن يكون إلا مشاركاً في جوهر الحقيقة الوحيدة التي لا يطالها الشك عند ديكارت: وهي الفكر. لم يكن إذن بحاجة إلى غدة صنوبرية لكي ينتقل من الفكر إلى الطبيعة. لقد لجأ إلى الفلسفة الكلامية التقليدية القديمة منذ القديس "انسيلم" (١٠٣٣ - ١١٠٩) مستنبطاً الله من الفكرة التي نكوّنها عنه: لدينا فكرة عن الكائن الكامل: "الله هو بحيث أنه لا يمكن التفكير فيما هو أكبر؛ وهذا الكمال المطلق يتضمن الوجود؛ وإذن فالكائن الكامل موجود". انطلت الحيلة: هذه الحجة الاونتولوجية حملتنا إلى الأرض، ومنحتنا طبيعة، وبعد ذلك لن يكون هذا الإله الساحر نافعاً لديكارت. بل قد يبدو أنه لم يؤمن به قط: ففي لحظة من الصراحة سيقول: "إنني أحتفظ بإله مربيتي".

ولم ينخدع اللاهوتيون فمنعوا تعليم مذهب ديكارت في السوربون.

وبالفعل، فبالرغم من الالتواءات الميتافيزيكية لدى ديكارت، لم يكن تصوره الميكانيكي للعالم سوى استباق لما سيدعوه مُلحدو القرن الثامن عشر، مثل فولتير، "النقفة الأصلية" للساعاتي، وهي في أصل حركة حياة العالم الميكانيكية.

وبعد أن ثبّت ديكارت قدمه، في هذا العالم الجسدي والمادي مستعيناً بالغدة الصنوبرية وبالقديس "انسيلم"، لم يبق له من حاجة إلى هذا الإله ليبني فيزياءه الحسابية التي طبقها أولاً على البصريات ليدرس الانعكاس، ثم على دراسة

آلات رفع الأثقال، وليمدها على الطبيعة بأسرها. (يقول: "ليست الفيزياء سوى الهندسة"). والحركة الميكانيكية (التي نكتشفها انطلاقاً من رياضيات زمنه)، تفسر كل شيء، مثلاً علم الأحياء. فليس في الكائنات الحية أكثر مما في الإنسان الآلي الذي يقول ديكارت إنه شاهده في "حدائق ملوكنا"، والتي امتاز ببنائها "فوكانسون". كل حيوان آلة، والإنسان لا ينجو من ذلك إلا بأعجوبة إلهية هي التي أقامت العلاقة بين جسده وروحه، بالغدة الصنوبرية. يكفي، وبتماسك منطقي أكبر، أن نغض النظر عن هذا الترابط الغريب، لننتقل إلى القرن التالي، من "الحيوان الآلة" عند ديكارت، إلى "الإنسان الآلة" عند "لاميتري".

وهكذا فإن ديكارت يجعلنا سادة للطبيعة ومالكين لها "بالامتداد" (وهو يُكتشف بالهندسة التحليلية التي كان مخترعها) و"بالحركة" التي كانت اندفاعاتها الاولى هِبةً من اللـه. وديكارت، بهذه الصفة، أبو الحضارة التقنية التي تقلص العقل إلى وظيفته الأداتيّة، كوسيلة للقوة والثروة.

وانطلاقاً من هنا يستبعد كل معنى وكل غائية للحياة. هذه الفلسفة عاجزة، ككل فلسفة "للوجود" أن تؤسس أخلاقاً غير أخلاق الاستسلام لما هو كائن. والدليل على ذلك عجز ديكارت عن تأسيس أخلاق غير الأخلاق المؤقتة. وهي ككل فلسفة "وجود" لا يمكنها أن تكون إلا امتثالاً واستسلاماً للنظام القائم. وتقوم هذه الأخلاق، كما تعلمنا، مقالة في الطريقة، على طاعة القوانين والعادات وأن تحكم أنفسنا "تبعاً للآراء الأكثر اعتدالاً والأبعد عن التطرف"، وأن نسعى إلى الانتصار على أنفسنا لا إلى الثروة"، وأن "نغيّر رغباتنا لا نظام العالم". إن شعار الفكر الوحيد و"المنضبط" سياسياً يستمد منبعه من هنا. وعندما سألته الملكة اليزابيت، وهو لاجيء في استوكهولم، كيف يستطيع الإنسان أن يُعيّن لحياته معنىً وغايات، عجز ديكارت عن الجواب، واكتفى برد لقفه (كما قد يقول ليفي ستروس) من الرواقية أو من الابيقورية ليعود إلى شاغله الشاغل الوحيد وهو السيطرة التقنية على العالم مما جعل "ميشيل سير" يقول بحق: "إن المقالة في الطريقة" كتاب في الحرب وهو، على كل حال، كتاب في القدرة التقنية لا يطرح مشكلة الغايات، كما لم يطرحها على نفسه قط ضابطٌ القرسان المرتزق "رينيه

ديكارت" الذي خدم (في هذه المرحلة من الحروب الدينية الدموية) في صفوف الجند البروتستانت التابعين لموريس ناسو في عام ١٦١٨ التي قاتلت اسبانيا من أجل استقلال "البلاد المنخفضة" كما خدم في صفوف الجند الكاثوليكيين التابعين لماكسيميليان دي بافيير في عام ١٦١٩، وقاتل إلى جانب آل هابسبورغ لتدمير استقلال بوهيميا في معركة الجبل الأبيض، قرب براغ، في ٨ تشرين الثاني ١٦٢٠، وهي المعركة التي فتحتْ لشعب كامل مرحلة الظلمات.

كانت هذه العقلية، عقلية المرتزق والمغامر الغازي، تخدم الحضارة التجارية والاستعمارية التي أوشكت على الانطلاق. والفلسفة المناسبة لها، فلسفة العقل الذي قلّص إلى وظائفه التقنية، أداة القوة والغنى، أصبحت، على مدى ثلاثة قرون، الوثن المكرّم للنظام الاجتماعي المنتصر، و"لأنواره"، و"لتقدمه"، حتى منتصف القرن العشرين، إذ أمكن، بعد اكتشاف فيزياء "الكمّات" والنسبية تصور نظرية للعلوم غير ديكارتية، مع غاستون باشلار.

* * *

"فلسفة الأنوار" في القرن الثامن عشر، التي عرفت في فرنسا أعظم انطلاقة لها هي "ديكارتية" شُذّبت من بناها الفوقية اللاهوتية أو الصنوبرية الهشة، فأفضت بالتالي إلى مادية ميكانيكية جذرية، كما يتبين لدى الطبيب "لاميتري" (١٧٠٩ ـ ١٧٨١) مع الرجل الآلة (١٧٤٨) وهو التتمة المنطقية للتصور الديكارتي عن "الحيوان الآلة".

وقدم هيلفيتيوس (١٧١٥ ـ ١٧٧١) وهو مزارع عام للملك ومعجب بالنظام السياسي الانجليزي كما تشهد بذلك مراسلاته اللندنية، رؤيةً أوسع لهذه الإنسانية التي تجردت من لحمها مستلهماً أطروحات الانجليزي لوك (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤) حول التجربة.

وديدرو (١٧١٣ ـ ١٧٨٤) صاغ في موسوعته "جملة علوم زمانه" لكن دون أن يتخطى حدود الفكر البورجوازي. كتب في مادة "ممثل" في موسوعته: "المالك وحده هو المواطن".

وبالرغم من العقائدية الديكارتية الوثوقية لهذه المادية الفرنسية في القرن الثامن عشر إلا أنها لعبت دوراً تاريخياً إيجابياً حين قدمت أساساً أيديولوجياً للنضال ضد الإقطاعية وتبريرها الشرعي بدين متجمد برّر حقَّ الملوك الإلهي وامتيازات الدم، كما ضمن "بوسويه" الملكيةَ المطلقة انطلاقاً من سياسة مستمدة من الكتاب المقدس.

هذا الدور الثوري للمادية الفرنسية لا يمكن أن يُعمَّم على جميع أشكال المادية: مادية "هوبز" الانجليزية قد بررت أيضاً الحكم المستبد المطلق في "لوياثان"، في حين أن كارل ماركس يعلن أنه وارث المثالية الألمانية. وقد كتب رفيقه "انجلز" في آخر حياته (١٨٩١): "نحن، الاشتراكيين الألمان، نفخر بأصولنا، لا بسان سيمون، وفورييه، و"أوين" وحدهم، ولكننا نفخر أيضاً بكانت، وفخته، وهيغل". (أعمال ماركس وانجلز، الطبعة الروسية، المجلد ١٥ ص ٦٢٥). وكرر أيضاً، في ١٨٧٤، في مقدمته للثورة الديموقراطية البرجوازية في ألمانيا (المطبوعات الاجتماعية ص ٢٣): "لو لم توجد من قبل الفلسفة الألمانية، ولاسيما فلسفة هيغل، لما وجدت الاشتراكية العلمية".

ويقول ماركس هو أيضاً عن مادية فيورباخ: "إذا قارنّاه بهيغل، بدا فيورباخ هزيلاً جداً" رسالة إلى شويتزر في ١٨٦٥/١/٢٤.

إن هذا يتيح لنا أن نفسر تفسيراً صحيحاً عبارة ماركس (الذي كان يعد نفسه تلميذاً ناقداً لهيغل) حين قال انه "أقام من جديد جدلية هيغل على قدميها". هذا القلب لا يعني أن ماركس يقول "بالمادة" حين كان هيغل يقول "بالروح"، ومن شأن ذلك أن يقودنا إلى المادية العقائدية الوثوقية السابقة. إن ذلك يعني: الانتقال من فلسفة "الوجود" إلى فلسفة "الفعل".

المادية الفرنسية المنحدرة من ديكارت، هي، من الوجهة النظرية، النضال ضد الدين والميتافيزيك لصالح نمو علوم الطبيعة.

وجّه ماركس لهذه المادية انتقادين:

أولاً، إذا أخذنا هذه المادية التي سبقت الماركسية في الوضع الذي كان يُقدِّمها به العلم الميكانيكي رأينا تصورها للمادة حدّ هزيل، إذ لم تعد سوى شبح مجرد يمتثل لقوانين الميكانيك وحدها.

ثم إنها تنزع، على الخصوص، إلى الاستقرار في الأشياء بدلاً من أن تنطلق من نشاط الناس العملي: "العيب الأساسي في المادية الماضية كلها ـ بما فيها مادية فيورباخ، هو أن الشيء، ان الواقع، العالم المحسوس لا تُدرَك، في هذه المادية إلا بشكل موضوع أو حدس، لا كنشاط إنساني مشخص، لا كممارسة، على نحو ذاتي، وهذا مايفسر لماذا توسع الجانبُ النشيط الفاعل على يد المثالية، في معارضتها للمادية، ولكن بشكل مجرد فقط، لأن المثالية لا تعرف بتاتاً النشاط الواقعي، المشخص بما هو كذلك"[1].

مادية القرن الثامن عشر الفرنسية، مادية "هولباخ" و"هيلفيتيوس" و"دي لاميتري" استسلمت لوهم مضاعف: الوهم العلموي الذي ينحصر في إسقاط القوانين العلمية المعروفة حالياً في لحظة معينة من تطور علوم الطبيعة، إسقاطها على الطبيعة وكأنها تكوّن جوهرها النهائي، وفي إفقار تصوّر المادة إلى حد تقليصها مثلاً إلى هيكل لا لحم فيه، هيكل الهندسة أو الميكانيك، في حين أن كل اكتشاف علمي يُغني التصور الفلسفي للمادة، كما سيشير إلى ذلك "انجلز" في "لودفيغ فيورباخ" مستهجناً: "الشكل المسطح، العامي، الذي ماتزال المادية توجد به اليوم"[2].

الوهم الثاني الأساسي أكثر من الأول والذي لم يكن الوهم الأول سوى نتيجته الملازمة، هو الوهم العقائدي الوثوقي الذي يطمح إلى أن يغض النظر عن الممارسة، عن نشاط المعرفة، وبالتالي، عن طابعها التاريخي والنسبي تاريخياً، ليرجع، على طريقة التجريبيين، إلى معطيات مزعومة، وكأن الواقعة ليست ماوقع بالضبط، مابنته التقنية وما بناه فكر الناس في عملهم لتحويل الطبيعة الذي مرت

[1] ماركس، الأطروحة الأولى حول فيورباخ في "دراسات فلسفية" ص ٦١.

[2] ماركس وانجلز: دراسات فلسفية.

عليه آلاف السنين. سجلت الثورة الفرنسية شرخاً في تاريخ الفلسفة وكذلك في تاريخ أوروبا السياسي.

على مفصلة هذا التحول يقع عمل "كوندورسيه" (١٧٤٣ ــ ١٧٩٤) الذي كان أول من صاغ بطريقة منهجية أسطورة التقدم، بالشكل ذاته الذي ظل يلازم عقول البشر منذ قرنين، بالرغم من تكذيب التاريخ الواقعي، والذي حل بديلاً عن العناية الإلهية التي سادت حتى القرن السابع عشر. وسوف تستمر هذه الأسطورة بأشكال شتى في القرن التاسع عشر مع اوغست كونت وقانون الحالات الثلاث، وفي القرن العشرين مع مفاهيم النمو والتطور الكمي الذي يقاس بالناتج الوطني الإجمالي.

كان "كوندورسيه" رياضياً وفكراً موسوعياً واصبح سكرتيراً دائماً للأكاديمية الفرنسية في عام ١٧٧٣.

إن إنجازات الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر أقنعته بأن تطور التقنيات والعلوم لا نهاية له وأن سلطة الإنسان على الطبيعة، وهي سلطة بلا حدود، يمكن أن تؤمّن رفاه الجميع بتزايد لا نهاية له للثروة.

لم يكن يشارك آدم سميث تفاؤله الساذج الذي قصره على الإنتاج المستمر لثروة الأمم دون اهتمام بتوزيع تلك الثروة: في ١٢ آذار ١٧٩٢، وفي تقرير مالي عرضه على الجمعية التشريعية التي كان رئيساً لها، ذكر: "أن كل مجتمع كبير وغني سيحتوي على عدد كبير من الفقراء، وسيكون بائساً وفاسداً". لكن ذلك لم يكن، بالنسبة إليه، سوى مرحلة عابرة، تقتضي، من أجل إصلاح هذا الخلل "منشآت تقدّم العون والموارد إلى الجزء الفقير من السكان".

لم يكن الأمر إذن، بالنسبة إليه، سوى أزمة نمو في النظام. وفي "مجمل اللوحة التاريخية لتقدم الفكر البشري". الذي نشر في عام ١٧٩٤، في السنة نفسها التي قرر فيها الجيرونديون اتهامه، فاختبأ، ثم انتحر بعد أن اكتُشف، وأظهر فيه أن تطوراً لا نهاية له لاختراعات العلم والتقنية، مرتبطاً بتربية معمّمة، ستسمح بتقدم لا نهاية له لسعادة الإنسانية.

هذه السعادة يمكن تقدير كميتها لأنها تقاس بالسلطان المتزايد للإنسان على الطبيعة، أي على المردود المتزايد للآلية الصناعية، وعلى الثروة التي تنتجها هذه الانتاجية.

كان المشروع كريماً لأنه يقضي بتوفير السعادة للجميع، لكنه لم يلبث أن كذبته عربدةُ الرأسمالية التي خلقت، في آن واحد، ثروات تزداد وفرة، وجمهوراً متزايداً من العبيد والمستبعدين، مع تراكم الثروة في قطب من المجتمع لصالح أقلية متناقصة باستمرار، والشقاء في القطب الآخر. مع جمهور متزايد من المستغَلين في البلدان الغنية. وأكثر منهم في البلاد التي ولّدت فيها التبعيةُ الاستعمارية التخلفَ.

الاعتراض الثاني الأساسي أكثر من غيره، على أسطورة التقدم نابع من اختيار معايير السعادة. المقصود هنا مشكلة غايات الحياة ومعناها، وسنعالج ذلك ونحن نفحص المسلمة الثالثة (الدينية) للحضارة الغربية: من فاوست إلى عالم اللامعنى. سنقتصر، في الوقت الحاضر، على حصيلة المشروع الديكارتي: "أن نصبح سادة الطبيعة ومالكيها".

لقد بلغت العلومُ والتقنيات هذا الهدفَ بصورة جيدة حتى أن بإمكاننا تدمير هذه الطبيعة. لقد أوقعت قنبلة هيروشيما ٧٠٠٠٠ قتيل في لحظة (وذلك تقدم لا ينكر بالنسبة إلى جنكيزخان الذي احتاج إلى سبعة أيام ليبني أهراماً من ١٠٠٠٠ جمجمة فقط، عندما استولى على أصفهان).

تملكُ القوى النووية اليوم مخزوناً يعادل أكثر من مليون قنبلة من قنابل هيروشيما، أي القدرة التقنية لتدمير ٧٠ مليار كائن بشري: أكثر باثنتي عشرة مرة أو بخمس عشرة مرة مما هو موجود على الأرض.القدرة على محو كل أثر للحياة.

ليست هذه سوى حالة قصوى؛ الانتحار الكوكبي بشكل بطيء يبدو محققاً: إن تدمير طبقة "الاوزون" بالتلوثات الصناعية تهددنا، من الآن إلى ثلاثين عاماً، بتسخين الجو عدة درجات، ومن ثم بذوبان جليد القطبين وهو مايكفي لغمر المدن الكبرى المرفئية، حتى لو كان بالإمكان الحيلولة دون جنون استغلال المحيط القطبي الاستغلال الذي يزيد في تسخين الجو باتلاف هذا المنظم للبرد.

إن الدور المخرِّب للسوق لا يقف، على كل حال، هنا: إن اعتبارات العقلانية الاقتصادية والمردودية القصيرة الأجل تجعل من سوق البناء وتنظيم المدن أرهب نهّاب للمساحات المدينية وما وراء المدينية بالنمو السرطاني للأبنية الفوضوية. والحرائق التي تُخلي المكان للأراضي الصالحة للبناء، تكلف، من الغابات، مساحة النمسا كل عام (أو بتحويلها إلى مراع أفضل مردوداً).

في الغابة المدارية، في أمازونيا مثلاً، يكلّف جشعُ المستعمرين لتربية المواشي الموسّعة ٢٤ هكتاراً في اليوم، ومن شأن ذلك أن يعرض للخطر تنفس خمسة مليارات إنسان، وهجرة مليار إنسان، من الآن إلى ثلاثين عاماً، طردهم التصحّر.

ليس هاهنا سوى بضعة أمثلة عن التقدم الذي أُحرز "بسيادة الطبيعة وتملّكها"، والذي يطرح المشكلات القريبة كإنهاك الأرض بالمعالجات الكيماوية، وبعد الأرض، كتلويث الهواء الذي أخذ يُحدث ضحاياه في المدن المحسّية التي شوهتها المضارباتُ التجارية لتنظيم المدن على أيدي مؤسسيه، ولوسائل النقل الآلية الفوضوية؛ وكاستنفاد الطاقة الدفينة التي لا تتجدد مثل النفط. وكمجازر البحر وموارده السمكية. وهكذا يغدو الماء والهواء والأرض، كل الوسط الضروري للحياة مهدداً، ويمكن أن نتساءل، إن كنا سنستمر في هذه الطريق الانتحارية، وإذا كانت الكرة الأرضية التي تُدار على هذا النحو تظل صالحة للسكنى حتى آخر القرن الواحد والعشرين.

* * *

جـ ـ من مسلمة فاوست إلى عالم اللا معنى

كانت هناك لحظةٌ في تاريخ الغرب، مع مسلمة فاوست الأول الذي كتبه "مارلو": "أيها الإنسان، بدماغك القوي، كن إلهاً، لحظةٌ أمكن فيها حتى لعمالقة الفكر مثل "غوته" و"كانت"، و"فخته" أو "هيغل" أن يعتقدوا حقاً أن الإنسان سيحل محل الله في إدارة العالم.

"بدءاً من هذا اليوم، وفي هذا المكان يبدأ عهد جديد من التاريخ الإنساني".
هكذا قال غوته لفالمي.

* * *

تُشكّل الفلسفة الألمانية استثناءً (عظيماً على كل حال) في الفكر الغربي
كانت ألمانيا، وهي آخر بلد حقّق وحدته في القرن التاسع عشر، مفتتة إلى عدد كبير من الإمارات ذات الأصول الإقطاعية التي لم تشارك إلا منذ الثورة الفرنسية والغزو النابليوني، إلا بالتوكيل أو بالاستيراد، في الحركة العامة لأوروبا الرأسمالية التي كانت انجلترا رائدة لها واستمرت بها فرنسا.

هذه الإمارات الإقطاعية لم يكن بوسعها إذن أن تخلق "مثقفيها العضويين" مثل انجلترا أو فرنسا، نظراً لتأخر هذه الدول ولضيقها الشديد، وهي دول من بقايا العصور الوسطى في الغرب.

إن ذلك صنع عظمة الفلسفة الألمانية وحدودها: لقد وضع العمالقة مذاهبهم انطلاقاً من تجربة الآخرين.

لقد فكر الكردينال "دي كوز" ملياً في الإسلام وهو في أوجه وفي حضارات الشرق. واستشف ليبنيتز أهمية الفلسفة الصينية. هذان العبقريان تجاوزا إذن الفلك الغربي. ولم يشاركا في انشقاقاته.

لكن مؤثراً خارجاً عن هذه الإمارات الصغيرة أثر تأثيراً حاسماً في عباقرة الفكر الألماني، في القرن التاسع عشر (كانت، فخته، هيغل): هو تأثير الثورة الفرنسية التي كنست الضيق القديم. لقد هُزَّ الجميع بهذا التحول في التاريخ الذي لم يمكنهم تصوره أو بناؤه في خلواتهم الأيديولوجية في أريافهم الصغيرة والمتخلفة. فكما يقول ماركس: "لقد فكروا فيما فعله الآخرون". والهزيمة النهائية لهذه الثورة مع إعادتها للماضي، أفضى بالكثيرين إلى الحنين للماضي وإلى التراجع (الفلسفي والسياسي) كما رأينا ذلك مثلاً مع "فخته" و"هيغل" اللذين تنازلا إلى "العواء مع الذئاب". ومثال آخر هو تنازل غوته العظيم. وكان ماركس يقول عنه: "شاعر فاوست العملاق يمّحي أمام وزير "فايمار التافه".

هذه الإحتفاقات الشخصية النهائية لا يمكنها أن تنسينا الأعمال القوية في عصر عظمتهم والـمرتبطة بأمل تاريخي.

١ ـ آخر فرسان الفكر: فخته وهيغل

فخته (١٧٦٢ ـ ١٨١٤) يماهي بين ثورة كانت الكوبرنيكية التي بها تأسست، على الصعيد العملي والصعيد النظري، سيادةُ الإنسان العليا، وبين الثورة الفرنسية التي خلقت حقاً جديداً وعالماً جديداً انطلاقاً من السيادة العليا للإنسان ولعقله. عرض "فخته" خدماته على فرنسا ليقترح عليها فلسفته كأساس نظري لثورتها.

"إن مذهبي هو أول مذهب للحرية. وكما أن هذه الأمة (فرنسا) ستخلّص الإنسانية من قيودها المادية، فكذلك مذهبي سيخلصها من نير "الشيء في ذاته"، ومن المؤثرات الخارجية؛ ومبادؤه الأولى تجعل من الإنسان كائناً سيداً لنفسه. إن مذهب العلم وُلد خلال السنوات التي كانت فيها الأمة الفرنسية تعمل بكل طاقتها على انتصار الحرية السياسية؛ وقد وُلد على أثر صراع حميم ضد نفسي وضد جميع الآراء المسبقة المتأصلة فيَّ، وأسهم انتصارُ الحرية في ولادة "مذهب العلم"؛ وأنا مدين لقيمة الأمة الفرنسية بأنني رُفعت إلى الأعلى؛ وأنا مدين لها أيضاً بأنها حرّضت فيَّ الطاقة الضرورية لفهم هذه الأفكار. وبينما كنت أكتب كتاباً عن الثورة، انبعثت فيّ، أوائل علامات مذهبي، وأوائل الاستشعارات به، وكأنها ضرب من المكافأة لي.. هذا المذهب يخص، إلى حد ما، الأمة الفرنسية[1].

وبالحماسة نفسها يذكّر هيغل عشية موته، بأمل شبابه الكبير عندما انفجرت الثورة الفرنسية (وكان عمره ١٩ عاماً، في ١٧٨٩): "فكرة الحق، تصوّره، برزت قيمته فجأة، ولم يستطع بناء الجَوْر أن يصمد له... ومنذ أن كانت الشمس في السماء... لم يُرَ الإنسان... يرتكز على فكرة ويبني بحسبها الواقع.. فها هنا إذن شروق رائع. جميع الكائنات المفكرة احتفلوا بهذه الحقبة. وساد في هذا الزمن

[1] رسالة إلى "باغيسين"، في نيسان ١٧٩٥ (استشهد بها كزافييه ليون في "فخته وزمنه" ٢ ـ ص ٢٨٨).

انفعال سام، وحماسة الفكر أرعشت العالم، وكأننا في هذه اللحظة وحدها توصلنا إلى المصالحة الحقيقية بين الإلهي والعالم". (دروس في فلسفة التاريخ ص ٤٠١).

هذا هو المصدر التاريخي لفلسفة الفعل الحديثة التي قال عنها ماركس: "إنها النظرية الألمانية للثورة الفرنسية".

فلسفة الفعل لدى ماركس التي صاغها الصياغة المشهورة في الأطروحة الحادية عشرة حول فيورباخ، في ١٨٤٤: "لم يفعل الفلاسفة شيئاً حتى الآن سوى تفسير العالم، والمهم الآن تغييره".

استقاها أولاً من فلسفة فخته.

الفكرة الرئيسية في مذهب فخته هي فكرة الإنسان المبدع، هي أن الإنسان مايصنعه بنفسه ولأول مرة في تاريخ الفلسفة، تتهم أولية الجوهر، أولية التعريف القبْلي، لصالح النشاط المبدع الحر. ولأول مرة تتعارض فلسفة "الفعل" جذرياً مع فلسفة "الوجود".

الوجود بالنسبة إليه هو العمل، هو الإبداع. ذلك العمل، ذلك الإبداع يتجاوز باستمرار ماأبدع من قبل وتخضع لقوانين المعرفة التي هي تفكير ثان بالنسبة إلى العمل وإلى الإبداع الأول للإنسان. وهو لا يلغي لذلك تلك الأعمال السابقة. إنه يشكل بمجموع الشروط المفروضة على العمل والمقاومة له، كما يشكّل جوهرَ الإنسان، لا الجوهر القبْلي، ولا المتجمد، وإنما الذي هو في صيرورة، وفي اغتناء مستمر... إن فكر "فخته" حين أسبغ على الأثر التقليدي الذي يتركه الإبداع الإنساني في إثره، قواماً وواقعاً، اكتشف، على الأقل في شكل مجرد، ماسيصبح عندما يتشخص في الممارسة الاجتماعية والتاريخية، مبدأ المادية التاريخية ذاته: "الناس يصنعون تاريخهم الخاص، لكنهم لا يصنعونه تعسفاً، في ظروف هم يختارونها، وإنما يصنعونه في ظروف معطاة مباشرة وموروثة من الماضي"[1].

[1] كارل ماركس: ١٨ برومير للويس بونابرت. المطبوعات الاجتماعية ص ١٣.

ليس الوجود معطىً، ولا هو بمعنى "طبيعة" كما كان يفهمها التجريبيون والماديون، ولا بمعنى "جوهر" كما كانت تفهمها العقلانية الوثوقية والجدلية قبل الماركسية.

ولأن الوجود هو بمعنى الصنع، الإبداع، هناك تاريخ للجديد، طَفْوٌ الجديد.

لا الأنا التي ينطلق منها، ولا الأنا التي يصل إليها، يمكنهما أن يختلطا بأنا الفردية الأناني.

الأنا التي ينطلق منها "فخته" ليست أنا الفردية لأنها ليست معطىً، لكنها فعل: إنها الشخص الفاعل الذي يَحْمل في ذاته، بالقوة، قانونَ العقل.

إن "الأنا" التي هي النهاية المثالية للنظام، هي الشخص الذي حقق كلياً، في ذاته وخارج ذاته (في الطبيعة وفي المجتمع) عالماً شفافاً للعقل، كامل الشفافية، والذي كف عن أن يكون فرداً خاصاً.

إن "أنا" فخته، في المبدأ وفي النهاية، بعيدة عن الانعزال في خصوصيتها المحسوسة والإخلاد إليها، إنها تطلّبٌ لتحقيق الشامل العام. إنها فعل المشاركة في التاريخ الشامل العام. هذه الأنا أولاً مسكونة بالانسانية كلها ضمناً. وهي جمّاعُ الإنسانية كلها، لا جماع ثقافتها الماضية فحسب، ولكن ماهي مدعوة إلى أن تكونه في كلية تاريخها. إنها، كما يقول فخته "وحدة القديسين". وما يميز تصور "فخته" للأنا هو تجاوزها المستمر. ففي كل لحظة تطرح الأنا حدودها وتجتازها، في الوقت نفسه، وكأن اللامتناهي يناديها: ولا يُعرَّف حاضرها أبداً إلا تبعاً لمستقبلها الذي هو في طور ولادته. الأنا مشروع دائماً: ماكنته وما أنا فيه، لا يأخذ معناه كله إلا بما سأكونه. الوجود إذن ليس معطىً وإنما هو إبداع. وهو أبداً في طور الصنع. هاهنا المبدأ الأول لفلسفة الفعل.

الممارسةُ، في نهاية الأمر، عند "فخته"، وبالرغم من مفرداته الكانتية ومن مثاليته، التزامُ الإنسان كاملاً، بجهد جماعيّ لصنع التاريخ، لتحويل الطبيعة وبناء المجتمع.

كتب "فخته": "الإنسان الذي ينعزل يتخلى عن مصيره؛ إنه يفقد اهتمامه بالتقدم الأخلاقي. عدم التفكير إلا في الذات، من الوجهة الأخلاقية، ليس تفكيراً في

الذات، لأن نهاية الفرْد المطلقة ليست في ذاته، وإنما هي في الإنسانية بأسرها. نحن لا نُرضي واجبنا إذا اعتكفنا في أعالي المجردات والتأملات الخالصة وعشنا حياة الناسك، كما يُظنّ في الأغلب، وكما يعتز الناس بذلك؛ إننا نُرضي واجبنا لا بالأحلام، بل بالأفعال، بالأفعال المنجزة في المجتمع ومن أجل المجتمع. (فيختة ـ سيتليبهر ٤ ـ ١٨).

ولاشك أنه، كتلميذ للثورة الفرنسية، ظلّ حبيسَ تصور تاريخي برجوازي للتملك، وهو يعطي التملك وضعاً ميتافيزيكياً: فالملكية هي الحقل الضروري لممارسة الحرية، والمادة الضرورية للعمل؛ لكنه انجرف بحركة التاريخ ذاتها التي اتهمت جذرياً الملكية في شكلها الإقطاعي، فرفض أن يماهي الملكية مع حيازة الثروات المعطاة. وهنا أيضاً، وبحسب الروح التي تلهم فلسفته كلها، يعارض "الشيء" بالفعل. فالعمل يظل جوهر الملكية: وبحسب نظرية "فختـه" عن الحق، إن مايخصني شرعاً هو ماتنطبق عليه حريتي ليس غير.

ومع ذلك، فإن فختـه، تبعاً لنظريته عن الدولة والعقد، وبالرغم من امتداد السلطات التي يعترف بها للدولة، ظل يرى أن كل إنسان أُلجىء إلى البؤس أو الجوع، هو بذلك ذاته، معفيٌ من كل واجب اجتماعي. وهكذا يتجاوز فختـه تصوراً للحرية الشكلية ويميل إلى المطالبة بالحق الواقعي.

لكنه كان، كالثورة الفرنسية ذاتها، حبيس الخلط بين حرية السوق والحرية الإنسانية، التي بها تستطيع هذه "الليبرالية" أن تتحقق في ديموقراطية (دافعي الضرائب صراحة أو مراءاة) كما في دكتاتورية بونابرت، في الساعة التي تعلَن فيها، مع سقوط نابليون، عودة الحكم الاستبدادي الفردي، يتحول الجبار البروميثيوسي "مذهب العلم"، إلى شخص مطيع يعلن أن الفلسفة "تعترف أن كل شيء ضروري وحسن وهي تصالحنا مع كل ماهو موجود، كما هو موجود، لأنه لابد أن يكون كذلك تبعاً للغايات الأخيرة". (فختـه. السمات المميزة لعصرنا).

* * *

إن مساء هيغل الفلسفي هو من طبيعة مسار فخته نفسه. فهو أيضاً قد عاش انهيار عالم وولادة عالم آخر وإجهاضه السياسي. كان عمره ١٩ عاماً عند الاستيلاء على الباستيل، ٢٤ في تيرميدور، و٢٩ في ١٨ برومير. كان في طريقه إلى إنهاء "فينيمينولوجيا الروح" عندما خيّمت في "إيينا" القواتُ الفرنسية الغازية، أمام بيته، وعندما كرس صلح "تليست" انهيار وطنه، بروسيا.

كتب "علم المنطق من ١٨٢١ إلى ١٨١٦ أي بين اللحظة التي بدأت فيها، في ١٨١٣، الانتفاضةُ القومية لبلده ضد الامبراطورية النابوليونية وانهيار واترلو.

السنة التي نشر فيها "فلسفة الحق" في ١٨٢١ هي سنة مؤتمر "التحالف المقدس" في "لايباخ".

والقى دروسه حول "فلسفة التاريخ" من ١٨٢٢ إلى ١٨٣١، وسط أكبر انقلابات التاريخ: بدأها في اللحظة التي أعلنت فيها اليونان عام ١٨٢٢، في "ابيدور"، استقلالها. وأطيح بعرض اسبانيا، وحطمت أمريكا اللاتينية نير اسبانيا الاستعماري. وفي ١٨٢٥، انفجر في "سان بطرسبورج"، عصيان "الديكابريين". إن أعمال هيغل العظيمة لا تُفهم تماماً إلا على أضواء هذه الرؤيا التي تشبه رؤيا يوحنا اللاهوتي.

في هذا السياق وحده يمكن فهم محاولة هيغل التركيب بين العام والفردي، بين "اللوغوس" (العقل الكلي) اليوناني ولحظة الذاتية المسيحية.

عندما بلغ هيغل العشرين، رأى في الثورة الفرنسية الجواب عن المشكلات التي يطرحها وضعُ ألمانيا، وظن أنه اكتشف نموذج الحرية المثلى، والانسجام بين الفرد والمجتمع، وبالتالي، الانسجام الداخلي للفرد بين عقله وأهوائه، كما اعتقد في "مدينة اليونان وديانتهم".

لكن تطور الثورة الفرنسية نفسه، والمقاومات التي اصطدمت بها، وفوق ذلك، التناقض، في ألمانيا الذي أخذ يتضح شيئاً فشيئاً بين المثل الأعلى للإرادة العامة وبين المصالح الخاصة، وائتلافاتها وتمرداتها، تجربةٌ قادت هيغل إلى البحث عن المصادر التاريخية لتأكيد الفرد، تأكيد الخصوصية ضد الكل. إن دراسة تفكك الدولة القديمة، وولادة المسيحية وتطورها قادته إلى تصور للحرية أكثر تعقيداً

وأكثر غنىً. فإلى مشاركة الإنسان الفاعلة في مدينته الأرضية، انضاف تطلّبٌ جديد: وهو ذاتية الإنسان التي لا تقهر. واصبحت مشكلة هيغل أكثر تعقيداً. وطُرحت مشكلةُ الحرية بعبارات جديدة: كيف نعثر على الكمون الحي للكلية الاجتماعية في الإنسان بدمج لحظة الانفصال، لحظة الذاتية؟ إن الحرية تُعرّف دائماً بالمشاركة في الكل، لكن عبر الشعور بالذات.

مع المسيحية، عرف هذا الشعور تمزقاً مزدوجاً: تعارض العالمين، عالم الماوراء وعالم الشهادة، والتعارض ذاته يُنقل إلى داخل الإنسان. العالم المسيحي هو عالم الشعور التعس.

ولا يرى هيغل هنا عرَضاً من أعراض التاريخ، وإنما القانون الضروري للتطور: فلبلوغ السعادة، لابد حينئذ من المرور بالتعاسة. وهذا موضوع مركزي في أعمال "هولدرلن" و"غوته".

وهو أيضاً الفكرة الرئيسية لفلسفة التاريخ عند هيغل. التاريخ عنده هو مجيء الحرية. لكن التقدم ليس خطياً. ففي "مدخل دروس فلسفة التاريخ" الذي يبلغ فيه مذهبه المثالي كامل تفتحه يعطي هيغل أوضح صياغة لطابع التقدم، الطابع المتناقض والدياليكتيكي.

يبذل هيغل وسعه لكي يتغلب على التشاؤم بأن أحلَّ محل فكرة التقدم المفرطة البساطة كما وضعها فلاسفة "الأنوار" (كوندورسيه مثلاً). أحلَّ تصوراً لتقدم الحرية دامجاً لحظة الانفصال، تدمير الوحدة، الشعور بالذات، الذي هو شعور تعس.

حاول هيغل تحقيق التركيب بين الهيلينية والمسيحية. الهيلينية التي لم يَعِ فيها الإنسان، في وحدة الدولة الحية، تعاسته، والمسيحية التي توصّل فيها الإنسان إلى الشعور بالذات الأكثر حدة، وإلى التمزق واليأس، ولم يعِ سعادته.

إن القدر هو نمط وجود الكلية في الفرد، والتفرّد المطلق. كمون اللامتناهي في المتناهي هو أحد الموضوعات المركزية في المذهب الهيغلي.

في حوالي عام ١٨٠٠، أصبح المنظور التاريخي، عند هيغل، غامضاً. فالحلم الهيليني العظيم نأى، بعد "الإرهاب" كما ينأى السراب: ولم يَبْدُ ممكناً لهيغل أن تكون الكليةُ الاجتماعية حاضرةً وفاعلة على نحو مباشر في كل فرد، كما كانت،

في اعتقاده، بالنسبة إلى المواطن الحر في الدولة القديمة. فإمّا أن تصفّي الكليةُ الخصوصيةَ، كما كانت الحال، أمام ناظريه، بالنسبة إلى "الإرهاب"، وإما أن تتدخل شبكةٌ المنافع الخاصة بين الفرد والدولة، معطية "المجتمع المدني"، عند تشابك الرغبات والشهوات الاقتصادية المتجابهة، السيطرة الواقعية على الأفراد وعلى الدولة كما يشهد بذلك فساد الاتّجاريين في حكومة "الإدارة".

شكّلت حكومةُ القناصل والنظامُ النابليوني، بالنسبة إلى هيغل حلاً للمشكلة: الدولة التي تمسك بيدها المصالح الاقتصادية الكبرى والتي تفرض نظاماً على فوضى التزاحمات.

قرر هيغل أن يتصالح مع العالم الواقعي، أن يَعْوي مع الذئاب، (رسالة ٩ شباط ١٧٩٧. ١ - ٤٩).

إن تأكيده على سيادة الإنسان قادته حتى الآن إلى تمييز ثلاث مراحل أساسية في التاريخ.

- مرحلة الدولة القديمة، تلك الجمهوريات الحرة التي يتحقق فيها المواطن كلياً في وطنه.

- مرحلة المسيحية، مرحلة عبودية ينطوي فيها الإنسان على نفسه ويتصور الطبيعة والمجتمع كأنهما قوىً غريبة (مستلَبة).

- مرحلة الثورة الفرنسية التي تسمح بإعادة تملك الحرية المشخصة للمواطن القديم بإنقاذ خصوصية كل فرد.

والآن، وبعد التجربة التيرميدورية، وحكومة الإدارة، وحروب الفتوحات في عهد حكومة القنصلية، وبقاء الوضع الراهن الاجتماعي في ألمانيا، شعر هيغل شعوراً مؤلماً بتناقضات عصره، ولم يعد وارداً التحويل الثوري لهذا العالم.

ومن هنا ينبع التناقضُ المركزي في أعمال هيغل: تمجيد نظري للثورة الفرنسية الذي يتحول عملياً، إلى تبرير للملَكية البروسية.

لا يمكن للتعرجات المأساوية لهذه الحياة أن تنسينا عظمة أعماله: في مخطوطات ١٨٤٤ لكارل ماركس، أبرز ماركس دفعة واحدة الجوهري، في "فينيمونولوجيا الروح" لهيغل، وهو الفكرة المركزية في فصلي السيد والعبد، والثقافة:

"إن عظمة (الفينيمونولوجيا) ونتيجتها النهائية ـ ديالكتيك النفي كمبدأ محـرك وخلاق ـ تكمن، من جهة، في أن هيغـل أدرك إنتـاج الإنسـان لنفسـه كمسـيرة... كاستلاب وكإلغاء لذلك الاستلاب ـ أدرك جوهـر العمـل... وتصـوّرَ الإنسـان... كنتيجة لعمله الخاص".

ومن الجدير بالـملاحظة أن مايثـمنه ماركس لدى هيغل هو بـالضبط اللحظة "الفختية" في فكره: فلسفة الفعل في معارضتها لفلسفة "الوجود".

التاريخ بأسره هو هذا الخلق الـمستـمر للإنسان وبواسطة الإنسـان في تطوره الديالكتيكي. فمع تقي النفي، عثر هيغل على التعبير الـمجرد، الـمنطقي، النظـري، لحركة التاريخ".

هذا الاكتشاف الرئيسي من قِبَل هيغل لا يمكمن أن يُنسينا حدوده. يقول لنا ماركس: "إن هيغل يتخذ مكانه من وجهة نظر الاقتصـاد الحديـث" (أي الاقتصاد البرجوازي ولاسيما آدم سميـث وريكـاردو). ويقـول أيضـاً (يقـول الفكـرة نفسـها بشكل آخر): "الفيلسوف ذاته، ـ وهو الشكل الـمجرد للإنسان الـمستلَب ـ يطرح نفسه لقياس العالـم الـمستلَب". وأيضاً "لـم يُعبِّر الاقتصاد السياسي إلا عـن قوانـين العمل الـمستَلب".

بحيث انه يَعتقد أن التاريخ قد بلغ غايته عندما انتصر هـذا الاقتصـادُ الصنـاعي والتجاري. وحينئذ يستطيع أن يهتف مثل "فاوسـت" غوتـه، أمـام الانتصـار ذاتـه: "قِفْ لحظة، فأنت بالغُ الجمال!".

ويقول ماركس مازحاً: مع مذهب هيغل، يخيل إلينا "أنه قد كان هناك تـاريخ ولكن لن يكون بعد ذلك تاريخ".

ومع ذلك فإن ديالكتيك هيغل حمل الحركة التي من التعسف إيقافُها.

وقدّر لينين أننا لا يمكن أن نفهم فهماً تاماً رأس الـمال لـماركس، ولاسيما الكتـاب الأول دون أن نستوعب تـماماً "منطلق هيغل". وأعطى "انجلز" في رسـالة إلى كونراد شميدت في أول تشرين الثاني ١٨٩١ هذا التوضيح الإضافي: "قارن بين تطـور السلعة إلى رأس الـمال عند ماركس، وبين تطور الكائن إلى الجوهر، فستجد التوازي أخاذاً".

وبالفعل، إن ديالكتيك هيغل هو أولاً "منطق العلاقة": إنه يُنزِل كلَّ واقعٍ في قلب الكلية العضوية والحية للأشياء.

العالم، بالنسبة إلى هيغل، كليةٌ والحقيقة هي إعادة بناء هذا الكل الذي يجد كلُّ كائن خاص انطلاقاً منه واقعه ومعناه.

الديالكتيك منطق الحركة. الحركة، في هذا العالم الآهِل بالقوى المتجابهة، هي الملازمة لهذا الترابط الشامل. إذا كان كل شيء متماسكا فكل شيء يتحرك. السكينة تجريد: وإنها لمسألة زائفة أن نتساءل كيف تحركت كائنات كانت في البدء ساكنة. المسألة الحقيقية هي أن نشرح، انطلاقاً من واقع الحركة، مظهر السكون الذي هو توازن ساكن نوعاً ما.

الديالكتيك منطق الحياة. إنه المجموعة المتحركة للعلاقات الداخلية لكلية عضوية في صيرورة.

إن غائية الأشياء هي بالضبط هذه الحركة التي تحملها في ذاتها، هذا الاتجاه المتولد من التناقض بين طبيعتها المتناهية والتي تحملها فيما وراءها نفسها إلى اللامتناهي.

التناقض والكلية، لدى هيغل، يتعارضان ويتضمن أحدهما الآخر كالمتناهي واللامتناهي: الكلية من وجهة نظر المتناهي تناقض من وجهة نظر المتناهي. أو أيضاً: التناقض هو المقولة المركزية للمنهج الهيغلي، والكلية هي المقولة المركزية للمذهب الهيغلي.

في كل لحظة تستدعي الكلية إليها كلَّ الصيرورة: إن حضورها الفاعل منذ البدء، ماثل في كل كائن خاص وكأنه عذابه: إن عدم كفايته ككائن متناه هو محرك التطور. لكن عدم الكفاية هذا لا يوجد إلا بالرجوع إلى الكليّة. ويقول هيغل من جهة أخرى دون لبس: "إذا مضينا إلى قاع الأشياء نجد التطور كله متضمناً في الرشيم[1]". الكلية إذن موجودة قبل لحظات الصيرورة وهي تؤسسها: التناقض ليس سوى "العملة الصغيرة للكلية".

هذا التصور الهيغلي للكلية يتضمن إذن:

[1] هيغل المنطق ١،١ ص ٢٤

١ ـ وجود عالـم وتاريخ مُنْجزين.

٢ ـ معرفة هذا الإنجاز التي لولاها لـما تحققـت السيرورة الضرورية للـمعرفة الـمطلقة.

من قصيدة هيراقليت إلى فينيمونولوجيا الروح لهيغل، يُدرَك الفكـرُ والواقـعُ في وحدتهما الحية، ككلية عضوية في صيرورة مستـمرة، مع تناقضاتهما، وكـل شكل يهيء الشكل التالي في دورة لا تنتهي من الولادة والتطور والـموت.

الفكر ينطلق، عند هيغل، من مبادىء لا تتغير. وهي تبلغ كليةً منجـزة. وهـذا مابقي من لاهوت في مذهبه يتناقض مع منهجه.

حمل هيغل إلى إنجازه الأكمل فلسفة الوجود: الفلسفة التي تقلّص الكائن ـ منذ سقراط ـ إلى معنى مجرد والأخلاق إلى منطق.

كان ماركس يقول بحق عن هيغل انه كان "نهاية الفلسفة" على الأقل فلسـفة الوجود.

الذين طمحوا أن يستـمروا في هذه الطريق، بعد التركيب الهيغلي العظيم، لـم يكن لهم تأثير في التاريخ، فكلٌّ منهم استغل مالـم يكـن سـوى لحظـة مـن فلسـفة هيغـل. ونستطيع أن نقـول عنهـم مثلــما قـال "روي بـلاس" عـن خلفـاء "شـارل كانت":

"... طائفة من الأقزام الـمشوّهين
يفصّلون صدارات من ردائه الـملكي".

* * *

عالـم خالٍ من الإنسان: اوغست كونت والـمذهب الوضعي

صكٌّ وفاة الفلسفة التي كان نزوعُها هو البحث عن معنى فكر الإنسان وعمله وغاياتهما، هذا الصك وقعه اوغست كونت (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧).

إن مايسمح بفهم وحدة عمله هو شاغله الأساسي: لقد قضت الثورة الفرنسية على النظام الإقطاعي والتيوقراطي: وهذا "تقدم". واسست "نظاماً" جديداً قائماً على العلم والتقنية والصناعة، وهي نهاية التاريخ، ولا ينبغي لهذا النظام أن يوجَّه إليه الاتهام بثورة جديدة مثل ثورة ١٨٤٨. في هذا التاريخ أطلق **"كونت"** شعاره وهو: **النظام والتقدم**.

لقد افتتحت الثورة الفرنسية عصر العقل الصناعي. وفيه يكمن "التقدم". والنظام يكمن في الحفاظ عليه. ولا يتردد اوغست كونت، في "ندائه إلى المحافظين"، أن يتوجه إلى قيصر روسيا وإلى رئيس الوزراء العثماني ليقفا في وجه كل ثورة جديدة وليحافظا على النظام القائم.

نشر منذ ١٨٢٢ كتابه: "خطة الأعمال العلمية الضرورية لإعادة تنظيم المجتمع" وهو يحتوي على بذور مذهبه الآتي الذي عرضه في ثلاثة كتب: "دروس في الفلسفة الوضعية" (١٨٣٠ ـ ١٨٤٨)، "مذهب السياسة الوضعية" (١٨٥١ ـ ١٨٥٤) والكتاب الثالث أكثر اقتضاباً، "الكتاب الديني للمذهب الوضعي" (١٨٥٢)، وقد تركّز الأول حول العلم، والثاني حول السياسة، والثالث حول الدين الجديد المبني على الكتابين الأولين.

أما العلم فهو علم زمنه: العلم الميكانيكي والحتمي الذي حققه "لابلاس" (١٧٩٩ ـ ١٨٢٧)، أحد مؤسسي مدرسة "البوليتكنيك" (التي جسد اوغست كونت روحها زمناً طويلاً) في كتابه "عرض نظام العالم" (١٧٩٦) الذي أعيد طبعه في ١٨٢٤، وهو تركيب لمجموع المعارف الفيزيائية التي يسيطر عليها التعريف الاشد صرامةً للحتمية الميكانيكية: "يجب أن ننظر إلى حالة الكون الحاضرة باعتبارها نتيجة لحالته السابقة وسبباً للحالة التي ستتبع. إن العقل الذي يعرف، بالنسبة إلى لحظة معطاة، جميعَ القوى التي بها تتحرك الطبيعة والحالة الخاصة للكائنات التي تكوّنها، إن كانت على اتساع كاف لإخضاع تلك المعطيات للتحليل، يحيط في الصيغة نفسها بجميع الحركات، حركات أعظم أجسام الكون وأعفَّ ذراته؛ لا شيء يمكن أن يكون غير يقيني بالنسبة إليه وسيكون المستقبل

كالماضي حاضراً أمام عينيه". (محاولة فلسفية حول الاحتمالات. نشر عام ١٨١٢).

إن استبعاد كل سبب غائي على مستوى الفيزياء، جعل منه اوغست كونت القانون العام، مطبقاً على الإنسان ذاته وعلى العلوم التي تتعلق به مثل الاقتصاد السياسي وعلم الاجتماع (الذي يسميه أيضاً الفيزياء الاجتماعية)، الطرائقَ نفسها أي الحتمية الميكانيكية، مستبعداً، كمبدأ، كل مسألة حول المعنى.

وهكذا ففي "قانون الحالات الثلاث: نُحِّيتْ الحالة اللاهوتية لأنها تطرح سؤال "لماذا"؟ ولا تكتفي بـ"كيف"؟ والعصر اللاهوتي يمتد، برأيه، من أصول الإنسانية إلى القرن الثامن عشر، متجاهلاً كلياً جميع حِكَم الحكماء غير الغربية (أسّسَ مجلة لها دلالتها: المجلة الغربية).

والعصر الميتافيزيكي لا يشكل سوى انتقال، وهو ترجمة مجردة للرؤية اللاهوتية.

والعصر الوضعي وهو العصر الذي يقتصر فيه الإنسان على ملاحظة ماهو كائن وعلى وضع قوانين: "معرفة الأسباب حلت محلها حتمية القوانين".

لم يبق إذن في فلسفة التاريخ هذه من مكان إلا للتعميم الكمي للحاضر من أجل التنبؤ بالمستقبل. فاوغست كونت هو بذلك أبو **العلموية الشمولية** والريادة التكنوقراطية، وأخيراً إنسان الحاسوب الذي يعتقد أن العلم (الموجود في الحاسوب) يمكن أن يجيب عن جميع الأسئلة، لا عن الوسائل فحسب بل وعن الغايات منذ أن رأى "نوربير وينر" مخترع السيبيرنيتيك أن المجتمعات البشرية غدت مفرطة التعقيد بحيث يعجز البشر عن إدارتها ولابد إذن من الاتكال على الآلة لتقوم بذلك مكانهم، مستبعداً كل قرار للإنسان: فمن غير المعقول أن نبغي تغير مجرى التاريخ.

المقصود على العكس، مرة أخرى، محاولة ايقاف التاريخ. فعندما حبس المعرفة في المعطى، حبس العمل في النظام القائم.

هذا هو أساس كل نزعة محافظة، كما رأى ذلك جيداً شارل موررا. ولاسيما أن هذا النظام العقائدي الوثوقي سوف يحبسه اوغست كونت ي دين.

فلقد خلق، في الكتاب الديني للمذهب الوضعي، كاثوليكية دون إله، ناقلاً إلى كنيسته "الوضعية" كل النظام التراتبي والشعائري والعقائدي الوثوقي الموجود في الكنيسة الكاثوليكية، في زمنه.

وبذلك استطاع اوغست كونت أن يحتفل، بتتويج فلسفة الوجود وبجنازتها في آن واحد.

* * *

الانشقاق الثالث:

انشقاق الغرب الثالث، بعد خمسة قرون من الاستعمار، وحربين أهليتين أوروبيتين (من ١٩١٤ ــ ١٩١٨ ومن ١٩٤٠ ــ ١٩٤٥) هو العولمة، أي "تغريب" العالم تحت الإدارة الأمريكية التي نجحت، من وجهة النظر الاقتصادية، أن تجمع، في ١٩٤٥، نصف الثروة العالمية، على حساب أوروبا المنزوفة من الأطلسي إلى الاورال، وعلى حساب العالم الثالث الجائع.

لقد اراد هذا البلد لنفسه، من وجهة النظر السياسية، وهو الذي قدّم أدنى كمية من الخسائر البشرية، أن يكون سيد العالم، مُملياً قانونه على أوروبا المتسولة من خطة مارشال الذي فتح لامريكا سوقاً أوروبية دمّرتها الحرب، وفارضاً في بريتون ـ وودز سلطاناً للدولار مساوياً لسلطان الذهب، وفارضاً بعد خمسين عاماً معاهدة ماستريخت حيث قيل صراحة: "لا يمكن لأوروبا إلا أن تكون الدعامة الاوروبية لحلف الأطلسي" (أي، بوضوح، أوروبا خاضعة للقوانين الأمريكية كما أوضحتها قوانين هيلمز بورتون وقوانين آماتو، التي تُشرّع للعالم بأسره فارضة مقاطعتها).

ولد القرن العشرون ـ مع تأخر بضع سنوات ـ مع حريق ١٩١٤، هذه الحرب التي لم يخرج منها سوى المغلوبين. وما سبقها، بضع سنوات كان الناس يرقصون فيها على البراكين المنطفئة في خط "الفوج" الأزرق وكومونة باريس. وكانت الكومونة قد أيقظت الآمال الخلاصية للذين لا يملكون والإرهاب الوحشي للذين يملكون ولم يكن الإرهاب جزءاً منها. لم تبق سوى الخرائب، سوى نصب الموتى، والشعور بانهيار جميع القيم.

وعلى ضفتي "الرين" كانت الحياة الاجتماعية تسجّل تراجعاً تاريخياً مدته قرن: ففي إحداهما برلمان المحاربين في مواجهة غضب إضرابات ١٩٢٠، وفي الأخرى القمع الوحشي لجماعة "سبارتاكوس" وللذين جسدوا أحلامها: ليبنخت وروزا لوكسمبورغ.

ومن وراء الظلمات انبلج حينئذ صباحٌ جديد، مع آماله الخلاصية الجديدة، سواء بالنسبة إلى الشعوب التي تحطم نير الطغاة القدماء أم بالنسبة إلى الفنانين والشعراء والعلماء من أمثال أناتول فرانس، وآراغون، ولانجفان، ورومان رولان الذي رحبوا بذلك الفجر. وفي المقابل الإرهاب الكبير للسادة الذين يحاولون أن يوقفوا هذا التدفق للمستقبل، بسياسة الأسلاك الشائكة مع "كليمنصو"، أو مشروع تشرشل في الزحف على موسكو وقرع طبول حطام الماضي ليمنع ولادة غير ماهو كائن.

القرن كله ساده هذا الرعب وذاك الوعد بعالم مختلف. وبالصعود الذي لا يقاوَم أيضاً ليأس المغلوبين وغضبهم: حملت معاهدة فرساي في ثناياها بذور مذبحة جديدة تنبأ بها لورد "كينس" في كتابه: النتائج الاقتصادية للحرب (١٩٢٢): "إذا سعينا عامدين إلى إفقار أوروبا الوسطى فأنا أتجرأ على التنبؤ بأن الانتقام سيكون رهيباً: فمن الآن إلى عشرين عاماً ستنشب حربٌ مدمرة للحضارة، اياً كان الغالب".

وعندما طُلِبَ من ألمانيا، بحجة التعويضات، نصف ثروتها، هُيِّيء غرقُ شعب بأسره: باليأس وذل القلوب، وتيار الإفلاسات، وبطالة الجماهير. لقد اثارت استفزازاتُ المنتصرين شهوة الانتقام والهيجان لـ"كل شيء ولا هذا" الذي أمَّن انتصار الغوغائية القومية الأشد جنوناً، الرغبة بأي ثمن في الخروج من البؤس والبطالة. لم يلزم سوى ١٦ عاماً لتخمّر هذا الحساء الثقافي لضمان انتصار الرجل الذي أرسلته العناية الإلهية. وصل إلى السلطة بأكثر الطرق ديموقراطية في العالم، إذ حصل مع حلفائه على الأكثرية المطلقة في برلمان جمهورية "فايمار".

لقد أظهرنا في كتاب آخر[1] التوازي الصارم بين منحنى صعود البطالة ومنحنى صعود القومية ـ الاشتراكية.

فضّ هتلر المعضلة بتحويل العاطلين عن العمل إلى عمال في معامل الأسلحة، ثم بتحويلهم إلى جنود، وتحويل الجنود إلى جثث. حُلَّتْ المشكلة.

[1] الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية. مطبوعات سافيردات. ص ٩٣.

كانت الشروط جاهزة لكـي لا تكـون الحـرب العالـمية الثانيـة سـوى تتـمة للأولى: وهي نتيجة عمى الـمنتصرين، والنشوة التي استولت عليهم لأنهـم أطـاحوا بالخصم الاقتصادي والسياسي لانجلترا وفرنسا.

أ ـ الولايات الـمتحدة، طليعة الانحطاط

عنصران جديدان سعَّرا الجمر وجعلا الانفجار الـمحتـم أشد هولاً. في الغرب وُلدت قوة جديدة، قوة الولايات الـمتحدة الـتي كـانت حـرب ١٩١٤ ــ ١٩١٨ صفقة اقتصادية لا سابق لها إلى حد أنها جعلت من الولايات الـمتحدة منذئـذ قـوة عظمى.

كانت الولايات الـمتحدة البلد الوحيد في العالـم الذي لـم يعـرف منـذ قيامه الاحتلال الأجنبي لأرضه والذي اغتنى بكل مـاقي العالـم مـن بـؤس: بطـرد الهنـود وتذبيحهم، واستغلال اليد العاملة للعبيد السود، إلى الحلول محـل انجلـترا في أمريكـا الجنوبية، ومحل اسبانيا في الجزر. وخسائر أوروبـا خـلال حـرب ١٩١٤ ــ ١٩١٨ أجرى في الجانب الآخر من الأطلسي نبعاً من الذهب: فلقد غدت أمريكا بمبيعاتهـا وقروضها قوة من الطراز الأول. ولـــم يبـق عليهـا إلا أن تهـبّ إلى نجـدة الانتصـار بنزولها في فرنسا ١٩١٧، بعد فردان، كما ستهب إلى نجدة الانتصار، مـرة أخـرى، في عـام ١٩٤٤، بعـد ستالينغراد. وكـانت واثقـة بذلـك، أنهـا ستنتـمي، بـأدنى النفقات، إلى معسكر الـمنتصرين، وأنها ستسود أوروبا الـمنزوفة، من الأطلسي إلى موسكو، والتي غطت عريها بالجثث والخرائب، مع خمسين مليوناً من الـموتى.

العامل الثاني كان في الشرق. كان الاتحاد الســوفييتي يتحمـل في عـام ١٩٤٤، عبء ٢٣٦ فرقـة مـن النـازيين والدائريـن في فلكهـم، في حـين أن ١٩ فرقـة فقـط تصـدت في إيطاليـا للجنـد الأمريكيـين، و٦٥ فرقـة كـانت موزعـة مـن فرنسـا إلى النرويج.

منذ صعود هتلر إلى الســلطة، رأت فيـه الولايـات الـمتحدة وانجلـترا وفرنسـا "الحصن الـمنيع ضـد البلشـفية" كمـا كـان يقـول الاساقفة الألـمان، فقدمـت لـه الاعتـمادات والأسـلحة (أعطتـه فرنسـا الحديـد لـمدافعه حتـى ١٩٣٨، وفاوضتـه

بريطانيا على الاعتمادات حتى عام ١٩٣٩، وأبقت الولايات المتحدة سفيرها في فيشي).

وفضلاً عن ذلك، استسلمت لجميع تطلباته: تركته، دون مقاومة، يحتل بوهيميا، ويقسّم تشيكوسلوفاكيا، ويضم النمسا، ويشارك في اسبانيا بعدم تدخلها الذي أتاح له التدخل، مع شريكه موسوليني وفرقه الخاصة "الكوندور"، حتى الحدود الجنوبية لفرنسا في "غيرنيكا".

رمزُ جميع هذه التنازلات، تنازل ميونيخ، سلمه المعادل التشيكي لخط ماجينو، مع الأمل الجلي بتحويل شهوات الغول نحو الشرق والاتحاد السوفييتي. وقد منع الموقعون على ميثاق ميونيخ وبمساندة الدكتاتورية البولونية الاتحاد السوفييتي من مرور جنده في أراضي بولونيا لمجابهة هتلر قبل وصوله إلى الحدود الروسية عند غزوه بولونيا، ولم يبق لستالين ليتحاشى تحمل ثقل الهجمة الهتلرية المحتمة إلا أن يكسب الوقت. بميثاق عدم الاعتداء المتناظر مع ميثاق ميونيخ، ليتهيأ لحرب محتمة.

وبذلك نجح هتلر في أن ليس عليه أن يحارب على جبهتين وأمكنه أن يفترس الغرب قبل أن ينقضّ على الشرق السوفييتي.

أما الولايات المتحدة فإن عضو مجلس الشيوخ ترومان (الذي أصبح بعد بضع سنوات الرئيس ترومان) عرّف تماماً الخط الثابت للسياسة الأمريكية: "إذا ضعف الاتحاد السوفييتي فيجب أن نساعده؛ وإذا ضعفت ألمانيا فيجب أن نساعدها. الأمر الجوهري هو أن يدمر كل منهما الآخر".

ومما له دلالته أنني عندما قرأت تصريح ترومان هذا في إذاعة فرنسا، في مدينة الجزائر، حيث أصبحتُ بعد تحريري من معسكرات الاعتقال، رئيس تحرير أخبار الصباح الإذاعية، طُردت من وظائفي بأمر الممثل الأمريكي "مورفي" بالرغم من موافقة الجنرال ديغول على نصي. (انظر المجلد الأول من طوافي في القرن وحيداً).

وتحققت أماني ترومان بحيث أن خطة مارشال، لدى الخروج من الحرب العالمية الثانية، وكانت أكثر تدميراً من الاولى، سمحت للاقتصاد الأمريكي أن يتابع صعوده، جاعلاً من أوروبا زبوناً مليئاً من جديد.

وهكذا سيطرت على الثلث الثالث من القرن حربٌ باردة بين الولايات المتحدة الفاحشة الثراء وبين الاتحاد السوفييتي الذي حطّم في ستالينغراد الجيشَ الألماني ولحق بالعدو حتى برلين حيث اضطر هتلر إلى الانتحار في حصنه الصغير تحت الأرض عند بوابة براندبورغ. وبعد إعلان ونستون تشرشل الحرب في خطبته في "فولتون"، واعترافه بأنهم "قتلوا الخنزير الشرير" أي ألمانيا الهتلرية بدلاً من الاتحاد السوفييتي وستالين، استمر سباق التسلح بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي في الفضاء، وكان نجاح أحد الفريقين، مثل نجاح رائد الفضاء (غاغارين) يؤدي إلى مزايدة الخصم حتى منتهاها في حرب النجوم التي تخيلها "ريغان".

لقد استُنزف الاتحاد السوفييتي وهو يتحمل العبء الأساسي في الحرب ضد هتلر: دُمرت أخصب أراضيه في اوكرانيا على أيديَ المحتل، كما دُمرت أشد المراكز الصناعية حسماً. وكان محتماً أن تسبقه الولايات المتحدة التي حصلت، على العكس، من المذبحة الأوروبية، على أكبر الأرباح.

ولكي يصمد القادة السوفييت لمثل هذا الجهد تبنوا نموذج النمو الغربي، متنكرين بذلك لجميع وعود الاشتراكية. ولقد ماتوا من جراء ذلك بتفجر النظام.

لقيتُ غورباتشوف بعد زمن طويل من إطلاقه الجُرف الثلجي. إن إعادة الرأسمالية إلى الاتحاد السوفييتي التي تسارعت بفعل عُهْر يلتسين السياسي أمام مستشاريه الأمريكيين (من أمثال سوروس)، آتتْ ثمارها العادية وهي: تراكم الثروة في قطب من المجتمع والبؤس في قطب آخر. وتوالدت بسرعة توالد الفطور السامة، ثرواتُ "المافيا" التي جعلت من موسكو سوقاً مُغريةً "للرولز رويس"، وفي الوقت نفسه تكاثرت البطالة وتكاثر الاستبعاد والتسول والجنحة والجريمة. لحق الاتحاد السوفييتي القديم بالولايات المتحدة في نقطة ذات دلالة وهي: تجارة المخدرات التي تضاعفت أربع مرات في سنتين.

وفي حديثي مع غورباتشوف أعربت له عن الأمل الـذي ساورني عند قراءة كتابه: "البيريسترويكا"، حيث تظهر الغائية الحقيقية للاشتراكية: أن نسبغ معنىً لا على العمل وحده بل على الحياة بأسرها التي استلبتها وحدانية السوق. ثـمة معنىً جديد عندما ذكر هذا الـمثل الـذي يلخص التعارض بين تجربة العمل في نظام السوق أي الغاب، أو في النظام الإنساني أي الإلهي: "اقترب مسافر من مجموعة من الناس يشيدون بناء وسأل: "ماذا تفعلون هنا؟".

أجاب أحدهم بغضب:

- "أترى! علينا أن ننقل هذه الحجارة الـملعونة من الصباح إلى الـمساء...".

ووقف آخر وقوّم بافتخار كتفيه، وقال:

- "أترى! ها نحن نبني معبداً. (ص ٣٦ - ٣٧).

هـذا مـاميزه بعمق مـاركس: هنـاك نظـام اجتـماعي، نظـام السوق، يختزل الإنسان إلى بعده الحيواني وحده أي معالجة الوسـائل، وهنـاك نظـام مؤسّس على ماهو إنساني محض في الإنسان: إن الشعور بالغايات يسبق تنظيم الوسائل ويعطيهـا معنىً. (رأس الـمال ١ - ١٥،١). الإنسـان وعمله الـمستخدم كوسيلة، ودون شعور بالهدف وبالقيمة الإنسانية يمكن أن يحل محله حمارٌ أو آلة.

الخطأ التاريخي الـمميت لغورباتشوف كان بالضبط أنه بدأ بإصلاح الوسـائل، أي الاقتصاد، بتحريـره أي بـأن أدخـل هـذه الليبراليـة الـتي هـي الحرية الـمتروكة للأقوياء كي يفترسوا الضعفاء. ومنذئـذ استطاع اقتصـاد السوق أي الـمنظم (أو الـمختل التنظيم) بقوانين غير إنسانية في نظام يُشترى فيه كل شيء ويباع (بدءاً من الكوكايين حتـى ضمـير النـاس) تبعـاً لـلربح الـذي يمكـن أن يُنتظر منـه، أن يقـوم بتفكيك جميع العلاقات الإنسانية. ظن غورباتشوف أنه سيُصلح الاشتراكية، والذي حدث هو عودة الرأسمالية، وأسوأ من ذلك، فالراسمالية التي عادت ليست الرأسماليـة الفتية، التي توظّف، بالرغم من لا إنسانيتها العميقة، في اقتصاد واقعي، على الأقـل، خالق للـمشروعات، لكنها الرأسمالية الساقطة التي تُحوِّل فيها الـمضاربة ٨٠٪ مـن رؤوس الأموال، وحيث يحل الفساد محل التخطيط (الذي تصلّب، من جهة أخـرى، واصبح غير واقعي في هذه الـمرحلة الـمنحطة من الاتحاد السوفييتي).

هذه الأولية الممنوحة للاقتصاد الليبرالي أي إلى عالم خال من الإنسان، فكّكتْ جميعَ بنى المجتمع، معمقة التفاوتات، محطمة جميع أجهزةً الدولة لصالح القوميات المجزأة، والمصالح الاحتكارية الأجنبية، أو صنوف الجشع الفردي.

إن ذلك تجاهل لجوهر ماركسية ماركس الذي يمنح الأولية لمبادرات الإنسان التاريخية الواعية، بدلاً من تركها لحتمية قوانين السوق التي أسّست، منذ أصولها، حربَ الجميع ضد الجميع باسم الحرية المختلطة بتزاحم الوحوش الداروني.

وقد تبين لينين، بعد ماركس، الدور الأولي للوعي، لكن في روسيا ١٩١٧، لم تكن موجودة عملياً الطبقة الحاملة تاريخياً لهذا الوعي. وعندما انفجرت ثورة اكتوبر ١٩١٧، كانت الطبقة العاملة في روسيا تمثل أقل من ٣٪ من السكان الفاعلين. وهكذا أُنشِئَ حزب ذهب إلى أنه يعبر عن وعي الطبقة التي لم تكن موجودة. ومن هنا الانزلاقات اللاحقة: الحزب الذي أراد أن يكون وحيداً (بخلافاً للفكر الدائم لماركس منذ قيام الدولية الاولى) واعتبر نفسه ضمير الطبقة الواعي، ثم تكلم القادةُ باسم الحزب، وأخيراً تكلم واحدٌ باسم القيادة التي كفت عن أن تكون جماعية وأن تعبر عن إرادة جماعات القاعدة (السوفييت).

إن هذا الحزب، أكان حسناً أم سيئاً، كان يكوّن العمودَ الفقري للبلاد. كان من حيث المبدأ وعيها. وعلى هذا المستوى من الوعي يمكن أن يبدأ إصلاح النظام بثورة ثقافية حقيقية من داخل الحزب. وفي مرحلة من تاريخ الاتحاد السوفييتي (وَضَعَ فيها مستوى ثقافة القسم الأعظم من السكان، ومآثرُ باحثيه وعلمائه في بعض الميادين، من الطب إلى الاكتشافات الفضائية، كل ذلك وضع الاتحاد السوفييتي على قدم المساواة مع أعظم الدول)، كانت الساعة قد أزفت لقلب جذري لتصور الحزب ذاته؛ جميع التوجيهات لن تأتي من فوق، لكنها سوف تنبع، على العكس، من جماعات القاعدة (السوفييت، أي مجالس الفلاحين والعمال والفنانين والباحثين في شتى الميادين) لكي تستلهم دائماً مبادرةً بناء المستقبل الاشتراكي الحق تجاربَ الذين هم في صراع مع الواقع ويبغون مراقبة تطوره. هذا الخطأ الأساسي في عدم البدء بتحول جذري للحزب (لا للاقتصاد) قاد إلى النكبة.

انهار الاتحاد السوفييتي بالضبط لأنه لم يحسب حساباً لمنهج ماركس واكتفى بترديد صيغه: أبرز ماركس قوانين نمو الراسمالية الانجليزية في القرن التاسع عشر. وقد كرر القادة والمنظّرون السوفييت تكراراً أصولياً ووثوقياً نظريات ماركس مطبقين على الاتحاد السوفييتي في القرن العشرين نماذج نمو الرأسمالية الانجليزية في القرن التاسع عشر. إن تفجره لا يعني إفلاس الماركسية، وإنما إفلاس التفسير الأصولي لماركس وهو التفسير الذي قاد إلى تقليد مناهج نمو الرأسمالية التي تستند إلى استغلال ثروات ثلاثة أرباع العالم (التي تدعى العالم الثالث).

مات الاتحاد السوفييتي لأنه لم يكن أميناً لماركس ولأنه تبنى نموذج نمو الرأسمالية.

أصبحتُ ماركسياً لأن ماركس لم يخلق ديناً ولا فلسفة وإنما خلق منهجية للمبادرة التاريخية تسمح لنا بإبراز تناقضات عصر ما أو مجتمع ما، وأن نكتشف، انطلاقاً من هذا التحليل، الوسائل الكفيلة بالتغلب على تلك التناقضات.

هناك محلّلان عظيمان للرأسمالية: آدم سميث وكارل ماركس. يرى آدم سميث أنه إذا تابع كل فرد مصلحته الشخصية، فسوف تتحقق المصلحة العامة وتسمح بسعادة الجميع.

ويقول كارل ماركس الذي درس بعمق آدم سميث إن الرأسمالية الليبرالية ستخلق، بالفعل، ثروات عظيمة، لكنها ستخلق، في الوقت نفسه، بؤساً فادحاً بين الجماهير وتفاوتاً متزايداً. ومن السهل اليوم إذ يملك ١٪ من السكان في أمريكا ٤٠٪ من الثروة الوطنية، وإذ ٧٥٪ من الموارد الطبيعية في العالم هي في العالم الثالث، ولكن يُشرف عليها ويستهلكها ٢٥٪ من سكان العالم، من السهل أن نعلم من الذي كان محقاً: آدم سميث (الذي تكرر في القرن العشرين على أيدي الليبراليين المزعومين، مثل فريدمان في الولايات المتحدة أو ريمون بار (مترجمه في فرنسا) أم كارل ماركس؟ الجواب واضح، المحق هو كارل ماركس، ولذلك بقيتُ ماركسياً لأننا لا نستطيع أن نفهم الوضع الراهن في العالم وتفاوتاته المتزايدة دون استخدام مناهج ماركس لا ـ آدم سميث، أو فريدمان، أو "فون هايك".

القرن العشرون ليس إذن إفلاس اشتراكية ماركس، وإنما إفلاس نموذج للنمو خلق تلك التفاوتات بحيث أن ٤٥ مليوناً من الكائنات البشرية (منهم ١٣ مليوناً ونصف المليون أطفال ـ حسب إحصاءات "اليونيسيف") يموتون كل عام من الجوع أو من سوء التغذية. وذلك يعني أن نظام النمو الراهن في البلدان الغربية (بإدارة الولايات المتحدة) يكلّف العالم مايعادل موتى هيروشيما كل يومين. واربعين مرة ماكلّفته اوشويتز سنوياً.

أكرر: هيروشيما واحدة كل يومين. أربعين اوشويتز سنوياً.

لا يمكننا تصور إدارة أشد فجعاً للأرض الخاضعة لأسوأ عدو للإنسانية: القادة الأمريكيين، من ريغان إلى كلينتون الذين هم مع المرتزقة عندهم من الإسرائيليين والانجليز أسوأ الارهابيين في العالم. في حين أن اللغة المشتركة لدى هتلر وكلينتون ونتنياهو تدعو مقاومي الاحتلال الأجنبي: إرهابيين.

إن عكس حلم ماركس الأولي وحلم مناضلي اكتوبر ١٩١٧، نابع من الظروف الموضوعية (كما كان قديماً انحطاط المثل الأعلى "للأنوار" ولثورة ١٧٨٩ إلى "إرهاب" اليعاقبة، وإلى تعفن حكومة الإدارة، وأخيراً إلى الدكتاتورية النابوليونية. وقد خرجت فرنسا منن ذلك وهي مبلبلة معنوياً بعودة الملكية وتراجعاتها الاجتماعية وتفاوتاتها المتفاقمة (مثل روسيا اليوم بعد عودة الرأسمالية).

جاءت الانحرافات الرئيسية أولاً من التداخل المستمر بين مشكلات بناء الاشتراكية ومشكلات النمو بحكم أن الاشتراكية لم تكن تتلو رأسماليةً تامة النمو كما تصورها ماركس، وإنما كانت رأسمالية متخلفة، هي رأسمالية روسيا. وقد جعل التدخلُ الخارجي وحالة الحصار التي فرضتها البلدان الراسمالية، الوضعَ أكثر تعقيداً أيضاً.

يفخر ونستون تشرشل، في كتابه "أزمة العالم" (١٩٢٩) أنه نظم ضد جمهورية السوفييت "صليبية من ١٤ دولة".

والرقم ١٤ يذكّر بالأربعة عشر جيشاً التي جمعت بينها أوروبا في ١٧٩٢، تحت إمرة الدوق دي برونشويغ، لسحق باريس والثورة الفرنسية. وفي فرنسا،

صرح كليمانصو أنه يجب أن تـمارَس حيال روسيا الحمراء: "سياسة الأسلاك الشائكة".

وكان تشرشل أكثر هجوماً فأضاف: "وإقامة حجر صحي والانقضاض على موسكو".

كانت هذه الـمقاطعة تجويعاً للشعب الروسي (جياع الفولغا الذين خصص لهم أناتول فرانس جائزته: نوبل) وكانت مقاومة التطويق، وفرط التسلح، والتهديد الدائم من البيئة الحاقدة لقادة البلدان "الـميسورة"، تتطلب سياسة تسلح مفرطة إلى أبعد حد: قال ستالين، في عام ١٩٣٠، في الـمؤتمر السادس عشر للحزب البلشفي: "يلزمنا ١٧ مليون طن من الفولاذ... يجب أن نتدارك هذا التأخر في عشر سنوات وإلا سحقونا".

هذا الهدف بلغَه الاتحاد السوفييتي في ١٩٤١، ولكن بكلفة بشرية هائلة، بالنسبة إلى الشعب السوفييتي. لكن لو لـم يكن ذلك فمن ذا الـذي كان سيحطم الجيش النازي في ستالينغراد؟.

لاشك أن هذه السياسة الشرسة قادت إلى إضفاء الطابع العسكري وأفضت بالاقتصاد إلى الفوضى وبالناس إلى السجن. إن مجموع هذه التناقضات الداخلية والتنظيرات الأصولية أدت إلى تفجر النظام.

* * *

الحرب العالـمية الأولى التي أنهكت أوروبا، جعلت الولايات الـمتحدة قوة اقتصادية عظمى.

وكانت الحرب العالـمية الثانية أربح تجارة للولايات الـمتحدة: كانت الـمورِّدة لأوروبا، ثـم صارت، في أوروبا الـمنزوفة مرة أخرى، الـمقرضة والـموظِّفة غير العادية، فازدادت طاقتها الاقتصادية ٤٠٪ بفضل هذه الحرب العالـمية الثانية، و٧٪ بفضل الحرب الكورية.

فأي إغواء مثير للدوار عندما تنهار، في الشرق إمكانات الـمقاومة، وعندما ترضى، في الوقت نفسه، القوى الاستعمارية القديمة التي كانت متخاصمة من قبل،

انجلترا وفرنسا ـ على الأقل قادتهما ـ بدور الجندي الإضافي في الجيش الأمريكي، في مشروعات لا يتعارض فيها الآن الشرق والغرب وإنما الشمال والجنوب.

وهكذا يبدو أن عصراً من التمزق الجديد للكرة الأرضية بين غرب مؤتلف، من المحيط الهادىء إلى الاورال، يُفتتح لإدامة هيمنة الشمال على الجنوب.

وكما حقق الاستعمار الاسباني فيما مضى القتل الجماعي لهنود أمريكا بالتفوق التقني للسلاح الناري، وكما استخدم المستعمرون الانجليز السلاح الآلي لتذبيح رجال المهدي في السودان، وكما استعمل موسوليني ضد الحبشة رصاص "دمدم" المخصص للوحوش، جرّب الأمريكيون اليوم الصواريخ الموجهة بالليزر، والقنابل الخافضة للضغط التي تفجر الرئة على بعد عدة كيلو مترات، وأسلحة أخرى للدمار الشامل.

إن نسبة عدد موتى البلد الاستعماري إلى عدد موتى البلد المحتل هي دائماً كنسبة واحد إلى ألف، نظراً للتفوق التكنولوجي. كان ذلك بالنسبة إلى الاسبان والهنود الأمريكيين، وبالنسبة إلى الانجليز في الهند، وبالنسبة إلى الأمريكيين في فييتنام، والفرنسيين في افريقيا السوداء وفي الجزائر.

افتخرت القيادة الأمريكية، عند وقف إطلاق النار، في ٢٨ شباط ١٩٩١، بأنها صبت، في أربعين يوماً، ١٠٠٠٠٠ طن من المتفجرات على العراق، أي مايعادل أكثر من أربع مرات "هيروشيما".

إن محاولة المحافظة بالقوة على هذا النظام مابعد الاستعماري، الذي يُشرف فيه الغرب، بخمس سكان العالم، على ٨٠٪ من الموارد العالمية ويستهلكها والذي يتضمن فيه نموه تخلف سائر العالم، هذه المحاولة تقود إلى حرب "مئة عام" حقيقية بين الشمال والجنوب. العالم الثالث لا يمكنه أن يقبل بدماره والعالم الغني محكوم بأزمة لا يخرج منها مدمراً زُبُنه بالإفلاس والمجاعة.

وتُطلعنا إحصائيات الأمم المتحدة أن العالم الثالث، بفعل المبادلات غير المتكافئة والدَّين، يموت فيه أكثر من ٤٥ مليوناً من الكائنات البشرية بالجوع أو بسوء التغذية. إن النظام الاستعماري والقانون الذي يمنحه الديمومة، يفرضان على العالم الثالث مايعادل أربعين مرة "اوشويتز"، كل عام.

كتب القائد النقابي البرازيلي "لولا": "لقد بدأت الحربُ العالـمية الثالثة. هي حرب صامتة لكنها ليست أقل شؤماً من جراء ذلك... فبدلاً من أن يموت الجنود، يموت الأطفال، وبدلاً من ملايين الجرحى، ملايين العاطلين عن العمـل، وبدلاً من تدمير الجسور، إغلاق الـمصانع والـمدارس والـمستشفيات... إنها الحرب التي أعلنتها الولايات الـمتحدة على القارة الأمريكية وكل العالـم الثالث".

حرب الخليج كانت فقط تعبيراً أشد وحشية من هذه الحرب الدائمة. هكذا كان اتساع "هزيمة الإنسان" الـمقنّعة بأقوى غسل لأدمغة ملايين البشر بالتكرار الإعلامي الذي قدّم إقامة النظام العالـمي الذي يملك فيه الهيمنةَ العسكرية مجتمعٌ يَحْمل جميعَ سمات الانحطاط، قدمه على أنه انتصارُ الحضارة على البربرية.

ها نحن أولاء نعود إلى زمن انحطاط الجمهورية الرومانية وإقامة الامبراطورية الرومانية، باستقطاب متزايد للغنى وللبؤس: كان في روما حينئذ ٢٣٠٠٠٠ دون عمل. وكان أكبر ملاكي افريقيا الستة، في عهد نيرون، يملكون نصف أراضي هذه الـمقاطعة، كما هي الحال اليوم، في الولايات الـمتحدة، ذلك أن ٥٪ من الأمريكيين يملكون ٩٠٪ من الثروة الوطنية، وكانت جحافل روما تُنيخ بثقل نيرها من الأطلسي إلى آسيا.

نحن نعيش مرة أخرى عصر تعفن التاريخ، عصر يتميز بالسيطرة التقنية والعسكرية الساحقة لامبراطورية لا تحمل أي مشروع إنساني قادر على إعطاء الحياة والتاريخ معنىً.

كان لابد من ثلاث مئة عام من التمردات البدائية، وعلى الخصوص من تشكيل جماعات مستقلة ذات نموذج جديد، يُفلت شيئاً فشيئاً من مجسات الأخطبوط، لكي ينشأ نسيج اجتماعي جديد.

إن ولادة عالـم إنساني، انطلاقاً من "ماقبل التاريخ" الحيواني الذي مانزال نحياه تحت تأثير البربرية التي سادتها الـمعلوماتية، لا يمكن أن تتم إلا بالوعي، على مستوى الشعوب، وعي إساءة وحدانية السوق وأنبيائها الدمويين.

وكون التلاعب الإعلامي، ولاسيما التلفزيون، يمكنه أن يمنح ٢٠٠ مليون إنسان (منهم ٣٠ مليوناً يعيشون مع ذلك دون الـمستوى الإنساني) الشعورَ

الـمطمئن بأنهم خير ماقي العالـــم الجديد بـأن يكـون النمـوذج والشـرطي، علامـةً عميقة على ذلك الانحطاط الذي يعبر عن نفسه، على الـمستوى الفردي بالجريمة.

إن إحصائيات الشرطة، تكشف لنا عن أن امرأة تُغتصَب كل ثـلاث سـاعات في نيويورك، وأن رجلاً يُقتل كل ساعتين، وأن اعتداء يرتكـب كـل ثلاثين ثانيـة. وفي أمريكا الرقم القياسي لانتحار اليافعين وكذلك في مبلغ الإجـرام كمـا أن فيهـا ٢٠ مليوناً يتعاطون الـمخدرات.

ذلك هو نمط الحياة الأمريكية لكتّابنا الأخلاقيـين في اللحظـة الـتي ينظم فيهـا "بوش" صلواته من أجل صليبية النفط.

نمط الحياة هذا هو نمط تـمجيد الـمال والعنف. وثقافة اللاإنسانية هذه تصـدَّر إلى العالـم كله بالأفلام الامريكية. افلام العنف القمعي في الأفلام الـمثيرة بانهمـار طلقات الـمسدسات؛ وافلام العنف العرقي في الغرب التي تـمجد مطـاردة الهنـدي؛ وأفلام العنف الـمشهدي في أفلام الرعب.

هذه هي القوة التي تـملك زمام امبراطورية العالـم. وهذا هو اليوم مبدأ النظـام ذاته: وحدانية السوق (أي الـمال) كمنظِّم وحيد لجميع العلاقات الاجتـماعية (من الاقتصاد إلى السياسة ومن الفن إلى الأخلاق) وهي أعظم هزيمة للإنسان.

إن هـذه الحـرب الاسـتعمارية والـمقاطعة القاتلـة الـتي تديمهـا كشـفت عــن مسـؤولية القـادةن وعـن تهـافت الـمؤسسات، وأتـاحت أيضـاً أن نميـز بوضـوح مايدعوه الرئيـس "بـوش" النظـام الـدولي الجديـد (الـذي سـيكون الـمحافظة على الوضع الاستعماري الراهن، في العالـم وتعزيزه تحت الهيمنة الأمريكيـة) مـن النظـام الدولي الحقيقي الذي هو نقيضه.

ب ـ الولايات الـمتحدة، مُستعمَرة إسرائيل

العلاقات بين إسرائيل والولايات الـمتحدة ليست من نفس طبيعـة التحالفـات العادية بين الدول.

بين إسرائيل والولايات المتحدة وحدة الأصل ووحدة الأهداف، في آن واحد، واتصال لاهوتي وسياسي معاً في رؤيتهما لعلاقتهما بالعالم، سواء أكان المقصود "الشعب المختار" بالنسبة إلى الإسرائيليين أو "القدر الجلي" للولايات المتحدة.

وُلدت هذه الايديولوجية المشتركة قبل إنشاء دولة أمريكية مستقلة، عندما كانت أمريكا الشمالية ماتزال مستعمرة انجليزية، لدى منظّري "الطهرية" الانجليز.

في عام ١٦٢١، نشر قانونيٌّ شهير، عضو في البرلمان، هو السير "هنري فنش" مؤلَّفاً عنوانه: "نهضة العالم الكبرى أو: نداء إلى اليهود (ومعهم) جميع أمم الأرض وممالكها، إلى الإيمان بالمسيح". وهو يطرح جميع التأويلات الرمزية للعهد القديم، وكانت هذه التأويلات من تقاليد الكنيسة الكاثوليكية، ولاسيما منذ القديس اوغسطينوس، ويدعو إلى قراءة حرفية: "عندما يُستشهد بيهودا وصهيون والقدس (في التوراة) فإن الروح القدس لا يقصد اسرائيل الروحية ولا كنيسة الله التي تجمع المشركين أو اليهود والمشركين معاً.. وإنما يقصد اسرائيل الذي ينحدر من دم يعقوب. والأمر كذلك بالنسبة إلى عودتهم إلى أرضهم، واحتلالها من أعدائهم.. ليس المقصود هنا استعارة أو تحريراً بواسطة المسيح: ذلك يعني حقيقة وحرفياً اليهود".

في رؤية "فنش" ستحقق اسرائيل هذه تيوقراطية تامة.

في ذلك العصر أدان البرلمان هذه النظرية الألفية، كما رآها الملك جاك الأول (١٦٠٣ - ١٦٢٥) خطرة، لكنها غدت مع ذلك حجر الزاوية في الصهيونية المسيحية: عودة اليهود إلى فلسطين (الذين تحولوا إلى المسيحية. برأي البعض، مثل فنش ذاته، أو دون هذا التحول المسبق، برأي الآخرين)[1] يجب أن تسبق آخر الأزمنة (الألفية)[2] التي تشير إليها عودة المسيح.

وبالنسبة إلى الطهريّين الذين كانوا يعتبرون أنفسهم "شعب الله"، حل أبطالُ العهد القديم محل قديسي الكنيسة الكاثوليكية. وسموا أولادهم ابراهام واسحق أو يعقوب. وطالبوا بأن تصبح التوراة مجموعة القانون الانجليزي.

---

[1] كان هذا الموقف، في فرنسا، موقف البروتستانتي الكالفيني "اسحق دي لابرير" (١٥٩٤ – ١٦٧٦) في كتابه "استدعاء اليهود"، حول عودة اليهود إلى فلسطين حتى وإن لم يتحولوا إلى المسيحية.

[2] اعتقاد البعض بأن المسيح سيحكم على الأرض ألف سنة قبل قيامة الموتى: المترجم.

هذه الايديولوجية وهذه الميثولوجيا تجلت بقوة أكبر لدى الطهريين المهاجرين في أمريكا الذين تماهوا مع العبرانيين التوراتيين في المنفى: لقد فرّوا من استعباد فرعون (جاك الأول) أثناء هربهم من أرض مصر (انجلترا) ليصلوا إلى بلاد الكنعانيين الجديدة: أمريكا. وفي مطاردتهم للهندي، بغية الاستيلاء على أراضي أمريكا، استندوا إلى يشوع و"الإبادات المقدسة" (التحريم) في العهد القديم. كتب أحدهم: "من الواضح أن الله يدعو المستوطنين إلى الحرب. الهنود وقبائلهم المتحدة، يثقون بعددهم وأسلحتهم، وفرص الإيذاء، ولعلهم في ذلك مثل قبائل العمالقة والفلسطينيين الذين تحالفوا مع آخرين ضد اسرائيل"[1].

يرى طهريو أمريكا، وكذلك طهريو انجلترا، أن قراءة التوراة يجب أن تكون حرفية، وأن "الوعد" لن يتم في يسوع المسيح بمجيء مملكة الرب. وذلك لاهوت غريب بالنسبة إلى مسيحي. وأن جميع "وعود" العهد القديم تخص اليهود كعرق مرتبط بيعقوب بروابط الدم، لا "باسرائيل الرب" أي بالجامعة الروحية المنحدرة من ابراهيم لا باتصال الدم بل بجامعة الإيمان.

"الآباء المؤسسون" للولايات المتحدة، الطهريون، كانوا يعتبرون أنفسهم "شعباً مختاراً" من الله. "اسرائيل الرب" الجديدة، وهي عبارة كثيراً ماترد في التاريخ الأمريكي منذ وصول الطهريين الأوائل مع "الماي فلوأر" وتأسيس مستعمرة "بلايموت" (١٦٢٠) حتى أيامنا. وفي ١٩١٢، صرح رئيس الولايات المتحدة "تافت": "عليّ أن أحمي شعبنا وممتلكاته في المكسيك حتى تفهم الحكومة المكسيكية أن في اسرائيل إلهاً ومن الواجب طاعته".

ولكي نظهر إلى أي حد من العرقية المتوحشة يمكن أن يقود المؤرّخ إليه الاستخدامُ السياسي للتوراة، نستشهد فقط بأحد أشهر أولئك الطهريين، وهو الأمريكي "وليام فوكسويل البرايت" في كتابه: "من العصر الحجري إلى المسيحية، الوحدانية وتطورها" (الترجمة الفرنسية بايو ١٠٠٥. صفحة ٢٠٥). إنه يبرر الإبادات المقدسة في احتلال أرض كنعان. (القضاة ١ ـ ٨: "وحاربَ بنو يهوذا اورشليم

---

[1] استشهد بهذا المقطع ترومان نلسون: طُهريو ماساشوزيت: من مصر إلى الأرض الموعودة. اليهودية... مجلد ١٦، ربيع ١٩٦٧.

وأخذوها وضربوها بحد السيف وأشعلوا المدينة بالنار". "وطرداً يطرد من أمامكم الكنعانيين" (يشوع ٣ - ١٠). "وأطرد الكنعانيين" (خروج ٣٣ - ٢).

وبعد أن ذكّر بمثال طرد الهنود في بلاده، اضاف: "نحن الأمريكيين، ربما كان حقنا في الحكم على إسرائيليي القرن الثالث عشر قبل الميلاد، أقل من حق معظم الأمم الحديثة، وبالرغم من نزعتنا الإنسانية الصادقة، لأننا قد أهلكنا آلاف الهنود في جميع أنحاء بلادنا وجمعنا مَن بقي منهم في معسكرات الاعتقال".

ويضيف في حاشية الصفحة نفسها ٢٠٥، هذا الجَهْرَ بالإيمان العرقي: "إن فيلسوف التاريخ الذي هو حكَمٌ حيادي (هكذا)، يرى في الغالب أن من الضروري اختفاء شعب من نمط أدنى بوضوح، لكي يترك المكان لشعب يملك ملكات أعلى، لأن اختلاط الأعراق مفجع إذا مابلغ مستوىً معيناً". وأتاح له ذلك أن يستنتج، بصدد كنعان: كان اسرائيليو الفتح، لحسن حظ مستقبل الوحدانية، شعباً متوحشاً، أوتيَ طاقة بدائية وإرادة الحياة التي لا ترحم، لأن إهلاك الكنعانيين حال دون الذوبان التام بين الشعبين المتقاربين؛ وهذا الذوبان كان سيضعف لا محالة إلى آخر حد مذهب "يهوه".

النتائج السياسية لمثل هذا التصور واضحة وباقية، ولاسيما فيما يتصل بموقف البروتستانتيين الأمريكيين بصدد "دولة اسرائيل" الحالية.

في ١٩١٨، كتب الرئيس "ولسون" الذي تربى في هذه التقاليد، إلى الحاخام "ستيفن وايز" (رسالة في ٣١ آب ١٩١٨) ليؤكد له قبوله بتصريح بلفور مستنداً إلى الأساطير الصهيونية.

في عام ١٩٤٨، لم يعد المطلوب وعداً بوطن قومي يهودي كما جاء في تصريح بلفور، وإنما حدود دولة محسوسة، وكُتب حينئذ: "إن حدود الأرض التي وعد بها ابراهيم يجب أن تعاد خلال (الألفية). سيعود المسيح إلى الأرض في مملكة، بالمعنى الحرفي، تيوقراطية، مع حكومة مبنية بحسب الحكومة القومية الموجودة".

وعندما يتكلم في الكنيست، لأول مرة، منذ تأسيس دولة إسرائيل، رئيس الولايات المتحدة "جيمي كارتر"، في آذار ١٩٧٩، فهو يصرِّح: "إسرائيل والولايات المتحدة كوّنهما الرواد. فبلادي هي أيضاً أمة من المهاجرين

واللاجئين، وقد تشكلت من شعوب جاءت من بلاد شتى... ونحن نتقاسم تراث التوراة". وهذه المقارنة الأخيرة كان قد وضحها كارتر: "إن قيام دولة إسرائيل هو إتمام النبوءة التوراتية".

إن الدور الذي لعبته الأساطير الصهيونية، في تخيل الشعوب، ضخمٌ جداً إذن، ولا يمكن أن نفسر فعالية "اللوبي" الصهيوني، على المستوى العالمي، فقط بقوة تنظيمه وبالوسائل السياسية والمالية الهائلة التي يملكها، ولاسيما بفضل دعم الدولة الامريكية غير المشروط وغير المحدود. هذه القوة تلعب بلا جدال دوراً كبيراً، لكن قبول هذه الأساطير الفظة، عن نية حسنة في الأغلب، قبولها هي وأشد نتائجها السياسية دموية، لا يمكن أن يُفهم، إذا لم نذكّر، كما فعلنا من قبل، بالتلاعب الايديولوجي الذي مرت عليه قرون، والذي خلقت به الكنائسُ المسيحية هذه الصهيونيةَ المسيحية التي تكوّن أرضاً يسهل استغلالها من قِبَل الدعاية الصهيونية السياسية ودولة إسرائيل.

وقبل أن نتصدى لمشكلة الصهيونية السياسية النابعة من القومية والنزعة الاستعمارية ومعاداة السامية الأوروبية في القرن ١٩، والتي لا تنبع مصادرها الحقيقية من النصوص التوراتية، من المهم أن نشدد على:

ـ أن هذه الرؤية الأسطورية لفلسطين، في الصهيونية المسيحية نابعة من لاهوت مسيحي بدائي (سبق كل نقد للتفسير التوراتي الحديث) مشوّه (جاعلاً من العهد القديم نصاً تاريخياً ومعيارياً في آن واحد، وناقلاً مركز اللاهوت المسيحي بوضعه العهد القديم في المستوى الأول مكان رسالة يسوع الإنجيلية).

ـ وقد استغِلت هذه الرؤية منذ البداية (أي منذ لوثر) إما لغايات معادية للسامية (التخلص من اليهود وإرسالهم إلى فلسطين كنوع من "الغيتو" العالمي) وإما لغايات امبريالية (الإشراف الاستعماري من قبل اليهود من ذوي التنشئة الغربية، على الشرق الأوسط ومنافذه إلى آسيا)، وإما لغايات الصهيونية السياسية (التي تستند إلى الامبريالية الروسية والألمانية والفرنسية والانجليزية وأخيراً الأمريكية) لدعم مشروعها، ومستندة إلى اللاسامية لإقناع يهود "الشتات" برفض الاندماج وبالمجيء إلى فلسطين لخلق دولة قوية.

إن الحث على عودة اليهود إلى فلسطين، منذ قرون، كان، طوال قرون، من لوثر إلى بلفور، وسيلة لتنحيتهم عن البلاد التي كانوا يعيشون فيها حتى الآن.

والذي كانت حركته قطيعة مع التقاليد الكاثوليكية، وكان في أصل الصهيونية المسيحية، "مارتن لوثر"، كان له، بهذا الصدد، موقف له دلالته. ففي الوقت نفسه الذي جعلت ترجمته للتوراة الملحمة العبرية، في المستوى الأول، وكما تبرز عبر القراءة الحرفية، ودون فحص نقدي وتاريخي للعهد القديم، كان يعبر بوضوح عن خلفيته اللاسامية: فبعد أن مجّد في كتاباته الأولى مثلاً اليهود ـــ كورثة الوعد: "المسيح ولد يهودياً"، عبّرت كتاباته التي جاءت بعد ذلك عن اتجاه سيغدو منذئذ أحد الثوابت: الربط بين الصهيونية (العودة إلى فلسطين) واللاسامية (طرد اليهود من بلاده). كتب في ١٥٤٤: "مَنْ يمنع اليهود بالعودة إلى أرض يهوذا؟ لا أحد. سنقدم لهم كل مايحتاجون إليه في سفرهم، لمجرد أن نتخلص منهم. إنهم، بالنسبة إلينا، عبء ثقيل، مصيبة وجودنا..."[1].

وهذه الفكرة المبطنة التي كانت في أصل الصهيونية المسيحية كانت تسكن ذاك الذي منح الصهيونية أول انتصار لها: بلفور. فعندما كان إرثر بلفور رئيس وزراء انجلترا دافع، في عام ١٩٠٥، عن "مرسوم الأجانب" ليحد من الهجرة اليهودية إلى انجلترا. فاتهمه المؤتمر الصهيوني السابع باللاسامية المعلنة ضد كل الشعب اليهودي. هذه اللاسامية الأساسية تتفق جيداً، عنده، طوال حياته، قبل عام ١٩٠٥ وبعده، مع الفكرة الصهيونية وهي أن يعطي أرضاً لليهود (وبالذات لكي يُبعدهم عن انجلترا). وقد اقترح بلفور منذ ١٩٠٣ أن يمنحهم "اوغندا"، وفي عام ١٩١٧، وتبعاً لأهدافه الحربية ضد ألمانيا، كتب إلى اللورد روتشيلد تصريحه لصالح وطن قومي يهودي في فلسطين.

إن تاريخ فلسطين الحالي والسيطرة العالمية للصهيونية السياسية التي تقود الدول الغربية، وفي المقام الأول، سيد هذه الدول: الولايات المتحدة، إلى أن تقدم دعمها غير المشروط وغير المحدود إلى غزو الصهيونية السياسية لفلسطين، إلى الابتزازات والاغتصابات، والمجازر التي بها تمارس دولة إسرائيل الصهيونية

[1] مارتن لوثر Sametliche Werke المجلد ٣٢ ص ٩٩ و٣٥٨.

سيطرتها الاستعمارية على البلاد، إلى اعتداءاتها في الشرق الأوسط، إلى احتقارها للقوانين الدولية ولقرارات هيئة الأمم، وقبول الدول الغربية لهذه السياسة، ـ وهذا القبول تواطؤ ـ، لا شيء من ذلك يمكن فهمه إذا لم نرسم تاريخ الأسطورة الصهيونية التي صاغت، منذ أربعة قرون، عقل الشعوب الغربية.

هذه القراءة للتوراة رِجْسٌ بالنسبة إلى المسيحيين. إنها تتضمن، بالنسبة إلى اليهود، العودة إلى تصور قَبلي لإيمانهم، يُحِلُّ دولة إسرائيل محل إله اسرائيل. وهو، بالنسبة إلى المؤرخين والمفسرين يدخل في نطاق الأسطورة. وهذه الأسطورة بالنسبة إلى الجميع، صالحة لتغطية سياسة قومية واستعمارية قائمة على التمييز العنصري الذي لا حدّ له.

إن هذه الرابطة الفريدة اليوم، المكونة من الطبقة الأمريكية القائدة واللوبي الصهيوني وسادة دولة إسرائيل، مؤسسةٌ أكثر من أي وقت مضى على وحدة الهدف: الكفاح ضد الإسلام وآسيا وهما العقبتان الأساسيتان في وجه السيطرة العالمية الأمريكية الصهيونية.

هناك اتصال تام بين المقصد الأول لمؤسس الصهيونية: "تيودور هرتزل": "سوف نبني في فلسطين حصناً متقدماً ضد بربرية الشرق"، وبين الموضوع الأساسي لهوتنختون ايديولوجي البنتاغون: "الحرب العالمية القادمة ستتواجه فيها الحضارة اليهودية المسيحية والتواطؤ الإسلامي الكونفوشيوسي.

وإسرائيل، في هذا المنظور، على تخوم عالميْن، وساحة القتال التي تصلح، من جراء سياستها الاستعمارية، لأن تكون المفجر لهذه الحرب الثالثة التي ستكون هذه المرة عالمية حقاً. وتأمل الولايات المتحدة أن تكون هي المنتصرة، وعلى خرائب عشرين شعباً ستؤمّن سيطرتها الشاملة.

إن هذا الكتاب: المستقبل: نمط استخدامه، قد كُتبَ من أجل الإشعار بهذا الخطر واقتراح الوسال للإفلات من النكبة.

ولا يمكننا، بالفعل، فهم السياسة الأمريكية الحالية والهجوم الإعلامي الدولي الذي يتجه إلى فرضها على الرأي العام دون معرفة المصادر التاريخية التي يستند إليها هذا التكافل ونجاحاته.

وهي ملخصة في مقالة نشرها الصحفي "بار يوسف" في الصحيفة الإسرائيلية "معاريف" في ٢ أيلول ١٩٩٤، بعنوان: "تعزيز لا سابق له للسلطة اليهودية"[1].

"منذ بضعة اسابيع، صرح حاخام المجمع الكبير "عدات اسرائيل" في واشنطن، وهو يكرس موعظته للمركز الثقافي السياسي اليهودي الذي يتم إنشاؤه في الولايات المتحدة: "لأول مرة في تاريخ أمريكا، لم نعد نشعر أننا نعيش هنا في الشتات... لم يعد للولايات المتحدة حكومة من الغرباء، وإنما لها إدارة يشارك فيها اليهود مشاركة تامة في القرارات، على جميع المستويات. وربما كان من المناسب إعادة النظر في استعمال مصطلح "حكومة الغرباء"، في الشريعة الدينية اليهودية الذي لم يعد مقبولاً".

"إن التغيرات التي أدخلت إلى إدارة كلينتون قد عززت بالفعل السلطة اليهودية. كان ذلك محسوساً في زمن الرئيس ريغان ووزير خارجيته شولتز. رأينا وزير خارجية يهودي، هنري كيسنجر، يحظى بثقة نيكسون، وكان هناك وزراء يهود في عهد كارتر. لكن هذه كانت استثناءات تؤكد القاعدة. لقد كان القليل من اليهود "المناضلين" يُدعَون إلى المشاركة الأمريكية في الشرق الأدنى...".

"في كل صباح، في نحو السادسة، كانت عدة سيارات رسمية تنقل من مركز المخابرات المركزية الأمريكية، إلى البيت الأبيض، مسؤولين كباراً من مصلحة الاستخبارات السرية مكلفين بأن يعرضوا على الرئيس وعلى أركانه التقرير... الذي حرره في أثناء الليل خيرة الخبراء الأمريكيين انطلاقاً من الأخبار السرية الآتية من جميع مراكز المخابرات المركزية في العالم والتي تتناول الجوانب الأكثر حساسية لتطور الوضع الدولي.

"إذا كان كلينتون في واشنطن في هذه اللحظة، فهو يفحص بسرعة هذه الوثيقة مع المرسَل إليهم الآخرين: نائب الرئيس "آل غور"، مستشار مجلس الأمن القومي، "انتوني ليك"، قائد أركان البيت الأبيض "ليون بيرث"، ـ وهذان الأخيران ـ يهوديان "ملتزمان" في حوزتهما مركزان بالغا الأهمية في سياسة الولايات المتحدة.

"بين الأحد عشر عضواً في مجلس الأمن القومي سبعة منهم يهود أوكل إليهم كلينتون بصفة خاصة مهمات حساسة بين قطاعات الأمن والإدارات الأجنبية (بيرجيه)

[1] نشرت هذه المقالة فيما بعد بالفرنسية في شهر كانون الثاني ١٩٩٥ في مجلة France Pays arabes.

نائب رئيس مجلس الأمن القومي؛ "مارتان انديـك" مسؤول عن ملفات الشرق الأدنى وآسيا الجنوبية؛ دان شيفتر مسؤول عن ملف اوروبا الغربية؛ دان ستينبرج، عن ملف افريقيا؛ ريشار فنبر، عن أمريكا اللاتينية؛ وستانلي روس، عن آسيا على العموم.

"والوضع لا يختلف في المصالح المرتبطة بالرئاسة، مع المحامي العام الجديد "آبنر ميكفيه"، والمسؤول عن جدول أعمال الرئاسة "ريكي سيدمان، والرئيس المساعد لهيئة الأركان "فيل ليدا"، ومستشار الاقتصاد "روبن روبين" ومدير مصلحة وسائل الإعلام دافيد هيزر وغيرهم.. ووزيران في الوزارة يهوديان: روبير ريس للعمل وميكي كانتور للتجارة الخارجية. ويجب إضافة قائمة طويلة بمسؤولي وزارة الخارجية وبالكثير من أمناء السر الذين يعملون بإدارة دينيس روس، رئيس فريق "من أجل السلم في الشرق الأدنى".

هذا التأثير الضخم لليهود في واشنطن لا يقتصر على الأوساط الحكومية. وهو جسيم في وسائل الإعلام حيث الكثير من مسؤولي برامج التلفزيون، ومعظم رؤساء التحرير، والمراسلين والمعلقين في الصحافة يهود يترددون على المجمع حيث يحثون على دعم اسرائيل بعزم.

ومن الجدير بالملاحظة أن القابضين الرئيسيين على زمام الأمور في الدولة الأمريكية (الحرب، الشؤون الخارجية، الخدمات السرية)، كلها بأيدي الصهيونيين: م كوهين سكرتير الدولة لشؤون الدفاع، السيدة اولبرايت، على رأس الشؤون الخارجية وهي تتكلم اللغة نفسها التي يتكلمها نتنياهو، والقادة الرئيسيون الثلاثة للمخابرات المركزية الأمريكية هم صهيونيون من الطراز الأول.

ومن الملائم ألا ننسى أن ٦٠٪ من الأموال الخاصة من الحملة الانتخابية لبيل كلينتون جاءت من منظمات يهودية أمريكية (١٦ مليار فرنك)، أكثر بثلاث مرات من عام ١٩٧٢.

في عام ١٩٧٦ قررت المحكمة العليا أن كل حد مالي (من نفقات الحملة الانتخابية) يسيء إلى حرية التعبير التي يكفلها أول تعديل للدستور.

إن اللوبي الإسرائيلي في رأس قائمة "لوبي" أصحاب المصارف والنقابات وصانعي المخدرات والأسلحة. وقد غدا كليَّ القدرة. وعندما لمح كلينتون أن من

الواجب كبح سياسة الاستيطان الاستفزازية لدى نتنياهو، أرسل إليه ٨١ عضواً من أعضاء مجلس الشيوخ من أصل ١٠٠ عضو إنذاراً كي يتخلى عن كل ضغط.

ليس المقصود "اللوبي اليهودي" وإنما اللوبي الصهيوني لأن "الجمعية الأمريكية الإسرائيلية للشؤون العامة" لا تشرف إلا على ٥٥ ألف عضو من أصل الطائفة اليهودية الأمريكية التي تعدادها أكثر من خمسة ملايين شخص. لكن اللوبي يملك زمام جميع شؤون السلطة، ويديره أقوى رجال الأعمال في الولايات المتحدة. (ثقل اللوبي الموالي لإسرائيل. الموند في ٥ أيار ١٩٩٨).

لم يبق شيء غير ممكن حتى الابتزازات الممكنة حول الحياة الخاصة للرئيس كلينتون بالشهادات الكاذبة أو الحقيقية لـ"لوسيين غولدبرج"، أو "مونيكا ليونسكي". ومصير الرئيس معلق بحنث "مونيكا ليونسكي" بيمينها التي كذبت إما على القاضي "كينيث ستار" إذ أنكرت بعد قسم اليمين أن تكون لها علاقة جنسية بالرئيس، أو كذبت على صديقتها "ليندا تريب" التي افتخرت أمامها أنها عشيقته وأنها حنثت بيمينها بناء على طلبه، وهي أحاديث غدت عامة بالشهادة. وإذا استمرت على الرواية الأولى بُرِّئت ساحة كلينتون. وإذا عادت إلى الرواية الثانية قُضيَ على الرئيس لأنه طلب إليها أن تشهد شهادة كاذبة.

وهكذا فإن الرئيس كلينتون الذي غدا سجين جهاز دولته، والذي أضعفته شخصياً تصريحات الشهود الصادقة أو الكاذبة، ملزم، أكثر من سابقيه، أن يظل تابعاً لقادة دولة إسرائيل. وعليه، بالرغم من تصريحاته، أن يدع يدي "نتنياهو" حرتين في سياسة الاستيطان، وان يُبقي المقاطعة القتالة لأطفال العراق وأن يترك في الخليج أسطوله ليسحق العراق بأدنى ذريعة، مع خطر إثارة نزاع أعم وأدمى.

تلك هي نتائج استعمار دولة اسرائيل للولايات المتحدة.

ثالثاً: طريق أخرى

كانت ممكنة.

أ ـ الروّاد

من جواشيم دي فلور إلى الكاردينال دي كوز

جواشيم دي فلور (١١٣٥ ـ ١٢٠٢) راهب "كالابريّ" من القرن الثاني عشر، تصدى للمشكلة من جذورها ذاتها: تأويل المسيحية التي سادت أوروبا من القديس بولس إلى قسطنطين، والخصومات بين الكهنوت وبين الامبراطور من أجل أولية السلطة (البابا أو الامبراطور)، حتى الحملات الصليبية التي عرف انتصاراتها الزائفة (قابل ريشار قلب الأسد)، وأقسى هزائمها (كان عمره ٥٢ عاماً عندما استرد صلاح الدين القدس).

تربى في صقلية في بلاط "روجر" الثاني، حيث امتد تأثير الحضارة الإسلامية بعد انتهاء السيطرة العربية على الجزيرة (١٠٧١)، وحيث لم تكن الغزوات البيزنطية نادرة بعد انشقاق ١٠٥٤ الذي فصل روما عن الارثوذكسية الشرقية.

في هذا العهد الذهبي لصقلية، حيث أخصبت روحانيات الشرق، كان الفضل الأول لجواشيم دي فلور في تنديده بالتحالف الذي مضى عليه ألف عام بين الكنيسة والسلطة.

كتب كاتب سيرته "هنري موتو"[١] (التفسير) الجواشيمي "يتجه إلى الإطاحة بالمنظور البولسي". وبالفعل فإن جواشيم دي فلور يضع جذرياً موضع المساءلة:

١ ـ الاتصال بين العهد القديم ورسالة يسوع غير المعلنة: "لم يأت يسوع ليختتم تاريخ الخلاص ولكن ليفتتحه لإتمامه". (ص ٣٢٦ المصدر ذاته).

٢ ـ القول بجعل يسوع "المسيّا" (المسيح) الذي ينتظره اليهود، وبالتالي يجعل هذا المسيح مؤسس كنيسة ستدوم، كما سيقول القديس توما (في المجمل اللاهوتي) "إلى آخر الأزمنة".

---

(١) هنري موتو: تجلّي الروح بحسب جواشيم دي فلور. (مطبوعات ديلاشو وبتستليه. نيوشاتيل ١٩٧٧ ص ٢٠٩.

لا يقبل جواشيم دي فلور هذه المسيحية الممهّدة على يد بولس. بل إنه كتب، ليشير إلى هذه القطيعة، "ضد اليهودية". وهو يشدد، بخلاف ذلك، على مراحل هذا الخلاص: "إذا كان نص العهد القديم قد عُهد به إلى اليهود، فإن نص العهد الجديد عهد به إلى الشعب الروماني، بينما العقل الروحاني ينبثق منهما كليهما (كونكورديا ٢ ـ ١ ـ ٧ ـ ٩ب).

إن الثالوث منتشر في التاريخ على النحو التالي:

ـ عهد الآب وهو عهد الشريعة.

ـ عهد الابن وهو عهد النعمة.

ـ عهد الروح الذي سيكون عهد الحرية (C.V.b.c. ١١٢ ـ ٨٤).

إن هذا التصور للثالوث قد أُدين في ١٢١٥ من قبل مجمع "لاتران"، لأن العهد الثالث يشكل هدماً للكنيسة الرومانية ولسلطة كهنوته؛ إنها تختفي في عهد "البشارة الأبدية" (رؤيا يوحنا اللاهوتي ١٤ ـ ٦) حيث الله هو الكل في الجميع فتغدو لاغية جميع السلطات السابقة: إذا تحول الانجيل إلى شريعة، وإن كانت جديدة، فإن المسيحية كلها ستغرق في يهودية جديدة (تراكتانوس ١٩٧. ٢ ـ ٣).

يمثل جواشيم دي فلور، بعكس البولسية القسطنطينية، القطب الرؤيوي للأناجيل.

وهو، بهذه الصفة، رائد انفتاح مزدوج للمسيحية التقليدية.

١ ـ ليس فقط انفتاح الرفض الكبير للاهوت السيطرة الروماني الذي عبر عن نفسه في إصلاح لوثر، وإنما أيضاً بثورة "توما فنزر" الذي استند إليه ليفتتح منظور عالم بلا كنيسة ولا تملّك ولا دولة، وهو مشروعٌ نذيرٌ رأى فيه ماركس وانجلز البرنامج الشيوعي الأكثر جذرية حتى منتصف القرن التاسع عشر أي حتى بيانهم الشيوعي (انجلز. حرب الفلاحين. الخاتمة).

٢ ـ طموحه إلى شمولية الإيمان. سافر جواشيم دي فلور إلى القسطنطينية وحلم بإعادة وحدة الإيمان بعد انشقاق كنائس الشرق.

وكان بوسعه أن يجد لدى الآباء الشرقيين الخطوط الأولى لرؤيته الخاصة: "في تاريخ العالم، كان هناك تحولان يُدعيان العهد القديم والعهد الجديد، الأول نقل

الناس من الوثنية إلى الإيمان، والثاني نقلهم من الشريعة إلى الإنجيل، وثمة هزة ثالثة موعودة.. (سان غريغوار النيسي، مقالات لاهوتية ٧٠١٥) يمكن أن تستند إلى انجيل يوحنا الذي كثيراً ماذكره جواشيم دي فلور، يسوع ينذر فيه تلاميذه:

"إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متى جاء ذاك روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق... ويخبركم بأمور آتية". (يوحنا ـ ١٦ ـ ١٢ ـ ١٣).

زار جواشيم دي فلور فلسطين، وبما أنه تشبع في نشأته الاولى، في صقلية، بالثقافة العربية الاسلامية، فقد احتفظ بالفكرة الرئيسية لهذه الفلسفة: إن الله لم يخلق العالم نهائياً ولم يجمّد التاريخ في قبول "وجود" الخق الإلهي، وإنما، على العكس، في الفعل القائم على كرامة الإنسان، ومشاركته في الفعل الخالق لله الذي "يبدأ الخلق ثم يعيده". (٣٠ ـ ١١)، (١٠ ـ ٤).

إن دينامية الخلق المستمر هذه ومشاركة الإنسان المسكون بالله، ستكون القاسم المشترك، من "رامون لول" إلى الكردينال "نيكولا دي كوز"، ومن لاهوت الأمل إلى لاهوت التحرر، وجميع المحاولات المسكونية الحقيقية، أي الكلية التي تجمع إيمان جميع أُسَر الأرض.

أحلَّ "دانتي" "جواشيم دي فلور" في السماء الرابعة من فردوسه وحيا فيه روحه النبوية.

* * *

هذا الأمل العظيم بالشمولية الحقيقية وبوحدة الإيمان، عادت إلى الحياة بعد نصف قرن من موت جواشيم دي فلور، في جزيرة أخرى من المتوسط "مايورقه" حيث ظلت الحضارة العربية الإسلامية حية بالرغم من الاحتلال الاسباني.

"رامون لول" (١٢٣٢ ـ ١٣١٦) اضطرّ هو أيضاً إلى محاربة الأصولية والقمع: وُلد في السنة نفسها التي أُوكل فيها أمر محاكم التفتيش إلى "الدومينيكان". وكان عمره اثني عشر عاماً عندما أُحرق أواخر المانويين على محارق "مونسيغور". وكان عمره ٤٢ عاماً في ١٢٧٤ عندما نشر "توما الاكويني" "المجمل اللاهوتي".

وبلغ ٥٩ عاماً عندما أُجبر أواخر الصليبيين على العودة إلى أوروبا بحراً في عكـا، في عام ١٤١٩، بعد إخفاق الحملة الصليبية الثامنة.

مات في عام ١٣١٦، لكن حُكِمَ على فكره بالهرطقة في عام ١٣٧٦، من قبل البابا غريغوار الحادي عشر، ولـم يعد إليه اعتباره إلا في عام ١٤١٩، على يد البابـا "مارتين" الخامس.

تسود أعماله روحٌ تبشيرية: فقـد أقسـم منـذ اعتناقـه الخـاص "ألا يمنـح نفسـه راحة ولا عزاء مادام العالـم بأسـره لـم يمجـد اللـه الثـالوث والواحـد". (تـأملات حرة، ٣٥٨، ٣٠) وذلك لا بالإكراه والعنـف بـل، علـى العكـس، بـأن جعـل مـن نفسه وكيلاً لغير الـمؤمنين.

ولكي يكون الـمرء أكثر إقناعاً، ابتكر "الفـن الأعظـم"، وهـو منهـج للتفكـير الشامل، ولا علاقة له مع منطق أرسطو والقديس توما، لكنه يشكل الخطوط الأولى لـمحاولة ليبنيز التركيبية التي تابع فيها حلـمه بلغة شاملة.

وكما أن ليبنتز اهتـم، من أجل بلوغ هذا الهدف باللغة الصينيـة وبسداسـيات "بي كنـغ"، فكذلـك ترجـم "رامـون لـول"، في عـام ١٢٧٦، منطـق الفيلســوف الإسلامي "الغـزالي"، واستلهم تصـوّف الـمتصوفين، فكتـب "كتـاب ايفاسـت وبلاكرن"، وهو في آن واحد رواية وطوباوية، وهـو يستحضر الـمسيرة الروحيـة للإنسان، كما يستحضر صورة مجتمعٍ مثاليٍ يضمّ الإنسانية بأسرها ويؤمّـن السـلام للجميع.

وانطلاقاً من هنا، سيكون بوسع الإنسان أن يكرس نفسه للتأمل وأن يكتشف الله في الـمحبة. إنه كتاب الصديق والـمعشوق. والـمعشوق هو الله الـذي صار إنساناً وصُلِبَ.

ولكي يُقنع الـمسلـمين، في عـام ١٣٠٧، في "بوجـي"، استعار مـن مخاطبيه طرائقهم ولغتهـم كمـا أظهـر ذلـك أكـبر الـمستعربين الاسـبان: "جوليـان ريـبيرا" و"آسين بالاسيوس".

وهو يستخدم أيضاً لغتهم فيكتب بالعربية في عام ١٢٧٠ "كتاب الوثني والحكماء الثلاثة". والحكماء الثلاثة هم: حاخام، وكاهن مسيحي وعربي مسلم. وهم يحاولون أن يهدوا الوثني إلى الإيمان.

في بادىء الأمر، حار الوثني بخلافاتهم، وانضم إليهم في نهاية الأمر بإيمان مشترك عندما اعترف أحدهم: "الناس متجذرون في الإيمان الذي اختاره لهم أهلهم ومعلموهم إلى حد كبير يستحيل معه انتزاعهم منه". وبالمقابل، هناك إيمان أساسي وأولي، عبر تنوع الثقافات، وقد تقبّلها الوثني دون أن يطمع الحكماء في معرفة أي الديانات الثلاث اختار. قال أحدهم مختتماً: "يجب أن نستفيد من المغامرة التي عشناها قبل قليل. وسوف نلتقي إلى أن يصبح لنا نحن الثلاثة إيمان واحد".

في مبدأ وفي نهاية رؤية "رامون لول"، هناك المحبة التي بها يعي المتناهي عدم كفايته بالنسبة إلى اللامتناهي الذي يطمح إليه. إنها محرك حياته: الوجود هو الفعل لتجاوز تناهيه، أي لكي يعمل من أجل انسجام العالم بأن يكتشف أن الله فينا هو أكثر مافينا حميمية، وهو يدعونا إلى متابعة عمله لخلق وحدة الذات والعالم والله.

* * *

آخر حلم عظيم بالكلية مبني على الإخصاب المتبادل بين الثقافات والديانات، بوحدة سمفونية للعالم لا بوحدة السيطرة الامبراطورية، أي بقطيعة مع المركزية العرقية الرومانية ثم الغربية، كان حلم الكردينال دي كوز (١٤٠١ ـ ١٤٦٤) في كتابه: سلام الايمان الذي طُبع في عام ١٤٣٥، في السنة نفسها التي استولى فيها الترك على القسطنطينية، وهي عاصمة مملكة ذات تقاليد رومانية، في إطار يوناني.

كان للانتصار التركي في اوروبا بأسرها دويٌّ هائل، لأنه بدا وكأنه انتصار الإسلام على المسيحية.

وبدلاً من أن يستدعي الكاردينال نيكولا دي كوز حملات صليبية جديدة تجرّأ فردّ "بسلام الإيمان" المؤسَّس على مبدأين أساسيين لكل حوار حقيقي وهما مبينان في الفصل الخامس من الكتاب:

١ ـ "مامن مخلوق يمكنه أن يحيط بتصور وحدة الله".
٢ ـ "ليس هناك سوى دين واحد في تنوع الممارسات الدينية".

وهكذا نراه يميل إلى تحديد إيمان أساسي وشامل وحدته مقنّعة بقناع تنوع الثقافات التي يعبر عن نفسه بها: "ليس إيماناً آخر ماتجده كامناً لدى جميع الشعوب لكنه الإيمان الوحيد نفسه". (الفصل الرابع).

ولم يكن ذلك استبعاداً للحملة الصليبية فحسب، لكنه كان تغيراً في دور التبشير: فبدلاً من ممارسة الاستعمار الثقافي للآخر، ينبغي للمبشر المسيحي أولاً أن يعترف بأن يسوع حي وحاضر وفاعل في تنوع العبادات والثقافات.

ومن هنا مشروعُ مجمعٍ شاملٍ لجميع ديانات العالم، مجمع يبني سلاماً دائماً بين الشعوب بوعي الإيمان المشترك الذي يحترم تنوع مقارباته، لأننا "نجد الوحدة قبل كل تعدد". (الفصل الرابع).

وقبل كل شيء الوحدة العميقة للإنسان والله، كما تصورتها الكنيسة الشرقية التي عرفها نيكولا دي كوز، لا بقراءة الآباء اليونانيين فقط وإنما بالتجربة الحية التي عاشها حول الإيمان الارثوذكسي، أثناء سفره إلى القسطنطينية في عام ١٤٣٧.

أول مداخلة، بعد مداخلة اليوناني، في هذا المجمع، كانت لرجل غير مسيحي: كان هندياً يعلن أن الناس ليسوا الله إطلاقاً لكنهم الآلهة بالمشاركة. فيُشدّد الكلداني: "نحن نرى في جوهر المحبة كيف يجمع المعشوق بين العاشق والعشق". (الفصل ٨).

ومنذئذ، تقول "الكلمة" في "سلام الإيمان" (الفصل ٩)، سيفهم العرب أن "قبول الثالوث إنكارٌ لتعدد الآلهة".

وأضاف الفارسي (الفصل ١١)، على ذلك أن: "بين جميع الأنبياء يسوع أعظمهم، ومن حقه أن يدعى إذن "كلمة الله". وهكذا يدعوه القرآن على كل حال". (الفصل ١٢).

وفي الرسالة التي أرسلها نيكولا دي كوز في كانون الأول ١٤٥٣، إلى جان دي سيغوفي، رئيس أساقفة قيصرية، حَمِدَ له انكبابه على "دراسة القرآن دراسة

نقدية": "ويجب محاورتهم لا محاربتهم"، وكتب هو نفسه في ١٤٦١ دراسة نقدية للقرآن بحث فيها، تحت الصيغ التنازعية، عما يتفق مع إيمانه الخاص به.

ليس في هذا البحث عن الإيمان الأساسي والأولي عبر تنوع الديانات، أية انتقائية: يتصدى الكاردينال دي كوز لهذا الحوار انطلاقاً من تأمل عميق، (في كتابه الجهل العالم ١٤٤٠)، حول المعرفة التي تعارض فلسفة الوجود اليونانية ومنطق أرسطو، لأنها مبنية في آن معاً على تصور الواحد الذي لا يستبعد التعدد ولا التناقض، وعلى وعي حاد بعلاقات المتناهي باللامتناهي، الإنسان بالله، وقد تجلى له هذا الكشف الفلسفي في أثناء سفره إلى الشرق في ١٤٣٧ و١٤٣٨.

وخلافاً للأرسطية وللمنطق المدرسي الذي كان سائداً في زمانه، صاغ مبدأ تلاقي الأضداد.

ليس الفكر عنده انعكاساً "للوجود"، إنه فعل: فعل الكائن المتناهي الذي يجهد في أن يتفكر في كلية علاقاته مع الآخرين، وأن يعي أنه غير موجود، خارج علاقاته بالآخرين وبالله.

هذا التأمل الروحي يتجذر في تفكير رياضيٍّ حول مفهوم اللامتناهي: إن المثلث الذي يكون ضلع منه غير متناه، سيكون شبيهاً بالخط المستقيم، كما أن كل دائرة إذا كان قطرها غير متناه فإن كل قطاع من محيط الدائرة، كل منحنىً في شكلٍ متناه سيكون خطاً مستقيماً. كما ان كل مضلّع قسّمت أضلاعه إلى أقسام غير متناهية يصبح دائرة.

وهكذا فكل الأشياء إذا فُكّر فيها تبعاً للامتناهي، تبعاً لله الذي هو "في فعل كل مايمكن أن يكون"، واحدة في غيريتها وفي تعددها. "الأشياء المنظورة صورُ الأشياء غير المنظورة" (١ ـ ١١). "والجهل العالم" ليس سوى الإيمان، رؤية كل شيء في الله، أي في تمام علاقاته مع الكل، والشعور بعلاقته باللامتناهي. وبهذه الطريقة، يلتقي مع "المعلم ايكهارت"، وينظر في الزمان: هنا أيضاً، إذا تأملنا التاريخ من وجهة نظر اللامتناهي: إذا نظرنا إلى الأشياء في الله (الذي هو فيما وراء الزمن) فالماضي والمستقبل ليسا سوى تعميمين للحاضر؛ حتى إنه "من وجهة نظر الله ــ كما يقول المعلم ايكهارت ــ تكون لحظة خلق العالم،

واللحظة التي أكلمكَ فيها، ولحظة يوم الحساب الأخير لحظة واحدة هي نفسها". (العظة ٩).

في نظر اللامتناهي، اللحظة تضارع الأبد. "لأن اللامتناهي يجعلنا نتجاوز تماماً كل تعارض" (الفصل ١٦)، مثل انحناء الدائرة الذي يصبح، في اللامتناهي، خطاً مستقيماً، كالمثلث. وكذلك الأمر لكل شكل ولكل خط: "اللامتناهي في "فعل" كل ماهو في المتناهي في "قوة" (الفصل ١٣).

"اللامتناهي يجعلنا نتجاوز كل تعارض" (الفصل ١٦). "الكلُّ في الله والله في الكل". (الفصل ٣). كل شيء هو في جميع الأشياء الأخرى ولا يوجد إلا بها. وكذلك هي "حركة الاتصال العاشقة التي تحمل كل شيء نحو الوحدة لتشكل، هي كلها، الكون". (الفصل ٠).

يقول نيكولا دي كوز، في عبارة تُنسَب أبوتُها خطأً إلى باسكال: "بنْيةُ العالم مركزُها في كل مكان ومحيطها ليس له مكان لأن الله محيط ومركز، هو الذي في كل مكان وفي غير مكان". (١١ ـ ١٢).

في منظور وحدة الأضداد هذه، موتُ المسيح هو ضمان الخلود.

أما بالنسبة إلينا، في تناهينا، ليس يمكن بلوغ وحدة التعدد إلا بالصور: كل تصوير أو تعريف لله يرده إلى أبعادنا كمخلوقات متناهية. كل لاهوت فهو بالضرورة سلبي: كل ماأستطيع أن أقوله عن الله هو لا محالة وثن. لا أستطيع أن أقول إلا ماليس إياه: لا شيء متناه في نظر اللامتناهي.

ولا أستطيع إدراكه بالمعاني المجردة. وهكذا فإن "الإيمان بداية المعرفة العقلية" (٣. الفصل ١١) وايضاً هو نهايتها لأن وعي عدم قدرتنا على ذلك البلوغ يجعل منها مسلمة (هي في آن واحد ضرورية ولا تمكن البرهنة عليها عقلياً). "هذه هي الحقائق التي تتكشف على درجات لمن يرتفع إلى يسوع بالإيمان، الإيمان الذي لا سبيل إلى تفسير فعاليته الإلهية". (٣ الفصل ١١).

الجهل العالم يعارض الجهل المتعجرف المدعي كما هو في فلسفة "الوجود" لأرسطو، وكما سيكون فلاسفة الوجود من مثل ديكارت وأوغست كونت.

إنه يؤسس سلام الإيمان بفهمه لجميع الوثنيات: "كان الوثنيون يدعون اللـه بطرائق شتى، من وجهة نظر الخلق المتناهي... جميع هـذه الأسمـاء هـي كمـالات خاصة... كانوا يرونه حيث يرون أعماله الإلهية". (١ ـ الفصل ٢٥).

النزعة الشمولية هذه سوف تدمَّر، بعد قرن، من قبل انشـقاق الغـرب الثـاني: بعد فلسفة الوجود التي عبر عنها أفلاطون وأرسطو، والتي عُبِّر عنها في عقل النهضة التقني. حينئذ تصور الغرب علـماً لا يهـدف إلا إلى الزيـادة الكميـة للوسـائل الـتي تنسى البحث عن الغايات.

* * *

ب) - الفرص المضيّعة

من توماس مور إلى مونتينيي

منذ أوائل هذا العصر التاريخي الذي يبدأ، في عام ١٤٩٢، بغزو أمريكا، كان هناك رجال أدركوا معنى البربرية الجديدة للغرب الذي كان يعتبر نفسه الحضارة الممكنة الوحيدة والحاملة الوحيدة للحداثة، وأظهروا أن الغرب قد ضلَّ طريقه في هذه اللحظة من انكسار التاريخ.

كان هؤلاء أشد العقول صفاء في تلك الحقبة، من مثل الأسقف "بارتولومي دي لازكازاس"، ابن أحد رفاق كريستوف كولومبس، وأول كاهن رُسِمَ في أمريكا وأول أسقف لـ"تسياباس" والذي كتب في كتابه "تدمير الهند": "البربرية جاءت من أوروبا".

أبلغ الشهود كان توماس مور (١٤٧٨ - ١٥٣٥) الذي كتب أول "يوطوبيا" لأوروبا. ولم تكن رؤيته للمستقبل مصنوعة من الأحلام الذاتية ومن النزوات الخيالية.

الكتاب الأول من "اليوطوبيا" هو، على العكس، تحليل عميق للانتقال الذي يجري على مرأى منه، في انجلترا، من المجتمع الإقطاعي والزراعي إلى الرأسمالية التجارية التي آذنت بها صناعة الصوف.

كان محامياً لاتحاد تجار الخردوات، وكان على معرفة بجميع آليات تجارة الصوف مع الفلاماندين الذين أرسل إليهم سفيراً، في "آنفير" لتصفية مجموع القضايا المتنازع عليها مع النسّاجين. ثم ليُهدّئ النزاعات بين التجار الانجليز والفرنسيين. وكان عضواً في البرلمان فتخصص في مراقبة نفقات الدولة.

وعند مجيء هنري الثامن، تجرأ توماس مور على أن يأمل — كما كتب — أن يصبح الملك "أباً للشعب لا سيداً لعبيد". وفي ١٥٢٩، وصل إلى أعلى منصب في انجلترا: مستشار المملكة. لكنه رفض رفضاً قاطعاً طلاق هنري الثامن من "كاترين اسبانيا". كما رفض، فوق ذلك، بصفته كاثوليكياً أميناً لكاثوليكيته، قرارَ الأسبقية

في عام ١٥٣٣ الذي يجعل من الملك الرئيس الأعلى للكنيسة الانجليكانية. وإذ أتهم بمعارضته التي لا تعرف اللين سقط رأسه تحت فأس الجلاد في ٦ حزيران ١٥٣٤.

وهكذا فإن أول "يوطوبيا" تحتوي على بذور فكر جميع الاشتراكيات الاوروبية، ليست من عمل حالم، بل من عمل إنسان ضمن اختصاصه، إنسان عرف، على جميع مستويات المسؤولية التي بلغها حتى أعلى المستويات، بدايات الرأسمالية التجارية وعاشها. وقد حلّل آلياتها وآثارها المنحرفة.

القسم الأول من "يوطوبياه" مكرّسٌ لفحص التحول الانجليزي. فلتغذية تجارة الصوف احتكر الإقطاعيون القدماء والتجار الأغنياء الأراضي التي يمارس فيها الفلاحون الصغار الزراعات الموفّرة للقوت، وطردوهم من مزارعهم، وسوّروا (بموجب صكوك التسوير) مساحات عريضة ليربوا فيها الخراف من أجل سوق الصوف. وقد وصف توماس مور وصفاً دقيقاً ومأساوياً عملية الرأسمالية الناشئة هذه: "وهكذا فإن شحيحاً جائعاً يحيط آلاف (الآربنتات) بسور واحد: وطُرد مزارعون شرفاء من بيوتهم، بعضهم بالغش، وبعضهم بالعنف، وأحسنهم حظاً بالمضايقات والإزعاجات التي تجبرهم على بيع ممتلكاتهم. وهذه الأسر، وعددها يفوق غناها، (لأن الزراعة بحاجة إلى الكثير من الأيدي) تهاجر عبر الأرياف، نساء ورجالاً، أرامل ويتامى، آباء وأمهات مع الأطفال الصغار. وهؤلاء البؤساء يهربون وهم يبكون على السقف الذي شهد ولادتهم، والأرض التي أطعمتهم، ولا يجدون مكاناً يأوون إليه. وحينئذ يبيعون كل ماستطاعوا حمله من أغراضهم، وهي سلع ثمنها تافه. وإذا مانفذ هذا المورد، ماذا يبقى لهم؟ السرقة ثم الشنق في المزارع"[1].

"اكبحوا أنانية الأغنياء الشحيحة: اسحبوا منهم حق الاحتكار والاستئثار. نمّوا الزراعة تنمية عريضة؛ أنشئوا مصانع الصوف وغيرها من فروع الصناعة التي

[1] لخّص توماس مور هذا الانتقال إلى الرأسمالية التجارية التي كانت تسيطر عليها آنذاك تجارة الصوف، بهذه الصورة: "إن القطعان التي لا تحصى للخراف والتي تغطي اليوم انجلترا كلها... تأكل حتى الناس وتخلي الأرياف والمنازل والقرى من أهلها.

يأتي إليها من أجل العمل المفيد هذا الجمهورُ من الناس الذين جعل منهم البؤس، حتى الآن، لصوصاً أو متشردين"(٢).

أما رده على الذين لا يرون سوى "المشنقة عائقاً ضد التشرد، فكان: "إن قناعتي الصميمة أن من الظلم أن يُقتَل إنسان لأنه سرق مالاً، بما أن المجتمع الإنساني لا يمكن أن ينظّم بطريقة تكفل لكل واحد حصة مساوية من الخيرات".

وهاهي ذي الأطروحة المركزية التي تبرز من نقد النظام القائم في انجلترا بانتصار الرأسمالية:

"في كل مكان يكون فيه التملك حقاً فردياً، وتقاس فيه جميع الأشياء بالمال، لا يمكن أبداً تنظيم العدالة والملكية الاجتماعية، إلا إذا دعوت المجتمعَ الذي يكون خير مافيه من نصيب الأشرار، مجتمعاً عادلاً، وإلا إذا قدرت أن الدولة التامة السعادة هي التي تكون فيها الثروةُ العامة فريسةً لحفنة من الأفراد الذين لا يشبعون من المتع، بينما ينهش البؤسُ الجماهير.

"المساواة، في اعتقادي، مستحيلة في دولة يكون فيها التملك خاصاً ومطلقاً؛ لأن كل واحد يتوسل فيها بشتى الألقاب والحقوق لكي يجذب إلى نفسه كل مايستطيع جذبه، والثروة الوطنية، مهما تكن عظيمة، تنتهي بأن تقع بين أيدي عدد طفيف من الأفراد الذين لا يتركون لغيرهم سوى الفاقة والبؤس.

"وهذا مايقنعني قناعة لا تُقهر أن الوسيلة الوحيدة لتوزيع الخيرات بالمساواة وبالعدالة، ولتكوين سعادة النوع البشري، هي إلغاء الملكية. فما دام حق التملك أساساً للبناء الاجتماعي فإن الطبقة الأكثر عدداً والأجدر بالتقدير لن يكون لها نصيب في غير القحط والعذاب واليأس.

"ولذلك فعندما أنظر وألاحظ الجمهوريات المزدهرة اليوم، لا أرى فيها سوى تآمر الأغنياء الذين يدبرون أعمالهم التجارية كأحسن مايكون التدبير تحت ذلك الاسم الفخم، اسم الجمهورية. ويسعى المتآمرون بجميع الحيل والوسائل

(٢) ثمة شهادة أخرى على هذه البربرية إزاء الفلاحين الذين تنتزع الاحتكارات ملكيتها منهم، تأتي هذه المرة من أمريكا في رواية "جون شتاينبك" "عنب الغضب" طبعة غاليمار. والفيلم الذي أخذه عنها "جون فورد".

الممكنة إلى بلوغ هذا الهدف المزدوج: أولاً أن يُؤمّنوا لأنفسهم ملكية مؤكدة وغير محددة لثروة مكتسبة اكتساباً سيئاً على نحو ما؛ ثانياً أن يستغلوا بؤس الفقراء وأشخاصهم، وأن يشتروا بأبخس الأسعار صناعتهم وأعمالهم. وهذه المكائد التي يسنها الأغنياء باسم الدولة ومن ثم باسم الفقراء ذاته، أصبحت قوانين".

ولا يعارض توماس مور هذا المجتمع القائم على سلطة السوق والمال المطلقة بالأحلام الرومانسية. إنه يريد أن يكون تجريبياً في مشاريعه وفي نقده على حد سواء.

وهو يُظهر أن مجتمعاً مختلفاً جذرياً في مبدئه ذاته، مجتمعٌ ممكنٌ. وهو ممكن لأنه موجود، حتى مع مافيه من نقص، في العالم الجديد.

هناك شكل من النمو ليس هدفه تراكم الذهب وإنما تفتح الإنسان: "في هذا النمو الكامل ينشئون قِوام سعادتهم". (الكتاب الثاني).

المصدر الأول لمعلومات توماس مور هو تقارير "امريغو فيسبوسي" (الذي أعطى أمريكا اسمه) عن سفراته الأربع إلى العالم الجديد، المنشورة في ١٥٠٧، وايضاً من شهود العيان مثل مُحاوره "رافائيل" الذي يقول لنا عنه: "البرتغال بلده. وقد تخلى، وهو شاب، عن كل مايملك لإخوته؛ كانت تنهشه الرغبة في أن يجوب العالم، فتعلّق بشخص امريغو فسبيوسي ومصيره. ولم يترك لحظة واحدة هذا البحار الكبير خلال رحلاته الثلاث الأخيرة من الرحلات الأربعة التي نقرأ اليوم في كل مكان أخبارها". (الكتاب الأول).

قال له رافائيل: "لا يمكن لخيالك أن يكوّن فكرة عن مثل هذه الجمهورية، أو انه لن يكوّن سوى فكرة خاطئة. ولو أنك كنت في هذه "اليوطوبيا"، ولو أنك شهدت مؤسساتها وأخلاقها، مثلي وقد قضيتُ فيها خمس سنوات من حياتي ولم أستطع أن أقرر المجيء إلا لكي أكشف للعالم القديم عن هذا العالم الجديد، إذن لاعترفت أنه لا يوجد في أي مكان مجتمعٌ منظم مثل هذا التنظيم الكامل.

ويقول توماس مور: "لقد لاحظ فيه عدداً كبيراً من القوانين القادرة على إنارة وإحياء الأمم والممالك الشائخة في أوروبا القديمة... وكم من القرون ستلزمنا لنستعير منهم أكمل مافي حضارتهم".

وخلافاً لاقتصاديي الرأسمالية الناشئة الذين يعتبرون قوانين السوق قوانين طبيعية يكتشف رافائيل "شعوباً ومدناً وبلدات... تختلف اختلافاً تاماً عن مؤسسات قارتنا التي يُعبَد فيها الذهب كالإله، ويُبْحَث عنه وكأنه الخير الأسمى... كل شيء يبعث على اعتبار الذهب والفضة حقيرين". بل ليس لديهم نقد: "ليس للذهب والفضة أية مزية، أي استعمال، أية ملكية... اية قيمة إلا مامنحتهما إياه الطبيعة... الجنون الإنساني هو الذي أعطى ندرتهما هذا الثمن الباهظ".

البخل، في "يوطوبيا"، غير ممكن، إذ ليس للمال فيها أي استعمال؛ ومن هنا كم انضبتْ هذه "اليوطوبيا" من منبع ثر للحزن! ومن لا يعلم.. بالفعل أن الغش والسرقات والنهب والمشاجرات والصخب والمنازعات والعصيان والقتل والخيانة والتسميم، ان جميع هذه الجرائم التي يثأر لها المجتمع بالتعذيب المستمر دون أن يتمكن من اتقائها ستزول في اليوم الذي يختفي فيه المال؟ حينئذ سيختفي الخوف والقلق والرعاية والمتاعب والسهر. إن الفقر نفسه الذي يبدو أنه وحده بحاجة إلى المال، الفقر سيخفّ في اللحظة نفسها، لو أُلغي المال كلياً".

وعلى نقيض مجتمعاتنا التي يكون فيها الغنى مقياس كل شيء: "مايقلب له أفكاره جميعاً هو الأساس الذي قام عليه بناء هذه الجمهورية الغربية، عنيت جماعية الحياة والخيرات دون تعامل بالمال".

في المجتمع الذي يغدو فيه المال هو الناظم لجميع العلاقات الاجتماعية، كلٌّ إنسان مزاحمٌ وخصمٌ، وما من جماعية ممكنة. الفردية وحدها تنتصر حيث ماتضيفه إلى مايملكه فردٌ، فإنما تنتزعه مما يملكه جاره".

نقيض هذه الفردية هي الجماعية أي المجتمع الذي يحس فيه كل فرد بأنه مسؤول عن جميع الآخرين.

كتب توماس مور: "في مكان آخر: "مبدأ مايخصك وما يخصني يكرسه تنظيم آليته معقدة بقدر ماهي فاسدة. آلاف القوانين لا تكفي لكي يتمكن كل فرد من الحصول على ملكية. والدفاع عنها، وتمييزها من ملكية الآخرين".

ويتابع رافائيل: "حاولتُ أن أصف لك شكل هذه الجمهورية التي لا أعتقد أنها الفضلى فحسب، وإنما هي أيضاً التي يمكنها أن تنسب لنفسها بحق اسم الجمهورية. لأن الذين يتحدثون عن المصلحة العامة في أي مكان آخر لا يفكرون إلا في مصلحتهم الخاصة؛ في حين أن الجميع لا يملكون هنا شيئاً خاصاً وإنما يهتمون اهتماماً جاداً بالشأن العام، لأن الملك الخاص هنا يختلط حقيقة بالملك العام.

في "اليوطوبيا" حيث كل شيء ملكٌ للجميع، لا يمكن أن يحتاج أحد إلى شيء، متى مالامتلأت المخازن العامة. لأن ثروة الدولة لا توزع في هذا البلد توزيعاً ظالماً؛ ولا يُرى فيه فقير أو متسول.

كان لرفض الترف وغير النافع النتيجة التالية: "لا يمارس السكان سوى المهن النافعة"، على نقيض المجتمعات التي تولّد فيها شهوة الاستهلاك النزعة الطفيلية.

"أليس ظالماً وكنوداً المجتمعُ الذي يبدّد كل هذه الخيرات على من يسمون النبلاء، على صانعي الجواهر، على العاطلين، على هؤلاء الصانعين للترف الذين لا يجيدون إلا تملق اللذات التافهة وخدمتها؟ في حين أن هذا المجتمع، من ناحية أخرى، لا عطف ولا همّ له تجاه الفلاح والفحام والعامل اليدوي وسائق العجلة والعامل الذين لولاهم لما وُجد المجتمع. وهو في أنانيته القاسية يستغل نشاط شبابهم لينال منهم أكبر قدر من العمل والربح".

"لا يتعاطى كل واحد إلا الأعمال النافعة". والعمل المادي قصير المدة، ومع ذلك ينتج هذا العمل الوفرة والفائض. وعندما تكون هناك زيادة في حجم المنتجات يسمح قرار بإنقاص مدة العمل، لأن الحكومة لا تسعى إلى إتعاب المواطنين بأعمال غير نافعة.

"إن هدف المؤسسات الاجتماعية في (اليوطوبيا) هو أن تلبي أولاً حاجات الاستهلاك العام والفردي، ثم أن تدع لكل واحد أكبر قدر ممكن من الوقت لكي يتخلص من عبودية الجسد ولكي يثقف عقله بحرية، ويتعهد ملكاته الفكرية بدراسة العلوم والآداب. ففي هذه التنمية إنما يبحثون عن قوام السعادة الحقيقية".

ويذكر توماس مور المستوى الرفيع للمعارف العلمية التي بلغها الهنود، لاسيما في علم الفلك.

وحين عرض أخيراً لحكمتهم ودينهم شدد على دلالتهما الإنسانية: "هم يعرّفون الفضيلة بأنها العيش وفقاً للطبيعة. ذلك أن الله، عندما خلق الإنسان، لم يقدّر له مصيراً آخر".

إن سكان الجزيرة الذين لا يؤمنون بالمسيحية لا يعارضون نشرها، لأنهم "يحملون بقسوة، باسم الأخلاق، على الإنسان الذي يحقر كرامة طبيعته إلى حد أن يفكر في... أن العالم يسير اعتباطاً". [ذلك لأنهم يعيشون الدين الأساسي والأول الذي هو في كل إنسان: وأن تقول الله، بأية لغة تشاء، يعني: أن للحياة معنى ر. غ].

"ولذلك فعندما أقارن بين المؤسسات الأوروبية وبين مؤسسات البلدان الأخرى لا أجد مايكفي من الإعجاب بالحكمة والإنسانية من جهة، والرثاء للغباوة والبربرية، من جهة أخرى".

* * *

مونتينيي (١٥٣٣ ــ ١٥٩٢) في محاولاته (الكتاب الأول، الفصل الحادي عشر، وعنوانه: أكلة لحوم البشر) يطلق حكماً قاسياً أيضاً، كقسوة حكم توماس مور، على توجه التاريخ الجديد، ويذكر ماكان يمكن أن يكون بين العالميْن، من لقاء آخر قائم على الحوار والإخصاب المتبادل، لا على نفي الآخر وحربِ نهب هنودِ أمريكا وإبادتهم.

ينطلق "مونتينيي" من "التاريخ العام للهند" للوبيز دي غومارا. وهو يقرؤه قراءة نقدية مصغياً إلى شهادات ملاح جمعه "عدة مرات بكثير من البحارين والتجار الذين عرفهم في هذا السفر" إلى أمريكا. (المحاولات. الكتاب الأول. الفصل ٣١).

وهو لا يكتفي بلعن مذابح المحتلين. "من ذا الذي جعل السوق والتجارة بهذا الثمن؟ الكثير من المدن دُمِّرت، والكثير من الأمم سحقت، والكثير من

الـملايين من الشعوب ذُبحت بحد السـيف، وقُلبت أوضـاع أجمل جـزء وأغنـاه في العالـم من أجل تجارة اللآلىء والفلفل: انتصارات آلية. ولـم يدفع الطمعُ والعداواتُ العامة قط الناسَ إلى مثل هذه الاعتداءات القطيعة بعضهـم علـى بعـض ومثـل هـذه النكبات الحقيرة. (الـمحاولات الكتاب الثالث الفصل السادس).

ويضيف مونتيني، في مقـابل ذلـك "ليـس في تلـك الأمـة شـيء مـن البربريـة والوحشية... إلا أن يُسمّي كلٌّ واحد ما ليس من عادته بربريةً... إنهم متوحشـون بالـمعنى الذي نطلق فيه هذه الكلـمة على الثـمار التي انتجتها الطبيعة وحدها... في حين أننا يجب أن نطلق هذه التسمية على الثـمار التي أفسـدناها بصنعتنـا وحرفناهـا من النظام العام".

ويؤكد الأسقف بارثولوم دي لاس كازاس بربرية الـمحتلين: **"فلكي يُطعمـوا كلابهم، كانوا يأتون بالهنود مقيدين بالسلاسل... فيقتلونهم ويصنعون ملحمـة متنقلة من اللحم البشري".**

كتب مونتيني الحكيم الذي رُويـت لـه هـذه الشـهادات العيانيـة مـن القضـاة والكهنة، كتب عن أكلة لحوم البشر: "لست متأسفاً أننا نلاحظ الفظاعة البربرية في مثل هذا العمل... ولكن بأن نحكم حكماً صائباً على خطئهم ونعمى عن أخطائنـا. وأعتقد أن في أكل الإنسان الحي من البربرية أكثر مما في أكله وهو ميت، وتـمزيقه بالعذاب وبالتعذيب... دفـع الكـلاب إلى عضّـه... مـن شيِّه وأكلـه بعـد موتـه... نستطيع أن نسميهم إذن برابرة... لكن لا بالنسبة إلينا ونحن نفوقهم في كـل أنـواع البربرية". (١ ـ ٣١).

وهو يقارن بين شجاعة الهنود الذين قبلوا "بأن يعانوا الـموت برضـىً دون أن يخضعـوا لسيطرة الذيـن يسـومونهم العسـف بشـكل مخجـل. وبـين النصـر الآلي للـمحتلين نظراً لتفاوت الأسلحة. (٣ ـ ٥).

وفي موازاة ضراوة الغربيين، الذين كان شـغلهم الشـاغل البحـث عـن منـاجم الذهب فقط، ذكر روعة هندستهم، "بهاء مدينتي (كوزكو) و(مكسيكو)".

وشهادته حول تنظيم الـمدن أكدها الشهود. كتب كـاتب الحوليات "برنـال دييز دي كاسـتيلو" الـذي دخـل "تينـو شـتيلان" (مكسـيكو الحاليـة) مـع جنـد

"كورتيز": "كان بيننا جنود زاروا القسطنطينية وايطاليا وروما فقالوا إنهم لم يروا قط مكاناً مبنياً بهذا المقدار من التناسق وبهذا العدد من الناس، وبمثل هذا النظام الذي يسوده".

وهتف "بيزار" نفسه في البيرو: "لا شيء في المسيحية يعادل بهاء هذه الطرقات". وبعد سنوات، أكد العالم الألماني "غيوم دي همبولد": "هذه الطريق المبلطة بحجارة كبيرة منحوتة يمكنها أن تقارن بأجمل طرق الرومان، بأكثر الأعمال نفعاً وضخامة مما نفذه البشر".

شبكة الطرقات هذه ليست سوى نظام جريان الدم في مجتمع قدّم قبل غيره مثالاً عن غياب الملكية الخاصة في حضارة متطورة تطوراً عالياً هيّجت أكرم النفوس في أوروبا: وكأن "كامبانيلا" قد اختار "البيرو" مكاناً "ليوطوبياه" في مدينة الشمس؛ وكتب الراهب "موربلي" في "البازيلياد" أن إمكان وجود نظام غير مبني على الملكية الخاصة "ليس خيالياً أبداً لأن أخلاق الشعوب [التي يصفها] تشبه تقريباً أخلاق شعوب أكثر الامبراطوريات ازدهاراً وتمدناً: عنيت نظام أهل البيرو".

ونحن نملك، حول الميزة الجمالية لأعمال أمريكا الهندية، هذه الشهادات من "البيردورر" في رسائله: "رأيت الأشياء المحمولة إلى ملك البلد الذهبي الجديد: شمساً ذهبية كبيرة بقدر قامة الإنسان.. وقمراً من الفضة المصمتة... وذلك كله أجمل للنظر من العجائب.. لم أر شيئاً أبهج نفسي أكثر من هذه الأشياء".

بقي القليل من هذه التحف، لأن المحتلين الاسبان حولوها إلى سبائك.

وعلم "المايا" كان في كثير من النقاط أعلى من علم أوروبا في الفترة نفسها.

وفي الفلك كان كهنتهم يحسبون السنة الفلكية بـ ٣٦٥,٢٢٢ يوماً، وهو رقم أكثر دقة من التقويم الغريغوري (غريغوار الثالث عشر ١٥٠٢ ـ ١٥٨٥) الذي يتأخر خمسة قرون: الخطأ الذي يسوق إليه تقويمهم هو يوم واحد كل ٦٠٠٠ عام.

وعملوا جدولاً يتنبّأ بكسوفات الشمس.

وذلك يفترض تطوراً كبيراً في الرياضيات: لـم يكن نظـامهم العـددي عشـرياً كنظامنا، وإنما كان عشرينياً وهو أعلى من النظام الذي عرفه اليونان والرومان.

ما من شعب استطاع أن يُضـاهي هنـود أمريكـا (ولا سيما الـمايا) في عـدد النباتات الـمدجّنة، ولاسيما الذرة والبطاطا والـمانيوك والكاوتشوك.

يذكر مونتينيي ماذا كان يمكن أن يكون اللقاء بين أوروبا وأمريكا الهندية غـير لقاء الجنود الـمرتزقة والتجار الـمتعطشين للذهـب.

"لقد التقى عالـمنا عالـماً آخر... وهذا العالـم لن ينفكّ عن الدخول في النور عندما يخرج منه عالـمنا... ومع أنني أخشى أن نكون قد عجّلنـا بانحطاطـه وخرابـه حين نقلنا إليه عَدْواناً. معظم أجوبتهم والـمفاوضات التي أجريناهـا معهـم تشـهد على أنهم لـم يكونوا أدنى منا لا بوضوح فكرهم الطبيعي ولا بالصلة الـمناسبة بين الحجة والـموضوع... فكم كان سهلاً أن يُستفاد من هذه النفوس البالغة الجدة..

على العكس لقد استخدمنا جهلهم وعـدم تجربتهـم لنخضعهـم خضوعـاً أتـم للخيانة والدعارة والبخل وجميع أنواع الـلا إنسانية والوحشـية علـى نمـط أخلاقنـا ونموذجها" (الـمحاولات ٣ - ٦).

هذه الـملاحظات القليلة حول أمريكا الهنود لا تشـكل استطراداً، وإنمـا هـي حماية من الادعاء الغربي الذي يذهب إلى أنه يمثل النموذج الوحيد للحداثة والتقدم، وهي استحضار لـمستقبل يمكن فيه اللقاء الحقيقي بين الحضـارات مـن بنـاء وحـدة للعالـم، وحدة غير امبراطورية بل سمفونية.

رابعاً: لقد بدأ المستقبل

بذور الأمل

يقظة آسيا: درب الحرير الجديد

هذا الأمل الذي أخذ يُولَد، بممكناته الجديدة، قد بدأ، في المكان الذي يولد فيه النهار: في الشرق. في المكان الذي فكّر فيه لأول مرة في وحدة العالم الإنسانية والإلهية: "أن نكون واحداً مع الكل"، كما كان يُعلم "تاو" كسير لمستقبلٍ ذي وجه إنساني.

في آسيا هذه التي لم تكن فقط أول من تفكر في "الكل" لكنها ابتكرت الوسائل الروحية لبلوغه، في هند "الفيدا"، والاوبانيشاد، وباغهافاد جيدتا "بوذا".

آسيا هذه التي ارتفع فيها، في ايران، مع زاراتوسترا، الطموحُ الإنساني العظيم: مكافحةُ الخير للشر، الذي يدعو كل واحد إلى أن يكون من الذين ينهضون منذ آخر الليل ليعملوا من أجل ولادة النهار.

آسيا هذه الأقرب إلينا التي نضجت فيها، في حضارات الهلال الخصيب العظيمة لدى احتكاكها بعصر أخناتون، الوحدانية التي منحت الوحدة الإنسانية أفقاً إلهياً، والتي بُشّر فيها، مع هبّة يسوع، بغروب آلهة القوة وآلهة الجيوش ليطفو التعالي الحقيقي للبشر وللآلهة من حياة أكثر الناس اتضاعاً وحرماناً.

* * *

من هذا العالم يعود اليوم إلينا النور: منظور مستقبل ذي وجه إنساني، وشمولية حقيقية غنية بإسهام جميع الحضارات. درب الحرير الجديد في أفضل صوره المستقبلية الموصل من شنغهاي إلى روتردام، بسرعة ٥٠٠ كم في الساعة، في قطار ذي استرفاع مغناطيسي.

الجسر الأوروبي الآسيوي سيكون اليوم بوتقة إعادة بناء الوحدة الإنسانية، لا في الجزيرة الأوروبية الآسيوية فقط، لكن دون أي استبعاد، مع افريقيا التي هي غير مفصولة إلا اصطناعياً ببعض أمتار قناة السويس، وأمريكا التي سيتم احتياز مضيق

"بهرنغ" بنفق يربط بالجزيرة الأخرى: أمريكا المقسومة اصطناعياً إلى اثنتين ببضعة أمتار من قناة "باناما".

من المحيط الهادي إلى المحيط الأطلسي، وعبر غبار القارات الصغرى، من اوستراليا إلى غرونلاند، سيُقام نظام جديد موحد يعيد بناء الوحدة الإنسانية، مع إسهام جميع الثقافات الروحية والمادية الإنسانية التي مضى عليها آلاف السنين، إسهام لا تبعية فيه ولا سيطرة.

بدأ المستقبل في ٧ أيار ١٩٩٦ في بيكين.

في هذا اليوم اجتمعت ٣٤ أمة للمشاركة في بناء جسر عظيم بين القارتين الأوروبية والآسيوية. درب للحرير جديد وكان قد ربط على مدى أربعة عشر قرناً، الشرق بالغرب وبأفريقيا، لا بالمبادلات التجارية فحسب، وإنما بالإخصاب المتبادل بين الثقافات والعلوم والتقنيات والروحانيات.

درب الحرير هذا هو درب القرن الواحد والعشرين: فهو سيجمع أولاً وحدة "الجزيرة الكبرى" الأوروبية الآسيوية (ولنذكّره بأن أوروبا ليست سوى شبه جزيرة صغيرة)، مع الوسائل العلمية والتقنية للعالمين، مع شبكة كاملة من الطرقات، والقنوات التي تسمح بالملاحة والري محولة صحاري آسيا الوسطى التي مر عليها آلاف السنين إلى مواطن للحياة، ومحطات للتوليد الكهربائي، وخطوط لأنابيب البترول والغاز، والاتصالات بالألياف البصرية، وبناء المدن، على ٢٠٠ كيلو متر من كلا الجانبين من المحاور الثلاثة للجسر القاري الأوروبي الآسيوي الذي سيصل براً المحيط الهادي بالمحيط الأطلسي.

ليس هذا حلماً أو مشروعاً طوباوياً لأن إنجازه قد بدأ.

في ١٢ أيلول ١٩٩٠ التقت الشبكة الحديدية الصينية، عند قناة "آلاتاو" مع شبكة الاتحاد السوفييتي السابق.

وفي أحد عشر عاماً، من ١٩٨٥ إلى ١٩٩٦، ومن أجل بناء الجسر القاري الأوروبي الآسيوي، جددت التوظيفات الصينية ٢٠٠٠ كيلو متر من الخطوط الحديدية.

وفي ٧ أيار ١٩٩٦ أظهر "روي زنغوين"، رئيس اللجنة المكلفة بإنجاز الجسر، آفاق هذا المشروع الهائل لخلق وحدة مسالمة سمفونية للعالم، منفتحة للجميع، لا لإنجازها فقط وإنما أيضاً لاستثمار إمكاناتها حتى في افريقيا وأمريكا.

وهو وعلى نقيض العولمة بالسوق، التي هي تعبير متنكر عن طموحات امبراطورية للسيطرة على العالم، دورةٌ حضارية جديدة تبدأ.

دورة تبدأ بروح جديدة جذرياً، مستبعدة كل سيطرة لشعب مختار على الشعوب الأخرى، أو لشعب متحضر على البرابرة.

وبعد حضارات الدلتا، من النيل إلى النهر الأصفر، والحضارات المتوسطية، ثم الأطلسية، نحن، هذه المرة، بإزاء جغرافية سياسية من نمط جديد جذرياً. فحتى الآن، إذا شئنا ألا نذكر سوى الأمثلة الحديثة، لم تكن موجودة سوى جغرافية سياسة القوة، سواء أكان المقصود الجغرافية السياسية لقوى البحر التي ألف بينها "ماك كندر" في أوج الامبراطورية الانجليزية، أم للقوى القارية كما شرحها فريديريك هوسوفر. هذه السياسة لإدارة الفضاء انحطت مع هتلر إلى جغرافية سياسية "للمجال الحيوي".

لم يعد المقصود، هذه المرة، الجغرافية السياسية للسيطرة، وإنما الجغرافية السياسية للتحرر التي ستجعل الأرض كلها تزهر من جديد، حتى في صحاريها، بمساعدة الجميع، في عالم يُعتبر أخيراً "كلاً" دون طمع من أحد في السيطرة عليه واستغلاله.

المقصود أن يُمنح ٨٠٪ من سكان الأرض المتخلفين اليوم نظراً لتبعيتهم أو لأن الصحاري تحيط بهم، إمكانات التطور الإنساني حقاً.

أولاً بثلاثة طرق تمر بالجزيرة الكبرى الأوروبية الآسيوية، أحدها في الشمال (وكان الخط الحديدي العابر لسيبيريا بداية تخطيطية له، لكن بمطامع استعمارية) وسيربط منذئذ المراكز الصينية الكبرى بأوروبا مروراً بكازاخستان وقرغستان اللتين زال انحصارهما، ليلتقي أوروبا الغربية والشمالية، باعثاً الحياة في مشروع "ديلور" لأعمال البنى التحتية الكبرى الذي كان قاصراً على أوروبا.

وستتمقصل الطريق الوسطى مع الأولى في كازاخستان منحنية إلى الجنوب نحو طشقند واوزبكستان وتركمانستان والبحر القزويني، وأذربيجان وجيورجيا لتلتقي البحر الأسود، ومن ورائه بلغاريا ورومانيا وهنغاريا، لتصل إلى أوروبا الوسطى. وتنطلق طريق الجنوب من اشكاباد في تركمانستان، وتنحني نحو ايران لتمضي عبر مسعد وطهران وتبريز نحو تركيا، ونحو يوغوسلافيا عبر البوسفور، وتصل أوروبا الجنوبية، ومن ورائها افريقيا الشمالية.

سيتعلق ذلك بأربعين بلداً (أي ٢٢٪ من سكان العالم) وسيحوّل أربعين مليون كيلو متر مربع، أي أكثر من ٢٦٪ من أراضي الكرة الأرضية البارزة فوق سطح المياه.

(ومن الجدير بالملاحظة أن ندوة "بيكين" هذه التي كانت تفتتح دورة حضارية جديدة لم تفرد لها سطراً واحداً الصحفُ الإخبارية، صحف السياسيين والصحفيين الغربيين التي كانت تخصص صفحات كاملة للغش في لعبة كرة القدم أو طيش الليدي ديانا في انجلترا).

ومع ذلك بدأت الأعمال، وقبل كل شيء مشروع سد المضائق الثلاثة على "اليانغ تسي كيانغ".

إن تاريخ الصين، في شطر كبير منه، هو تاريخ السيطرة على المياه. وذلك ماثل في أساطيرها: فالامبراطور الأسطوري "يو" العظيم، (بروميثيوس الحضارة الصينية) هو الذي روّض الأنهار وحلق قنوات الري.

وإذا مااقتصرنا على التاريخ وعلى ٢٠٠٠ عام من معطيات المائيات، وجدنا أن ٢٠٠ فيضان حدثت (بمعدل فيضان كل عشر سنوات).

أصغر الفيضانات أوقعت آلاف القتلى وأكبرها أوقعت عشرات الآلاف. وأكبر كارثة حدثت عام ١٨٧٠ وتسببت في موت ٣٠٠٠٠٠.

وعلى امتداد تاريخ الصين، ولكي تضع الحكومة الصينية حداً لهذه الكوارث، قررت إنجاز هذا السد الهائل الذي بدأت مرحلته الأولى في ١٩٩٤. وستكون مدة الأعمال ١٧ عاماً وستبلغ كلفته نحو ٥٠ مليار فرنك. والسد المذكور طوله ٢٣٥٠ متراً ويبلغ علوه في بعض المواضع ١٧٥ متراً. وهو يغمر مايقرب من

۳۰۰۰۰ هكتار، ويستتبع ذلك نقل حوالي مليون شخص من مقاطعتي "ستشوان" و"هوبي".

ولقد أخذنا نسمع صرخات المدافعين عن مصير البيئة، وليس مدهشاً أن يكون البادئ لمن بعده هو "المصرف العالمي" الذي عبر عن مشاغله الشاغلة الثقافية والاجتماعية والبيئية"!. إذن فليترك الشركات المتعددة الجنسيات تدمر رئتي العالم بتخريب غابات الأمازون واندونيسيا! ناسياً أن الفيضانات الصينية قتلت ١٤٥٠٠٠ شخص في ۱۹۳۱ و٤٠٠٠٠ في ١٩٥٤ و٣٠٠٠٠ في ١٩٥٨.

وسبب هذا السخط هو أن الحكومة الصينية تؤمن التوظيف دون أن تخضع لأوامر صندوق النقد الدولي وترفض أن تدخل منظمة التجارة الدولية.

وفضلاً عن ذلك فإن الصين تحرص ألا تستبعد أحداً من المشاركة في مشروعها في "الجسر الأوروبي الآسيوي بين القارات (شاركت ميتسوبيشي بموافقة الحكومة اليابانية في المشروع)، وسوف تخلق منطقة ضخمة للإنتاج على مستوى سوق بمليارين من السكان، وأنها لا تريد أن تضع منه ساحة قتال لقراصنة المال الدوليين.

سد المضائق الثلاثة وحده، على "اليانغ تسي كيانغ" سوف يسمح بتغذية محطة هيدروليكية تنتج أكثر من سد أسوان بثماني مرات أي مايعادل إحراق ٥٠ مليون طن من الفحم. ويشتمل المشروع على بناء خط مضاعف صالح للملاحة يسمح للسفن التي تحمل ١٠٠٠٠ طن بصعود النهر، من "ووهان" إلى "نشونغكنغ"، وهكذا تنتقل قدرة النقل من ١٠ ملايين إلى ٥٠ مليون طن، مع تخفيض للأسعار بمقدار الثلث.

وهكذا سوف تُحلّ مشكلتان حيويتان في الصين: الجفاف في الشمال والفيضانات في الجنوب.

أما إعادة إسكان السكان الذين جلَوْا عن المنطقة المغمورة بالمياه، فهي تندرج في البرنامج الذي يجعل من هؤلاء الأشخاص المنقولين، رواداً لإخصاب الصحراء الجديد ولتفتح مئات المدن على طول الجسر.

ولن تعوز اليد العاملة المحلية، في الصين المترامية الأطراف، لإنجاز هذه الأعمال في المكان نفسه، وللقضاء على البطالة.

والصين تستدعي، من أجل إنجاز هذا المشروع، جميع المشاركات من العالم.

لكن هذا يستتبع أن تحطم أوروبا النير الاستعماري وتستعيد استقلالها. فلكي تحل مشكلة البطالة عندها، وتصنع في معاملها المعدات الحديدية، والشاحنات، وأدوات الحفر، وتستجيب لحاجات إنشاء مئات المدن، لا يمكنها أن تظل مقيدة بالمنع الأمريكي في منظمة التجارة العالمية أو بالمصرف الدولي.

ينبغي إذن أن تتحرر بالقطيعة مع جميع هذه المؤسسات، وبذلك بالذات تكون حرة في توجيه توظيفات مصارفها، وكذلك برامج مشروعاتها لكي لا تدع المجال حراً لهجمة المصالح الخاصة القصيرة الأمد التي لا هدف لها إلا الاستيلاء على الأسواق واستخلاص الربح الأكبر منها. الاتفاقيات يجب أن تتحقق على الصعيد الوطني وأن تشمل بنوداً محددة للاستخدام كما هي محددة للأرباح المعقولة.

هناك سوابق لمثل اتفاقيات التعاون على أساس وطني وأخوي.

إن إيران مثلاً بدأت تصنع تفريعاً حديدياً على درب الحرير الجديد للقرن الواحد والعشرين.

لقد ساعدت في إزالة انحصار جمهوريات آسيا الوسطى: كازاخستان، كريغستان، وطاجاكستان، وحسنت الاتصالات بين القوقاز وآسيا الوسطى وروسيا، من بحر قزوين إلى المحيط الهندي، ببناء الحلقة الناقصة في الشبكة الحديدية الآسيوية: والمقصود ربط المرفأ الصيني "لنياني انغانغ" ببندر عباس، على مضيق هرمز. حيث يمر ٥٠٪ من النفط العالمي، عبر "آلماتي" (آلما آتا في منغوليا) وطشقند ومسعد وطهران، وتربطها من جهة ثانية بأوروبا عبر اسطنبول.

الجزء الذي هو في طور التنفيذ من "صاراخ" إلى بندر عباس سيُنقص طريق الحرير على حدود الباكستان ٩٠٠ كم.

اتّخذ القرار في بانكوك في آذار ١٩٩٦ في مؤتمر قمة الدول الآسيوية الجنوبية لبناء خط حديدي من سنغافوره إلى تايلاند يلتقي درب الحرير، ويربط ماليزيا بالصين.

لسنا هنا بإزاء تأملات مجردة: إن خط مسعد ـ فيدجن (في تركمانستان) قد دُشّن في ١٣ أيار ١٩٩٦. ورحب به الرئيس رافسنجاني "كمنعطف في تاريخ المنطقة ودعا ذلك اليوم، يوم التوسع في درب الحرير، درب الصداقة بين الشعوب".

هذه الدرب الجديدة للحرير في القرن الواحد والعشرين أخذ يغير محور العالم ولذلك تحاملت قوى الماضي عليه بضراوة.

في مؤتمر بكين، دعت الحكومة الصينية بكرم زائد "السير ليون بريتان" (نائب رئيس للجنة الاوروبية والمندوب الانجلو امريكي لإخضاع اوروبا لأوامر الولايات المتحدة). وأثناء مداخلته بصق ١٢ مرة الحروف الاولى O.M.C جاهداً في إدراج المشروع في إطار وحدانية السوق الأمريكي، ومهدداً بالانتقام من الجهود التي تحاول الإفلات منه.

وبالمقابل، حملت تركيا (لا تركيا القادة العسكريين المتحزبين لإسرائيل وللغرب) إسهاماً كبيراً ليقظة هذا الأمر عبر مقصد عالمي كبير. ففي ٤ و٥ كانون الثاني ١٩٩٧، في اسطنبول، وبناء على مبادرة رئيس الوزراء "اربكان" أنشأ وزراء خارجية ثماني دول (مصر واندونيسيا وايران وماليزيا ونيجيريا وباكستان وبانغلادتش وتركيا) D٨ (دول الإنماء) في موازاة الدول الاستعمارية السبع DV. وأعلن أربكان في خطبة الافتتاح أن الجماعة الجديدة للبلدان الإسلامية ستتابع "هدفاً ثقافياً وسياسياً كفاحياً" يهدف إلى "القضاء على سيطرة الأمم الصناعية الغربية على القطاع الآخذ في التطور".

إن هذه الوحدة الجديدة ليست جمعية مغلقة بل إنها تستطيع، كما يقول وزير الخارجية الإيراني علي أكبر ولايتي، أن تستقبل أعضاء آخرين لخلق تكتل حريص على التعريف بنموذج آخر للإنماء مختلف عن النموذج الغربي. لأن عدداً من البلدان "مايزال تطورها غير متساو نظراً للمشكلات المرتبطة ببنود التبادل

وبالدَّيْن الخارجي... وبالعوائق في نقل التكنولوجيا، وبالحدود المفروضة على تطور الموارد البشرية".

وحدة الدول هذه D ٨ تهدف إلى ملء الفراغ الذي تركه الحل الفعلي، في عام ١٩٨٩، لحركة عدم الانحياز التي أنشئت في باندونغ. وهي تشيد بالتعاون المتزايد مع منظمات مثل اتحاد أمم الجنوب الشرقي الآسيوي، ووحدة الإنماء في افريقيا الجنوبية.

المقصود هنا النقيض تماماً "لصدام الحضارات" لصموئيل هنتنغتون القائم على التعارض الذي لا سبيل إلى قهره، وعلى استقطاب الثقافات العالمية: إن وحدة الدول هذه تمثل ٨٠٠ مليون إنسان، وهي تشيد، على العكس، بالتعاون الاقتصادي والثقافي المبني على التساوي في الحقوق: "مبدأ التعاون لا مبدأ الاستغلال الاستعماري ينبغي أن يشجعنا على العمل في بيئة دولية مسالمة"، حتى مع الدول السبع GV إذ "دون تعاون مع المجموعات الاقتصادية الأخرى، لا حظ في التقدم". كما تقول الوكالة الإيرانية للصحافة.

وتعترف الصحيفة السويسرية Neuer Zuercher Zellung بالفعل أن D ٨بصفتها محاوراً لـ G.7 تمثل حقوق البلدان النامية التي هي مشابهة، في آسيا وافريقيا لحقوق العالم الإسلامي. وباسمها ينبغي لـ D ٨ أن تشارك في ولادة نظام دولي جديد.

ذلك أنه أخذ يتضح أكثر فأكثر، في العالم غير الغربي، مهما تكن توجهاته الدينية والروحية، بحسب تعبير "أربكان" "أن التخلف في العديد من البلدان هو نتيجة الامبريالية الغربية". لسنا هنا بإزاء حركات مشهدية كلامية: فأثناء زيارة أربكان إلى طهران، في ١٠ و١١ آب ١٩٩٦، وقعت تركيا وإيران اتفاقيات تناولت الغاز والنقل والكهرباء لتحسين روابط البنى التحتية في البلدين: وُقّع عقد بعشرين مليار دولار على ٢٣ عاماً يتناول نقل الغاز الإيراني والتركماني إلى تركيا عبر قناة للغاز تبنى في ١٩٩٧، وكذلك الإمداد بالكهرباء وتوسيع مواصلات الخطوط الحديدية التي تندرج في مشروع درب الحرير للقرن الواحد والعشرين ببناء القسم الأخير بين "تبريز" في ايران و"فان" في تركيا. كل ذلك، بانتهاك سياسة

العقوبات التي تنتهجها الولايات لمتحدة حيال ايران، لكن مع الحياد الأوروبي الحسن الالتفاتة. وليس المقصود هنا مبادرة إسلامية لتركيا الجديدة، فحتى الرئيس "ديميريل" دافع عن هذا الموقف بالرغم من شراسة واشنطن، قال: "سنرد على الذين ينتقدون شراء تركيا للغاز الإيراني بأن تركيا بلد مستقل. وقد عقدنا العزم على أن نمضي في تطوير تعاوننا مع ايران".

(وذلك مثال على الاستقلال يستطيع أن يحتذيه القادة الفرنسيون الذين يتخلون عن العقود النفطية مع العراق بعد تقطيب واشنطن حاجبيها، ويتنكرون لتقاليد الاستقلال الديغولية لا بالانضمام إلى منظمة حلف الأطلسي فقط وإنما بقبولهم المنصاع بأن تكون القيادة حقاً محصوراً في الولايات المتحدة).

ولاشك أنه ماتزال هناك صدوع أو على الأقل صنوف من الضعف المؤقت في بناء عالم المستقبل هذا: وأولها غياب الدولة في روسيا التي أسلمت إلى الفوضى وإلى تكاثر "المافيات" بسبب عهر يلتسين وعصابته أمام حاميه الأمريكي. لكن ضرورات التاريخ القاهرة ستنتصر، مهما يكن النظام الذي سيعيد إلى روسيا وجودها كدولة. وهكذا فإن نائب وزير الخارجية "غريغوري كارازين" صرح مؤخراً أن موسكو ستمنح آسيا انتباهاً متزايداً. وبالفعل، إن القادة الروس ميالون إلى دعم ايران لأنهم يعلمون أن من الصعب تطوير أوروبا الآسيوية دون ايران، وأن الطرق الذاهبة من الصين أو من آسيا الوسطى، نحو المحيط الهندي والمحيط الهادي والبحر الأبيض المتوسط أو أوروبا، لابد أن تمر بإيران. ولكي تقيم روسيا علاقات طويلة الأمد مع الهند، ولكي تحسن علاقاتها مع الصين، لابد إذن من أن تسهم في استقرار ايران، ولاسيما بأن تعقد مع هذا البلد اتفاقيات من أجل تطوير الجسر الأرضي. وكانت روسيا قد قدمت مخططات لتنشيط بناء محطة "بوشر" التي ستنتهي في ثلاث سنوات، بالرغم من ضغوط الغرب لوقف بنائها. وستبذل ايران وسعها، من جهتها، لكي لا تزعزع الحرب في أفغانستان استقرار المنطقة وتهدد روسيا. وفي أثناء اجتماع الدول D ٨ في اسطنبول التقى القادة الايرانيون والترك القادةَ الباكستانيين للبحث عن حل للأزمة الأفغانية.

وحلقة أخرى ماتزال ضعيفة هي حلقة أفريقيا حيث يستمر الاستعمار في ممارسة تخريبه بالرغم من الهزائم التي لحقت به. وإذا كان التمييز العنصري الذي فرضه المتأفرقون البيض في افريقيا الجنوبية قد أُلغي بانتصار نيلسون مانديلا، فإن الولايات المتحدة ماتزال تساوم على مساعدتها الاقتصادية مقابل التنازلات السياسية. وفي الصومال، فَطِن الامريكيون فجأة إلى الجوع عندما اكتشفت الشركات البترولية الأمريكية منابع البترول على طول الشواطىء، وسعتْ تحت غطاء التدخل الإنساني (وهو اسم جديد للنزعة الاستعمارية) وبالتواطؤ مع أوروبيين باهتين ولا شأن لهم ومهرجين يحملون اكياس الرز وتبث أنباءهم وسائلُ الإعلام في مرفأ مقاديشو، إلى تنصيب دكتاتور في السلطة، كما هي الحال في أمريكا الجنوبية، لتأمين الاستقرار الضروري لاستغلال الهيدروكربور. وقد باءت العملية بالفشل لكن الفوضى باقية.

وفي السودان حيث يستطيع ريٌّ قنوات الري أن يطعم أفريقيا بأسرها، تغذي الولايات المتحدة بالسلاح وبالمال، جراح الحرب المموهة بعصيان عرقي أو ديني؛ والأسلحة تستمر في تدفقها على اريتريا.

وفي راونده وبوروندي يتابع المستعمرون الفرنسيون والانجليز خصوماتهم المتنافسة القديمة بتسليح جلاديهم وتمويلهم وتدريبهم، ناسبين الفوضى إلى المنازعات القبلية.

وفي الجزائر يستمر القادة الفرنسيون الذين هللوا لوقف العملية الانتخابية بالدكتاتورية العسكرية، في تمويل هذه الدكتاتورية، ويحولون بذلك دون الحوار الوطني الذي يمكنه وحده أن يضع حداً لهذه المذابح.

هناك تواطؤ غربي بين جهود الولايات المتحدة والاستعماريين القدماء ليُبقوا في السلطة الدمى السياسية التي ارتضت لعبتهم. والفرق عندهم بين الأخيار والأشرار يستجيب للمعيار التالي: هل يقبلون أم لا يقبلون بأوامر صندوق النقد الدولي؟ فالذين يرفضونه "إسلاميون" و"إرهابيون" وعصاة قبليون.

إن افريقيا المحتضرة على إثر هذه التدخلات بعد الاستعمارية، قارة قليلة السكان تفيض أرضها ـ بسطحها وعمقها ـ بالثروات، وهي مسكونة بالجياع الذين أسلمهم شقاؤهم إلى جميع أنواع الأوبئة، بما فيها "السيدا".

ونحن لا نذكر سوى مثال كبير عن إمكانات افريقيا، لقد كانت الصحراء فيما مضى غابة ومرعىً تشهد على ذلك النقوش الصخرية في "تاسيلي"، مع قطعان البقر الوحشي.

وبثمن السلاح و"المعونات" الممنوحة لجلادي الشعوب الافريقية، بذلك وحده يمكن أن تحوَّل الصحراء حيث الماء أو حقول المياه موجودة في كل مكان وسهلة المنال، إلى أرض جديدة خصبة من دكار إلى مقاديشو.

وأغنى من افريقيا أيضاً، أمريكا اللاتينية، التي أنهكتها الدكتاتوريات العسكرية التي أوصلتها إلى السلطة الولاياتُ المتحدة، ثم خنقها الدين ومتطلبات صندوق النقد الدولي، ويمكن لأمريكا هذه أن تنشيء بديلا لنموذج النمو الغربي القائم على الطاقة المتحجرة للنفط (فهي إذن قابلة للنفاد). وذلك بخلق مادعاه "جيلبر فريير" و"بوتيستوفيدال" حضارة المدارات، إن كانت تملك لذلك الاستقلال الضروري حيال النير الأمريكي الشمالي والمتواطئين المتعاونين معه من القلة الحاكمة المحلية.

* * *

يقظة أمريكا اللاتينية:

حضارة المدارات

إن سادة الحضارة الغربية الذين يسيطرون اليوم أو يؤثّرون، بأشكال شتى، تأثيراً قوياً في الاقتصاد والفكر والتنظيم الاجتماعي ونمط الحياة لمجموع سكان الأرض تقريباً، قد توسعوا انطلاقاً من المناطق المعتدلة في جنوب القارة الأوروبية.

وبدءاً من القرن الخامس عشر بدأ التوسع العالمي لهذه الشعوب بالتجارة وبالفتح. وما اتفق على تسميته "النهضة" في الغرب هو تطور العقلانية الأداتية للثقافة الأوروبية والتفوق التقني والعسكري النابع منها، والسيطرة على منابع الطاقة المتحجرة وتقنية تحولاتها قاد، في القرن التاسع عشر إلى السيطرة العالمية المحتقِرة لسائر الحضارات والمدمرة لها.

خلال هذا التوسع، كانت المصادر الكبرى لقوة الحضارة الغربية (في منظور العقلانية الغربية التي صرفت النظر عن الغايات وبحثت فقط عما يكثّر قوة وسائلها)، المصدر الأساسي للطاقة، المحروقات المتحجرة (الفحم الحجري أولاً ـ في انجلترا وفرنسا وألمانيا ـ التي تتطلب بنىً سياسية ممركزة، للدول ـ الأمم). إن تطور هذا التوسع الغربي قاد إلى انحطاط الحضارات الأخرى. وجر إلى أبشع التفاوتات: بين الشمال والجنوب، مع إعادة الرق وجميع أشكال التبعية، وقاد، في داخل البلدان الغربية ذاتها، إلى استقطاب الثروة والسلطة، وزيادة عدد المستبعدين.

إن تصدير الأنماط الغربية للتقنية والإنتاج أحدث خسائر رهيبة من وجهة نظر اختلال التوازن البيئي وبؤس الكثرة الكاثرة في الوقت نفسه. والأمثلة الأكثر نموذجية لتدمير التوازنات الطبيعية هي تدمير الغابات الأمازونية والاندونيسية أو استغلال أفريقيا الذي يتيح للصحراء أن تتقدم عدة كيلو مترات في السنة.

وعلى الصعيد العالمي، دُمِّرت حضارات كانت أكثر اندماجاً مع ظروف الوسط وأشكال التنظيم الاجتماعي المقابلة، لكي تفرض الزراعات الأحادية كالقهوة والسكر والفول السوداني الخ... ومن وجهة النظر الصناعية، لكي تنهَب المواد الأولية، النفط أولاً - وأيضاً الثروات المعدنية. وهكذا لم تدمَّر التوازنات الطبيعية فقط، وإنما دُمرت أيضاً أشكالُ التنظيم الاجتماعي، التي حافظت منذ آلاف السنين على التوازنات البيئية.

إن الاختيار الوحيد الجانب لمصادر الطاقة المتحجرة التي لا تتجدد والمنطق الداخلي للنظام الذي يتضمن استعمال كميات متزايدة أبداً من هذه الطاقة، قاد إلى المنظور الحالي لنضوب هذه المصادر، بحيث أن الموارد الحالية للنفط في العالم، إذا استمرت بالايقاع الحالي لاستعمالها، تؤذن بمنظور نضوبها الكلي. حتى لو أتاحت المكتشفات الحديثة لحقول نفطية جديدة تأخير هذه الحدود، فإن لحظة نضوبها الكلي محتمة.

إن نمط استخدام الطاقات التي لا تتجدد يقود إلى تدمير مصادر كبيرة للطاقات التي مر عليها آلاف السنين والتي هي قابلة للتجدد. والمثال المثير أكثر من غيره هو تدمير الغابات الأمازونية لإنتاج الطاقة الكهربائية.بحسب الطرائق المستعملة في الغرب، مثل السدود المائية الكبرى التي تتطلب في البرازيل الفيضان ومن ثم تدمير آلاف الهكتارات من الغابات.

إن الغابة المستثمرة استثماراً حسناً يمكنها أن تنتج عادة من مترين مكعبين إلى ثلاثة أمتار في الهكتار سنوياً. والاستثمار نفسه في الغابة المدارية يمكن أن يعطي من ٤٠ إلى ٦٠ متراً مكعباً في الهكتار سنوياً. البرازيل مثلاً تملك نحو ٣٢٥ مليون هكتار من الأراضي غير الصالحة للزراعة لكنها قادرة باستثمار حراجيّ مناسب أن تستخدم نصف المساحات (أي مايمثل ٢٠٪ من الأراضي الوطنية). وهذا يسمح بإنتاج مايعادل طاقة ٦ مليارات برميل نفط سنوياً، وبشكل دائم، أي الإنتاج الكلي للبلاد الداخلة في الـ O.P.E.K.

يمكننا أن نتصور بسهولة كيف أن الاستخدام، ولو جزئياً، لهذه الطاقة الكامنة، سوف يغير بعمق كل البنية الراهنة للسلطة العالمية.

في المنطقة المدارية يمكن أن يقوم توزيع جديد للسلطة، لأن هذا التحول التاريخي لإعادة الاعتبار إلى الإنسان المداري وإلى وسطه الطبيعي، سيسمح انطلاقاً من موارد الطاقة القابلة للتجدد، ولاسيما الكتلة النباتية الحية، بخلق أشكال جديدة للعلاقات الاجتماعية والسياسية. وهذا يقتضي القضاء على استثمار نهّابي الغرب وأتباعهم للموارد الطبيعية، وتأسيس نموذج للتطور قائم على الاستثمار العقلاني لهذه الموارد القابلة للتجدد، مع جميع النتائج السياسية والاستراتيجية والبيئية الناجمة عن ذلك.

أشار تقرير حديث: "المشروع الطاقي والتكنولوجي المتناسب مع المحيط" (برازيليا ١٩٨٦) إلى أن: "السبب الرئيسي لتدمير الغابة المدارية هو تطور بنية اقتصادية قائمة على نماذج تكنولوجية مستوردة تقود إلى تخريب البيئة".

مؤسس هذا التفكير حول حضارة المدارات هو "جيلبيرتو فريري" في كتابه: "الإنسان والثقافة والمدارات".

ويتمم "بوتيستو فيدال"، من مدرسة البوليتكنيك في البرازيل هذا التحليل:

"إن كمية الطاقة التي تسقط كل يوم على المدارات الرطبة تعادل ٦ ملايين قنبلة من القنابل النووية من طراز قنبلة هيروشيما. في حين أن حضارة النفط هي حضارة يوم، ونحن نملك هنا الأساس الطاقي لحضارة أخرى شريطة أن ننتهي من التبعية للخارج. هذه التبعية كلفت بلادنا، البرازيل، لكي تسهم في هذا التدمير ملياري دولار سنوياً، أي ٤٠ ملياراً في ٢٠ عاماً. (وعلى سبيل المقارنة، كلفت خطة مارشال، لإعادة بناء أوروبا ١٣ مليار دولار). هذا هو ثمن هذه الحضارة التكنولوجية وتقسيم العمل الدولي الذي خلق التبعية التكنولوجية.

ومع النظام الحالي للتبعية، نحن ننتج في "كوكوروي" طاقة كهربائية تكلفنا ٤٢ دولاراً للميغاواط في الساعة نبيعه بثلاثة عشر دولاراً لإنتاج الألمنيوم المصدَّر. ذلك هو النموذج الفاسد الذي تفرضه علينا من الخارج الشركات الكبرى المتعددة الجنسيات. إن القحط القريب أدى إلى استخدام الطاقة النووية. وهذه الطريقة هي التي يفكرون في فرضها على البرازيل. ومن المقرر، من أجل سلامة الأهالي الجلاء عن منطقة نصف قطرها ٤٠ كيلو متراً. وإذا ماأنشأنا على

هذه المساحة غابة مستخدمين كتلتها النباتية الحية فإننا ننتج طاقة أكثر بثلاث مرات من هذا المفاعل الخطر. إن الكتلة الحية منشؤها الشمس، وهي مفاعل هائل ذو التحام نووي واقع لحسن الحظ على مسافة كبيرة جداً. هذه الطاقة الشمسية تسمح بخلق شروط حياة دائمة ذي وجه إنساني.

والنفط هو نفسه ذو منشأ شمسي. وتشكّله يتطلب من ٢٠٠ إلى ٣٠٠ مليون سنة في حين أن الفحم النباتي، والطاقة الهوائية، والكتلة النباتية الحية تتجدد بطريقة دائمة. والتركيب الصوتي يلتقط هذه الطاقة بالنباتات.

تملك البرازيل ٥٠٪ من المدارات الرطبة على الأرض. أما النصف الآخر فهو موزع بين عدة بلدان في أمريكا اللاتينية وافريقيا وآسيا الجنوبية الشرقية، التي لها مشكلاتنا نفسها. إن استمرار البقاء الطاقي للعالم وجميع النتائج الاجتماعية الناجمة عن ذلك منوطة بهذا التحول الذي يتضمن دمجاً عميقاً للإنسان المداري بوسَطِه الطبيعي.

المصدر: مستقبل حضارة المدارات. مطبوعات جامعة برازيليا. ١٩٩٠ (ص ٢٢١ - ٢٣٠).

بيان تفصيلي بأعمال روجيه غارودي وبالدراسات التي تناولته

أولاً ـ أعمال روجيه غارودي

١ ـ تاريخ الماركسية.

ـ المصادر الفرنسية للإشتراكية العلمية. دار الأمس واليوم ١٩٤٩. تُرجم إلى البولونية والألمانية واليابانية.
ـ الله قد مات. دراسة حول هيغل، المطبوعات الجامعية الفرنسية. ترجم إلى الألمانية والإسبانية (الأرجنتين) والبرتغالية ١٩٦٢.
ـ فكر هيغل. دار بورداس. ترجم إلى الإسبانية والبرتغالية والألبانية واليونانية ١٩٩٦.
ـ كارل ماركس. دار سيغير ١٩٦٥. ترجم إلى إحدى عشرة لغة: التشيكية، الرومانية، الانكليزية (الولايات المتحدة)، الهنغارية، البرتغالية (البرازيل)، الإسبانية (المكسيك)، الألمانية، اليونانية، الإيطالية، اليوغسلافية والعربية (لبنان). (أعيد طبعه في فرنسا في ١٩٧٢ وفي ١٩٧٧).

٢ ـ مشكلات الماركسية.

ـ النظرية المادية للمعرفة. المطبوعات الجامعية الفرنسية ١٩٥٣. تُرجم إلى التشيكية والروسية واليابانية والألمانية.
ـ الحرية. المطبوعات الاجتماعية ١٩٥٥. ترجم إلى الرومانية واليونانية والسلوفاكية والألمانية والبلغارية والإسبانية (كوبا) والفيتنامية.
ـ آفاق الإنسان. المطبوعات الجامعية الفرنسية ١٩٦١. تُرجم إلى العربية والإيطالية والإسبانية (الأرجنتين) والبولونية والبرتغالية (البرازيل) الطبعة الفرنسية الرابعة في ١٩٦٩.
ـ ماركسية القرن العشرين. دار بلون ١٩٦٦. تُرجم إلى النرويجية والانكليزية (الولايات المتحدة وانكلترا) والتركية والتشيكية والألمانية والإسبانية واليابانية والرومانية.
ـ من أجل نموذج فرنسي للاشتراكية. غاليمار ١٩٦٨.
ـ هل يمكن للمرء أن يكون شيوعياً اليوم. مطبوعات غراسيه ١٩٦٨. تُرجم إلى الإسبانية والألمانية والبرتغالية والإيطالية والصربية.
ـ منعطف الاشتراكية الكبير. دار غاليمار ١٩٦٩ ، تُرجم إلى اثنتي عشرة لغة: الألمانية، الصربية، البرتغالية، الانكليزية، السلوفينية، التركية، السويدية، اليابانية، الإسبانية، اليونانية والإيطالية.
ـ الماركسية والوجودية. دار بلون ١٩٦٢. ترجم إلى الألمانية والإسبانية (الأرجنتين) والبرتغالية (البرازيل) واليابانية والإنكليزية (الولايات المتحدة الأمريكية).
ـ أسئلة موجهة إلى سارتر. مطبوعات "كلارتيه" ١٩٦٠ ترجم إلى الهنغارية والروسية.
ـ براغ ١٩٦٨.. الحرية المعلقة، فايار ١٩٦٨. ترجم إلى الإيطالية والبرتغالية (البرازيل).
ـ الحقيقة التامة. غراسيه ١٩٧٠ ترجم إلى الإيطالية والألمانية والسلوفاكية والبرتغالية (البرازيل) والإسبانية (فنزويلا) والانكليزية (نيويورك) والهولندية والفنلندية والسويدية واليونانية والصربية.
ـ تذكرة... (تاريخ مقتضب للاتحاد السوفياتي). مطبوعاً "زمن الكرز" ١٩٩٤.

٣ ـ الدين.

ـ الكنيسة والشيوعية والمسيحيون. المطبوعات الاجتماعية ١٩٤٩. تُرجم إلى البولونية والهنغارية والسلوفاكية والروسية.

- من الجريم إلى الحوار. "بلون" ١٩٦٥. تُرجم إلى عشر لغات: الألمانية والهولندية والانكليزية (الولايات المتحدة وانكلترا) والتشيكية والإسبانية والبرتغالية (البرازيل) والبولونية واليابانية (المقدمة الألمانية للاب كارل كاهنر).
- نحو حتمية التاريخ. المركز البروتستانتي للدراسات، جنيف ١٩٧٣.
- الإسلام الحي. دار الكتاب. الجزائر ١٩٨٦.
- أصوليات. مطبوعات بير بيلفون. ترجم إلى العربية والتركية والإسبانية ١٩٩٠.
- هل نحن بحاجة إلى الله. مقدمة بقلم الراهب بيير. مطبوعات "ديكليه دي بروار" ١٩٩٣. تُرجم إلى الإسبانية والهولندية.

٤ ـ الأخلاق.

- الماركسية والأخلاق. المطبوعات الاجتماعية ١٩٤٨ ، تُرجم إلى البولونية والإيطالية.
- ما الأخلاق الماركسية. المطبوعات الاجتماعية ١٩٦٣ ، ترجم إلى الإسبانية (كوبا).
- الإنسانية الماركسية. المطبوعات الاجتماعية ترجم إلى الروسية والرومانية والمنغارية والإسبانية (الأرجنتين).

٥ ـ علم الجمال.

- مسار آراغون: من السريالية إلى العالم الواقعي. غاليمار ١٩٦١. ترجم إلى المنغارية. من أجل واقعية للقرن العشرين. دراسة عن فيرنان ليجيه غراسيه ١٩٦٨.
- واقعية بلا ضفاف. دار بلون ١٩٦٤. تُرجم إلى ثلاث عشرة لغة: البولونية والمنغارية واليونانية والإسبانية (الأرجنتين وكوبا) والهولندية والتشيكية واليوغسلافية واليابانية والرومانية والألمانية والتركية والبرتغالية والروسية (مقدمة لويس آراغون).
- لنرقص حياتنا مطبوعات "سوي" ١٩٧٣. ترجم إلى الإيطالية والبرتغالية والهولندية والإسبانية والفارسية واليونانية (مقدمة موريس بيجار).
- ٦٠ عملا تبشّر بالمستقبل. مطبوعات "سكيرا" جنيف ١٩٧٤.
- الجامع: مرآة الإسلام. مطبوعات جفوار، باريس ١٩٨٥. طبع باللغات الثلاث الفرنسية والعربية والانجليزية. مع ١٥٠ صورة ملونة.

٦ ـ حوار الحضارات.

- الإسهام التاريخية للحضارة العربية الإسلامية. الجزائر ١٩٤٦ ، تُرجم إلى العربية.
- المشكلة الصينية، مطبوعات سيغير ١٩٦٧. ترجم إلى التشيكية والإيطالية والصربية والبرتغالية (البرازيل) والألمانية والمنغارية واليابانية.
- من أجل حوار الحضارات مطبوعات دينويل، ترجم إلى العربية والتركية والإسبانية والإيطالية والبرتغالية والألمانية.
- كيف يصبح الإنسان إنسانيا. مطبوعات افريقيا الشابة ١٩٧٨.
- وعود الإسلام. مطبوعات سوي ١٩٨١ ، ترجم إلى العربية والبرتغالية (البرازيل) والأندونيسية والإسبانية والتركية والألمانية.
- قضية اسرائيل، مطبوعات بابيروس ١٩٨٣. تُرجم إلى العربية والألمانية والإيطالية.
- فلسطين أرض الرسالات الإلهية. مطبوعات "الباتروس" باريس ١٩٨٦ ، تُرجم إلى العربية والإسبانية والإيطالية.
- الإسلام في الغرب: قرطبة إحدى عواصم الفكر، مطبوعات هارتمان ١٩٨٧. ترجم إلى الإسبانية.

٧ ـ أبحاث حول ابتكار مستقبل ذي وجه إنساني.

- استعادة الأمل، مطبوعات غراسيه ١٩٧١. ترجم إلى الهولندية والبرتغالية والإيطالية والإسبانية واليونانية.

- الخيار. مطبوعات روبير لافون ١٩٧٢. تُرجم إلى الألمانية، الإسبانية (فنزويلا واسبانيا)، الهولندية، الإنكليزية، الإيطالية، البرتغالية، السويدية واليونانية.
- مشروع الأمل، مطبوعات روبير لافون ١٩٧٦. ترجم إلى الإيطالية والبرتغالية والإسبانية والألمانية.
- ماقولك بما أنا؟ رواية. مطبوعات سوي ١٩٧٨. ترجم إلى البرتغالية والعربية والإيطالية والهولندية والألمانية.
- عهد الرجال: مطبوعات روبير لافون. ترجم إلى الإيطالية والإسبانية والفنلندية واليونانية والبرتغالية (البرتغال والبرازيل) والألمانية والهولندية واليابانية والعبرية.
- نداء إلى الأحياء. مطبوعات سوي ١٩٧٩. ترجم إلى الألمانية والدانماركية والبرتغالية والإسبانية والإيطالية والعربية والتركية والكاتالانية.
- مايزال في الوقت متسع للعيش. مطبوعات ستوك ١٩٨٠. تُرجم إلى البرتغالية (ليشبونه والبرازيل).
- من أجل مجيء المرأة. مطبوعات أليان ميشيل ١٩٨١. ترجم البرتغالية والعربية والألمانية والإسبانية.
- ترجمة القرن العشرين. وصية روجيه غارودي الفلسفية. مطبوعات توغي، باريس ١٩٨٥. ترجم إلى الإسبانية (مدريد). مقدمة الأب "شينو".
- من أجل إسلام القرن العشرين. مطبوعات توغي، باريس ١٩٨٥. طُبع باللغات الثلاث: الفرنسية والعربية والانجليزية.
- في معاكسة الليل (قصيدة). مقدمة "صلاح ستيتية". مطبوعات لور، لوزان ١٩٨٧.
- جولتي في القرن وحيداً "مذكرات". مطبوعات روبير لافون باريس ١٩٨٩. ترجم إلى الإسبانية.
- إلى أين نذهب؟. مطبوعات ميسيدور، باريس ١٩٩٠. ترجم إلى الألمانية.
- حفار القبور. مطبوعات ارشيبل باريس ١٩٩٢.
- الإسلام. ت. وجيه أسعد - دار عطية للنشر - بيروت ١٩٩٦.
- نحو حرب دينية ت. صياح الجهيم - دار عطية للنشر - بيروت ١٩٩٦.
- الأساطير المؤسسة للسياسة الاسرائيلية ت. حافظ جمالي وصياح الجهيم - دار عطية للنشر - لبنان ١٩٩٦.
- أمريكا طليعة الانحطاط. ت. صياح جهيم وميشال خوري - دار عطية للنشر - بيروت /١٩٩٨/.

ثانياً: دراسات حول أعمال روجيه غارودي

* في فرنسا

- ر.ب. كوبتيه: مسيحيون وماركسيون. حوار مع روجيه غارودي. مقدمة الأب "شينو" /١٩٦٧/.
- سيرج بيروتيتو: غارودي. مطبوعات سيغير، مجموعة: فلاسفة جميع الأزمنة، باريس ١٩٦٩. ترجم إلى الإيطالية والبرتغالية والإسبانية.
- كلود غليمان: غارودي بقلم غارودي. مطبوعات الدائرة المستديرة. باريس ١٩٧٠. تُرجم إلى اليابانية.
- أندريه دوبليكس: اشتراكية روجيه غارودي والمشكلة الدينية. مطبوعات بريفا تولوز /١٩٧١/.
- روبير غولون: المسار الروحي لروجيه غارودي (أطروحة جامعة ميتز ١٩٨٥.
- ر. غيرلاند: غارودي والتوسير: المطبوعات الجامعية الفرنسية. باريس ١٩٩٣.

* في ألمانيا

- ولفغانغ جيجر: غارودي وحوار الحضارات (أطروحة). جامعة فرانكفورت ١٩٨٤.

* في بلجيكا

- سالم بستروس: الاشتراكية والمسيحية وتحرر الإنسان في فكر غارودي (أطروحة لاهوتية). جامعة لوفان ١٩٧٦.
- مارك بيجوفيه: ماركسية القرن العشرين والحوار مع المسيحيين لدى غارودي (أطروحة). جامعة لييج.

* في مصر

ـ أميته عاوي وعبد العزيز شرف: روجيه غارودي والإسلام. مقدمة شيخ الأزهر، الشيخ أحمد حسن الباقوري، مدير مؤسسة الدراسات الإسلامية في القاهرة، ورئيس التجمع العالمي للشباب المسلمين. دار مصر للطباعة، القاهرة ١٩٨٤. بالعربية.

ـ منال سلطان: فكر غارودي من١ ١٩٨٠ (أطروحة)، الاسكندرية ١٩٩٠.

* في إسبانيا

ـ الأب أنتونيو ماتابوش: روجيه غارودي وبناء الإنسان. الأرض الجديدة برشلونة ١٩٧١.

ـ جوزيه ماريا اكويرا اورا: موقف غارودي من الدين (أطروحة). جامعة فيتوريا ١٩٧٥.

ـ سانتياغوس. روبت فيرنانذير: اللـه والدين في حياة روجيه غارودي وفكره (أطروحة)، كلية الفلسفة. برشلونة ١٩٨٠.

* في الولايات المتحدة الأمريكية

ـ روسيل برادنر نوريس: اللـه وماركس والمستقبل. حوار مع روجيه غارودي، مطبوعات فورتريس ١٩٧٤.

* في هولندا

ـ شانتال ليتيرم: الأغراض الدينية في عمل غارودي (أطروحة)، لوفان ١٩٧٢.

ـ س. سميث: روجيه غارودي والمسيحيون. كلية اللاهوت في نيميغ ١٩٧٦.

ـ أ. فانوستفين: اللـه هو الإنسان. تطور روجيه غارودي. كلية اللاهوت في أمستردام.

ـ بوب فان جيسين. غارودي والمادية المسيحية (أطروحة)، ١٩٨٤.

* في إيطاليا

ـ جيولانا مارتون: الاستلاب الديني ونتائجه الأخلاقية والفكرية لدى روجيه غارودي (أطروحة فلسفية)، جامعة بادو ١٩٦٩ ـ ١٩٧٠.

ـ مارتاليفا: فكر روجيه غارودي السياسي (أطروحة فلسفية)، جامعة بادوا ١٩٧٠ ـ ١٩٧١.

ـ كوزيمو كوبولي: التعددية والحوار في فكر غارودي (أطروحة فلسفية)، جامعة ليتشي ١٩٧٢ ـ ١٩٧٣م.

ـ دينو مانفران: روجيه غارودي ومشكلة الحرية. كلية الاجتماع في ترانت ١٩٧٤.

ـ فرانسيسكا برانزيغالي: علم الجمال لدى غارودي (أطروحة)، جامعة بادو ١٩٧٤.

ـ ايتالوا ليني: روجيه غارودي: ماركسي من القرن العشرين. (أطروحة)، جامعة بيزا /١٩٧٤/.

ـ مانويل باغولا: الذاتية والتعالي في فكر روجيه غارودي (أطروحة)، جامعة لاتيرانيسيس، روما ١٩٧٤.

* في البرتغال

ـ م. ف. برانكو: حوار مع روجيه غارودي. لشبونة ١٩٧٩.

* في الاتحاد السوفياتي

ـ موندجيان: المرتدّ غارودي. مطبوعات أكاديمية العلوم، موسكو ١٩٧٣.

* في يوغسلافيا

ـ زدرافكو مونيسيك: أبحاث غارودي الفلسفية. مطبوعات سلوفو، بلغراد ١٩٧٢.

* في زائير

ـ لامياتيوا: الأسس الفلسفية لاشتراكية روجيه غارودي من أجل إعادة النظر في الاشتراكية الافريقية (أطروحة). جامعة لوبومباشي ١٩٨٧.

دار عطية للنشر
لبنان ـ ضبيه ـ هاتف ٦٢٠٣٩٩ / ٠٣ ـ ص.ب ٢١٣ ـ ١٢